ماري وِلسُن

عبد الله وشرق الأردن

بين بريطانيا والصهيونية

ترجمة: فضل الجراح

عبد اللّه وشرق الأردن بين بريطانيا والصهيونية

عبد الله وشرق الأردن، بين بريطانيا والصهيونية

تأليف: ماري وِلسُن

ترجمة: فضل الجراح

مراجعة: ماري وِلسُن

الإخراج: مؤسسة سندباد

الطبعة الأولى: 2000 م

شركة قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش. م. م)

لبنان ـ بيروت ـ ص.ب: 113/6435

الحمرا ـ شارع البصرة (بناية قرطاس)

هاتف: 750054 (1-961+)

فاكس: 750053 (1-961+)

بريد إلكتروني: cadmus@inco.com.lb

Published by the Press Syndicate of the University of Cambridge
The Pitt Building, Trumpington Street, Cambridge C132 I RP
40 West 20th Street, New York, NY 10011, USA
10 Stamford Road, Oakleigh, Melbourne 3166, Australia

First published 1987
First paperback edition 1990

Printed in Great Britain at the University Press, Cambridge

British Library cataloguing in publication data
King Abdullah, Britain and the making of Jordan
(Cambridge Middle East library).
1. Abdallah, King of Jordan 2. Jordan -
Kings and rulers - Biography
I. Title
956.95'04'0924 DS154.53

Library of Congress cataloguing in publication data
Wilson, Mary C. (Mary Christina), 1950 -
King Abdullah, Britain, and the making of Jordan.
(Cambridge Middle East Library)
Bibliography
Includes index.
1 Jordan - History. 2. Abdallah, King of Jordan,
1882-1951. I. Title. II Series.
DS154.5.W54 1987 956.94 87-6649

ISBN 0 52132421 1 hardback
ISBN 0 52139987 4 paperback

فهرس المحتويات

(*) رسمها زياد منى اعتماداً على الرسوم في النسخة الإنجليزية الأصلية.

شكر وتقدير

يطيب لي أن أعبّر عن صادق امتناني للأفراد والمؤسسات التي جعلت هذا الكتاب ممكناً. وحجر الأساس لجل ما هو ممكن في دنيا البحث العلمي، كما في العوالم كلها، هو الدعم المادي، مما يدفعني بادئ ذي بدء إلى تقديم الشكر لكل من عائلتي ومركز الشرق الأوسط بكلية القديس أنطوني، وصندوق جامعة أكسفورد، ولجنة جامعة أكسفورد للدراسات العليا وكلية القديس أنطوني ولجنة الدراسة العليا بجامعة أويرِلَين، ومجلس بحوث العلوم الاجتماعية، لما قدّمته لي من دعم مالي سخي. وكذلك فإنني أشكر كلاً من ناظر كلية القديس أنطوني وأعضاء مجلس إدارتها ومدراء مركز الشرق الأوسط في أكسفورد: دِرِك هبورد وروبرت مابرو وروجر أوين ومصطفى بدوي، ومدير مركز الدراسات الشرق أوسطية بجامعة هارفارد محسن مهدي، ومعاونه دنيس سكيوتيس الذين جعلوا تلك المؤسسات مراتع سارة وملائمة للدراسة والنقاش خلال سني عملي معهم.

وثمة بعد ذلك العديد من أولئك المجهولين في الغالب ممن يضطلعون بمهمة الاهتمام بالمحفوظات ومجموعات الأوراق الخاصة، ويتولون إرشاد الباحث الوحيد، عبر زحمة عشرات الآلاف من الاحتمالات إلى المعلومات المفيدة. وعلى هذا الصعيد فإنني أشكر خصوصاً العاملين في مكتب السجل العام بلندن، والسيد فيليب مع العاملين في المحفوظات الصهيونية المركزية، والعاملين في محفوظات الدولة الإسرائيلية، والسيدة جِلّ بترووث في المحفوظات السودانية بجامعة درهام ديانا غْرِمْوود ـ جونز العاملة السابقة في

محفوظات الشرق الأوسط في أكسفورد. أمّا غِليان غرانت المسؤولة الحالية عن المحفوظات في مركز الشرق الأوسط في أكسفورد، فقد كانت مفتاحاً لتجميع الصور الضوئية التي وردت في هذا المؤلف. ويسرني أيضاً أن أشكر رِتشارد إم. دوغلاس على عمله التصويري. أضف إلى ذلك أنني ما كنت لأستطيع أن أفعل إلا القليل في المحفوظات الصهيونية المركزية لولا مساعدة كل من سليمان بشير ومالك قبطي؛ اللذين قاما بترجمة مئات الوثائق من العبرية إلى الإنجليزية. أمّا فرانك ستيوارت فقد لفت نظري إلى كتاب مندل كوهين: بي هتسر هملخ عبد الله كما ترجم جزءاً منه. كما أن حسن كيّالي اهتدى في أثناء دراسته للعلاقات العثمانية ـ العربية قبل الحرب العالمية الأولى إلى نص الإرادة [السلطانية] المتضمن تعيين الشريف حسين شريفاً وشاركني العلم به.

ولقد أجريت العديد من المقابلات، وأنا شديدة الامتنان لأولئك الذين أبدوا قدراً كبيراً من الكرم والسخاء في إعطائي أوقاتهم وذكرياتهم. وقد أوردتُ قائمة أبجدية بأسمائهم في ثبت المراجع. وأشعر بامتنان خاص لكل من ولي العهد الأمير حسن، والأميرة وجدان، وسليمان موسى ووداد قعوار وريتا والمرحوم محمد الغول، وموشيه ماعوز ومنيرة سعيد إزاء ما أبدوه من كرم ضيافة، وما قدموه من مساعدة لطيفة في الترتيب للمزيد من اللقاءات مع أصدقائهم ومعارفهم. إني ممتنة أيضاً لزينة قعوار على ما قدمته لي من مساعدة في إجراء المقابلات بالعربية، ولجيم بل لغوصه في برقياته الأصلية المرسلة إلى مجلة (تايم) عن اغتيال عبد الله، ولروجر لويس على سماحه لي بالاطلاع على فصول من كتابه: **الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط** (1945 ـ 1951 م): **القومية العربية والولايات المتحدة وإمبريالية ما بعد الحرب** قبل نشره.

وأشكر أيضاً كلاً من شقيق زوجي جورج خوري ونديم بيبي؛ اللذين تحملا بصبر عناء الترتيب لجميع أسفاري، وكلاً من اليزابيث بطرس وجون

باركين ومانكا داولينغ على استضافتهم الكريمة لي خلال رحلاتي البحثية العديدة إلى لندن. وكذلك فإنني مدينة لأصدقائي وزملائي الذين قرؤوا وانتقدوا مخطوطتي كلياً أو جزئياً؛ مثل فيروز أحمد وغلن بلفور - باول وحنا بطاطو وإلن فِتزباترك ووليد الخالدي، وجون ماك وباسم مسلم وروجر أوين وبول سابا وبيلي ويندر، ولكل من محررتي اليزابيث وتون ومساعدتها هيلاري غاكسين في كمبردج ولناسختي مِليندا غيدن. وبشكل يفوق الجميع دفئاً يطيب لي أن أعبر عن عميق امتناني لكل من ألبرت حوراني والمرحومة اليزابيث مونرو اللذين وهباني دون أي تردد أوقاتهما وأفكارهما وصداقتهما على امتداد سنوات هذه الدراسة، جنباً إلى جنب مع عدد كبير من المسودات.

أخيراً أنا مدينة لأمي نورما وِلْشن لأنها دعمتني وآمنت بي، ولحموي أنجيلا والمرحوم شكري خوري على اهتمامهما الدؤوب أيضا بعملي. أما زوجي العزيز فيليب خوري فأنا مدينة بدين خاص من العرفان لنصائحه الجمّة كمؤرخ متخصص في هذه الحقبة وذاكرة لصبره ورحابة صدره عبر أنواء البحث والتأليف.

1) مدخل

تلبية لدعوة الحكومة البريطانية التي كانت راغبة في التفاوض حول إدخال بعض التعديلات الثانوية على المعاهدة الأنجلو - شرق أردنية المعقودة قبل عامين، أوفد ملك الأردن عبد الله[1] في كانون الثاني من عام (1948 م) إلى لندن كلاً من رئيس الوزراء ووزير الخارجية وقائد الجيش. على الأقل كان ذلك هو السبب المعلن للزيارة. أما السبب الرئيسي وغير المعلن فلم يكن، على أية حال، صعب التخمين. لقد كان الأمر متعلقاً بفلسطين.

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ظل مستقبل فلسطين القضية المنفردة الأهم والأصعب المنتصبة أمام بريطانيا في الشرق الأوسط، بوصفها مشكلة منطوية على خطر نسف مكانة بريطانيا في المنطقة، وقادرة في الوقت نفسه، على الإطاحة بحلفائها الذين كان عبد الله أحدهم.

استهدفت رحلة الموظفين الثلاثة: الشرق أردنيين والقائد البريطاني للفيلق العربي غلوب باشا، إلى لندن، تحديد دور شرق الأردن في عملية رسم مستقبل فلسطين. فالخطوط العريضة لهذا المستقبل كانت مؤخراً قد اجتُرحت في الأمم المتحدة التي أوصت بتقسيم البلاد بين الجاليتين العربية واليهودية المتخاصمتين. ولكن بريطانيا لم تكن تريد أن تتحمل مسؤولية فرض تقسيم الأرض المقيت وحمايته، فأعلنت اعتزامها التخلي عن الانتداب والانسحاب من فلسطين كلها مع حلول يوم 15 أيار (1984 م). غير أنها، على عزوفها المحتمل عن تنفيذ عملية التقسيم، ما كانت لتستطيع التجرد الكامل من الاهتمام بمستقبل هذه البلاد. فمن شأن كل ما قد

يحدث في فلسطين، سواء أنفضت يدها من خطة تقسيم الأمم المتحدة أم لا، أن يُعزى إليها هي، لأنها حكمت هذه البلاد مدة خمس وعشرين سنة في ظل الانتداب.

كان هدف بريطانيا في فلسطين واضحاً. لقد أرادت أن تنسحب دون خسائر في الأرواح وبطريقة تمكّنها من الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من القوة والنفوذ. ولكن البريطانيين لم يعودوا، بعد إعلانهم عن اعتزام التخلي عن الانتداب والشروع بعملية الانسحاب، قادرين على التحكم بمجرى الأحداث كما كانوا يفعلون من قبل. ولعل ذلك هو السبب الكامن وراء تطور السياسة البريطانية كما لو كانت سلسلة من الخطوات الانتقالية المؤقتة المتجاوبة مع الظروف، بمقدار ما كانت سياسة مرسومة بوضوح.

كانت بريطانيا شديدة الاهتمام بما ستؤول إليه مصائر المناطق الفلسطينية التي وصفتها الأمم المتحدة بالعربية. ومن المؤكد أنها كانت تفضل رؤية الأردن وهو يستولي على هذه المناطق على رؤية خلق دولة فلسطينية، أملاً في تحقيق أسهل شكل ممكن من أشكال انتقال السلطة، وفي تسليم زمام الأمر لحليف مضمون. فما إن طلب رئيس وزراء شرق الأردن توفيق أبو الهدى اجتماعاً مغلقاً، مستبعداً حتى وزير خارجيته، لمناقشة هذا الموضوع الحساس، حتى سارع وزير الخارجية البريطاني إرنْستْ بيفن إلى الموافقة على الطلب. وفي الحادية عشرة والنصف من صباح السبت الواقع في السابع من شهر شباط اجتمع الرجلان. صحيح أن أي محضر لما دار في الاجتماع لم يُسجل نظراً لحساسية موقفي الطرفين كليهما، غير أن غلوب باشا الذي طُلب منه تولي مهمة الترجمة، والذي كان الشخص الثالث الوحيد في الاجتماع، ما لبث أن كتب فيما بعد يقول: إن بيفن علق موافقاً على كلام توفيق أبو الهدى عن اعتزام شرق الأردن إرسال جيشه إلى داخل فلسطين بعد الخامس عشر من أيار قائلاً: «إنه الشيء الواضح الذي يمكن القيام به» على ما يبدو. غير أنه حذّر توفيق من غزو المناطق المخصصة للدولة اليهودية الناشئة.[2]

ومثل هذا التفاهم لم يكن إلا تحقيقاً لحلم طالما راود الملك عبد الله الذي كان رجلاً طموحاً، بل ومبالغاً في طموحه برأي البعض. وبما أن جيش شرق الأردن المعروف باسم الفيلق العربي كان معتمداً على الضباط البريطانيين في المواقع الأساسية، وعلى الأسلحة والتجهيزات البريطانية، إضافة إلى تعويله الكامل على التمويل البريطاني في تسديد نفقاته، فإن الملك كان عاجزاً عن أن يحلم بتجريد أية حملة مناقضة لرغبات بريطانيا. وعلى الرغم من أن الأجزاء العربية من فلسطين التي كان سيتمكن من إلحاقها بمملكته كانت صغيرة بالمقارنة مع أحلامه التوسعية، فإن عبد الله لم يعتبر هذه الحيازة هدفاً بذاته، بل نظر إليها على أنها الخطوة الأولى على طريق تجميع أجزاء أخرى من العالم العربي تحت وصايته، وراح يسوّغها بوصفها المرحلة الأولى من مراحل تحقيق وحدة عربية أوسع.

لقد شكل هذا التفاهم مع بيفن خروجاً على علاقات عبد الله المألوفة ببريطانيا. صحيح أن هذه العلاقات كانت تتسم، رغم عدم خلوها من التوتر بين الحين والآخر، بحميمية فريدة لم يكن لها أي نظير في أي مكان آخر في الشرق الأوسط، ولكن بريطانيا لم يكن قد سبق لها، مع ذلك، أن أيدت طموحات عبد الله فيما وراء الحدود طوال سبعة وعشرين عاماً من الانخراط الحميمي في شؤون شرق الأردن.

فالترابط الوثيق بين عبد الله وبريطانيا، في إطار شرق الأردن، لم يكن إلا نتاج منافع متبادلة، حيث كان مجرد وجود شرق الأردن كدولة منفصلة يلبي حاجات بريطانيا الاستراتيجية والسياسية من جهة؛ في حين كان ارتباط عبد الله ببريطانيا وموقعه كحجر زاوية في الجسر القائم بين سلطة الانتداب البريطاني والمجتمع المحلي، هما اللذان أديا إلى رفعه ووضعه فوق مستوى القيادات المحلية من الجهة المقابلة. وفيما يخص المصالح البريطانية كان عبد الله مفيداً بوصفه (الواجهة الوطنية) التي كانت بريطانيا تستطيع أن تضمن مصالحها وراءه دون إثارة أية معارضة مزعجة.[3]

غير أن المنافع المتبادلة لم تكن على أية حال، لتعني التكافؤ. فعبد الله، بنظر بريطانيا، لم يكن إلا واحدة من حلقات سلسلة الحلفاء والمتمتعين بالحماية الممتدة من مصر إلى إيران، والتي كانت تضمن بقاء مواقع التفوق والسيادة الإجمالية لبريطانيا في المنطقة. صحيح أن الصورة ما كانت لتكون بهذا الصفاء دونه (عبد الله)، ولكن بريطانيا كانت ستظل قادرة وبكفاءة على حماية مصالحها ومكانتها. أما بالنسبة لعبد الله فإن بريطانيا كانت مصدر الدعم الهام الوحيد الذي أتاح له فرصة النجاة من سلسلة الانتفاضات والهجمات القبلية في العشرينيات، وأبقى إدارته طافية على السطح رغم غياب الأصول القابلة لتحصيل الضرائب في شرق الأردن نفسه. وبالتالي فإن الإنصاف والعدل يقضيان بإقرار حقيقة أن كلاً من عبد الله وشرق الأردن في سنوات تشكله ما كانا، كلاهما، سيبقيان موجودين لولا بريطانيا.

كان عبد الله عميق الإحساس بالخلل الناجم عن اعتماده على بريطانيا. كان هذا الخلل يقض مضجعه؛ وقد ترك، مع السنين، بصمات واضحة على شخصيته. فجوليان هوكسلي الذي زار عمان في مهمة للأمم المتحدة في نيسان من عام (1948 م) وجده: «رجلاً ذا دهاء غريب، يرقى أحياناً إلى مستوى الحكمة؛ دهاء قائم على الجمع بين شيء من الذكاء الفطري، وقدر معين من السذاجة، وبعض المكر المعقول؛ دهاء... ما كان ليستطيع أن يتطور إلا في ظروف شبيهة بظروفه ـ حيث يحتل موقعاً للسلطة، ولكنه ألعوبة بيد قوى خارجية أعتى...».[4] وطوال الجزء الأكبر من حياته السياسية ظل عبد الله يبحث عما من شأنه أن يمكّنه من إصلاح ذلك الخلل. ولكن العلاج لم يكن كامناً في مجرد الاستقلال لأن مملكة عبد الله، كما تم إيجادها في عام (1921 م)، كانت لا تضم إلّا (230000) نسمة،[5] بلا مدينة حقيقية واحدة، وبلا موارد طبيعية، ودون أية أهمية تجارية، عدا كونها معبراً صحراوياً. وباختصار لم يكن هناك ما يدعو لأن

تكون دولة بذاتها بدلاً من أن تشكل جزءاً من سورية، فلسطين، العربية السعودية، أو العراق، اللهم إلا إذا كان بقاؤها على حالها ملبياً لمصالح بريطانيا. وعلى الرغم من أن سكان المملكة زادوا، واقتصادها توسع بعض الشيء خلال فترة الانتداب، فإن قاعدة مواردها البشرية والمادية لم تشهد أي تغيير ذي شأن. وبالتالي فقد كان من شأن الاستقلال الذي قد يمكن عبد الله من التحرك بحرية بعيداً بريطانيا، أن يبقيه، للأسباب ذاتها، تحت رحمة جيرانه. وبالفعل فإن عبد الله ما لبث، حين وافقت بريطانيا على الاستمرار في تقديم الدعم المالي للفيلق العربي بعد حصول شرق الأردن على الاستقلال الرسمي في عام (1946 م) رغم موافقة العراق السابقة على سد الثغرة عند الضرورة، أن تنفس الصعداء.[6]

لم يكن ذلك كافياً؛ فعلاج الخلل الناجم عن اعتماد عبد الله على بريطانيا كان كامناً في أمور أخرى. تعين عليه، أولاً: أن يوسع دائرة حكمه إلى ما وراء حدود شرق الأردن، في سبيل توفير قدر أكبر من الموارد البشرية والمادية. كما تعين عليه، ثانياً: أن يخلق توازناً إقليمياً للقوى تكون فيه مصلحته الذاتية، إضافة إلى مصلحة بريطانيا كامنة في استمرار وجود شرق الأردن واستقراره. لقد توجب عليه، باختصار، أن يزيد من موارده الداخلية وينوع مصادر دعمه الخارجي في سبيل تجنب الوقوع تحت هيمنة أي منهما.

منذ لحظة وصوله إلى عمان في آذار من عام (1921 م) ظل خيال عبد الله يراقص أراضي البلدان المجاورة: سورية والعراق والعربية السعودية. فغايته لدى مجيئه إلى عمان لم تكن عمان ذاتها بالدرجة الأولى، بل دمشق. فالتحالف بين أبيه، شريف مكة، وبريطانيا في الحرب العالمية الأولى، الذي تمخض عن الثورة العربية، لم يحمل الثمار المرجوة لا بالنسبة لأسرته، ولا بالنسبة للعرب عموماً، إذ لم يُسمح بقيام مملكة عربية مستقلة، بل جرى، بدلاً من ذلك، اقتسام الأقاليم العربية السابقة في الإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا وإخضاعها للانتداب.

ولتحدي التقسيمات المفروضة بعد الحرب زحف عبد الله من مسقط رأسه مكة نحو الشمال. ولكنه ما لبث أن تحول إلى أحد أطراف هذه التقسيمات تحت تأثير ونستون تشرتشل، وزير المستعمرات البريطاني، الذي أغواه بالبقاء في عمان عبر تقديم وعد ضبابي بأن بريطانيا نفسها ستساعده، بين أشياء أخرى، على التقدم والوصول إلى دمشق.[7] غير أن هذا الوعد لم يتحقق أبداً. فالفرنسيون أولاً وأكثرية السوريين أنفسهم ثانياً كانوا شديدي المعارضة لفكرة احتضان عبد الله كحاكم. وكذلك فإن أحلامه بالوحدة مع العراق الخاضع لحكم ابن أخيه بعد موت أخيه فيصل، وباستعادة ميراث عائلته في الحجاز الذي كان ابن سعود قد أتم إخضاعه في أعوام (1924 - 1926 م) كانت قد ذهبت أدراج الرياح. فبعد البروز كحكومات مستقلة في دول منفردة، لم يعد أي نظام آخر في العالم العربي مستعداً عن طيب خاطر لإخضاع نفسه لعبد الله ولو في سبيل الوحدة العربية. أضف إلى ذلك أن عبد الله، نظراً لعلاقته الحميمة مع بريطانيا في شرق الأردن، لم يكن قادراً على الظهور بمظهر القائد القومي المقنع والمؤهل لمخاطبة الجمهور العربي الواسع. ومن جهة أخرى فقد كان لبريطانيا في المنطقة حلفاء آخرون، وكان من شأن دعمها لتطلعات عبد الله التوسعية أن يلحق الضرر بالمصالح البريطانية بدلاً من أن يخدمها.

ومع حلول عام (1948 م) لم يكن عبد الله قد حقق أياً من أهدافه. فشرق الأردن، رغم أنه بات مستقلاً من حيث الشكل، ظل، كحاله على الدوام، مديناً لبريطانيا بالدعم على مختلف الأصعدة المالية والعسكرية والدبلوماسية. حتى ذلك الدعم بات يبدو مؤقتاً وعابراً مع شروع نفوذ بريطانيا الإمبريالي بالتقهقر والتراجع على المستوى العالمي. ولدى الإعلان عن خطط بريطانية تقضي بالانسحاب من فلسطين، أحس عبد الله بالرعب خوفاً من أن تسارع بريطانيا إلى الكف عن الاهتمام بشرق الأردن، هو الآخر، وصولاً إلى العزوف عن الرغبة في الحفاظ عليه.[8] ولكن البريطانيين

الرسميين بذلوا جهوداً كبيرة لتهدئة مخاوفه وطمأنته قائلين إن من شأن الانسحاب من فلسطين، على النقيض مما يتصوره، أن يجعل شرق الأردن أكثر، لا أقل، أهمية بالنسبة لوضع بريطانيا في الشرق الأوسط. وقد كان هؤلاء الرسميون صادقين، في المدى القصير، على الأقل؛ أما في المدى الطويل فإن عبد الله هو الذي كان على صواب في توجسه. فالصعود الإمبريالي لبريطانيا كان يتبدد إلى غير رجعة، وبالتالي فإن شرق الأردن لن يعود قادراً على التعويل على الدعم البريطاني إلى الأبد. صحيح أن عبد الله كان تواقاً، من ناحية، للتحرر من القيود البريطانية، غير أن استبدال الدعم البريطاني، وسبب وحود الاهتمامات الاستراتيجية البريطانية بصورة ميسرة كان، من ناحية ثانية، أمراً متعذراً.

ومع تعرض النفوذ البريطاني للوهن كانت أنظمة بديلة، أوجدتها بريطانيا أو هي لصالحها بأكثريتها، تنتظر للحلول محل بريطانيا في سائر الدول العربية الخاضعة للانتداب، عدا فلسطين التي أفضى فيها الانتداب البريطاني المضطرب إلى السماح بإيجاد وكالة يهودية كانت مهيأة وتواقة للبروز كحكومة دولة، ولكن دونما نظير يوازيها على الطرف العربي من المعادلة. وقد أدى هذا الإخفاق الذي زاد من وطأته جراء نسف القيادة الفلسطينية، والإجهاز عليها في سنوات الصراع العقيم مع بريطانيا، إلى إعطاء عبد الله فرصته.

وهكذا فإن اتفاق عام (1948 م) شكل منعطفاً حقيقياً بالنسبة لعبد الله شخصياً، وبالنسبة لوضع شرق الأردن في المنطقة، وبالنسبة للعلاقة الانجلو - شرق أردنية. فعبد الله كان قد بلغ السادسة والستين من العمر، ولم يكن ثمة كثير من الوقت يحقق فيه طموحاته وفق أي من المعايير. وكذلك فإن رمال الزمن كانت تتسرب وتتلاشى فيما يخص ميزان القوى الإقليمي الخاضع لسيطرة بريطانيا، ذلك الميزان الذي ظل إلى ذلك التاريخ ضامناً لاستمرار بقاء شرق الأردن. إن تراجع النفوذ البريطاني الذي أتاح لعبد الله

فرصة الحلول محل بريطانيا في جزء من فلسطين على الأقل، فرض عليه أن يفعل ذلك في سبيل الاهتداء إلى كوكبة جديدة من القوى الإقليمية والدولية لضمان استمراره هو ودوام مملكته بعد أن تغيب بريطانيا.

لقد أطلق انسحاب بريطانيا من فلسطين تلك العملية التي مكنت عبد الله، آخر المطاف، من توسيع مملكته. وعبر هذا التوسيع تحول شرق الأردن إلى الأردن واهتدى إلى علة وجود جديدة، وإلى توازن إقليمي جديد للقوة سمح له بالنجاة من فوضى عقد الخمسينيات وزوال الهيمنة البريطانية. ومع أنه لم يعش ليرى تطور ذلك النظام الجديد، فإن عبد الله كان هو الذي قام، أخيراً فعل أم شراً، بإرساء أساسه.

بسبب ظروف الزمان والمكان ظل نبض حياة عبد الله متناغماً مع تنامي قوة بريطانيا ونفوذها في المنطقة وتلاشيهما. فقد تزامن ميلاده في عام (1882 م) مع احتلال بريطانيا لمصر، وبلغ سن الرشد مع انهيار الإمبراطورية العثمانية أخيراً تحت تأثير الضغوط الخارجية والداخلية ـ ضغوط مارستها بريطانيا مع قوى أخرى خارجياً، وجماعات معارضة ومستاءة، بينها عبد الله وأسرته داخلياً. وفي أعقاب انهيار الإمبراطورية العثمانية، وحين كانت بريطانيا في أوج نفوذها في المنطقة أصبح الرجل وهو في منتصف العمر صنيعة بريطانيا حين قبل بتولي قيادة شرق الأردن الخاضع للانتداب البريطاني. وخلال سنوات شحوب «اللحظة البريطانية في الشرق الأوسط»[9] أخيراً، حين لم يعد دوام نفوذ بريطانيا أكثر من أصداء ماضية قضى [عبد الله] نحبه صدى للأحداث التي كانت قد كلفت بريطانيا مكانتها في فلسطين، نفسها.

ظلت عملية تداخل مصالح عبد الله مع مصالح بريطانيا مستمرة طوال سني حياة الأول كلها. فحتى قبل ولادته، كانت ظاهرة اتساع المصالح البريطانية في الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر، جنباً إلى

جنب مع عملية المركزة والتشدد المتنامين في الإمبراطورية العثمانية، والغريزة الحمائية لدى نخبة عربية تواقة للحفاظ على مكانتها ونفوذها في إطار الإمبراطورية، قد أدت إلى تحريك المياه الراكدة. وبما أن أسرة عبد الله كانت جزءاً من النخبة العربية، فإن قصة تزاوج مصالح بريطانيا الإمبريالية مع مصالح عبد الله الشخصية تبدأ في مكة، ومع اغتراب الأخيرة المتزايد عن إسطمبول.

2) بين مكة وإسطمبول

غالباً ما يوصف عبد الله في الشرق الأوسط كما في الغرب بأنه بدوي. وهذه الفكرة مستمدة من النصف الثاني لحياته حين أصبح تاريخه الشخصي متداخلاً بعملية خلق شرق الأردن وأصبح يُنظر إليه، كما بات هو نفسه ينظر إلى نفسه، متماهياً مع النظام القبلي التراتبي السائد في ذلك البلد. أما فيما يخص تربيته فما من شيء أبعد عن الحقيقة من تلك الصورة. فقد ترعرع ونشأ في اثنتين من المدن الأهم في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر هما مكة وإسطمبول. كانت الأولى أقدس المدن الإسلامية ومركز الوعي والممارسة الدينيين، في حين كانت الثانية عاصمة الإمبراطورية العثمانية ومحور السلطة السياسية.

ولد عبد الله بمكة في إقليم الحجاز العثماني في شهر شباط من عام (1882 م). وقد كان الابن الثاني لحسين بن علي وعبدية بنت عبد الله،[1] اللذين كانا أبناء عمومة مباشرين، وحاملين للقب الشريف، الذي كان يعني التحدر من النبي محمد. ونسب الشرف هذا يتحدد عبر أشكال معقدة من النسب التي يمكن، وقد تم بالفعل، اصطناعها، وتزويرها، وشراؤها؛ ومع ذلك فإن تقاليد النسب في مكة والحجاز عموماً ظلت مستمرة في أنقى أشكالها، مما جعل اصطناع الروابط الزائفة بالنبي هناك أمراً بالغ الصعوبة.[2] صحيح أن الشرفاء يتمتعون باحترام خاص نتيجة طبيعية للاحترام الذي يحيط بالنبي، ولكن اللقب نفسه لا يضمن لحامله أية ثروة أو سلطة، ويمكن العثور على الشرفاء في سائر مستويات النظام الاجتماعي - الاقتصادي. غير أن أولئك المنتمين إلى السلالات المكية كانوا مؤهلين لشغل منصب خاص

عرف باسم شريف مكة، كان يضفي على شاغله قدراً من المرجعية الدينية والسلطة السياسية والثروة.[3] وفي سنة ميلاد عبد الله كان عم والده شاغلاً لهذا المنصب.

وبوصفه شريفاً وذا علاقة قربى وثيقة بشريف مكة، فقد وُلد عبد الله في شريحة ذات امتيازات من المجتمع المكي. وقد تمت تربيته في المدينة على الرغم من أن العادات كانت تقضي بإرسال أبناء شرفاء مكة إلى قبائل قريبة لتنشئتهم فيها، بغية توثيق العلاقات مع القبائل التي كان رخاء مكة متوقفاً على نواياها الطيبة. توفيت أمه وهو في الرابعة من العمر بعد ولادة شقيقه الأصغر فيصل. وبعد وفاتها تولت جدة أبيه وعمتها أمر رعايته.

وبين أحضان هاتين المرأتين المنتميتين إلى قبيلة بني شهر، اطلع عبد الله على التاريخ القبلي والأعراف البدوية. فقد حرصتا على تلقينه القصص والأغاني والأشعار القبلية البدوية، وعلى غرس حبها في نفسه، وما أكثر ما جرى التعليق على سعة اطلاعه على هذه الأمور مع تقدمه في السن. والقصص التي سمعها منهما حول الأزمان المضطربة في بداية القرن؛ حول قيام القبائل بغزو مكة و"تدنيسها" بدفع من المذهب الوهابي، وحول غزوها من جديد من قبل محمد علي المصري نيابة عن السلطان العثماني، وحول تنصيب جد أبيه شريفاً.[4]

كان منصب شريف مكة وظيفة قديمة، تعود إلى ما قبل الغزو العثماني للحجاز في القرن السادس عشر. وفي ظل العثمانيين احتفظ الشريف بموقعه كقائد محلي وبقدر من حرية الحركة. وبالفعل فإن مكة، مكان ولادة النبي، والمدينة حيث يوجد قبره، ازدهرتا في إطار البنية الملكية ـ السلطانية. فالمدينتان كانتا تتلقيان ضرائب وصدقات دينية من سائر أرجاء الإمبراطورية يتم تحصيلها وإرسالها عن طريق إسطمبول، وتحظيان بالرعاية والحماية الشخصيتين من جانب السلطان الذي كان شديد الحرص على عدم بروز

أية مشكلات في المدينتين من شأنها أن تسيء إلى سمعته بوصفه حاكمها الأعلى. أضف إلى ذلك أن سكان المدينتين لم يكونوا مكلفين بالضرائب كما لم يكونوا خاضعين لنظام التجنيد. ومقابل ذلك، كان السلطان يستطيع أن يضيف إلى ألقابه لقباً يضعه فوق سائر الحكام المسلمين ألا وهو لقب خادم الحرمين الشريفين.

على الرغم من أن شريف مكة كان، مع مجيء الغزو العثماني، قد منح سلطات واسعة، فإن مكانته وعلاقته بإسطمبول لم تكونا ثابتتين وغير قابلتين للتعديل والتغيير. وعلى امتداد الجزء الأكبر من الفترة العثمانية ظلت منطقة الحجاز متمتعة بقدر ملحوظ من الاستقلالية. غير أن ميزان القوة بين إسطمبول ومكة ما لبث أن بدأ يتغير في القرن التاسع عشر. وكان من شأن هذا التحول، جنباً إلى جنب مع اهتمام بريطانيا المتزايد بالمنطقة، أن يؤثر بصورة دراماتيكية على حياة عبد الله، بل وعلى تاريخ الشرق الأوسط كله في الحقيقة.

ففي بداية القرن نجحت قوة صاعدة في الجزيرة العربية في نسف استقرار الوضع في الحجاز. ففي عام (1803 م) قام الوهابيون، أتباع مصلح ديني وطُهري من أواسط الجزيرة العربية، بالتحالف مع القوة السياسية لعائلة آل سعود الحاكمة في قلب الجزيرة، باحتلال مكة و"تطهيرها"، حيث استبدلوا شريف مكة بآخر من اختيارهم متحدين السلطة العثمانية. غير أن الهيمنة العثمانية ما لبثت أن استعيدت عام (1819 م) عن طريق والي مصر العثماني محمد علي، الذي عين جد والد عبد الله شريفاً لمكة وقد كان أول جد مباشر له يشغل هذا المنصب. وبسبب هذا الفقدان المؤقت ولكن المرعب للسيطرة أصبح العثمانيون أكثر حذراً ويقظة بعد الحدث. وما لبثت هذه اليقظة، مصحوبة بحركة القرن التاسع عشر الرامية إلى تقوية الإمبراطورية عن طريق الإصلاح والمركزة، أن تمخضت عن التآكل التدريجي لاستقلال الحجاز. فعبر استغلال المنافسة بين العشيرتين الشريفتين الذوي زيد والعبادلة

التي ينتمي إليها عبد الله، سعت إسطمبول إلى زيادة إخضاع شرفاء مكة المتعاقبين لإرادتها.[5]

وبعد منتصف القرن ساعدت وسائل المواصلات والاتصالات الجديدة، التي جعلت مكة أقرب إلى مركز الشؤون الإمبراطورية، على إخضاع الشؤون الحجازية للسيطرة العثمانية. فتطور المراكب البخارية واستكمال قناة السويس في عام (1869 م) أديا إلى تسهيل الانتقال بين إسطمبول ومكة. كما أن النظام البرقي والبريدي المنتظم الذي تأسس عام (1882 م) ما لبث أن زاد من إخضاع الحجاز للإشراف العثماني. غير أن هذه التجديدات التقنية كانت سلاحاً ذا حدين، لأنها أدت في الوقت نفسه إلى زيادة ارتباط الحجاز بشبكة عالمية واسعة على صعيدي الاتصالات والتجارة. فقناة السويس، بشكل خاص، اختزلت الرحلة البحرية بين بريطانيا وساحل الهند بنسبة (77٪) جاعلة طريق قناة السويس، البحر الأحمر الشريان الإمبريالي الأكثر أهمية بالنسبة لبريطانيا. واهتمام بريطانيا المتزايد أبداً الذي بدأ في القرن الثامن عشر وحقق قفزة ملحوظة إلى الأمام بعد (1869 م) أدى إلى تعزيز التصميم العثماني على حكم الحجاز بقبضة حديدية.[6]

ولدى ولادة عبد الله في عام (1882 م) كان التحدي الذي واجهه استقلال الحجاز، جراء وسائل الاتصالات الحديثة واليقظة والمراقبة العثمانيتين المتزايدتين، قد بدأ يبرز على السطح ويصبح ملموساً. وفي العام نفسه تعرضت الإمبراطورية لصدمة كبيرة حين قامت بريطانيا باحتلال مصر. وكانت لهذا الحدث أصداء عالية في مكة، حيث تخلى الحجاج القاهريون عن كبريائهم العدواني المعروف، وراحوا يعترفون بمكة على أنها الملاذ الحقيقي للإسلام، بل وأقروا بدونية مدينتهم حيث بات الكفار يتدخلون في شؤون المؤمنين الدينية. وبعد عامين تابع الطلاب في مكة عن كثب أحداث الانتفاضة في السودان، منتظرين بفرح لحظة قيام المهدي بإلحاق الهزيمة ببريطانيا وبعبور البحر الأحمر في طريقه إلى المدينة

المقدسة.[7] إلا أن انتظارهم كان بلا جدوى. فعلى الرغم من أن بريطانيا هُزمت في عام (1885 م) فإن تقدمها مع النيل لم يتوقف إلا للحظة. وبعد ثلاث عشرة سنة تمكنت القوات البريطانية والمصرية معاً من إخضاع العاصمة المهدية أم درمان ونهبها.

أدى احتلال بريطانيا لمصر إلى استكمال تحكمها بمنافذ البحر الأحمر؛ فعدن الواقعة في الطرف الجنوبي كانت قد احتلت في عام (1839 م). والأهم من ذلك هو أن هذا الاحتلال أفضى إلى تقديم الوجود الفعلي لبريطانيا في الشرق الأوسط بأسلوب أقوى وأعمق من فتح قناة السويس، على الرغم من أن الثاني كان تمهيداً للأول. أضف إلى ذلك أن بريطانيا كانت أيضاً مهتمة بالسلم والهدوء في المدن المقدسة، بتسهيل الحج، وبالتالي بسياسات شرفاء مكة، لأن عدد المسلمين في إمبراطورية الملكة فكتوريا كان يفوق عددهم في إمبراطورية السلطان العثماني. وما لبثت السلطات العثمانية في الحجاز أن أصبحت أكثر تصميماً على التدخل جراء إدراكها لاهتمام بريطانيا وقدرتها على عكس مصالحها إقليمياً. بل وحاولت إسطمبول كبح موجة الحجاج الهنود البريطانيين خوفاً من أن يصبحوا ذريعة للاحتلال البريطاني.[8]

إلا أن بريطانيا كانت حذرة من التدخل المباشر في شؤون الأراضي المقدسة الإسلامية. كما أن السياسة البريطانية ظلت رسمياً ملتزمة بالدفاع عن الوحدة الإقليمية للإمبراطورية العثمانية. فمصر، رغم خضوعها للاحتلال البريطاني، بقيت رسمياً جزءاً من الإمبراطورية، ولكن تحت ما بات يعرف باسم "الحماية المقنعة" لبريطانيا. وهكذا فإن زيادة الاهتمام والنفوذ البريطانيين لم تتجل في أي تغيير خارجي في العلاقات السياسية، رغم أنها كانت قد باتت ملموسة. ومهما يكن فقد تم الاعتراف بالقنصل البريطاني بوصفه القنصل الأجنبي الأكثر نفوذاً في جدة. ولأن السلطة العثمانية كانت قد أصبحت شديدة التطفل والتدخل بات الناس محلياً

يتهامسون قائلين: إن الحماية البريطانية قد تكون أفضل من الحكم العثماني، وإذا كانت بريطانيا مستعدة للموافقة على منع القوات العثمانية من الوصول إلى الحجاز فإن من الممكن طرد الأتراك.(9) كذلك تحدثت الشائعات عن تورط عميل عثماني في اغتيال شريف مكة قبل ولادة عبد الله بعامين، وهي جريمة اغتيال تم اقترافها، كما قيل، لأن الشريف كان ذا ميول إنجليزية. وبعد الحادث ظلت الشائعات القائلة بأن بريطانيا مهتمة بإقامة خلافة عربية تطفو على السطح بين الحين والآخر.(10)

لقد كان الوالي المرسل من إسطمبول والمقيم في العاصمة الإقليمية جدة أولاً، ومكة فيما بعد، هو الذي يمثل السلطة العثمانية في الحجاز بصورة مباشرة. أما حدود الصلاحيات الفاصلة بين الوالي والشريف فلم تكن مرسومة بدقة، وبالتالي فقد ظلا يتنافسان على النفوذ المحلي. فأي والٍ قوي مع حكومة مركزية قوية خلفه (أو بدونها) كان يستطيع اختزال استقلالية الشريف، في حين كان أي شريف قوي الإرادة قادراً على ممارسة السلطة على حساب الوالي والحكومة المركزية.

عموماً كان شرفاء مكة في القرن التاسع عشر أقوى من الولاة، رغم سياسات الدولة القائمة على الإصلاح والمركزية. فـ «ولاية الحجاز، مثلها مثل العديد من الولايات الإقليمية الأخرى، كانت تعتبر نوعاً من المنفى لأولئك الذين يخسرون في لعبة الدسائس السياسية بإسطمبول».(11) صحيح أن الوالي كانت لديه حامية عثمانية لضمان سلطته في بلدات الحجاز، ولكن السلطة القبلية ظلت هي السائدة نتيجة المسافات الشاسعة المرعبة الفاصلة بين تلك البلدات. أما محور العلاقات العثمانية مع هذه القبائل فقد كان متمثلاً بالشريف. فبفضل شبكة من روابط المصاهرة والوصاية البنيوية كان الشريف قادراً على ربط التنظيمات القبلية بشخصه على درجات متباينة من القرب. وقد كان استبدال هذه الروابط باستخدام القوة أمراً متعذراً، على الأقل عن طريق التنظيم العسكري

والمستوى التقني اللذين كانا متوفرين للعثمانيين في ذلك الوقت.[12]

تعين على الإمبراطورية بصورة مطلقة أن تحافظ على الصلة مع قبائل الحجاز، وعلى نوع من السيطرة عليها، لأن قوافل الحج السنوية المتوجهة إلى مكة كانت تمر عبر مناطقها. وموسم الحج هو الحدث الديني الأعظم في السنة الإسلامية. وكان أيضاً يشكل الحدث التجاري الأكبر وخط الحياة الرئيسي الواصل بين مكة المقفرة والعالم. وفي المراسلات العثمانية كان يشار إلى الحج بوصفه (الشأن الأكثر أهمية بين شؤون الدولة العليا). فهيبة السلطان ومشروعيته كانتا قائمتين جزئياً على قدرته على تنظيم وتسهيل رحلة الحجاج الشاقة داخل إمبراطوريته.[13] كما أن كون الشريف مناسباً للمنصب كان هو الآخر يتحدد بمدى قدرته على ضمان المرور الآمن عبر الأراضي القبلية لدى اقتراب الحجاج من مكة.

كان موسم الحج يستدعي وجود قدرات تنظيمية هائلة. حتى مع أنماط سفر القرن التاسع عشر البدائية نسبياً، كان الموسم اجتماعاً بالغ الاتساع، يحضره المؤمنون من سائر زوايا الإمبراطورية العثمانية المتباعدة ومن سائر الجاليات الإسلامية الكبرى خارج حدودها، في كل من أفريقيا والهند والصين وجاوة. ففي كل عام خلال الشهر الأخير من التقويم القمري الإسلامي، كان نهران من الحجاج يحتشدان في مدينتي دمشق والقاهرة. وما إن يبدأ تدفقهما البطيء باتجاه مكة حتى كانت المنطقة كلها على امتداد الطريق تغرق في موجات متناغمة من الحركة. فالقلاع المشادة لحراسة الطريق، كانت تمون لتصبح جاهزة لتوفير المأوى للقوافل المارة. أما القرى والواحات فكانت تجمع فائضها السنوي لتقايض على سلع غريبة مجلوبة من الأماكن البعيدة. فكل حاج كان يجلب بضائع من موطنه، ليتاجر بها على الطريق لتأمين معاشه ومأواه. والتجار الذين لم يكونوا أقل ورعاً من الحجاج البسطاء، وإن احترفوا التجارة، كانوا أيضاً ينتهزون فرصة موسم الحج لتسويق بضائعهم في أسواق بعيدة. أما القبائل فكانت تعرض

حيواناتها للبيع أو الإيجار، ومنتجاتها الحيوانية مقابل المنتجات الزراعية والأدوات المصنوعة الآتية من فاس وإسطمبول وأصفهان وبخارى. وكان التوزيع الحكيم للمغريات النقدية على امتداد طرق الحج الرئيسة من دمشق إلى الجنوب، يساعد على ضمان قيام القبائل بالاتجار مع القوافل، بدلاً من السطو عليها ونهبها.[14]

وهذه الحشود البشرية المؤلفة من عشرات بل مئات الآلاف من الناس الناطقين بعشرات اللغات ذوات اللهجات المتباينة الكثيرة، مع الحيوانات المحملة بالبضائع، كانت تتزاحم كتلة واحدة على مكة، مسقط رأس النبي، الهاجعة في واديها الرملي الملتهب المحاط بالجبال الجرداء القاحلة. وكان شريف مكة ينتظر الحجاج لاستقبالهم وإجراء الطقوس السنوية، وتلقي التبرعات العينية والنقدية التي كانت تأتي مع الحج سنوياً، لتغطية نفقات صيانة المدينة المقدسة وإعاشة أهلها. فمسقط رأس عبد الله، مثله مثل مملكته فيما بعد، كان معتمداً على موارد الدعم الخارجية، جراء افتقاره إلى الموارد الطبيعية الخاصة.

ومكة حارة على مدار السنة وشديدة الجفاف.[15] فلا شيء ينبت هناك بسبب عدم وجود الماء رغم وجود بعض البساتين على مسافة عشرة إلى عشرين كيلومتراً. أما المنتجات الزراعية الطازجة الأخرى فتأتي من الطائف الجبلية الواقعة على مسافة مسيرة يومين إلى الشرق. والاتجار مع القبائل المجاورة يوفر اللحوم والألبان. أما القمح والشعير والأرز والفاصولياء فتأتي كتبرعات نوعية من مصر والعراق. ومدينة جدة التي هي نافذة مكة على العالم الخارجي، الواقعة على شاطئ البحر الأحمر، تبعد ستين ميلاً إلى الغرب. وقبل مجيء السيارات كانت هذه الرحلة تستغرق خمس عشرة ساعة أو يومين، تبعاً لواسطة النقل أهي الحمير أم الجمال. ولكن مكة قادرة، بفضل أهميتها الدينية، على تجاوز مصاعب ظروفها الزمانية. فرغم بعدها الجغرافي تحتل مكاناً لها في سويداء القلب من وعي المسلمين؛ وإليها يتوجه

المؤمنون من المسلمين للصلاة خمس مرات في اليوم، كما أن أداء فريضة الحج واجب ديني. ورغم إقليميتها فهي عالمية، لأن المؤمنين من سائر الأقوام والجنسيات يزورونها، وقد يستوطنها كثيرون، مما يؤدي إلى إغناء الحياة الثقافية والتجارة، لما كان شأنه دون ذلك ألا يشكل أكثر من بلدة تجارية مغمورة غرب الجزيرة العربية. وقد كان الهنود والجاويون وأهالي جنوب الجزيرة العربية اليمانيون والأتراك أكبر الجاليات الأجنبية. كما أن الرقيق من أفريقيا الشرقية والسودان بالدرجة الأولى كانوا يساهمون أيضاً في إغناء التنوع الثقافي والإثني لمكة.

كان الجميع في مكة يعتمدون على مجيء الحجاج لبيع بضائعهم وخدماتهم، وللحصول على الصدقات والتبرعات الكفيلة بدعم أسباب معيشتهم. وأكثر هؤلاء كانوا يجمعون بين خدمة الرب والتجارة لكسب الرزق. ثمة هدايا نقدية وأشياء ثمينة كانت تأتي من السلطان وغيره من الحكام المسلمين. وهذه الهدايا جنباً إلى جنب مع المواد الغذائية الآتية من مصر والعراق كانت توزع على أهالي مكة الذين كانوا مقسمين رسمياً إلى خمس جماعات لهذا الغرض. كانت فئة القيادات الدينية تحتل المرتبة الأولى وتحصل على الحصة الكبرى، وهذه الفئة كانت تضم قبيلتي الشرفاء والأسياد (ذرية النبي عبر حفيديه الحسن والحسين على التوالي) فضلاً عن أئمة المسجد الكبير وخطبائه. وبعدها كانت تأتي فئة أعيان مكة، فخدم الأماكن المقدسة، فعامة الناس المولودين في مكة، ثم الأجانب الذين استقروا في المدينة أخيراً. أما الأطفال الصغار والعبيد والخدم والتجار وموظفو خزينة الحجاز، وأولئك الذين لم يمض على إقامتهم خمس سنوات فكانوا رسمياً (وإن لم يكن عملياً دائماً) مستبعدين من عملية توزيع الهدايا.

كانت لشريف مكة موارد دخل أخرى عدا المخصصات والتبرعات الخيرية.[16] فمع أن أهالي جدة ومكة لم يكونوا يدفعون أية ضرائب عن

أشخاصهم أو بيوتهم أو ممتلكاتهم، كانت ثمة أساليب غير مباشرة لتحصيل الرسوم. فرجال الدين وأدلاء الحجاج والمطوفون ومعلمو الجمعيات التجارية والحرفية وأعضاؤها، كانوا مطالبين بأن يكونوا حائزين على شهادات أو إجازات. كما أن الرسوم المحصلة في مينائي جدة وينبع على البحر الأحمر كانت تذهب إلى الشريف، مثلها مثل الرسوم المحصلة عن الحيوانات والمؤن الواردة إلى بلدات الحجاز من الداخل، عدا ما كان يأتي مع قوافل موسم الحج الذي كان يمر مجاناً. ونظراً لأنهم من الشيعة فإن الحجاج الإيرانيين كانوا يخضعون لرسوم تمييزية. وبفضل الأموال المحصلة بالطرق آنفة الذكر كان الشريف يستطيع تخزين ما يكفي من المؤن التي تمكنه من التأثير على الأسعار اليومية، إن لم نقل من التحكم بها، لفائدته هو. كذلك أدى التلاعب بوسائط وطرق نقل الحجاج إلى زيادة دخل الشريف. والأموال المحصلة بهذه الطريقة كانت تنفق لجعل الحياة أيسر وأكثر راحة له ولعشيرته الموسعة، غير أن جزءاً كبيراً منها كان يجري إنفاقه على ضمان احترام رجال القبائل البدوية ودعمهم، عن طريق تقديم الولائم والهدايا السخية.

وكأعضاء في السلالة الشريفة الحاكمة، كان عبد الله وأفراد أسرته يعيشون على منحة متناسبة مع مكانتهم ومدى قربهم من الشريف الحاكم. كما أنهم كانوا يحصلون على دخل يأتيهم من أملاكهم في الحجاز ومصر التي كانوا يتولون أمورها كأوقاف. وبوصفه منحدراً من فئة دينية في مكان كان التعليم فيه ما يزال مجالاً دينياً، فإن عبد الله تلقى تعليماً لا بأس به وفقاً لمعايير تلك الفترة. فقد علمه في البيت معلمون خصوصيون جنباً إلى جنب مع أخويه علي (ولد في عام (1879 م) وفيصل ولد في عام (1886 م) جملة الموضوعات التقليدية، مثل تلاوة القرآن، القراءة، والخط. وكان عبد الله ينعم بفترة راحة من دراسته في الصيف، حين كانت أسرته تنتقل شرقاً إلى تلال الطائف الندية المنعشة. وهي الأرض التي كانوا يظنونها قطعة من سورية جلبها الله، وغرسها في الجزيرة العربية لتوفير الراحة لضيوف الحج، كان أفراد

أسرة عبد الله ومعهم جميع أهالي مكة القادرين على تحمل النفقات يجدون الراحة والتحرر من الحر الشديد للمدينة المقدسة.[17]

في عام (1891 م) امتدت يد السلطان الطويلة إلى الشرنقة الدافئة لطفولة عبد الله بمكة وبدأت تفكك ألغازها. ثمة نزاع كان قد نشب بين شريف مكة وابن أخيه حسين والد عبد الله، مهدداً بنسف الاستقرار والهدوء في الحجاز. وعلى الأثر سارع السلطان إلى إرسال هيئة للتحقيق في الحادث المؤسف وتسويته. وما لبث الأمر أن تمخض عن استدعاء الحسين إلى إسطمبول.[18]

غادر الحسين مكة متوجهاً إلى إسطمبول مباشرة. وإسطمبول هذه لم تكن غريبة بالنسبة إلى الرجل، إذ كان قد وُلد فيها عام (1853 م). كما أن استدعاء السلطان له ليقيم في إسطمبول نصف ضيف ونصف سجين، تحت الإشراف المباشر لم يكن مفاجئاً. فعلى الدوام كان يمكن العثور على بعض شرفاء مكة في العاصمة الإمبراطورية، حيث كانوا يشكلون نوعاً من الضمان لاستمرار ولاء شريف مكة الراهن، وتجري مغازلتهم على أنهم بدائل مناسبون.[19] لقد قضى علي حيدر المنافس الرئيس للحسين على منصب شريف مكة باستمرار خمسة عشر عاماً، هناك.

وبعد عام واحد التحق عبد الله وأخواه علي وفيصل بأبيهم في إسطمبول. وقد انطلق الإخوة الثلاثة من جدة في شباط من عام (1893 م) في موعد قريب من عيد ميلاد عبد الله الحادي عشر، تحت رعاية جدتهم (أم والدهم) بسمة جيهان، وبرفقة اثنتين وثلاثين سيدة من العائلة، وحاشية عم أبيهم عبد الإله الذي كان شريفاً آخر مقيماً في إسطمبول. وكانت تلك رحلة عبد الله البحرية الأولى. وفي بور سعيد رأى للمرة الأولى نساء غير محجبات، وهذه ممارسة شجبها بعد أن تقدم في السن. وهناك تزود عبد الله وأخواه بكميات كبيرة من الملابس الشتوية السميكة، ترقباً لمناخ

إسطمبول البارد والرطب. ومن بور سعيد توغلوا في عمق البحر غير أنهم ما لبثوا أخيراً مع حلول اليوم السابع من آذار أن وصلوا إلى العاصمة الإمبراطورية، حيث رسا مركبهم أمام جسر السراي حين كان الفجر موشكاً على الانبلاج.[20]

استقرت العائلة في منزل مفروش قدمه السلطان على مضيق البوسفور. وهذا المعبر المائي بسفوحه المشجرة، وشواطئه المزينة بالمنتجعات والقصور ذات الطراز الإيطالي أبهر عبد الله. كانت سائر أنواع المراكب تمخر مياهه مثل السفن الناقلة للركاب من جسر غلطة في الجانب الأوروبي إلى اسكودار، على الطرف الآسيوي، الزوارق الخاصة الموصلة للشخصيات الهامة الملكية وغير الملكية إلى قصورهم وداراتهم، والقوارب الشراعية الصغيرة وزوارق المجاذيف المحملة بالفواكه والخضار واللحوم والأسماك المعروضة للبيع. وبالفعل فإن عبد الله اقتنع بأن إسطمبول كانت رائعة. ففي مذكراته يصفها على أنها موطن قوميات عديدة وما من أحد يشعر فيها بالغربة، مركز تجاري يتوافر فيه كل شيء من جميع البلدان، ومكان ممتع في سائر الفصول ولكن في الربيع حيث تكثر الفواكه بصورة خاصة.[21]

وخلال فترة إقامة عبد الله في هذه المدينة التي دامت ست عشرة سنة، كانت إسطمبول مطبوعة بالطابع المميز والجلي للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني؛ الذي كان حاكماً اتصف بالدهاء، ونجح في جمع خيوط السلطة بين يديه. فخلافاً لأسلافه الأخر، سلاطين فترة التنظيمات الذين تبنوا القيم الأوروبية خارجياً، كان عبد الحميد صارماً، رزيناً وورعاً أشاع موجة من التدين طبعت فترة حكمه. إلا أنه، مثله مثل أسلافه، كان يرمي إلى تقوية مركزية الإمبراطورية وتقويتها. ولتحقيق ذلك تبنى فكر الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، المستند إلى دعم رجال الدين واستعدادهم لإضفاء الصفة الشرعية على مثل هذا الفكر. وكثيرون من رجال الدين

هؤلاء كانوا، بالطبع، من العرب؛ ففي فترة حكم عبد الحميد اكتسبت الأقاليم العربية، مواطن العلوم والثقافة الإسلامية، أهمية جديدة داخل الإمبراطورية.

حاول عبد الحميد أن يوازن نفوذ جهازه البيروقراطي بشبكة غير رسمية من الجواسيس والمخبرين، ما لبثت أن أشاعت جواً من الخوف والقلق والحذر.[22] وقد كانت عنده أيضاً وزارة ظل تعويضاً عن وزارته الفعلية. وعناصر العصبة الخاصة من مستشاري عيد الحميد غير الرسميين كانوا من خارج النخبة التركية المسلمة التقليدية. فاثنان من أشهرهم وأكثرهم نفوذاً كانا من العرب وهما: أبو الهدى الصيادي[23] ذلك الزعيم الديني العصامي الآتي من منطقة حلب، والذي كان يقدم النصح لعبد الحميد في الشؤون الدينية، وأحمد عزت العابد من أعيان دمشق، الذي كان يشغل منصب السكرتير الثاني لعبد الحميد. وفكرة مد سكة حديد دمشق ـ مكة لتسهيل الحج ولفت أنظار العالم الإسلامي إلى عبد الحميد كانت من أفكار أحمد عزت. وما لبث هذا المشروع أن أصبح فيما بعد رمز الانتهاك العثماني المتصاعد لاستقلالية الحجاز المألوفة، وهدف معارضة الحسين العنيفة لمثل هذا الانتهاك حين أصبح شريف مكة.

على الرغم من مختلف أشكال الهمس في الأعماق، فإن إسطمبول عبد الحميد كانت تنعم بفترة من النهضة السياسية والثقافية خلال فترة وجود عبد الله فيها. فبفضل السنوات الخمسين السابقة من الإصلاحات العثمانية جنباً إلى جنب مع أشكال التقدم التقني في الاتصالات، كانت العاصمة في وضع غير مسبوق النظير من السيادة السياسية، ربما، منذ أيام سليمان القانوني. تكاثرت المطابع، وزادت أعداد الجرائد والدوريات والكتب، فضلاً عن اتساع دائرة تداولها، رغم خضوعها للرقابة. والمدارس المهنية التي تأسست في منتصف القرن أو قبل ذلك، وفقاً للنماذج الأوروبية، مثل مدرسة الهندسة ومدرسة الطب والمدرسة الملكية (السلطانية) للعلوم

العسكرية والمدرسة الملكية للإدارة جرى توسيعها. فدار الفنون التي ما لبثت أن أصبحت جامعة إسطمبول فيما بعد فتحت أبوابها في عام (1900 م).

كان عدد كبير من طلاب هذه المدارس قادمين من الأقاليم العربية، بحثاً عن الوظائف والمناصب في الجهار البيروقراطي المتخصص والممركز حديثاً. فالشهادة الصادرة عن إسطمبول كانت قد أصبحت جواز المرور الأكثر ضماناً إلى المناصب العليا، سواء في العاصمة نفسها، أم في الأقاليم المختلفة التي هي أوطان أولئك الطلاب. ولكن عبد الله وأخويه لم يكونوا من هذه المجموعة من الشباب الطموح. فقد بدا مستقبلهم متوقفاً على النسب بدلاً من الشهادة، مما جعلهم يتابعون تعليمهم في المنزل. جرى تعيين معلم من الأكاديمية العسكرية بإرادة سلطانية، ليعلمهم مواد اللغة التركية والجغرافيا والرياضيات والتاريخ العثماني والإسلامي. وفيما بعد وَصَفَ ذلك المعلم عبد الله بأنه كان خبيثاً بالمقارنة مع علي وفيصل اللذين كانا أكثر هدوءاً وجدية.[24] ومهما يكن فإن عبد الله ما لبث، تحت وصاية هذا المعلم، أن أصبح طليق اللسان باللغة التركية التي ظل يستخدمها في السنوات اللاحقة شيفرة شفهية. ولم تتعرض اللغة العربية للإهمال، فالحسين نفسه دأب على تعليم أبنائه القرآن، في حين كلف أحد خريجي الأزهر بتعليمهم القواعد، كما تولى معلم آخر تدريبهم على الخط. ومن هذه الدروس كان عبد الله وإخوته يرتاحون مرتين في العام مرة في الصيف وأخرى في الشتاء حيث كانوا يستمتعون بالصيد البري والبحري.[25]

على الرغم من أن العديد من زملاء عبد الله ومنافسيه في المستقبل، القادمين من سائر أرجاء العالم العربي، كانوا يدرسون في إسطمبول، فإنه لم يلتق إلا بالقليل منهم، لأن دائرته الاجتماعية كانت محصورة بسلالة النبي والنخبة التركية.[26] كانت الأولى تضم علي حيدر عميد عشيرة ذوي زيد المنافسة من الشرفاء، وحسن خالد أبو الهدى، ابن مستشار عبد الحميد في الشؤون الدينية، الذي صار فيما بعد رئيساً للوزراء في شرق الأردن.[27] أما

الروابط مع النخبة التركية فقد تعززت حين أقدم والد عبد الله على الزواج من عادلة خانم، إحدى حفيدات مصطفى رشيد باشا (1800 ـ 1856 م) أحد مهندسي حركة الإصلاح العثمانية، والذي شغل منصبي وزير الخارجية والصدر الأعظم في ظل محمود الثاني وعبد المجيد سلفي عبد الحميد. وما لبثت الزوج الجديدة عادلة أن أنجبت ابناً هو زيد في عام (1900 م) وثلاث بنات. وتم العثور أيضاً على زوجات لكل من عبد الله وأخويه من بين الأقرباء من الشرفاء. فقد تزوج علي ابنة عم أبيه عبد الإله. كما اقترن عبد الله وهو في العشرين من العمر في عام (1902 م) بمصباح ابنة عمه ناصر. وتزوج فيصل بنتاً ثانية من بنات ناصر.

بدت حياة الحسين وأفراد أسرته مستقرة في إسطمبول. فقد تم تعيينه عضواً في مجلس الدولة الذي كان إحدى الهيئات الاستشارية لدى عبد الحميد. ولكن مستقبله السياسي كان مرتبطاً بمكة كما أن اهتمامه كان مشدوداً إلى الشؤون المكية. فعندما توفي شريف مكة في عام (1905 م) طرح الحسين اسمه مرشحاً لشغل المنصب الشاغر، حاذياً حذو اثنين من الشرفاء المقيمين في إسطمبول هما: عبد الإله عم أبي عبد الله، وعلى حيدر من عشيرة ذوي زيد المنافسة. ولكن الذي تم اختياره للمنصب كان مرشحاً رابعاً يدعى علي بن عبد الله، خال عبد الله المقيم في مكة. وقد تحدثت الشائعات عن أن علي بن عبد الله دفع سبعين ألفاً من الليرات ثمناً لهذا الشرف.[28] غير أن الحسين ما لبث في غضون ثلاث سنوات أن توافرت له فرصة أخرى مكنته من شغل المنصب جراء الانتفاضة السياسية التي حصلت في إسطمبول.

ففي صيف عام (1908 م) أطلقت حركة تمرد قام بها صغار الضباط العثمانيين في الجيش الثالث المتمركز في مقدونيا سلسلة من التغييرات السياسية في إسطمبول. سارعت لجنة الاتحاد والترقي التي كانت جمعية سياسية سرية في مقدونيا إلى الإمساك بحركة التمرد في الجيش، لتوظيفها

في إجبار عبد الحميد على إعادة جمع البرلمان وفق مبادئ دستور عام (1876 م). وما لبثت ثورة تركيا الفتاة هذه، كما باتت تعرف، أن نجحت في لجم صلاحيات السلطان المطلقة، عن طريق إعادة فرض الدستور، واعتماد الأساليب التمثيلية. صحيح أن عبد الحميد بقي على العرش لفترة دامت ثمانية أشهر بعد الحدث، ولكنه ما لبث أن أطيح به أخيراً واستُبدل بأخيه حين أخفقت إحدى محاولات الثورة المضادة.

أدت هذه الأحداث إلى نشر الفوضى والذعر في الأقاليم. ففي الحجاز كان ثمة عصيان في وحدات الجيش السابع، وقد تم سحب الوالي العثماني. ونشأت اضطرابات في مكة احتجاجاً على ما أشيع عن أن النظام الجديد عازم على تقليص امتيازات شريف مكة وصلاحياته. وبعد اتهامه بتحريك هذه الاضطرابات تم إعفاء الشريف من منصبه،[29] وجرى تعيين عبد الإله، عم والد عبد الله، شريفاً جديداً لمكة، ولكن هذا الأخير توفي فجأة فيما كان يستعد للرحيل من إسطمبول إلى مكة.

تلك هي اللحظة التي قام بها عبد الله، حسب كلامه هو في مذكراته، بالتدخل الحاسم. ففي زحمة شائعات عن قرب تعيين علي حيدر، ألح على أبيه أن يطالب بمنصب شريف مكة خطياً. وعلى الفور أخذ الكتاب باليد إلى الصدر الأعظم كامل باشا. لكن برودة استقباله في الباب العالي دفعته إلى أن يبرق مباشرة إلى كل من شيخ الإسلام وسكرتير القصر الأول، أملاً في أن يبادر أحدهما إلى التوسط لدى السلطان. وفي اليوم التالي تم استدعاء الحسين إلى [قصر] يلدز حيث تم تعيينه شريفاً جديداً لمكة.[30]

في الأجواء السياسية الضبابية التي سادت إسطمبول في عام (1908 م)، حيث الصراع على السلطة بين الاتحاد والترقي من جهة، والسلطان من جهة ثانية، والصدر الأعظم من جهة ثالثة، لم يكن محسوماً بعد، ولم تكن جملة الظروف والتأثيرات التي أفضت إلى تعيين الحسين واضحة. فالرجل

لم يكن اتحادياً، كما لم يكن متعاطفاً مع الدستور. وبالفعل فقد قيل: إن جمعية الاتحاد والترقي كانت مستاءة من تعيينه. ومن المؤكد أن الجمعية أيدت منافسه علي حيدر وحاولت، دون نجاح، خلع الحسين حين تطورت الخلافات بين مكة وإسطمبول. ربما كان السلطان قد رأى في الحسين حليفاً مستقبلياً ضد جمعية الاتحاد والترقي، على الرغم من أن هناك من يقول: إنه كان يخشى من طموحات الحسين المتطرفة. لقد عزا عبد الله فضل تقديم مفتاح تعيين أبيه إلى السكرتير الأول علي جواد، الذي ربما كان ذا أهمية وراء الكواليس، ولكن أكثرية المؤرخين وبعض الأدلة المعاصرة تشير إلى أن نفوذ الصدر الأعظم الموالي للإنجليز كامل باشا كان هو العامل الحاسم.[31]

من الممكن تحري يد بريطانيا في توازن المصالح وتضاربها، اللذين مالا لصالح الحسين وراء ستار الصراع المباشر على السلطة في إسطمبول. فعلى الرغم من أن بريطانيا ربما لم تتدخل بصورة مباشرة، فلقد كانت قوة حرصت إسطمبول على خطب ودها وإرضائها. وبالتالي فإن موافقة بريطانيا الضمنية على أي شريف جديد كانت ذات أهمية. وقبل بضعة أشهر من تعيينه كان الحسين قد أرسل إلى السفير البريطاني «رسالة ودية جداً عبرت عن شعوره بالامتنان إزاء إنجلترا على تعاطفها مع الحركة الدستورية العثمانية» مما جعل السفير قادراً على وصفه، لدى تعيينه، بأنه «رجل مستقيم من غير المحتمل أن يتواطأ معه، أو يغض النظر عن عمليات الابتزاز الممارسة ضد الحجاج، أو عن إساءات سلفه في ظل النظام القديم».[32] وكيفما قيس مدى تأثير وجهة النظر البريطانية، فإن أهمية موافقة بريطانيا على الحسين الرئيسية لا تبرز إلا عند النظر إليها بعد الحدث. إنها تسلط الأضواء على مدى تقدم التدخل البريطاني في شؤون الحجاز؛ فضلاً عن مدى تداخل وتشابك المصالح بين الحسين وبريطانيا قبل تحالفهما الحاسم ضد النظام العثماني زمن الحرب بوقت طويل.

انطلق الحسين متوجهاً إلى مكة أواخر شهر تشرين الثاني. وقبيل مغادرته

زوده الصدر الأعظم كامل باشا بوثيقة خطية، نصت على أن الحقوق التقليدية لشريف مكة لم تكن لتتأثر جراء اعتماد الحكم الدستوري في إسطمبول.(33) وبعد وضع وثيقة كهذه في جيبه، كان يُنتظر من الشريف الجديد أن يسكت نداءات (فلتسقط الطرابيش) التي رفعها المكيون تعبيراً عن مخاوفهم من اعتزام بيروقراطيي النظام الجديد العثماني على إلغاء الامتيازات المكية.

كان عبد الله، ومعه أخوه الأصغر غير الشقيق نصف التركي زيد، برفقة أبيه في رحلة العودة إلى مكة. أما أخواه الآخران علي وفيصل فتخلفا عن الركب لترتيب أمور العائلة في إسطمبول وللإشراف على عمليات ترحيل الحريم وحوائجهن.

كانت لمراهقة عبد الله وشبابه في العاصمة الإمبراطورية تأثيراً عميقاً على تكوين شخصيته. وعلى الرغم من أن المسؤولين الإداريين البريطانيين في شرق الأردن كانوا سيصفونه فيما بعد في لحظات الغضب والسخط بأنه متدرب في "مدرسة الدسائس العثمانية"، فإن ما كان يعنيه ذلك في سياق بعيد عن التحقير هو أنه كان خبيراً بممارسة السلطة بصورة غير مباشرة في ظروف ليست من صنعه، كما أنها ليست خاضعة كلياً لسيطرته. وما تعلمه في إسطمبول تعزز وتدعم بعد أن أصبح أبوه شريف مكة.

لقد أعجب عبد الله بعبد الحميد لعدم قيام الأخير بتقليد أوروبا، كذلك ظل [عبد الله] نفسه فيما بعد حريصاً على أن يبقى بعيداً عن الأزياء وأنماط التفكير الأوروبية، رغم اعتماده على بريطانيا. وقد ترك دفاعه هذا إرثاً للأجيال القادمة إذ كتب يقول: «كان يتصرف بحسن نية وإخلاص، وما أخطاؤه إلا من نتاج الكد والمبالغة في الاجتهاد». ومن منظور عبد الله لم يكن عبد الحميد مستبداً بل حذراً وحريصاً، وكان حكمه بالمقارنة مع حكم من جاؤوا بعده حكماً عادلاً. وعلى الرغم من أن الحياة في إسطمبول لم تكن من اختياره فقد كانت حياة كريمة، نفياً قائماً على الاحترام، كان

عبد الله سينظر إليها في السنوات اللاحقة نظرة مفعمة بالحنين الماضوي. ما من مشهد من مشاهد الأبهة والنزعة الاستعراضية البريطانية، بما فيها حتى تتويج الملك جورج السادس، كان بنظره، يوازي غنى المشاهد العثمانية وتعقيدها.[34]

وصل الحسين مع ولديه إلى جدة في الثالث من كانون الأول. وبعد استقباله بوفد جاء للترحيب بـ (الأمير الدستوري) سارع الحسين على الفور إلى التعبير عن مشاعره إزاء الدستور إذ قال: «إن دستور بلد الله هو شريعة الله وسنة رسوله».[35] وكان قد وصل في بداية موسم الحج على باخرة أقلت ثمانمائة حاج،[36] ومهمة منصبه الوحيدة والأكثر أهمية المتمثلة بضمان حج هادئ وسليم كانت تشغله لدى انطلاقه على ظهر بعير باتجاه مكة.

لم يكن حج الحسين الأول بوصفه شريف مكة خالياً من المشكلات. فالحجاج الشيعة اعترضوا على حكمه القاضي بتحديد موعد ظهور الهلال الذي حدد بداية شهر ذي الحجة، وأرجؤوا حجهم يوماً واحداً. وقبائل موجودة حول المدينة مستاءة من فقدان الموارد الناجم عن المنافسة المتأتية من خط الحجاز الحديدي الجديد (الذي وصل دمشق بالمدينة في أيلول)، وعن عزوف الأتراك عن دفع معاشاتهم السنوية، هاجمت الخط الحديدي ونسفت خطوط الاتصالات البرقية وأزعجت الحجاج. وعلى الرغم من أن الحسين عقد هدنة شهرين مع القبائل، في محاولة منه لضمان المرور الآمن للحجاج، فإن القبائل استمرت تتدخل وتعرقل إلى حد جعله يعبر علناً عن أسفه للقافلة المصرية. وفي الوقت نفسه بادر أمير الحج المسؤول عن القافلة السورية، خوفاً من الاضطرابات القبلية حول المدينة وتعبيراً، ربما، عن موقف جمعية الاتحاد والترقي الراغبة في الإساءة إلى سمعة الحسين، إلى الإعلان عن أن الطريق البرية التقليدية غير آمنة، آمراً القافلة السورية بالعودة إلى دمشق عن طريق البحر من جدة إلى حيفا.

شكل هذا تحدياً مباشراً لقدرة الحسين على القيام بواجبات منصبه الجديد، فتحرك بقوة لإثبات وجوده وتعزيز مكانته. فقد كان من شأن استخدام الطريق البحرية أن تحرمه من موارد وصداقة البدو المقيمين بين مكة والمدينة، الذين كانوا مرشحين للإفادة من مرور القافلة بمناطقهم. أوكل الحسين أمر القافلة لكل من ابنه عبد الله وأخيه ناصر اللذين رافقاها وضمنا سلامتها براً إلى أرض دمشق. أما أمير الحج [الشامي] عبد الرحمن اليوسف فقد عاد بحراً وحده.(37)

وهكذا فإن عبد الله كان قد رأى دمشق المدينة التي كان النبي قد شبهها بالجنة، والتي ما لبثت مع حلول القرن العشرين أن غدت مهد القومية العربية للمرة الأولى، وهو على رأس قافلة الحج الكبرى. مرت رحلة القوافل من مكة إلى المدينة والقطار من المدينة إلى دمشق بلا حوادث. ودمشق كلها خرجت إلى المحطة لاستقبال الحجاج، والاحتفال بأدائهم لفريضتهم المقدسة. وبعد خطب الاستقبال والقصائد الشعرية المألوفة قام عبد الله وعمه بزيارة مجاملة للوالي العثماني، وانتقلا من هناك إلى دارة عطا باشا البكري حيث كانا قد دعيا للإقامة. وآل البكري كانوا عائلة أرستقراطية من ملاك الأراضي، ادعت الانتماء إلى النبي مما جعلها، ولو عن بعد، ذات صلة قربى بعبد الله وأسرته. وقد كان عطا باشا عضواً ذا نفوذ في مجلس مدينة دمشق ومحافظتها البلديتين منذ تسعينيات القرن التاسع عشر، حين كان قد دعي إلى إسطمبول لمنحه لقب (الباشوية). وهناك كان عطا قد التقى بالحسين وأولاده للمرة الأولى.(38)

أمضى عبد الله سبعة أيام في دمشق حيث اكتشف، بين صفوف النخبة الدمشقية، قدراً من التململ والاستياء إزاء النظام الجديد في إسطمبول. ففي أعقاب ثورة تركيا الفتاة كانت عملية الاستقطاب داخل هذه النخبة قد تبدلت. فبعض العائلات كانت قد فقدت نفوذها مع تفكيك شبكة عبد الحميد من المسؤولين في دمشق، واستبدالها بأخرى من الموالين لجمعية

الاتحاد والترقي والمتعاطفين معها. وثمة عائلات أخرى كانت قد أضاعت سطوتها مع سقوط أصدقائها وحلفائها المحسوبين على النظام الحميدي، ممن كانوا يشغلون مناصب رفيعة في إسطمبول. من الملاحظ أن آل البكري فقدوا ارتباطهم الهام بالسلطة المركزية، حين قامت لجنة الاتحاد والترقي بخلع أحمد عزت العابد، المستشار السياسي الأقرب لعبد الحميد، من منصبه. شهدت دمشق تظاهرات مؤيدة وأخرى معادية لجمعية الاتحاد والترقي، ولكن انتخابات عام (1908 م) البرلمانية أظهرت أن الفريق المعادي كان هو الأقوى.[39] وفي مذكراته كتب عبد الله عن هذه النخبة المستاءة واصفاً إياها بأنها كانت موشكة على (الانشقاق).[40] غير أن تلك العبارة لم تكتب إلا بالاستناد إلى ما حصل فعلاً فيما بعد، أي بالإفادة من النظر إلى الوراء. ففي عام (1909 م) كان هدف آل البكري ومن لف لفهم متمثلاً بمحاولة إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، لاستعادة زمن كانت فيه النخبة العربية داخل الإمبراطورية تنعم بالهيبة والازدهار واقتسام السلطة والنفوذ. أما بعد إخفاق الثورة المضادة في ربيع ذلك العام، فما لبثت استحالة إرجاع عجلة الزمن إلى الوراء، وضرورة قيام النخبة الدمشقية بالبحث عن أسباب جديدة توصلهم إلى مفاتيح السلطة أن باتتا واضحتين بصورة تدريجية.

عاد عبد الله وعمه إلى المدينة بالقطار، ومكثا فيها عشرة أيام لحل بعض القضايا القبلية المحلية. ولدى وصولهما إلى مكة الهادئة بعد صخب موسم الحج، وجدا أن علياً وفيصل كانا قد عادا من إسطمبول مع نساء العائلة. وبعد تسعة أشهر أنجبت زوج عبد الله له ابنه البكر طلال. أما ابنته حياة فكانت قد ولدت قبل بضع سنوات.

ورث الشريف حسين مع منصبه الجديد قصرين في مكة. كان أولهما حديثاً ومفروشاً ببذخ ومخصصاً لزوجه ولمنامه. أما الثاني فكان أكبر من الأول ولكنه أقدم. كان مؤلفاً من خمس طبقات ذات ثلاثة أو أربعة أقسام

وأكثر من مائة غرفة. وهذا المبنى الذي عرف في مكة باسم دار الحكم أو سراي سيدنا، هو الذي كان الحسين يمضي فيه أيامه وأمسياته، مدبراً شؤون منصبه وملتقياً بالأصدقاء. وبوصفها عمارة مهيبة كان مدخلها درجاً عريضاً وطويلاً، يفضي إلى بوابة حديدية تفتح فجراً، وتغلق بعد غروب الشمس بأربع ساعات يومياً. وخلف الباب كان ثمة رواق مختصر يقود إلى باحة فسيحة محاطة بالمباني المشكلة لدار الحكم من الجهات الأربع. والمباني الواقعة إلى جهتي الشمال والغرب كانت أعلى من المباني الأخرى، وتضم الشقق التي كان عبد الله وإخوته يستخدمونها.[41] وكان هناك قصر آخر في الطائف يوفر للعائلة ملاذاً تهرب إليه من قيظ الصيف في مكة.[42]

مثله مثل أسلافه حرص شريف مكة الجديد على توسيع دائرة نفوذه محلياً بين القبائل، مع التصدي لموجة النزعة المركزية العثمانية الصاعدة. وخلال سنواته الأربع في المنصب كان ناجحاً تماماً على هذا الصعيد. فقد كان شاهداً على تعيين وعزل سبعة ولاة شكليين أو مؤقتين بصورة متعاقبة. وضمان انتخاب عبد الله عضواً في البرلمان العثماني شكل خطوة على طريق تعزيز سلطته.[43]

كانت مكة، كغيرها من المدن العثمانية، قد انتخبت حصتها من الممثلين البرلمانيين أواخر خريف عام (1908 م) في أعقاب ثورة تركيا الفتاة. ولكن مندوبي مكة لم يكونا قد حضرا جلسة الافتتاح ـ فالاضطرابات في الحجاز في تلك الأثناء جعلتهما حذرين. وما إن وصل الحسين إلى مكة حتى بدأ يسعى لاستبدالهما بممثلين يكون ولاؤهما له هو مضموناً.[44] فتم عقد انتخاب جديد في كانون الثاني/ شباط تمخض عن قيام مجموعة مختارة من المقترعين عن اختيار عبد الله والشيخ حسن الشايبي (الذي كانت عائلته مسؤولة تقليدياً عن مفاتيح الكعبة). حصل عبد الله على مئة وأربعة وأربعين صوتاً مقابل ثمانية وتسعين صوتاً حصل عليها الشايبي، متفوقين على اثنين من مرشحي جمعية الاتحاد والترقي، وعشرين مرشحاً عربياً آخرين متعاطفين

مع **الحزب الليبرالي العربي** الذي يفترض أنه كان جزءاً من التحالف العريض، الذي عرف باسم الاتحاد الليبرالي، الذي تأسس لمعارضة جمعية الاتحاد والترقي في سائر أرجاء الإمبراطورية.[45]

بين عامي (1910 و1914 م) أمضى عبد الله فصلي الشتاء والربيع في إسطمبول لحضور اجتماعات البرلمان، وفصلي الصيف والخريف في الحجاز قاطعاً رحلته بين الطرفين بصورة منتظمة بزيارة خديوي مصر عباس حلمي، الذي كان قد أصبح صديقاً له خلال موسم الحج في (1909 م).[46] كانت الحياة السياسية في العاصمة قد اكتسبت زخماً، وباتت أكثر تسارعاً منذ سقوط عبد الحميد. فعلى الرغم من فرض الحكم العسكري العرفي بعد دحر الثورة المضادة في ربيع عام (1909 م) لم تكن جمعية الاتحاد والترقي قادرة على احتكار السلطة. بل كانت بالأحرى في صراع ثلاثي الأبعاد على السلطة مع كل من الجيش من جهة، وتحالف معارضة متزايدة عريض عرف باسم الاتحاد الليبرالي من جهة ثانية. وبوصف العرب عثمانيين ومن مواطني الإمبراطورية فقد كانوا موجودين في كل من المجموعات الثلاث المتنافسة على السلطة. غير أن الاتحاد الليبرالي بشعاراته الداعية إلى اللامركزية هو الذي اجتذب أكثرية الساسة المحليين العرب، حيث بدؤوا يعبرون بوعي ذاتي عن مصالحهم باعتبارها مصالح عربية. وفي الوقت نفسه ما لبثت مجموعات أصغر، عربية العضوية حصراً، أن تشكلت لتحديد المصالح العربية في إطار الإمبراطورية. وكانت هذه المجموعات تضم منظمات علنية وأخرى سرية. ومن بين الأولى كانت جمعية الإخاء العربي ـ العثماني التي تأسست في إسطمبول عام (1908 م) وجرى حظرها بعد الثورة المضادة، والمنتدى الأدبي الذي تأسس في إسطمبول عام (1909 م) وحزب اللامركزية الإدارية العثماني الذي تأسس عام (1912 م) في القاهرة. أما المنظمات السرية فقد ضمت كلاً من جمعيات القحطانية والفتاة والعهد.[47]

من المؤكد أن عبد الله كان معادياً لجمعية الاتحاد والترقي ومتعاطفاً مع الاتحاد الليبرالي. غير أنه لم يدرج اسمه في قائمة أعضاء هذا الأخير، كما لم يلعب أي دور مهم في المناورات السياسية البرلمانية. فقد وصف فترتيه الأوليين بـ «فترتي معاينة واستكشاف»[48] غير أن فتراته اللاحقة لم تشهد هي الأخرى أية مشاركة متزايدة. فالتقارير الصحفية عن النشاطات البرلمانية، فضلاً عن سائر اليوميات والمذكرات العائدة لتلك الأيام، لم تورد أي ذكر له. وتعليقات المراقبين البريطانيين كانت سلبية؛ ثمة عبارة أوردها أحد أولئك المراقبين تقول: «بات مفهوماً أن العضوين اللذين يمثلان مكة لم يفعلا أي شيء في البرلمان».[49]

كذلك ليس ثمة ما يشير إلى أن عبد الله كان عضواً في أية جمعية عربية قبل عام (1914 م).[50] غير أنه كان شاعراً بوجود كتلة متنامية من المصالح التي تعتبر عربية. فضغط الهواجس العربية في الإمبراطورية ما لبث أن بات ينعكس على جملة السياسات العثمانية بأشكال مختلفة. إن مشروعاً متمتعاً بموافقة مجلس الوزراء يقضي بدمج شركة الحميدية العثمانية البحرية على الفرات بشركة لينتش البريطانية، مثلاً، جوبه بقوة من قبل المندوبين العرب الذين توجسوا من التوسع البريطاني في العراق. وما لبثت سلسلة من المظاهرات أن تفجرت في كل من بغداد والبصرة وأجبرت الصدر الأعظم على الاستقالة لتمكين خلفه من إلغاء الامتياز الممنوح لشركة لينتش.[51] وكذلك فإن المندوبين العرب عبروا عن القلق في البرلمان إزاء المحاولات المبذولة من جانب المنظمات الصهيونية لشراء الأراضي في فلسطين بغية توطين المهاجرين اليهود، وتمكنوا من استصدار تشريعات تفرض القيود على بيع الأراضي للأجانب.[52] ولكن أقوى الدلائل على أهمية العرب برز على السطح حين دخلت الإمبراطورية في حرب مع إيطاليا حول ليبيا في عام (1911 م) لأن: «الحكومة المتهمة أساساً... بأنها مفرطة في عثمانيتها وشديدة النزوع إلى تجاهل وإهمال مصالح الأعراق

الأخرى، وخصوصاً العرب، في الإمبراطورية، ما كانت لتستطيع قط أن تتنازل عن إقليم عربي لقوة مسيحية. فقد كان من شأن ذلك أن يؤدي إلى هبة جماعية في سائر الأقاليم العربية في الإمبراطورية ضد الحكومة».[53] وجملة الخسائر الإقليمية في البلقان في عامي (1912 و1913 م) كانت قد أكدت أهمية العرب في الإمبراطورية المتقلصة.

كانت الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة فترة زيادة أهمية العرب في الإمبراطورية من جهة، وتصاعد الاستياء والتنظيم الذاتي العربيين من جهة ثانية. وكان عبد الله قد رأى علائم الاستياء الأولى في دمشق في عام (1909 م)، كما أن صديقه خديوي مصر عباس حلمي نبهه إلى وجود الفكرة العربية في عام (1911 م). ففي ربيع ذلك العام كانت الحكومة العثمانية قد طلبت من الحسين أن يلتحق بركب حملة موجهة إلى منطقة عسير المتمردة الواقعة إلى الجنوب من الحجاز مباشرة. والحسين الذي رأى في الأمر فرصة لتوسيع نفوذه تحت وصاية الإمبراطورية استجاب للطلب، واستدعى عبد الله الذي كان في إسطمبول لحضور جلسات البرلمان إلى مكة ليكون إلى جانبه. وفي طريقه إلى مكة توقف عبد الله كعادته في مصر لزيارة الخديوي. كان عباس حلمي ميالاً إلى تأييد المتمردين، وحذر عبد الله أن من شأن الرأي العام العربي أن يكون ضده في أية حملة يشارك فيها ضد إخوانه العرب. ونصح عبد الله بأن يؤجل الحملة متذرعاً بحر الصيف ولكن عبد الله رفض النصيحة.[54]

وكذلك فإن متصرف عسير العثماني سليمان باشا كان أيضاً ضد تدخل الحسين ولكن لأسباب مختلفة. كان المتصرف مقتنعاً، وأوصل قناعته إلى الباب العالي، بأن اهتمام الحسين بعسير لم يكن إلا لأسباب شخصية، وبأنه لن يلبث أن يظهر بمظهر الرجل الذي استعاد السيطرة العثمانية في سبيل ترسيخ وجوده هناك.[55] ولكن تلك المخاوف أُهملت، وإن لم تُرفض كلياً، لأن الحاجة إلى مساعدة الحسين كانت ماسة.

وصل الحسين مصحوباً بعبد الله وفيصل إلى قنفذة على شواطئ عسير أوائل شهر أيار. كانت مهمته متمثلة بفتح الطريق إلى أبها عاصمة الإقليم، حيث كان سليمان باشا محاصراً. كانت الأنباء الواردة من أبها بالغة السوء، فتم على الفور تجريد فريق نجدة مؤلف من ثلاثة أفواج نظامية بقيادة ضابط عثماني، وأربعمائة خيال عربي بقيادة عبد الله. وعلى بعد ست ساعات عن قنفذة إلى العمق عند قرية قوز فوجئ فريق النجدة بقوة متمردين مؤلفة من ستمائة رجل. أصيب الفرسان العرب الذين كانوا تحت قيادة عبد الله بالرعب وولوا أدبارهم هاربين. أما المشاة الأتراك الذين بقوا فقد خسروا أربعة ضباط ومائة من الجنود في أرض المعركة؛ فضلاً عن أن مزيداً منهم قضوا عطشاً في أثناء الانسحاب. ولم يعد من الأفواج التركية الثلاثة إلى قنفذة سوى سبعين رجلاً.

أدى إخفاق الفرسان العرب في الصمود مع الطابور التركي إلى حصول شرخ بين القوات التركية ونظيرتها العربية، وإلى زيادة عدم ثقة الأتراك بالحسين. فسليمان باشا عزا الهزيمة إلى افتقار الحسين للاستعداد، إذ لم يكن يعرف المنطقة أو تضاريسها، كما لم يكن قد استطلع لمعرفة طبيعة القوات المتمردة ومدى قوتها، فضلاً عن أنه، وهذا هو الأكثر انطواء على المأساة، لم يكن قد أمن مؤونة كافية من الماء لوحدات المشاة الأتراك. أما عيوب عبد الله كقائد فرسان في عسير فقد كشفت عن الافتقار إلى المهارة والخبرة العسكريتين، الأمر الذي كان من شأنه أن يكلفه غالياً في المستقبل.

استغرقت عملية إعادة تجميع القوات العثمانية، بما فيها أفواج جديدة من إسطمبول واليمن، في قنفذة، مدة خمسة وعشرين يوماً. وفي أواخر أيار تحركت هذه القوات كما في المرة الأولى باتجاه أبها عبر قوز. وهذه المرة كانت فرقة الفرسان الشريفية بقيادة شريف ذي قرابة بعيدة لأل الحسين يدعى زيد بن فواز كان قد خدم عبد الله تحت إمرته فيما مضى. وكما في السابق اعترضت القوات المتمردة سبيلها في مكان قريب من قوز، غير أن

القوات العثمانية وحليفاتها العربية كانت مظفرة هذه المرة. وما إن تم ضمان قوز حتى بادر الحسين الذي كان قد تخلف في قنفذة إلى الالتحاق بالقوات لتولي أمر قيادة تقدمها للانقضاض على أبها.

تم الوصول إلى أبها في منتصف تموز. صحيح أن المؤن والتجهيزات والقوات الجديدة شكلت نجدة جديرة بالترحيب، ولكن الوضع العسكري في عسير ظل على حاله دون أي تغيير أساسي فضلاً عن أن المتمردين لم يستسلموا. اتبع الحسين طريقاً أخرى للعودة عبر الجبال إلى الطائف التي دخلها دخول الظافرين، جنباً إلى جنب مع عبد الله وفيصل، على رأس فرقة الفرسان العرب في السابع عشر من آب. ولكن الرجل كان قد أخفق في أن يخلف أثراً من آثاره في عسير. وكما قال المتصرف العثماني فإن حملة الحسين كانت أشبه «بمركب في الماء، مقدمته تقطع الموج جهة الأمام والماء يعود إلى تناغمه جهة الخلف دون أن يبقى سوى أثر شاحب لا يلبث أن يتلاشى».[56]

ومع ذلك فإن الحسين بعد غزوة عسير ما لبث أن أصبح، حسب تعبير القنصل البريطاني «أكثر استقلالاً... ومرشحاً لأن يثير كثيراً من المشكلات للحكومة».[57] أما بنظر الحسين فإن الحكومة هي التي كانت دائبة بعناد على تضييق مجال صلاحياته. ففي الصيف الذي سبق حملة عسير كان محافظ المدينة العثماني علي رضا باشا الركابي، قد أعلن أن نائب الشريف حسين في المدينة لم تعد له أية وظيفة في المدينة، مضمراً أن المدينة لم تعد تعتبر خاضعة لسلطته. ونيابة عن الحسين الذي كان مشغولاً بمشكلات قبلية على الحدود بين الحجاز ومنطقة نجد الواقعة وسط الجزيرة العربية، أبرق عبد الله إلى إسطمبول طالباً تفسيراً لإعلان محافظ المدينة. فرد الباب العالي قائلاً: إن الحسين كان مسؤولاً عن الحجاج بين مدائن صالح (الواقعة شمال المدينة) والجنوب، ولكن دون إدارة شؤون المدينة. وبما أن البرق والخط الحديدي كانا قد ضمنا سرعة الاتصالات بين المدينة وإسطمبول، فإن محافظة المدينة كانت ستعتبر مفصولة عن الحجاز للأغراض الإدارية

وسيجري إلحاقها بوزارة الداخلية مباشرة.[58] باختصار كانت الاتصالات الحديثة قد وفرت إمكانية فصل مهمات الحسين الإدارية عن واجباته الدينية، حيث باتت الأولى عائدة بصورة مباشرة إلى الحكومة المركزية. وبعد حملة عسير كانت ثمة كثرة من المشكلات بين القبائل في المدينة وحولها، وقد قيل إن الحسين كان محبذاً لهذه الاضطرابات باعتبارها وسيلة لتشويه سمعة الترتيبات الإدارية الجديدة ولإجبار إسطمبول على مطالبته بالتدخل.[59]

خلال الفترة الممتدة بين حملة عسير في عام (1911 م) واندلاع الحرب العالمية الأولى في عام (1914 م) ظلت العلاقات بين مكة وإسطمبول متوترة. ولكن الإمبراطورية لم تبادر إلى فرض إرادتها على الحسين بالقوة، نظراً لانشغالها بحرب البلقان والحملة في ليبيا. ومع حلول عام (1914 م) كانت ليبيا والبلقان قد ضاعتا، فبدأت إسطمبول تعزز قبضتها على ما بقي من الإمبراطوزية وخصوصاً على الأقاليم العربية. ففي أوائل العام تم تعيين والٍ جديد للحجاز، وجرى إرساله إلى هناك مزوداً بأمرين يقضيان بتطبيق قانون الولايات الجديد (الصادر في عام (1912 م) على الحجاز من جهة، وبتأمين موافقة الحسين على إيصال خط الحديد الحجازي إلى مكة من جهة ثانية. وكان كل من هذين الأمرين منطوياً على التهديد بالنسبة للحسين؛ فقد كان من شأن الأول أن يفضي إلى إلغاء صلاحيات الشريف تحت ذريعة تحقيق التماثل الإداري؛ كما كان من شأن الثاني أن يؤدي إلى تمكين الحكومة من الوصول بسهولة إلى مكة ومن إحكام قبضتها عليها. كما أن تعزيزات القوات المرسلة مع الوالي الجديد، والتي دلت على وجود تصميم جديد لدى إسطمبول على ضمان سيادة إرادتها كانت أكثر انطواء على الخطر والتهديد بالنسبة للحسين.

في ذلك الوقت كان عبد الله في طريقه إلى إسطمبول عبر القاهرة لحضور افتتاح البرلمان الذي تأجل ذلك العام إلى شهر أيار بسبب الانتخابات. وفي البحر الأحمر مر بالباخرة الضاجة بالجنود التي أقلت

الوالي الجديد إلى الحجاز. وقد ترك المشهد انطباعاً لا يمحى لديه.(60)

وفي القاهرة أقام عبد الله ضيفاً عند الخديوي كعادته. وهناك في الخامس من شباط، اجتمع باللورد كيتشنر، القنصل العام والوزير المفوض مطلق الصلاحيات البريطاني في مصر.(61) وكان عبد الله مشغول البال كثيراً بالتطورات الأخيرة في الحجاز فسأله عما: «إذا كان... [السير إدوارد غري، وزير خارجية بريطانيا] سيبذل مساعيه الحميدة لمنع الباب العالي من عزل والده، في حال تزايد حدة هذه الاحتكاكات، وقيام الحكومة ببذل مثل هذه المحاولة». وحسب كلام كيتشنر فإن عبد الله:

... أكد بكثير من القوة على أن القبائل العربية في الحجاز كانت مستعدة للقتال دفاعاً عن الشريف، في حال قيام الحكومة التركية بخلع والده... [و]... عبر عن الأمل في أن تبادر الحكومة البريطانية، في مثل هذه الظروف، إلى الحيلولة دون إرسال التعزيزات عن طريق البحر، بهدف منع العرب من ممارسة الحقوق، التي طالما تمتعوا بها منذ الأزل في وطنهم حول الأماكن المقدسة.(62)

وعلى الرغم من أن روايتي كيتشنر وعبد الله(63) تختلفان حول من منهما دعا بِدأً إلى اللقاء، فإن الروايتين تتفقان على أن كيتشنر راوغ اقتراح إمكانية قيام بريطانيا بتوفير الدعم لشريف مكة متذرعاً بسياسة بريطانيا التقليدية القائمة على تأييد سلامة الوحدة الإقليمية للإمبراطورية العثمانية.

وما لبث الحسين والوالي الجديد وهيب بك أن تصادما فيما كان عبد الله ما يزال في القاهرة. أصدر الوالي أمراً يقضي بإعادة أسلحة الشرطة العربية التابعة للحسين إلى قوته التركية الرسمية، وفرض قيوداً على صلاحيات الحسين في مجال الحكم وفرض العقوبات بشأن القضايا المحلية. وبحفز من الحسين ثارت القبائل القريبة من مكة، وقطعت الطريق الممتدة بين جدة ومكة، وما لبث الممثل الرئيسي لجمعية الاتحاد والترقي بمكة أن

قُتل. وكانت ذريعة حركة التمرد هذه متمثلة بمعارضة القبائل لتمديد خط الحجاز الحديدي، الذي كان من شأنه أن يحرم تلك القبائل من مغانم النقل بقوافل الجمال.(64) توفرت إمكانية تجنب الأزمة مؤقتاً بفضل برقية أرسلها الصدر الأعظم مؤكداً حقوق الحسين في الحجاز، ومرجئاً الحل النهائي لمسألة تمديد سكة الحديد. وفي الوقت نفسه كان عبد الله قد جرى استدعاؤه من القاهرة إلى إسطمبول للتفاوض حول إيجاد نوع من الحل الوسط لمشكلة الخط الحديدي.(65)

وصل عبد الله إلى إسطمبول متوجساً مما كان ينتظره هناك منتصف آذار. غير أن كلاً من الصدر الأعظم ووزيري الحرب والداخلية الذين التقى بهم كانوا لطفاء متساهلين. فقانون الولايات كان مرفوضاً تقريباً - إذ لم يكن البرلمان قد أقره بعد، ولم يكن، في الحقيقة، إلا حبراً على ورق - وعرضوا على الحسين جملة من التنازلات مقابل تعاونه في مد السكة الحديدية. كان الحسين سيُمنح المنصب مدى الحياة وسيورثه لأبنائه من بعده، وسيعطى مبلغ ربع مليون ليرة ذهبية لشراء ولاء القبائل، وثلث موارد سكة الحديد لانفاقه كما يشاء، كما كان سيتولى قيادة قوات الأمن المرسلة لحماية الخط الحديدي في أثناء عملية البناء.(66)

عاد عبد الله إلى الحجاز حاملاً هذه الرسالة. ورغم أنه كان قد أُنذر قبل انصرافه أن لا يسافر عن طريق مصر وأن لا يقابل كيتشنر أو أي ممثل بريطاني في حال تعذر المرور بتلك البلاد. غير أن عبد الله توقف في مصر في كل الأحوال وقابل رونالد ستورز، سكرتير الشرق في القنصلية البريطانية، بغية معرفة المزيد عن المواقف البريطانية من النزاع بين مكة وإسطمبول. وفي المقابلة قام عبد الله بإبلاغ ستورز أن أباه كلفه بمناقشة إمكانية التوصل إلى اتفاق مع بريطانيا حول ضمان بقاء الوضع في الجزيرة العربية على حاله في مواجهة أي (عدوان تركي سافر) ولكن ستورز لم يكن قادراً على أن يعده بشيء.(67)

قام عبد الله بإيصال عرض الباب العالي جنباً إلى جنب مع نتائج لقاءاته في مصر مع ممثلين بريطانيين إلى أبيه، الذي راح يسوف ويماطل عازفاً عن قبول شروط إسطمبول أو رفضها. وفي آب جرى استدعاء عبد الله ثانية إلى إسطمبول. لبى الدعوة ولكنه لم يحمل في جعبته سوى استراتيجية رامية إلى التأجيل ـ استراتيجية قائمة على اقتراح يقضي بضرورة تشكيل لجنة لدراسة المسألة ـ وقدّم تلك الفكرة إلى الصدر الأعظم.[68] إلا أن عبد الله كان قد وصل إلى إسطمبول بعد يومين اثنين من اغتيال الأمير فرانسيس فيرديناند بمدينة سيراييفو. هنا تدخلت أحداث أوربا وأدت إلى إرجاء أي مزيد من المماحكة حول مد سكة حديد الحجاز. أما عبد الله فسارع الآن إلى العودة ليراقب عملية نشوب الحرب عن بُعد.

بعد شهرين كان الحسين وولداه عبد الاله وزيد على مائدة العشاء في قصر الطائف، حين تم الإعلان عن وصول ضيف أجنبي.[69] كان ذلك الغريب رسولاً بعثه رونالد ستورز من القاهرة إلى عبد الله للاستفسار عما كان ممكناً حدوثه في الحجاز إذا قررت الإمبراطورية العثمانية، وهي ستفعل على ما يبدو، أن تدخل الحرب في صف النمسا وألمانيا.

كانت مضاعفات مثل هذا السؤال كثيرة جداً. وجاء الجواب الذي اقترحه مجلس العائلة بعد طول نقاش ودي. فقد رد عبد الله قائلاً: إن «شعب الحجاز سيقبل وسيكون راضياً باتحاد أوثق مع بريطانيا العظمى... نظراً لإهمال القسطنطينية الشنيع للدين ولحقوقه... وأن بريطانيا العظمى ستحتل المرتبة الأولى في عيون [الحجازيين] مادامت ملترمة بحماية حقوق بلدنا... واستقلاله».[70] وما إن وصل هذا الرد عن طريق ستورز إلى لندن حتى تمخض فوراً عن رسالة أخرى، كانت مثل سابقتها موجهة إلى عبد الله، اقترحت على الحسين التحالف مع بريطانيا مقابل الوعد بحماية منصبه كشريف لمكة، وبتأييد العرب عموماً في نضالهم من أجل الاستقلال. وألمحت الرسالة أيضاً إلى أن بريطانيا كانت ستنظر بعين الرضى إلى تولي

الحسين للخلافة [الإسلامية] [بدلاً من السلطان!].[71] كان رد عبد الله عاماً متضمناً أن أباه صديق لبريطانيا، ولكنه بحاجة إلى المزيد من الوقت من أجل الإعداد للإقدام على مثل هذه الخطوة.[72]

بالنسبة إلى بريطانيا كان هذا التبادل للرأي بداية لا بأس بها. وكما جاء في تعليق السير ريجينالد وينغيت، حاكم السودان العام، على الجهود المبذولة من قبل ستورز فإن «تعامله مع مكة يشكل بشير خير للمستقبل، وأعتقد أن من شأن بضع هزائم قاسية أن تدفع العرب باتجاه الإمساك بزمام القانون بأيديهم».[73]

3) الثورة العربية

لم يحقق وينغيت هذه الانتصارات القليلة المغرية التي ادعاها، كما أن والد عبد الله كان، على أية حال، متحلياً بقدر أكبر بكثير مما تصوره وينغيت من الحذر والحيطة. فالشريف حسين لم يستخف بأمر الثورة على الإمبراطورية العثمانية على الرغم من مشكلاته الأخيرة مع حكومة الاتحاديين. ولم يبادر إلى المراهنة على بريطانيا أخيراً، إلا بعد أن شعر بأن سائر المعابر المارة بإسطمبول والموصلة إلى طموحاته باتت مسدودة. وحتى بعد ذلك فإنه لم يقطع صلاته مع تركيا بصورة كاملة.

كانت طموحات الحسين شديدة البساطة والاطّراد. فمنذ عام (1908 م) لم يكن قد حاد قيد أنملة عن تطلعه إلى أمارة وراثية مستقلة ذاتياً في الحجاز، تكون في مأمن من أية انتهاكات إدارية عثمانية من جهة، ولكنها متمتعة، من الجهة الأخرى، بتفضيل العثمانيين لها على الإمارات المجاورة. وبين جميع أبنائه كان عبد الله الأكثر طموحاً نيابة عنه. أما "المهماز" الذي كان يخز أباه، إن لم يكن العقل المدبر الكامن وراءه، فقد كان تقويم تي. إي.لورنس له في لقائهما الأول في عام (1916 م) حيث قال: «من الواضح أنه يسعى إلى تحقيق عظمة العائلة، ولديه أفكار كبرى، منها تقدمه الخاص دون شك».[1] وقد كان عبد الله وسيط الحسين الرئيسي في علاقاته مع العثمانيين بين عامي (1908 و1914 م). كما أنه كان أول من لفت نظر بريطانيا إلى موقف أبيه وتطلعاته. وقبيل اندلاع الحرب كان قد اشتهر بتدبير خطة لأخذ الحجاج رهائن أملاً في الحصول على ضمانات، إما عثمانية أو أوربية تكفل الاستقلال الذاتي مقابل إطلاق سراحهم.[2] غير أن الحرب ما

لبثت أن أحبطت المؤامرة حين أدت إلى وقف سيل الحجاج.

وفي الوقت نفسه أتاحت الحرب فرصاً جديدة للشريف حسين، ولعبد الله من ورائه، على صعيد تحقيق الاستقلال الذاتي في الحجاز والهيمنة في الجزيرة العربية. فما إن التحقت الإمبراطورية العثمانية بركب ألمانيا والنمسا في تشرين الأول من عام (1914 م) حتى أصبح تأييده في المجهود الحربي ورقة مساومة في مفاوضاته الرامية إلى الفوز بأهدافه البعيدة. لم يكن الأتراك العازمون على وحدة الإمبراطورية مستعدين لتقديم ما كان الحسين يريده ثمناً لولائه الذي زعموا أنه من حقهم. وقد كانوا يخشون من أن يؤدي خضوعهم لمطالب الحسين إلى سلسلة من ردود الأفعال المتمثلة بمطالب مشابهة من شأنها، آخر المطاف، أن تفضي إلى إضعاف نسيج إمبراطوريتهم. أما بريطانيا فقد كانت قادرة على أن تقدم ما هو أكثر، فضلاً عن إن الحسين طالبها بذلك، لا طمعاً وشرهاً، بل لأن المخاطر الكامنة في هدم صرح الهوية والمشروعية العثماني المبني بعناية كانت أكبر بكثير. فسعي قائد مسلم إلى التحالف مع قوة مسيحية في سبيل تمزيق وتفتيت الدولة الإسلامية الأولى في تلك الفترة كان يتطلب تبريراً مقنعاً وقوياً. لم يكن الطموح الشخصي سبباً كافياً، ولا سيما بالنسبة لشريف مكة المعتمد على دعم مسلمي سائر أرجاء العالم ومباركتهم، لتحدي الإمبراطورية العثمانية.

وفي هذه الظروف الخطرة تعين على الحسين أن يهتدي إلى هوية جديدة غير الهوية العثمانية، هوية قادرة على كسب تأييد وتعاطف ليس فقط الحجازيين، بل ودائرة أوسع من المؤمنين.وتعين عليه أيضاً أن يجد تسويغاً، قضية تاريخية كاسحة تكون ضرورتها الأخلاقية والمعنوية قادرة على إغراق أي انتقاد. وكعربي من سلالة النبي، ما لبث أن اهتدى إلى مثل هذه الهوية والقضية في فكر القومية العربية الناشئة. فهذه الحركة التي ولدت وترعرعت في كل من دمشق وبيروت والقاهرة وفرت مشروعية الهدف، وإطاراً واسعاً للعمل من أجل تبرير طموحات الحسين الملكية، وإضفاء صفة النبل

عليها.[3] وبالتالي فإن الرجل الذي كان قد عمل أداة بيد الإمبراطورية العثمانية لمحاربة العرب في عسير قبل الحرب بثلاث سنوات، ما لبث أن أصبح بطلاً عربياً يقود العرب ضد الإمبراطورية العثمانية. أما الثمن الذي طلبه من بريطانيا مقابل تمرده فلم يكن أقل من مملكة عربية مستقلة.

تتفق المصادر على أن عبد الله كان الأشدّ حماساً للتحالف مع بريطانيا.[4] ومن بين أفراد أسرته كان بالتأكيد معروفاً أكثر من الآخرين لدى البريطانيين، بفضل اللقاءات التي أجراها قبل الحرب مع كل من كيتشنر وستورز في القاهرة. كما كان الشخص الذي وجهت إليه بريطانيا تلك الرسائل الأولى المستكشفة لإمكانية عقد تحالف حربي في خريف عام (1914 م) والذي دفعت له بريطانيا مبلغ (13000) جنيه رشوة وعربوناً في ربيع من عام (1916 م) قبيل إعلان الثورة العربية.[5]

أما من كانت له أفضل الصلات بالقوميين العرب فقد كان شقيق عبد الله الأصغر فيصل. ففي ربيع عام (1915 م) فيما كان الحسين ما يزال يقلب مقترحات بريطانيا الأولية، كان فيصل قد أرسله أبوه إلى دمشق وإسطمبول لتحري الأوضاع. وفي دمشق اتصل بالجمعية القومية المعروفة باسم الفتاة. ولدى عودته إلى مكة قرر مجلس العائلة استئناف المراسلات التي أطلقتها بريطانيا في الخريف الماضي، بهدف إنشاء تحالف يكون ضد العثمانيين.

وما إن تم اتخاذ ذلك القرار، حتى بادر عبد الله وأخواه علي وفيصل إلى تقاسم المهمات فيما بينهم. أعيد فيصل إلى دمشق لتعزيز التأييد القومي هناك. وانطلق علي، أخو عبد الله الأكبر، إلى المدينة لتنظيم القبائل التي كانت على خلاف مع إسطمبول حول مسألة خط الحجاز الحديدي منذ عام (1908 م). أما عبد الله فاضطلع بمهمة تعبئة القبائل الموجودة في منطقة مكة ـ الطائف المناسبة لقربها، بما يمكنه من الاستمرار في تشجيع والده وتقديم المشورة إليه.[6]

في الرابع عشر من تموز من عام (1915 م) أطلق الشريف حسين ما بات معروفاً اليوم باسم (مراسلات حسين ـ مكماهون). وهذا التبادل لثماني رسائل بينه وبين السير هنري مكماهون، المفوض السامي البريطاني في مصر، خلال الفترة الممتدة من تموز (1915 م) إلى كانون الثاني من عام (1916 م) حدد الخطوط العامة لما كان يستطيع توقعه من بريطانيا لصالح العرب ثمناً للتمرد على الإمبراطورية العثمانية والخروج عن طاعتها. وافق البريطانيون على أن يكون الحسين ناطقاً باسم العرب لأن ذلك كان يلائمهم في ذلك الوقت. فنظراً لأعداد المسلمين الخاضعة للحكم البريطاني في الهند ومصر، كانت بريطانيا تخشى من احتمال أن يؤدي أي نداء للجهاد صادر عن السلطان إلى حفز حركة عصيان معادية لها داخل إمبراطوريتها، في الوقت الذي كانت بأمس الحاجة إلى كل قوتها، من أجل التصدي للأعداء الخارجيين. وبتحالف شريف مكة مع بريطانيا كان قادراً عملياً على شق صفوف المسلمين، وتقسيم ولاءاتهم، وإفراغ أية دعوة إلى الجهاد من المعنى.

استهدفت مراسلات حسين ـ مكماهون تحديد مناطق النفوذ وتوزيعها بين الحسين من جهة وبريطانيا وحلفائها الراسخين من الجهة المقابلة. وبدأ الحسين بالتخطيط لمملكة عربية مستقبلية ممتدة بين البحرين الأبيض المتوسط والأحمر غرباً وإيران والخليج الفارسي شرقاً، ومن خط العرض (37) شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً، باستثناء عدن التي اعتُرف بالوجود البريطاني فيها. في البداية أرادت بريطانيا تجنب مناقشة الحدود الإقليمية غير أنها ما لبثت، بعد التعرض للضغط، أن أخرجت من خارطة الحسين الإقليمية الواسعة كلاً من المناطق الساحلية الواقعة إلى الغرب من الخط الممتد من حلب إلى دمشق ماراً بكل من حماه وحمص أولاً، ومرسين واسكندرونة اللتين «يتعذر اعتبارهما عربيتين خالصتين» ثانياً، وولايتي بغداد والبصرة اللتين ادعت بريطانيا لنفسها فيهما مصالح خاصة ثالثاً.

وبشيء من الغموض قامت بريطانيا أيضاً باستبعاد أية منطقة قد تكون لفرنسا فيها مصالح خاصة. من الطبيعي أن الحسين لم يوافق على تحديد بريطانيا ما كان أو ما لم يكن (عربياً خالصاً)، على الرغم من قبوله باستبعاد أضنة ومرسين ولكن دون اسكندرونة. وفي سبيل التوصل إلى أساس للتحرك المشترك بأقصى سرعة ممكنة، جرى الامتناع عن التوقف طويلاً عند نقاط الاختلاف المتبقية، مثل ولايتي بغداد والبصرة والمناطق الواقعة إلى الغرب من خط دمشق ـ حلب، وتفضيل إرجاء مناقشتها إلى المستقبل (في الوقت المناسب) أو (حين تدق ساعة إنجاز السلام). ختم مكماهون بالقول في رسالته الأخيرة إلى الحسين أن أساس التحالف تم بذلك إرساؤه، وأنه يترك للحسين (حرية اختيار أنسب الفرص للمبادرة إلى اتخاذ خطوات أكثر حسماً).(7)

وفيما كان الحسين يراسل مكماهون، حافظ قدر الإمكان على علاقات طبيعية مع إسطمبول. لقد كان للجلوس على السور (للتذبذب) بعض الفوائد. ففي ربيع عام (1916 م) مثلاً تنعم بفرحة استلام خمسين ألفاً من الجنيهات الإسترلينية من لندن من جهة، وحوالي خمسين إلى ستين ألفاً من الليرات الذهبية من إسطمبول من الجهة الثانية.(8) غير أن الأخيرة لم تكن مستعدة لرفع ثمن ولاء الحسين لجعله شاملاً جملة التنازلات السياسية التي طالب بها في الحجاز، على الرغم من أنها زودته بالمال.

ما لبث العزوف عن التحرك الحاسم بطريقة أو بأخرى أن أصبح أمراً صعباً بالنسبة للحسين مع استمرار الحرب. فإسطمبول راحت تضغط عليه طالبة منه إرسال المجندين الحجازيين دعماً للمجهود الحربي، مع تأكيد الدعوة إلى الجهاد بوصفه شريف مكة. وفي الوقت نفسه كثّف العثمانيون من اضطهادهم للقوميين العرب الذين كان فيصل يتعامل معهم بالذات، في كل من دمشق وبيروت. ولدى قيام بريطانيا بحظر شحنات المواد الغذائية إلى الحجاز من الموانئ المصرية والسودانية للحيلولة دون وصول المهربات الممنوعة

إلى القوات التركية،[9] اضطر الحسين، أخيراً، لأن يكشف عن حقيقته، معلناً انطلاق الثورة العربية في العاشر من حزيران من عام (1916 م).

في غضون أيام بعد إعلان الثورة سقطت مكة وجدة بيد الحسين. وكان الفضل كله في هذه الانتصارات السهلة وشبه الخالية من إراقة الدماء يعود إلى موسم الصيف، لأن الحامية التركية كانت قد انسحبت إلى مصيفها الكائن في الطائف. وقد شكل استسلام الأخيرة لعبد الله بعد حصار دام ثلاثة أشهر الانتصار الحقيقي الأول للثورة.

ورغم حماسه الشديد لإعلان الثورة فقد كان عبد الله متهاوناً تهاوناً ملحوظاً على صعيد تنفيذها عملياً. فالمراقبون البريطانيون علقوا قائلين: إن الطائف كانت ستسقط بسرعة لو كان العرب أكثر حزماً، ملاحظين، بشيء من السخط، أن عبد الله كان قد قرر أن يضيع الوقت بدلاً من أن يتكبد الخسائر في الأرواح.[10] وبالفعل فإن الحصار لم يكن إلا أمراً متقطعاً.[11] ففي ساعة الفجر من كل صباح كانت المدفعية المصرية المرافقة لعبد الله تقصف أسوار المدينة، وبعد انتهاء القصف، كان حوالي أربعة آلاف خيال من البدو يقومون باستعراض فنون الفروسية تحت أنظار المدينة ولكن خارج مدى النيران التركية. وبعد هذا الطقس اليومي كان الأتراك يستغلون ما بقي من النهار والليل في إصلاح أي تدمير حاصل في الأسوار دون التعرض لأي إزعاج حتى حلول موعد قصف الصباح التالي.

كان معسكر عبد الله جيد التموين بالفواكه والخضار الطازجة المأخوذة من البساتين الواقعة خارج أسوار الطائف. ومع نفاذ المخزونات الغذائية في المدينة، سُمح للأهالي بالخروج آمنين، وبعبور خطوط عبد الله والاستقرار في القرى القريبة أو مكة انتظاراً لساعة استسلام الأتراك.وعند استسلام الطائف، أخيراً، في الثالث والعشرين من أيلول، جرى التعامل مع الحامية

التركية المؤلفة من ثلاثة وثمانين ضابطاً، واثنين وسبعين موظفاً مدنياً، وألف وتسعمائة واثنين وثمانين جندياً، بقدر مفرط من التكريم والاحترام. فلربما كان عبد الله في حرب مع الإمبراطورية على الصعيد الرسمي، ولكنه كان حريصاً على الاحتفاظ بعلاقات سليمة ملاذاً له من المستقبل الذي يتعذر التكهن بما سيحمله.

بعد استسلام الطائف عاد عبد الله عودة الظافرين إلى مكة. ومن هناك ذهب إلى جدة لمناقشة خطوات الثورة التالية مع رونالد ستورز، سكرتير الشرق في المفوضية البريطانية السامية بمصر، الذي كان قد جاء لهذا الغرض برفقة تي. إي. لورنس. وجراء تحذيره من انتشار الحمى في المدينة، عسكر عبد الله على بعد أربعة أميال خارجها. كان معسكره مؤلفاً من ست خيم كبيرة، أربع منها دمشقية الحياكة، واثنتين من صنع مصانع (موير) الهندية. ومسكنه الشخصي كان خيمة دمشقية مزدوجة ذات ثمانية أضلاع أحدها مدخل وآخر باب يفضي إلى حجرة النوم. وكانت الجدران مزينة بنقوش وزخارف زاهية الألوان من رسوم الطيور والورود ومن العبارات الداعية إلى الفضيلة والعدل والشاجبة المستنكرة للاستبداد والظلم، كما أن فتحة مشبكة مربعة كانت تورد الأنسام الندية. فضلاً عن أن خطاً هاتفياً كان قد تم تمديده لوصله بجدة تأميناً لراحته.

قام ستورز بزيارة عبد الله أولاً فوجده هو هو دون أي تغيير، منذ لقائهما الأخير في مصر قبل عامين ونصف. وعلى رأسه كوفية حريرية صفراء، مرتدياً ثوباً حريرياً أبيض، ولافاً جسده بعباءة مصنوعة من وبر الجمال ومنتعلاً حذاء من الجلد الأصلي، رحب عبد الله بضيفه وقاده إلى خيمته داعياً إياه إلى الجلوس على كرسي خشبي ذي قاعدة خيزرانية (يدعو للرثاء). ثم قدم له غداء أوربي الطراز، وفاجأه بقراءة عبارة (مصانع موير) المطبوعة على جدار خيمة الطعام بصوت مرتفع، مبيناً أنه كان يعرف الأحرف الفرنجية، غير أنه لم يكن يعرف أية من لغاتها. ودار الحديث حول

الحرب، وحول وفاة كيتشنر، ومصير صديق عبد الله الحميم عباس حلمي، الذي كانت بريطانيا قد أزاحته عن منصب الخديوية في عام (1914 م). عبر عبد الله عن الأمل في «أن تفعل بريطانيا شيئاً لصالحه [لصالح عباس حلمي]». كان اللقاء اجتماعياً خالصاً، إذ تم إرجاء العمل إلى حين قيام عبد الله برد الزيارة عن طريق الانتقال إلى مقر الإقامة البريطاني في جدة في وقت لاحق من ذلك اليوم.

لم يكن اللقاء الثاني ساراً وممتعاً مثل الأول، لأن ستورز كان يتعين عليه إبلاغ عبد الله أن بريطانيا كانت قد قررت ألا ترسل أية قوات أو طائرات إلى الحجاز، وأنه لم يكن يملك مبلغ العشرة آلاف جنيه، الذي كان عبد الله قد طلبه شخصياً ثمناً لكسب ود قبائل شمال الحجاز. وحسب ما جاء في رواية ستورز فإن:

> عبد الله تلقى الضربة كجنتلمان مهذب طالباً السماح له بعرض قضيته... وقدم خلاصة تاريخية دقيقة إلى حد كبير للمفاوضات، مكرراً وعد جلالة الملك جورج المتمثل بأنه كان سيفعل كل شيء ممكن لمساعدة العرب، مورداً بالنص عبارة واردة في إحدى رسائل [الميجر جنرال السير جون] ماكسويل (التي لم أرها قط) تضع تحت تصرفهم المطلق، فيما أذكر، أجزاء كبيرة جداً من الجيش البريطاني.

واختتم عبد الله السهرة متوسلاً ستورز والقنصل البريطاني في جدة سي. إي ولسُن. أن يرسلا برقية إلى لندن طالبين فيها بإلحاح إعادة النظر في مسألة إرسال القوات البريطانية إلى الحجاز «كأنه يظن في سذاجته أن بقدرتنا التأثير على قرار مجلس الحرب».

في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثاني استؤنفت المناقشات في مقر الإقامة، ولكنها لم تكن ذات فائدة مباشرة بالنسبة لعبد الله، لأن ستورز لم يكن قادراً عل استنزال القوات المطلوبة من السماء. ومع ذلك فإن انطباع ستورز عن عبد الله كان إيجابياً، إذ كتب عنه يقول «إنه ذكي ونشيط

وجذاب» فضلاً عن أنه نجح بعد عودته إلى القاهرة في تمكين عبد الله من الحصول على مبلغ العشرة آلاف من الجنيهات الإسترلينية.[12]

والانطباع الذي تركه عبد الله لدى تي. إي. لورنس كان أيضاً إيجابياً بصورة عامة. فقد تضمنت رسالته إلى مكتب بريطانيا العربي في القاهرة صورة نابضة بالحياة للرجل، حيث قال:

> إنه في الخامسة والثلاثين ولكنه يبدو أصغر سناً. إنه قصير القامة قوي البينة، يبدو قوياً مثل حصان، ذا عينين داكنتين جدلاوين، وحه مستدير ناعم، شفتين ممتلئتين ولكنهما قصيرتان، أنف مستقيم، لحية سمراء داكنة. إنه محبب وشديد الجاذبية لا يطيق الرسميات، ولكنه يلهو مع رجال القبائل كواحد من شيوخهم. في المناسبات الحادة يروز كلماته بعناية ويثبت أنه محاور دقيق... يعتبره العرب سياسياً بالغ الدهاء والمكر، ورجل دولة نافذ البصيرة: غير أن ما لديه من الأول ربما كان أكثر مما يتمتع به من الثاني في تركيبته.[13]

ولكن رأي لورنس عن عبد الله ما لبث أن تغير ليصبح أسوأ فيما بعد.

أصيب عبد الله وأبوه بالذعر لدى اكتشافهما لحقيقة أن حليفهما الجديد لم يكن كما توقعاه. وجراء الافتقار إلى الدعم المادي قررا الإمساك بالمبادرة المعنوية عن طريق إيجاد حكومة مستقلة في الحجاز على النمط الأوربي، حيث عُين عبد الله وزيراً للخارجية، وعلي رئيساً للوزارة [صدراً أعظم]، وفيصل وزيراً للداخلية. كان منصب عبد الله هو الأكثر أهمية، وقد دل بوضوح على موقعه الفريد في العلاقة بين عائلته وأولئك الذين ادعت تمثيلهم من جهة، وبين الحلفاء الأوربيين من الجهة الأخرى. وبغية البقاء على صلة بالشؤون المحلية فقد سعى إلى شغل منصب رئيس المجلس التشريعي على الرغم من أن تلك المؤسسة لم تصبح واقعاً في أي من الأوقات، في حين بقي أخوه الأكبر ووريث أبيه المفترض علي شبه مختف في ظل أبيه كرئيس للوزراء [صدر أعظم]؛ أما فيصل، أصغر الإخوة الثلاثة، فقد وُليّ منصباً دون مهمات واضحة.

لم يكن إيجاد مثل هذه المناصب الفخمة إلا تمهيداً لقيام الحسين بتبني لقب أفخم أيضاً. ففي التاسع والعشرين من تشرين الأول اجتمع العلماء [رجال الدين] وأعيان مكة في دار الحكم لإعلانه ملكاً على العرب. وكانت عملية تسويقه في أوربا على أنه ملك من وظائف عبد الله بوصفه وزيراً للخارجية. وبخدعة ذكية «كانت بالتأكيد من إفرازات خيال الأمير عبد الله الخصب»[14] تم جر عدد من الموظفين المسلمين الفرنسيين إلى المسرح اعتقدوا، نتيجة عدم فهمهم الجيد للهجة العربية الحجازية، بأن الأمر كان احتفالاً بالعام الهجري الجديد الذي كان في ذلك الوقت. فحين هنؤوا الحسين بالعام الجديد، كانوا دون وعي منهم يعبرون عن اعتراف فرنسا بلقبه الجديد. أما في الحقيقة فلم تعترف لا بريطانيا ولا فرنسا باللقب، جراء علاقاتهما بقادة عرب آخرين لم يكونوا مستعدين لأن ينظروا بعين الرضى إلى سيادة الحسين عليهم. وبعد خلافات دامت عدداً من الأشهر أصر عبد الله خلالها على طرح قضية أبيه بقوة وعناد، تم إبلاغ الحسين بإمكانية الاعتراف به ملكاً على الحجاز فقط.

ورداً على ذلك قال الحسين، إنه لم يكن يعلق أية أهمية على الألقاب على أية حال.[15] أما عبد الله فقد كان يفعل، أي يعلق أهمية كبيرة على الألقاب، بل وكان شديد الوضوح في بيان الأسباب الداعية لذلك. ففي اتصال هاتفي مع القنصلية البريطانية في جدة قام بشطب أسماء القادة العرب الآخرين واحداً بعد الآخر: فابن سعود لم يكن إلا شيخ قبيلة، ولم يكن الحسين يرغب في التدخل بعمله أو أرضه، أما الإدريسي في عسير فلم يكن يعترف به أحد على أنه أي شيء. وكان إمام اليمن يستطيع أن يحكم بلده، ولكنه لم يكن ليرفض فكرة تولي شريف مكة حكم الحجاز وحمله للقب ملك العرب. وفيما يخص القبائل العربية الأخرى لم تكن أية منها لتعارض فكرة صيرورة الشريف ملكاً للعرب، نظراً لأن تاريخ شريف مكة كان يعود إلى عهد المملكة العربية التي أسسها العباسيون.[16] باختصار لم

يكن عبد الله في المقام الأول يفكر بالأراضي العربية الشمالية التي كانت الموضوع الرئيسي لمراسلات حسين ـ مكماهون حين دفع أباه إلى تبني اللقب، إذ كان تفكيره منصباً، بالأحرى، على ميزان القوة في شبه الجزيرة العربية نفسه، حيث كان يتطلع إلى جعل أسرته مسيطرة. وبالفعل فإن اهتمام عبد الله بشؤون سياسة شبه الجزيرة العربية ظل متحكماً بنشاطاته أيام الحرب، لأن طموحاته الخاصة كانت تكمن هناك في الجزيرة العربية.

بين الإخوة الأربعة لم تكن بريطانيا تأخذ سوى عبد الله وفيصل مأخذ الجد. فالأخ الأكبر علي اعتبر ضعيفاً جسدياً ومسلولاً ربما. ولم يكن يتوفر لا على حركية فيصل ولا على سحر ودهاء عبد الله. ففي لحظات اللطف كان يُعذر بوصفه (خليل الكتب) أما في لحظات الغضب فكان يدان على أنه (شخص مقيت).[17] وبجملة هذه الأسباب كانت بريطانيا ترى في عبد الله الوريث الحقيقي للحسين والذي اعتقدت بأن الحسين نفسه كان يفضله.[18] (ولأن عبد الله في هذه الأثناء كان صلة الوصل الرئيسة لدى بريطانيا مع العائلة والثورة ربما كان في الأمر قدر من التمني) أما الأخ الأصغر، زيد فقد كان ببساطة أصغر من أن يحمل أي عبء ثقيل، فضلاً عن أنه من أم تركية مما جعله مشبوهاً بصورة آلية. تمتع عبد الله وفيصل بالاحترام بوصفهما أفضل من أخويهما على الصعيدين العسكري والسياسي. غير أن العلاقة بين الاثنين لم تكن ودية. فالتنافس بينهما لفت نظر لورنس، مثلاً، بصورة مباشرة، إذ كتب يقول: «سيكون الصدام بين [عبد الله] وفيصل مثيراً» إثر لقائه الأول بالأخوين.[19] يبدو أن عبد الله كان المفضل عند أبيه، في حين كان فيصل أكثر قرباً من أخويه الآخرين. وما لبث هذا الافتقار إلى العاطفة أن تحول عند عبد الله إلى غيرة مثقلة بالمرارة حين حل فيصل، وهو أصغر من عبد الله بأربع سنوات، محله كوسيط رئيسي مع أوروبا، وفاقه تمتعاً بمحبة العرب وتفضيلهم.

كان عبد الله في اجتماعاته مع كل من ستورز ولورنس في خريف عام

(1916 م) قد وافق على الالتحاق بإخوته، من أجل الإعداد لشن هجوم على المدينة. وفي تشرين الثاني ترك مجلس أبيه وتوجه نحو الشمال. ومع حلول منتصف كانون الثاني كان قد أقام معسكراً دائماً في وادي عيص الذي يبعد مسافة ستين ميلاً إلى الشمال من المدينة على خط الحجاز. وهناك شكل تهديداً للاتصالات التركية مع المدينة، ووفر لفيصل إمكانية التقدم مع الساحل حتى بلدة الوجه، ومنها إلى العقبة فدمشق.

كان عبد الله لدى وصوله إلى أُطراف المدينة في شتاء عام (1917 م) متمتعاً بتقدير البريطانيين العالي، ولكن سمعته هناك بدأت تتراجع وتتدهور. فالمدينة كانت مدينة جيدة التحصين، وفيها حامية تركية يبلغ تعداد أفرادها حوالي سبعة آلاف، بقيادة جنرال تركي يدعى فخري باشا. كانت مهمة عبد الله متمثلة بقطع المدينة عن الشمال عن طريق قطع السكة الحديدية، وعن الشرق من خلال الحيلولة دون وصول القوافل القادمة من حائل ونجد وما بعدهما. كان مقر قيادته في وادي عيسى مؤلفاً من أربعة ضباط، ومائة من الجنود المدربين، ومدفعي هاوزر، ومدفعين جبليين، وثلاثة عشر مدفعاً رشاشاً. كانت لديه أيضاً أعداد مختلفة من حملة البنادق البدو، الذين كان تعدادهم يصل أحياناً إلى خمسة آلاف.[20] ولتقديم النصح والمشورة له تم اختيار ضابط فرنسي (جزائري فرنسي حقيقي يدعى (الكابتن) راهو، الذي علمه عبد الله اللغة العربية بغية إعادته إلى أصله العربي) وعدد من الضباط الفرنسيين الآخرين الذين كانوا يترددون عليه بين الحين والآخر،[21] مع فريق من الضباط البريطانيين التابعين للمكتب العربي الذين كانوا يتناوبون البقاء برفقته.

لم يكن معسكر عبد الله الذي أُطلق عليه اسم (لوكام دو دراب دور [معسكر الأرض الذهبية]) الفرنسي مكاناً يمكن أن يوصف بأنه مكان عمل حقيقي.[22] فلورنس الذي أمضى هناك عشرة أيام في آذار عام (1917 م) اكتشف أن عبد الله كان يقضي أيامه في خيمته المفروشة بالسجاد الفاخر

وهو «يقرأ الصحف العربية، يأكل وينام، ويمارس اللهو والسخرية خصوصاً...» كان عبد الله يؤدي دور وليم تل [روبن هود سويسرا. ف. ج] مستخدماً بندقية بدلاً من القوس، مع جعل أحد أفراد حاشيته يقبل بالمخاطرة [بنفسه] مقابل مبلغ جيد من المال، ويبدد الباقي من وقته مستغرقاً في قراءة الشعر العربي وفي أشكال أكثر تقليدية من ممارسة الرمي بالبندقية. أما الوصول إلى معسكره فقد بدا مقصوراً بصورة شبه كاملة على أصدقائه المقربين الحميمين. فهو لم يكن يمضي إلا القليل من الوقت مع زواره الشيوخ والمندوبين، وما هو أقل من ذلك في الإشراف على التموين والترتيبات العسكرية. غير أنه كان شديد الاهتمام بالحرب في أوروبا والسياسة الأوروبية عموماً، وأذهل لورنس بمدى سعة اطلاعه على العلاقات الأسرية المعقدة في عائلات أوربا الملكية، وعلى أسماء وشخصيات أعضاء حكوماتها.[23] ولم يخطر للورنس احتمال أن يكون عبد الله قد قيد الوصول إلى معسكره، أو حظر مناقشة الأمور السياسية العربية نتيجة وجود شخص إنجليزي.

بدا عبد الله في عزوفه عن السعي لاقتحام المدينة، بل وفي امتناعه حتى عن إحكام حصاره لها بصورة جيدة، كسولاً في أحسن الأحوال وغبياً في أسوئها. (فبعد استسلام المدينة علق فخري باشا قائلاً: إنه كثيراً ما أحس بالامتنان لبريطانيا على قيامها بتوزيع المؤن مجاناً على البدو، الذين كانوا يبيعون ما يفيض عنهم دون أية إعاقة ذات شأن من جانب عبد الله.)[24] وبرأي لورنس فإن ما كان يكمن وراء تجنبه الظاهري العنيد للنشاط والحركة هو إحساسه بالغيرة تجاه فيصل «كما لو كان راغباً في التباهي بإهمال العمليات العسكرية، للحيلولة دون عقد أي مقارنات غير لائقة مع أداء أخيه».[25] ومع ذلك فإن موقفه، على فرط سلبيته بنظر لورنس، ساعد فيصل بالفعل، لأنه وفر إمكانية النجاح لإنجازات فيصل الأكثر شهرة في الشمال، بتجميد حامية تركية بلغ تعدادها سبعة آلاف رجل في المدينة.

أضف إلى ذلك أن عبد الله كانت لديه أسباب وجيهة ليتصرف كما فعل، ولكن هذه الأسباب لم تكن ذات علاقة بكسب عطف بريطانيا ورضاها. فكما قال صراحة للورنس إنه كان يتطلع جنوباً نحو اليمن لتأمين مستقبله لأنه كان عازماً، فور تحرره من حالة حصار المدينة المملّ، على غزو عسير وإجبار إمام اليمن على القبول بوضعية التابع.[26] وكانت لديه هواجس أخرى، هواجس لم يبح بها للورنس، وقد كانت متعلقة بالنفوذ المتنامي للزعيم القبلي ابن سعود في قلب الجزيرة العربية.

كانت المشكلات بين أسرة عبد الله وابن سعود قد بدأت في عام (1910 م) حين أقدم الشريف حسين، حرصاً منه على توسيع دائرة نفوذه شرقاً، على إعلان سيادته على إقليم القصيم وقبيلة العتيبة التي كان ابن سعود يعتبرها له هو. وتاركاً عبد الله في الطائف لينوب عنه في الحكم، قام الحسين بتجريد حملة ضد ابن سعود.[27] جاءت النتائج، على عدم كونها حاسمة، في صالح الحسين قليلاً. وفي عام (1915 م) كان عبد الله قد غامر وتوغل إلى الداخل؛ بوصفه صانع سلام بين كل من ابن راشد الحائلي وابن سعود، في مسعى رمى إلى تحقيق نوع من السلام العربي تحت وصاية ورعاية شريف مكة. كان ابن سعود قد تعرض، لتوه، للهزيمة على يد ابن راشد، فوقف عبد الله في صفه بوصفه الطرف الأضعف والأقل خطراً ولفترة قصيرة من الوقت ساد نوع من الهدنة بين مكة وابن سعود.[28] غير أن أحوال ابن سعود ما لبثت، منذ ذلك الوقت، أن بدأت تتحسن باطّراد. إذ كان قد توصل إلى عقد اتفاق مع بريطانيا في نهاية عام (1915 م) نص على الاعتراف به حاكماً مستقلاً في كل من نجد والأحساء والقطيف وجبيل مقابل وعده بأن يبقى محايداً في الحرب. وكذلك فإن ابن سعود كان قد بدأ يعزز مكانته مع قبائل أواسط شبه الجزيرة العربية.[29]

لم يكن ابن سعود بنظر عبد الله القابع في المدينة مراقباً ومنتظراً، إلا (ابن كلب) شكلت طموحاته الرامية إلى توحيد الجزيرة العربية وحكمها تحدياً

لتطلعاته هو.[30] ولكن أكثرية قوات عبد الله كانت تنتمي إلى عشائر العتيبة، التي ظل ولاؤها ملتبساً وموزعاً بينه وبين ابن سعود. وكان لورنس قد رأى أن هؤلاء البدو لم يكونوا مهتمين بالحرب، بل وكانوا ساخطين من رؤية عبد الله في معسكره زاعماً أنه بدوي ومن بني عتيبة. ومن جانبه فإن عبد الله كان مستاء من وجود لورنس خشية أن يؤدي ذلك إلى عدم الرضى بين صفوف القبيلة المحافظة.[31] ولربما ساهم الخوف من حساسيات بني عتيبة أيضاً في سلبيته على أبواب المدينة المحتضنة لقبر النبي. وبالفعل فإن المدينة لم تستسلم إلا بعد توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار في أوروبا بزمن غير قصير، كما لم تفعل ذلك عندئذ إلا نتيجة العصيان في صفوف القوات التركية في الداخل، لا بسبب قيام عبد الله بإجبارها على الاستسلام.

على الرغم من أن الأسباب الكامنة وراء إخفاق عبد الله في المدينة، قد لا تكون ذات علاقة مباشرة بمهاراته العسكرية، أو بمدى التزامه بالثورة العربية، فإن مكانته في أنظار البريطانيين تعرضت للاهتزاز والتدهور. فمقارنة بنشاطات فيصل في سورية، تلك النشاطات التي تكللت بدخول دمشق مع القوات المتحالفة في تشرين الأول (1918 م) بدا عبد الله رجلاً من المرتبة الثانية بامتياز. ومنذ ذلك التاريخ حل فيصل محل عبد الله بوصفه الوسيط العربي الرئيسي لدى بريطانيا.

في البداية لم يؤد هذا التحول النسبي في المواقع إلى إثارة قلق عبد الله. فطالما كان أمله الأساس هو الفوز بمملكة في الجنوب، لم تكن نشاطات فيصل في سورية لتبعث به تلك الغيرة القاتلة التي ما لبثت فيما بعد أن باتت الطابع المميز لمشاعره تجاه أخيه. وعلى الرغم من أن طموحاته الشخصية الخاصة كانت منصبة على الجزيرة العربية، فقد ظل عاقداً الأمل على توسيع نفوذ عائلته في ظل فيصل في الشمال أيضاً. وبالتالي فقد انزعج حين سمع عن قيام البريطانيين باحتلال بغداد في ربيع عام (1917 م).[32] وحين جاء مارك سايكس إلى المنطقة لاحقاً في ذلك الربيع إلى المنطقة، ليقوم بجولاته

في الشرق الأوسط، للوقوف على مواقف العرب من تقسيم المنطقة العربية فيما بعد الحرب، أفهمه عبد الله بعبارات لا لبس فيها بأن عدم شمول سورية في المملكة يعني أن الثورة لم تكن إلا عبثاً. وبرأي عبد الله كان يتعين على المملكة العربية أن تكون على درجة من الاتساع تكفي لإقناع الرأي العام الإسلامي، لتبرير تدمير الإمبراطورية العثمانية، ولدعم الحجاز المحروم من الموارد باستثناء عائدات موسم الحج.[33]

وهكذا فقد ظل عبد الله في المدينة يجرّد بين الحين والآخر حملات متقطعة على خط الحديد الحجازي كانت بريطانيا توفر لها الأموال والأسلحة اللازمة،[34] لكنه فقد احترام بريطانيا، وصار يتطلع بشغف متزايد إلى اللحظة التي تنتهي فيها الحرب. وفي الوقت نفسه قام عبد الله بتخزين الأسلحة والليرات الذهبية البريطانية، وبمغازلة القبائل القريبة والبعيدة استعداداً للصراع القادم مع ابن سعود. وعلى الرغم من أن دعم بريطانيا كان نعمة بالنسبة لعبد الله دون شك، فإن ابن سعود كان يملك سلاحاً لم يكن عبد الله قادراً على مجاراته فيه. وقد كان ذلك السلاح هو المذهب الوهابي، ذلك التيار الإسلامي التطهري والإصلاحي الذي أسَرَ قلوب بعض رجال قبائل الجزيرة العربية، وبث فيهم روحاً حماسية شديدة. فرجال القبائل هؤلاء بعد تنظيمهم في وحدات عرفت باسم الإخوان كانوا، لبعض الوقت، أنجح القوى المقاتلة في الجزيرة العربية وأكثرها إثارة للخوف.

وحين أصبح ابن سعود في ربيع (1918 م) أقوى وأكثر تهديداً، بات التوازن الحساس الذي سعى عبد الله إلى تحقيقه في وادي عيص بين الوفاء بالتزاماته تجاه بريطانيا من جهة، وخدمة مصالحه في الجزيرة العربية من الجهة المقابلة، يميل بقوة لصالح الكفة الثانية. وبدأت بريطانيا، بدورها، ترفع صوتها احتجاجاً على عدم قيامه بأي عمل في خدمة الثورة، وعلى تبديده للموارد على هموم غير الهموم البريطانية. وقد كان هناك كلام كثير عن وجود سوء إدارة مالية، إذ قيل إنه يلقي بمخصصاته الشهرية البالغة خمسين

ألفاً من الجنيهات إلى قبائل بعيدة، تاركاً وحداته هو دون رواتب؛ إنه كان قد سطا على الأموال لبناء ثروته الشخصية؛ إذ تمت إذابة القطع النقدية الذهبية بالمئات في مكة، لتحويلها إلى سيوف وخناجر فاخرة من أجل التوزيع على «الشيوخ والموالي المتملقين هدايا، وكرشاوى استرضاء لمن تُخشى عداوتهم».[35] حاول فيصل أن يدافع عن أخيه مسلماً بأن عبد الله كان مشغولاً، عقلاً وقلباً، بمشكلات نجد، ولكن مصراً على أنه كان يقاتل لصالح بريطانيا في نجد جنباً إلى جنب مع مصالح العائلة لأن «بريطانيا العظمى لن تستفيد من البعث العربي إذا ما تم تدمير قبر النبي في المدينة والحرم في مكة وصولاً إلى منع الحج».[36] (كان هذا تلميحاً إلى قيام الوهابيين باستباحة المدينتين المقدستين في عامي (1803 - 1804 م) والضباط البريطانيون الذين عبروا عن شكواهم من تصرفات عبد الله الآثمة على مسامع الحسين لم يجدوا أذناً صاغية؛ إذ ظل الأخير يرد عليهم ملمحاً إلى احتمال نشوب (حرب أهلية) يتوقع فيها أن تهب بريطانيا إلى نجدته.[37]

ما لبثت نبوءة الحسين المتمثلة بالنزاع الوشيك أن تحققت. ففي ربيع عام (1918 م) قام ابن سعود بجباية الضرائب من قبيلة صبي، التي كانت مضاربها متمركزة حول واحة الخرمة على الحدود الشرقية للحجاز. وهذه القبيلة كانت من قبل تدفع الضرائب لمكة، بمعنى أنها كانت راضية بتبعيتها لمكة. وحين جاء جباة الحسين قام الحاكم المحلي خالد بن لؤي[38] بسجنهم. وخالد هذا، وهو من الشرفاء، كان قد عينه الحسين ليمثله في منطقة خرمة قبل الحرب العالمية الأولى ببعض الوقت. كما كان قد التحق بالثورة العربية ومع عبد الله في حصار الطائف وحملة وادي عيص، التي تخلف عنها وعاد إلى خرمة ليتحالف مع ابن سعود.[39]

شكل اعتقال جباة الملك ووضعهم في السجن إعلاناً للحرب. جاء رد عبد الله متمثلاً بتحويل نصف قواته عن المدينة إلى ساحة القتال الجديدة. وسارع القنصل البريطاني في جدة إلى انتقاده بطريقة، اعتبرها الإنجليز،

عربية، إذ قال له: «دعنا نبقي أنظارنا متمركزة على القضايا الأكبر التي بالمقارنة معها تكون مسألة قيام أنصار الملك أو الإخوان باحتلال واحة الخرمة هي كمثل بعوضة بالنسبة لفيل»[40] - ولكن دون جدوى. فأزمة الخرمة كانت بالنسبة لعبد الله ورجاله الهم الأول في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الأولى. أرسل عبد الله أقرب أصدقائه وأكثر معاونيه تمتعاً بالثقة، الشريف شاكر، وهو ابن عم بعيد، لقيادة المعركة. وفيما كانت الحرب في أوروبا تقترب ببطء من نهايتها، ظل شاكر على أطراف الخرمة مناوشاً خالد بن لؤي. غير أن أياً من الطرفين لم يحقق انتصاراً حاسماً.[41]

وضعت الحرب في أوروبا أوزارها بتوقيع اتفاق وقف إطلاق النار في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني. وفيصل الذي كان يحاول تسوية الأمور في دمشق طلب من عبد الله أن يأتي لمساعدته، وخصوصاً للحلول مكانه خلال فترة غيابه لحضور مؤتمر السلام في باريس.[42] ولكن بريطانيا كانت ضد هذه الفكرة، لأن عبد الله كان يعتبر أقوى وأقل استقامة وأكثر عداء للفرنسيين من فيصل. فالأوساط البريطانية كانت تشعر بأن من شأن وجوده أن يجعل مهمة بريطانيا (أكثر صعوبة بما لا يقاس) وبالتالي فقد تم تشجيعه على البقاء في المدينة.[43]

لم تكن المدينة قد استسلمت رغم وقف إطلاق النار. وقد قدم القائد التركي فخري باشا عدداً كبيراً من الأعذار لتأجيل استسلامه؛ فهو لم يعترف لا بعبد الله ولا بمستشاريه البريطانيين قادة تحالف يمكنه أن يستسلم لهم بشرف؛ وقد كان مسؤولاً عن قبر النبي، وبالتالي فإن الشخص الوحيد القادر على إعفائه من واجبه بأمر شخصي هو السلطان والخليفة؛ كما أنه [فخري باشا] كان رأى النبي في الحلم وهو يشجعه على عدم الاستسلام.[44] أما الدافع الحقيقي لمقاومته فما زال مغلفاً بضباب كثيف من الشائعات والتخمينات. فعبد الله ظن أن فخري باشا كان متواطئاً مع ابن سعود وخالد بن لؤي لمنعه هو وقواته من الالتحاق بشاكر في وادي

الخرمة.[45] وثمة آخرون قدروا أن فخري رفض الاستسلام لعدو لم يكن قد هزمه، أو صمد بغية تأمين مرور آمن له ولجنوده إلى تركيا.[46]

غير أن رجال فخري باشا بالذات ما لبثوا أخيراً أن أجبروه على الاستسلام.[47] عرض استسلامه على عبد الله الذي عامله بنفس التقدير والاحترام اللذين سبق له أن أظهرهما للحامية التركية في الطائف قبل عامين ونصف. وبالفعل فقد قيل إن عبد الله أبلغ القائد التركي أنه لم يكن قط ضد الإمبراطورية العثمانية، بل ضد جمعية الاتحاد والترقي فقط. ومتأثراً ربما بتحذيرات تركية سابقة من أن بريطانيا وفرنسا كانتا قد قامتا سراً بتقسيم الأراضي العربية فيما بينهما، بادر عبد الله إلى إبلاغ فخري باشا بأن وقت تحقيق نوع من التقارب بين العرب والأتراك قد حان.[48]

دخل عبد الله المدينة دخول الظافرين. وبعيد ذلك، في الثاني من شباط (1919 م) وصل علي إلى المدينة، فبات عبد الله بعد طول انتظار متفرغاً لمحاربة ابن سعود.

بداية ذهب عبد الله إلى مكة لإعادة تجميع قواته ولمناقشة الخطة مع أبيه. وبعد ثلاثة أشهر انطلق نحو الشرق لتسوية النزاع الإقليمي بين عائلته وابن سعود. كان الاشتباك الذي طال انتظاره بين القوتين حاسماً إذ أدى إلى قلب حياة عبد الله وتاريخ الجزيرة العربية رأساً على عقب.

في الحادي والعشرين من أيار قام عبد الله وقواته باحتلال بلدة تجارية صغيرة إلى الجنوب من خرمة تعرف باسم ترابة. ورداً على العملية بادر ابن سعود إلى إرسال تعزيزات من الإخوان لمساعدة خالد بن لؤي. وبعد بضعة أيام شن الإخوان هجوماً تمخض عن نتائج كارثية. فقبل بزوغ نجمة الصبح تسلل خالد ورجاله خلسة إلى معسكر عبد الله غير المحروس. صحيح أن رجال عبد الله استيقظوا مذعورين ولكن بعد فوات أوان القدرة على النجاة. فالإخوان كانوا قد أصبحوا بين خيمهم ومن لم يقتل في فراشه قتل قبل أن يتمكن من

الوصول إلى راحلته بغية الفرار. خمسة وثلاثون من عبيد عبد الله قضوا وهم يقاتلون عند باب خيمته، فيما قام هو وشاكر بإحداث ثقب في الجدار الخلفي ولاذا بالفرار في ثياب النوم، وقد أصيبا بجروح في الجسد والكبرياء فيما صيحات شُرَيِّف (إشارة إلى قامته الصغيرة) تتردد في آذانهما.(49)

شكلت معركة ترابة نقطة انعطاف في حياة عبد الله وفي تاريخ الجزيرة العربية. فمنذ تلك اللحظة بات الحسين وأبناؤه في وضعية الدفاع، فيما شهدت قوة ابن سعود تنامياً مطَّرداً عنيداً. فملك الحجاز بات محروماً من سلطة سلطان الإمبراطورية العثمانية لتقف وراءه، وما لبث الحليف البريطاني الجديد أن أثبت فيما بعد أنه لم يكن مستعداً لدعمه ضد ابن سعود. وبالنسبة لعبد الله فإن العديد من رفاقه في (لوكام دو دراب دور) كانوا قضوا نحبهم في ساحة القتال. ومن بين القتلى كان هنالك أعداد كبيرة من المهرجين والشعراء الذين لم يشكلوا جنوداً جديين في نظر بريطانيا، رغم حيوتهم المفحمة. وكان (الكابتن) راهو، مستشار عبد الله الفرنسي الجزائري، بين القتلى.(50)

من الممكن القول إنَّ طموحات عبد الله المتعلقة بالجزيرة العربية هي الأخرى ماتت في تُرابة. فأصداء الهزيمة المخيفة ما لبثت أن ترددت في سائر أرجاء الجزيرة العربية، مقزمة مكانته جنباً إلى جنب مع هيبة عائلته. وفي ليلة واحدة انقلبت أحلامه الخاصة بإقامة إمبراطورية عربية إلى كوابيس. غير أن كلماته هو ربما كانت التعبير الأفضل عن خسارته إذ قال: «من المؤسف أنني هربت من بين الناس العزيزين جداً الذين قتلوا بأبشع الطرق وأفظعها. فجميع مرافقي وأركاني قتلوا قبل أن أغادرهم فيما كنت محاصراً من قبل العدو ولكنني تمكنت من النجاة...».(51) صحيح أن عبد الله ظل طموحاً، ولكنه بات مضطراً لأن ينظر نحو جهة جديدة بحثاً عن مخرج. وكان من المحتوم أن ينظر إلى جهة الشمال، ومنذ تلك اللحظة باتت علاقاته مع فيصل الذي كان قد حل محله على صعيد التمتع باحترام بريطانيا، والذي تألق نجمه في الساحة الدولية عبر مؤتمر فيرساي للسلام، بالغة المرارة.

4) خلق شرق الأردن

شهدت الحرب العالمية الأولى زوال أربع إمبراطوريات. فالإمبراطوريتان المتعددتا الأعراق العثمانية والنمساوية ـ الهنغارية جرى تقسيمهما بين جماعاتهما الاثنية الرئيسة، في حين تم إجبار ألمانيا على تقيؤ مستعمراتها، وغاصت روسيا في أتون حرب أهلية ما لبثت أن تمخضت عن إعادة تشكيلها على أسس جديدة كلياً. وبين تلك الإمبراطوريات الثلاث في صف الطرف الخاسر في الحرب تلقت الإمبراطورية العثمانية الضربة الأشد قسوة في مؤتمر السلام بباريس إذ لم يقف الأمر عند تقسيمها بين الجماعات الاثنية، بل وتقرر إخضاع أشلائها للسيطرة المباشرة وغير المباشرة من جانب قوى الطرف المنتصر في الحرب.

خرجت بريطانيا وفرنسا، القوتان الرئيستان في الطرف المنتصر، محتفظتين بإمبراطوريتهما الاستعماريتين على حالهما ـ بل ومعززتين وموشكتين على التوسع ـ ولكن وجه الإمبريالية بدأ يتغير بعد الحرب العالمية الأولى. باتت القوتان كلتاهما مفتقرتين إلى الرجال والأموال اللازمة للحفاظ على إمبراطوريتين من الطراز المهيب لدى كل من الملكة فكتوريا وجول فري. كانتا شديدتي الإرهاق، فضلاً عن أن الساسة الذي استمروا في اعتماد منطلقات الممتلكات الإمبريالية وطرق المواصلات والاتصالات،[1] وجدوا صعوبة في مقاومة موجة العواطف الشعبية التي سادت بعد الحرب، داعية إلى إعادة الأبناء إلى الوطن. وفي وقت واحد طمأنت نظريتان منطلقتان من طرفي كوكب الأرض العالم، مؤكدتين له بأن التسوية السلمية ستكون هذه المرة مختلفة من حيث الشكل والمضمون

عن سائر معاهدات القرن التاسع عشر الإمبريالية القائمة على الاستحواز. فمن موسكو تنبأ الثوري الظافر لينين بتمرد جميع الشعوب المُستعمَرة على مُستعمِريها. ومن واشنطن قام مُبَشِّر القيم الأخلاقية وودرو ولسُن بإعلان نقاطه الأربع عشرة المشحونة بمبدأ حق تقرير المصير.

ومع ذلك فقد كانت لبريطانيا وفرنسا، رغم رواج أفكار العداء للإمبريالية، وراهنية النقص الشديد في الموارد، مصالح في الشرق الأوسط جنباً إلى جنب مع القدرة اللازمة لضمان استمرارها. تمثلت المصالح البريطانية بحماية طريق الهند، وبتأمين النفط الميسر بأسعار رخيصة لبحريتها، وبالحفاظ على توازن القوة في البحر الأبيض المتوسط مائلاً لصالحها، وبتوفير الحراسة لجملة مصالحها التجارية والمالية. أما المصالح الفرنسية فكانت متمثلة بالإبقاء على روابطها الممتدة عبر القرون مع كاثوليك سورية، بالحصول على قاعدة استراتيجية واقتصادية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، بتأمين التوريدات الرخيصة من القطن والحرير، وبالحيلولة دون تفشي عدوى القومية العربية في إمبراطوريتها الشمال إفريقية.

تم خلال المؤتمر عقد صفقة بين ما اعتبرته بريطانيا وفرنسا مصالحها الحيوية من جهة، وبين نزعتي الأممية ومعاداة الإمبريالية الرائجتين في تلك الأيام من الجهة المقابلة. وقد تم التعبير عن هذا الحل الوسط التوفيقي بمبدأ الانتداب الذي قضى بتمكين الدول "المتقدمة" من الاضطلاع بدور المدرب بالنسبة لدول أخرى أقل تقدماً، على صعيد تعقيدات ممارسة حكم الذات حكماً ديمقراطياً حتى تصبح الأخيرة مستعدة لأن تحكم نفسها. أتاح مبدأ الانتداب فرصة تقسيم الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا وفقاً لمصالحهما حسب العادة الإمبريالية التي كرسها الزمن، ولكنه تضمن، انسجاماً مع روح العصر، شرطاً قيّد السيطرة الإمبريالية، إذ نص على التوفير اللاحق لحكم الذات. وهكذا فإن نظام الانتداب أدى إلى جعل الإمبريالية البريطانية

والفرنسية في مؤتمر السلام مستساغة من جهة، وإلى توفير إمكانية قبول بعض قطاعات المجتمع العربي على الأقل بالإذعان للحكم الأوربي والتعاون معه أحياناً من جهة ثانية.

كانت الحرب قد مكنت بريطانيا من الهيمنة الكاملة على الشرق الأوسط إذ قامت القوات البريطانية باحتلال ليس فقط فلسطين والعراق حيث زعمت بريطانيا لنفسها مصالح خاصة، بل وسورية أيضاً التي كانت بريطانيا قد وعدت بتقديمها إلى كل من الشريف حسين، ممثلاً للعرب، وفرنسا. كانت المشكلة التي واجهت بريطانيا في المؤتمر متمثلة بالاختيار بين هذين الوعدين المتضاربين. تم طرح قضية العرب في باريس من قبل ابن الحسين فيصل الذي كان، منذ انتهاء الحرب، عاكفاً على تأسيس إدارة عربية في دمشق بدعم بريطاني. وقد استند في مطالبته بسورية على عدة ظروف وأسباب أهمها: مراسلات حسين ـ مكماهون، وخدمات العرب للحلفاء خلال الحرب، وحكومته الفعلية في سورية. ولكن فرنسا أصرت بعناد على التمسك بمضمون تفاهمها الخاص مع بريطانيا زمن الحرب، باتفاق سايكيس ـ بيكو، الذي كان قد وعد فرنسا بسورية منطقة نفوذ لها.

ما لبثت فرنسا أن كسبت الرهان آخر الأمر، لأن بريطانيا رأت أن التضامن الأنجلو ـ فرنسي في أوربا كان بالغ الأهمية، ولا يجوز تعريضه للخطر جراء الخلاف حول شؤون عربية. ففي أيلول من عام (1919 م) وافقت بريطانيا على سحب جيشها من سورية تاركة إياها للقوات الفرنسية. وفي نيسان (1920 م) تمت تسوية قسمة غنائم الشرق الأوسط في مؤتمر سان ريمو. وفي تناقض صارخ مع روح انعدام المصلحة المتجسد في فكرة الانتداب، جرت مكافأة بريطانيا وفرنسا بأشكال من الانتداب، متفقة بدقة مع مصالحهما في المنطقة. فحصلت بريطانيا على فلسطين والعراق. وفرت فلسطين لبريطانيا قاعدة في شرق المتوسط تمكنها من حراسة قناة السويس؛ في حين كان العراق نقطة أساسية داخل الفلك

الهندي على صعيد التجارة والاتصالات، فضلاً عن احتوائه شبه المؤكد على احتياطات نفطية تجارية. وفازت فرنسا بسورية ولبنان حيث كانت أكثرية اهتماماتها المالية والثقافية الشرق أوسطية متركزة فيهما. صحيح أن فيصل بقي مسيطراً على سورية آنياً، ولكن أيامه كانت قد باتت معدودة بشكل واضح.

أما في الحجاز فقد تمت متابعة الصراع الدبلوماسي على سورية بقدر كبير من الريبة والشك. فمنذ هزيمة عبد الله في ترابة، كان الحسين قد بات أشد حرصاً من أي وقت مضى على ضمان سورية، بسبب إدراكه العميق لعجز الحجاز شبه الكامل، بموارده الضئيلة، عن الصمود وحده. ولكنه بدأ يفقد الثقة بفيصل خشية أن يبادر الأخير إلى عقد صفقة مع بريطانيا وفرنسا على حساب طموحه العريض المتمثل بأن يغدو ملكاً للعرب. فحين علم بالاتفاق الإنجليزي ـ الفرنسي المعقود عام (1919 م) حول سورية، وبالمساعي اللاحقة التي بذلها فيصل بغية التوصل إلى اتفاق مع فرنسا، شعر بأن شكوكه كانت مبررة.[2]

أما عبد الله المشحون بلوعة الأسى من المهانة التي لحقت به في ترابة فقد تابع نشاطات فيصل في أوربا بقدر متطرف من الغيرة. بات يشعر بأن شقيقه الأصغر كان قد انتزع موقعه هو بوصفه المحاور الرئيسي في الشؤون الأوربية ـ العربية. وعازفاً على أوتار شكوك أبيه، قام بالترتيب للذهاب إلى مصر عشية مؤتمر سان ريمو. ظاهرياً كان يؤدي زيارة جوابية للمفوض السامي في مصر، اللورد اللنبي، الذي كان قد جاء إلى الحجاز في وقت سابق من ذلك العام؛ أما في الحقيقة، فقد كان حاصلاً على موافقة أبيه على أن يحلّ محل فيصل كممثل له في أوربا. وبين ثنايا هذه الشرائح من الأهداف كان ثمة دافع داخلي عميق وشخصي جداً ذو علاقة بالعراق.

كانت طموحات عبد الله التي تبددت في الجزيرة العربية بعد هزيمته في

ترابة قد تركزت على بغداد. وفي آذار (1920 م) كان مؤتمر سوري عام عقد في دمشق قد انتخب فيصل ملكاً لسورية. وكان تسعة وعشرون عراقياً حضروا المؤتمر قد استغلوا المناسبة لإعلان عبد الله ملكاً للعراق.[3] وكان الآن يريد أن يعرض مطالبته بالعراق شخصياً على البريطانيين في مصر، ويأمل في متابعة السفر من هناك إلى أوربا. غير أنه لم ينجح في تحقيق ما كان يريده. فقد رفض اللنبي مزاعمه، وأعاده إلى الحجاز بدلاً من إرساله إلى أوربا،[4] على الرغم من أن الرحلة إلى القاهرة كانت سعيدة ظاهرياً ـ إذ تم منحه أسمى درجات وسام الصليب الأعظم للإمبراطورية البريطانية.

على الرغم من أن عبد الله لم يكن يعلم بالأمر، فإن اسمه كان قد نوقش وتم استبعاده فيما يخص العرش العراقي. فنظام الحكم المقبل في العراق كان قد شكل موضوعاً لمناقشات حادة بين لندن والقاهرة وبغداد ودلهي منذ انتهاء الحرب. فبعد الهدنة بما لا يزيد عن أسبوعين فقط قامت اللجنة الشرقية المؤلفة من موظفين رفيعي المستوى، يمثلون وزارات الخارجية والحربية والهندية برسم معالم السياسة البريطانية في العراق. اتفق أعضاء اللجنة على وجوب بقاء حكم العراق، ولو أخذ شكلاً عربياً، خاضعاً لسيطرة بريطانيا. غير أن تحديد هوية ذلك الذي سيكون رئيساً صورياً لمثل هذا الحكم كان منطوياً على مشكلة أكثر صعوبة. إن اسم عبد الله الذي طرحه تي. إي لورنس نوقش باهتمام. وجرياً على العادة السيئة السائدة في تلك الفترة تم نعته بصفات مقيتة. فاللورد روبرت سيسل، نائب وزير الدولة للشؤون الخارجية عبر عن شعوره قائلاً بأنه «سيكون مقبولاً شرط أن يتوفر لدينا من يتولى مهمة توجيهه ومراقبته. إنه متمتع بقدر من الذكاء... شهواني، متبطل وكسول جداً» على الرعم من أنه لم يكن قد سبق له أن التقى بعبد الله من قبل. ومع أن هذه الصورة النمطية لم تنصف عبد الله، إلا أنها لم تجعله شخصاً يتنافى مع أغراض بريطانيا في العراق. فقد علق

وزير الدولة لشؤون الهند إدوين مونتاغيو قائلاً: «إذا كان عبد الله ذلك المخلوق الداعر الكسول الذي جرى تقديمه، فإنه الرجل المثالي المطلوب، لأنه سيطلق يد الإدارة البريطانية في حكم البلاد بصورة كلية».[5]

ولكن الموظفين البريطانيين الرئيسيين في بغداد: إيه. تي. وِلسُن وغيرترود بل عارضا ترشيح عبد الله لشغل أي منصب اسمي [ينطوي على لقب] في العراق. وكانا، كلاهما، يفضلان نظاماً قائماً على الإدارة البريطانية المباشرة في هذه الفترة. وقد زعما أن أهالي العراق لم يكونوا راغبين في أي حكم عربي، رغم أن بيل قامت فيما بعد بإعادة النظر في وجهة نظرها، مما أدى إلى حدوث خلاف ملحوظ بينها وبين وِلسُن.[6] أما وِلسُن فقد شعر بأن أحد أبناء الحسين لم يكن مقبولاً لأسباب تتعلق بسياسة الخليج الفارسي وقلب الجزيرة العربية.[7]

بادر اللورد كيرزون رئيس اللجنة الشرقية لعدم اقتناعه بالرد السلبي الذي جاءه من بغداد إلى مطالبة مسؤولين بريطانيين آخرين في الشرق الأوسط بتقويم "شخصية" عبد الله «وكفاءته ومدى ملاءمته» لأن يصبح رئيساً لدولة عربية غير محددة الاسم، دولة «لا يضطلع أميرها بمسؤولية الحكم». جاء رد سي. إي. ولسن، القنصل البريطاني في جدة خلال سني الحرب، مؤكداً دون إطناب على أن من شأن قدرات عبد الله وشخصيته أن تؤهله لشغل منصب أمير شكلي. وقد رأى مدير المكتب العربي كيناهان كورنواليس أن عبد الله كان أكثر ذكاء من إخوته، ولكنه كان في الوقت نفسه غير مبدئي، طائشاً وطموحاً جداً، مما قد لا يبقيه طويلاً قانعاً برئاسة صورية مجردة. أما حاكم القدس العسكري في ذلك الوقت رونالد ستورز فلم يكن مهتماً بمدى ملاءمة عبد الله لمثل ذلك المنصب، قدر اهتمامه بمواصفات الضابط البريطاني الذي كان سيضطلع بمهمة مستشاره. وعن عبد الله لم يقل ستورز سوى أنه أذكى أبناء الحسين. وأخيراً فإن الموظف الأبرز في المكتب العربي، دي. جي. هوغارت، رغم عدم لقائه بعبد الله،

كتب رسالة مطولة مستندة على معلومات ومعرفة غير مباشرة تركمت منذ سنوات ثلاث من تقوم مواصفات عبد الله بقدر أقل من الحيطة، وقدر أكبر من الاحتقار، بالمقارنة مع أولئك الذين عرفوه فعلاً. باختصار شعر بأن عبد الله كان أفضل شخص يمكن لبريطانيا أن تعثر عليه ليحكم العراق: على الرغم من أنه كان: «كسولاً، مولعاً باللهو.. فاسقاً... فإنه كان يستطيع أن يصبح حاكماً صورياً مقبولاً وقد [كان] ذا قدر من الذكاء يكفي لإدراك حقائق الواقع والتلاؤم معها».[8]

وفي تلك الأثناء كان قد طلب من إيه.تي.وِلسُن أن يجري استطلاعاً للرأي لمعرفة ما إذا كان سكان العراق سيقبلون بعبد الله أميراً. وجاء تقرير وِلسُن مؤكداً وجهة نظره ـ لم يكن أحد يريد أميراً عربياً لعدم وجود أي مرشح مناسب. وهذه المعارضة الشديدة من جانب وِلسُن أفضت إلى صرف النظر عن ترشيح عبد الله. وفيما بعد تبين أن أسلوبه في قياس الرأي العام كان قد حال دون ظهور أي رد إيجابي.[9]

نتيجة انعطاف غريب لمسار الأقدار نجح فيصل حيث كان عبد الله قد أخفق. فبعد حصول فرنسا على مكافأة الانتداب على سورية بادرت إلى السير في الطريق المفضية إلى ترتيب بيتها. وفي أثناء قيامها بإزالة "أعشاش العناكب" أزاحت كلاً من فيصل وإدارته عن طريقها، لأن فرنسا، إضافة إلى خوفها من القومية العربية، اعتقدت بإمكانية إعادة النفوذ البريطاني من خلال (الأمير الوسيم لساحة بيركلي). وفي الرابع عشر من تموز عام (1920 م) قام الجنرال غورو، المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان، بتقديم إنذار إلى فيصل يطالب بجملة أشياء منها الاعتراف بالانتداب الفرنسي، وبتسريح الجيش وإلغائه، وبمعاقبة «المجرمين الذين دأبوا باستمرار على إظهار العداء لفرنسا» وبعبارة أخرى معاقبة الوطنيين والقوميين الذين كانوا قد أيدوه. ورغم أن فيصل أذعن للإنذار في اللحظة الأخيرة تقدمت القوات الفرنسية نحو دمشق بعد عشرة أيام. وبعد هزيمة مقاومة

جرى تنظيمها على عجل في موقع ميسلون يوم 14 تموز قامت القوات الفرنسية باحتلال دمشق.[10]

بعد الهزيمة هرب فيصل جنوباً إلى درعا الواقعة على الحدود الفاصلة بين المنطقتين البريطانية والفرنسية. وحين هددت فرنسا بقصف درعا سارع فيصل إلى التوجه إلى فلسطين البريطانية ومنها إلى أوروبا. وهرب بعض مؤيديه إلى القاهرة وفلسطين. وثمة آخرون ظلوا قريبين في سورية الجنوبية (شرق الأردن) التي لم تقم فرنسا باحتلالها. ومن هناك بعثوا برسائل إلى الحسين طالبين رجالاً وأسلحة وملتمسين منه إرسال واحد آخر من أبنائه ليتولى قيادة النضال القومي.[11]

في انقلاب مفاجئ سارع إيه. تي. وِلسُن لحظة سماعه نبأ طرد فيصل إلى إرسال البرقية التالية إلى لندن:

> ما من حاكم عربي سوى فيصل وحده يملك أية فكرة عن الصعوبات العملية التي تنطوي عليها إدارة حكم متحضر... من المستبعد أن يخفق في إدراك حقيقة أن المساعدة الأجنبية حيوية... إنه يعرف مدى خطورة التعويل على أي جيش عربي. وإذا ما عرضنا عليه أمارة ما بي النهرين فإننا قد نحقق نجاحاً ليس فقط في استعادة مكانتنا في أنظار العالم العربي، بل وقد نتمكن من السير قدماً على طريق تبديد الاتهامات ـ التي يمكن أن تنهال علينا إذا لم نفعل ـ بأننا كنا سيئي النوايا مع فيصل ومع شعب هذا البلد...[12]

وهكذا فقد تم اعتبار زوال حكومة فيصل درساً لا يقدر بثمن في السياسة الواقعية، درساً ساهم في جعله مناسباً جداً لخدمة الأغراض البريطانية.

فيما أصبح فيصل المهزوم مرشحاً مقنعاً، ظل عبد الله شخصاً كريهاً بنظر وِلسُن. فقد أضاف إلى برقيته المؤيدة لترشيح فيصل عبارة «ما من شيء سمعته خلال الأشهر القليلة الأخيرة جعلني أعدل آرائي حول عدم صلاحية عبد الله...» أما ما سمعه وِلسُن بالتحديد ومن أين؟ فليس واضحاً على

الرغم من إقراره بأنه استاء لدى سماع إشاعة تحدثت عن قيام عبد الله سلفاً بتعيين مؤيديه السوريين في مناصب معينة في حكومته المنتظرة مستقبلاً في العراق.[13]

جاء التعاطف البريطاني مع فيصل مباشراً وملموساً. فلدى مروره بحيفا في طريقه إلى أوروبا، طُلب من المفوض السامي البريطاني، السير هيربرت صموئيل، أن يبلغه بأن بريطانيا كانت ترجو أن تتمكن مستقبلاً من مكافأته على إخلاصه.[14] وخلال أسبوع بات يشاع أن تلك المكافأة كانت متمثلة بعرش العراق.[15] ففي السابع عشر من آب نشرت جريدة **لسان الحال** البيروتية قصة انطوت على أن أصدقاء فيصل في لندن كانوا سيعوضونه عن خسارته لسورية بإعطائه عرش العراق.[16]

وصلت هذه الشائعات إلى أسماع عبد الله في مكة وأغرقته في بحر من عدم الارتياح والمرارة. شكا أمره للرائد باتن، القائم بأعمال القنصل البريطاني في جدة، قائلاً: إن فيصل صار الآن رجل بريطانيا الأول على ما يبدو، وإنه وحده بين الإخوة الثلاثة بات بلا أي أفق مستقبلي، رغم الدور الذي سبق له أن اضطلع به في الحرب وبعدها.[17]

في آب من عام (1920 م) بدا المستقبل السياسي للحسين وأبنائه كئيباً حقاً، رغم الشائعات التي كانت دائرة حول فيصل والعراق. فحلم الحسين العريض بأن يصبح ملكاً للعرب كان قد تقلص إلى عرش في الحجاز فقط. وكانت طموحات عبد الله في الجزيرة العربية قد تعرضت للخنق. وكان فيصل قد خسر سورية.

ظل عبد الله ـ باستثناء رحلته القصيرة إلى القاهرة ـ حبيس الحجاز مدة زادت عن العام، بعيداً عن أروقة النفوذ الأوروبية، حيث كان المستقبل المباشر للشرق الأوسط يجري تحديده وحسمه. لقد كان شديد الحرص على أن يبدي أقصى درجات السخاء والكرم الممكنة في تعامله مع

البريطانيين، متدخلاً لصالحهم مع أبيه، الذي تزايدت سرعة غضبه في النزاعات المتكررة حول مسائل الإصلاح النقدي والاتصالات والحجر. غير أنه كان قد ظل محروماً من أي موقع في المخطط البريطاني للأمور في المناطق الأبعد شمالاً، على الرغم من أن القنصل البريطاني في جدة كان «مقتنعاً بأنه كان مخلصاً لمصالحنا»[18] بل بدا موشكاً على أن يخسر العراق لصالح أخيه.

ونتيجة لذلك بادر عبد الله إلى تغيير تكتيكاته بصورة مفاجئة. وافق على هدنة مع ابن سعود وإن استمر في السخرية منه سراً، بوصفه «رجلاً لا قيمة له» و«مجرد بدوي».[19] وراح يركز أنظاره على الشمال بعد أن أدار ظهره، آنياً، إلى الجزيرة العربية. كانت الرسائل الصادرة عن القوميين المجتمعين في عمان قد دعته لقيادة الحركة الرامية إلى استعادة سورية للعرب، فقبل بالعرض وانطلق في محاولة يائسة بغية إجبار بريطانيا على أن تنتبه إليه.

غادر عبد الله مكة في قافلة جمال في السابع والعشرين من أيلول. وقد قيل إن قواته كانت تتراوح بين خمسمئة وألف من رجال القبائل. أما ميزانيته فقد قُدرت بتسعين ألفاً من الجنيهات تألفت من سبعين ألفاً من جمارك جدة، وعشرين ألفاً من قروض إجبارية تم انتزاعها من التجار المحليين.[20] وفي المدينة استقل قطاراً متوجهاً إلى معان للقيام حسب ما أعلن رسمياً، بجولة تفتيشية.[21]

كانت بلدة معان الغبراء الواقعة في إحدى الواحات موقعاً نموذجياً ومثالياً لخدمة أغراض عبد الله. فقد وقعت في بقعة متنازع عليها بين الحجاز ومنطقة النفوذ البريطاني شمالاً. وكانت أيضاً سوقاً ووادي سقاية بالنسبة للقبائل، التي كانت تتنقل عبر المساحات الممتدة بين وادي الأردن غرباً ووادي سرحان في الشرق. فمن هناك كان يستطيع حشد تأييد القبائل له.

كذلك كان وقوعها على السكة الحديدية الحجازية، فضلاً عن وجود مكتب البرق الذي وفر له فرصة البقاء على اتصال بالأحداث الجارية ميدانياً في الأماكن البعيدة فيها، أمراً ينطوي على أهمية موازية.[22] وقد ظل هناك مدة ثلاثة أشهر منتظراً أن يصبح الوضع في الشمال أكثر وضوحاً.

كانت المنطقة الواقعة إلى الشمال من معان خاضعة، منذ انتهاء الحرب لحكم دمشق، بوصفها أحد أقاليم مملكة فيصل السورية. وعلى الرغم من أنها كانت واقعة داخل الدائرة البريطانية حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو، فإن بريطانيا كانت راضية عن هذا الترتيب، لأنها كانت تفضل الحكم العربي في الداخل، إضافة إلى أن فيصل لم يكن، في التحليل الأخير إلا صنيعة لبريطانيا. غير أن الصورة ما لبثت أن تغيرت بصورة درامية مثيرة مع قيام فرنسا باحتلال دمشق. فبريطانيا لم تكن تريد أن ترى فرنسا وهي توسع سيطرتها جنوباً إلى حدود فلسطين وإلى مواقع أكثر قرباً من قناة السويس. وبصورة مفاجئة اكتسب سؤال «ما هي البقعة المعروفة باسم سورية التي تم وضعها تحت الانتداب الفرنسي في سان ريمو؟» و«هل هي متضمنة شرق الأردن؟»[23] أهمية بالغة. قرر وزير الخارجية البريطاني اللورد كيرزون أن شرق الأردن ليس داخلاً في سورية، وأن بريطانيا ستعتبره من الآن مستقلاً، ولكنه على «علاقة وثيقة جداً» بفلسطين.[24] ونتيجة التخوف من الاهتمام الفرنسي الذي كان قد أطلق حملة من تقديم الهدايا السخية إلى زعماء القبائل في شرق الأردن،[25] بادرت بريطانيا إلى وضع الخطط الهادفة إلى إخضاع المنطقة لإدارتها.

لم يكن قد تحقق سوى أبسط أشكال الوجود البريطاني في شرق الأردن لدى وصول عبد الله إلى معان. وبالفعل فإن تعامل بريطانيا مع هذا البلد كان أقل حماساً واندفاعاً من تعاملها مع كل من فلسطين أو العراق. فالأولى كانت مطلة على قناة السويس التي هي حبل سرة بريطانيا مع الهند، والثاني كان واعداً بالنفط. أما شرق الأردن فلم يكن ينطوي إلا على

قدر ضئيل من الأهمية الاستراتيجية ودون أية موارد طبيعية بصورة مطلقة. صحيح أن شرق الأردن ما لبث في سنوات لاحقة أن أصبح ذا قيمة، بوصفه معبراً برياً وجوياً بين العراق وفلسطين وحاجزاً فاصلاً بين فلسطين التي التزمت بريطانيا بجعلها وطناً قومياً يهودياً وبين قبائل الجزيرة العربية، ولكن بريطانيا لم تفعل ما فعلته، عشية اضطلاعها بمهمة حمل عبء الرجل الأبيض، إلا وهي مترددة، إلا وهي راغبة في منع فرنسا من توسيع نفوذها جنوباً أكثر من كونها حريصة على أية قيمة متأصلة في المنطقة نفسها.

في البداية سادت الأوساط الرسمية البريطانية ثلاثة اتجاهات فكرية حول مصير شرق الأردن. كان الاتجاه الأول المنبثق من وزارة الخارجية يفضل تجنب أي التزام قدر المستطاع عن طريق تعيين زيد، أصغر أبناء الحسين، حاكماً.[26] وكان المفوض السامي لفلسطين، هربرت صموئيل، الذي أراد ضم شرق الأردن، أو شريطه الغربي الخصب على الأقل، إلى فلسطين بصورة مباشرة، قد صاغ الاتجاه الثاني. وعلى الرغم من أنه أورد المطالبة الشعبية والاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية أساساً لوجهة نظره، فإنه كان شديد التأثر بتعاطفه مع الصهيونية، وبرغبته في توسيع المساحة التي كانت ستتوفر للاستيطان اليهودي.[27] فقد اعتقد، آنذاك، بأن كل ما يجري إخضاعه للانتداب من أراض ستصبح مفتوحة أمام الاستيطان اليهودي في صلب بنود الانتداب البريطاني. أما الاتجاه الثالث الذي أفرزه حرص وزارة الحربية المبالغ به على إخماد أية ثورة معادية لبريطانيا في العراق، فقد كان قائماً على استبعاد استخدام أية وحدات عسكرية لاحتلال شرق الأردن.

كانت خطة بريطانيا الأولية المتكوّنة من اهتمام وزارة الخارجية الفاتر، ودعوة صموئيل إلى الاحتلال، وغياب الدعم العسكري الناجم عن الأوضاع الواقعية حسب تقديرات وزارة الحربية إزاء شرق الأردن إجراء مؤقتاً، استهدف تحقيق نوع من الوجود البريطاني في المنطقة، لا يكون محدداً بدقة يحول دون حصول تغييرات لاحقة، مثل عملية الضم فيما بعد

إلى فلسطين. وقد تم استبعاد فكرة استخدام القوات المسلحة، ليس فقط لضآلة الموارد في وزارة الحربية، بل ولتوفير فرصة كسب انتصار دعائي على الفرنسيين؛ فبدلاً من تكرار سياسة فرنسا القاسية القائمة على الاحتلال العسكري في سورية، كانت بريطانيا ستكتفي بمد يد المساعدة من منطلق حب عمل الخير. وهكذا فقد تم تخويل صموئيل بإيفاد عدد قليل من الضباط السياسيين إلى أقاليم عجلون، والسلط ـ عمان، والكرك. كانت واجبات هؤلاء محصورة بالتشجيع على الحكم الذاتي المحلي وتقديم المشورة والنصح. طُلب منهم اعتماد اللطف والإقناع والدعاية للوصول إلى تحقيق السلطة والمرجعية، مع التحلي بأقصى درجات الحذر والدهاء، لأنه كان قد تقرر على ما يبدو «أن فقدان بضعة ضباط كان أفضل من توريط جيش».[28]

على الرغم من أن وزارة الخارجية نبهت صموئيل إلى أن «من شأن الضم المباشر إلى الإدارة الفلسطينية... أن يقدم لحركيي القوميين ذريعة يستغلونها» فإن عملية متدرجة مفضية مع مرور الزمن إلى احتواء شرق الأردن من قبل فلسطين لم يجر استبعادها. كانت لندن تأمل بأن يدرك شعب شرق الأردن، عبر التأثر بالضباط السياسيين، فوائد الإدارة البريطانية، بتجربته السعيدة التي كانت، حسب أحلام وزارة الخارجية، «أفضل أساليب ضمان رغبة أصيلة ودائمة لأي توسيع للإدارة البريطانية باتجاه الشرق». كان على الضباط أيضاً أن يشجعوا التجارة مع فلسطين، وأن يؤكدوا على أهمية موقعها كبوابة طبيعية لشرق الأردن، بما يوفر إمكانية توظيف المصلحة المادية لدى تعرض المصلحة المعنوية لأي تعثر محتمل.[29]

كتب صموئيل عن توجيهاته يقول: «أخيراً وصلت إلى تسوية مع وزارة الخارجية حول شرق الأردن. كانت أقل مما أردت، ولكنها ستكون مفيدة... لا أشير إلى مدى اتساع المنطقة بل إلى أسلوب الاحتلال».[30] ومع أنه لم يكن كامل الاقتناع فقد باشر تنفيذ مهمته بنشاط. تمثلت خطوته

الأولى بتأمين نوع من الإذعان المحلي، لأن أي احتلال لشرق الأردن كان مرشحاً لأن يتم صرف النظر عنه، في حال تطلبه لإرسال وحدات عسكرية من البداية. واعترافاً منه بمكانة فيصل الجديدة ونفوذه المستمر في المنطقة قام صموئيل بإطلاعه على خطط بريطانيا. وأعطى فيصل، وهو على الطريق إلى أوربا، موافقته المشروطة على ألا تبقى الحكومة الجديدة مفصولة عن سورية إلا بصورة مؤقتة، وخاضعة لإعادة التوحيد «لدى جلاء الجيش الفرنسي عن المناطق المحتلة».[31] وبعد ذلك قام صموئيل بتنظيم اجتماع لقادة شرق الأردن في السلط يوم 21 آب، كان سيعلن فيه خطط بريطانيا.

في العشرين من آب غادر صموئيل مع عدد قليل من ضباطه السياسيين القدس متوجهاً بالسيارة إلى نهر الأردن، الحد الفاصل للمنطقة البريطانية في ذلك الوقت. وقد علق على ذلك قائلاً: «كان خروجي من منطقتي وانتقالي إلى أخرى خاضعة لفيصل، وما زالت تدار من قبل حكومة دمشق التي باتت خاضعة للنفوذ الفرنسي أمراً غير عادي كلياً. غير أن قيام حكومة خاضعة للنفوذ الفرنسي بممارسة وظائف في منطقة تم الاتفاق على أن تكون ضمن دائرة النفوذ البريطاني هو الآخر أمر غير عادي بالمثل؛ ومن بين الأمرين غير العاديين أفضل ذلك الذي يخصني».[32] وبعد عبور النهر حيث انتهت الطريق المعبدة امتطى صموئيل وفريقه ظهور الجياد وانطلقوا مصحوبين بوحدة خيالة مرافقة تألفت من خمسين رجلاً إلى السلط الواقعة على مسافة اثني عشر ميلاً في المرتفعات. وصل الركب إلى هناك في ساعة متأخرة من بعد الظهر، وشق صموئيل طريقه إلى بيت تاجر مسيحي ثري يدعى يوسف السكر، حيث استقبل المندوبين قبل الاجتماع العلني المبرمج عقده بعد ظهر اليوم التالي.

حضر الاجتماع الذي عقد في باحة الكنيسة الكاثوليكية ما يقرب من ستمئة شخص. جالساً على أريكة منفردة فوق منصة مغطاة بالسجاجيد تولى صموئيل مهام الرئاسة. وتمت ترجمة خطابه الذي دار عن السياسة

البريطانية جملة جملة إلى اللغة العربية: كان سيتم تعيين ضباط سياسيين في البلدات ليساعدوا على تنظيم الحكم المحلي، لم يكن شرق الأردن مرشحاً لان يخضع للإدارة الفلسطينية، لن يكون هناك أي تجنيد أو نزع سلاح. وفي لفتة أخيرة أسعدت الجمهور وافق صموئيل على العفو عن فلسطينيين، كانا متهمين بإثارة أعمال شغب معادية للصهيونية في القدس في نيسان، وكانا قد عبرا الأردن بحثاً عن ملاذ.[33] وأحد هذين وهو أمين الحسيني الذي أصبح فيما بعد مفتي القدس ورئيس الهيئة الإسلامية العليا في القدس، ما لبث أن غدا زعيم الحركة الفلسطينية وخصم عبد الله اللدود. أما الثاني وهو عارف العارف فقد خدم لاحقاً لفترة قصيرة في الجهاز البيرقراطي لشرق الأردن كسكرتير رئيسي (ربما رئيس وزراء)، غير أنه ما لبث أن اتخذ مواقف نقدية من سياسات عبد الله ومخططاته.

في المحصلة كان بيان صموئيل السياسي مقبولاً لا اعتراض عليه. فقد تم الإعلان عن التخلي عن ثلاثة أمور كانت تخيف العرب في شرق الأردن، هي: التجنيد ونزع الأسلحة والإلحاق بفلسطين، كما سُمح لاثنين من القادة الشباب بالعودة إلى الوطن. وبدا حضور بضعة وكلاء بريطانيين دون أن يكونوا مدعومين بأية قوات مسلحة تنازلاً صغيراً مقابل الحماية التي كان من شأن حضور بريطانيا أن يوفرها ضد الفرنسيين، الذين كان يخشى أن يدفعوا احتلالهم جنوباً. أضف إلى ذلك أن أحداً من السكان أو اللاجئين السياسيين لم يكن متمتعاً بما يكفي من الدعم المحلي حتى يتمكن من تحدي ما اقترحه صموئيل، بأسلوب بالغ اللطف والنعومة، في ظل أجواء الاضطراب والفوضى التي أعقبت طرد فيصل. وبالتالي فقد عاد صموئيل إلى القدس بالغ الرضى عن نجاح مهمته، تاركاً وراءه عدداً من الضباط المكلفين بالاهتمام بإدارة شرق الأردن، وبالحفاظ على النفوذ البريطاني.

انطوى وصول عبد الله إلى معان في الحادي والعشرين من تشرين الثاني على ما يهدد بتعطيل اتفاق صموئيل المريح. وحسب التقارير كان لدى عبد

أو فرنسا في أية معركة حقيقية مخطط لها مسبقاً، ولكنها قوة عصابات فعلية ذات شأن، مماثلة لنظيرتها الناشطة في تلك الأيام في سورية الشمالية بقيادة الشيخ صالح العلي وإبراهيم هنانو.[34] وبالفعل فإن تقارير الاستخبارات الفرنسية تحدثت عن أن عبد الله كان على اتصال بهذين القائدين، فضلاً عن مصدر تموينهما الرئيسي المتمثل بالزعيم الوطني التركي مصطفى كمال، الذي كان يقاتل دفاعاً عن وحدة الأراضي التركية ضد المخططات الفرنسية في كيليكيا.[35] ولكن وضع عبد الله لم يكن يشكل أي تهديد جدي، وإن ظل حضوره مصدر إزعاج دائم بالنسبة لصموئيل. فقد ظل قابعاً في معان حيث اقتصرت نشاطاته على تأليف القصائد الشعرية، وتدبيج التماسات الدعم التي كانت تطبع بطابعة يدوية في خيمته، وعلى مناقشة الخطط الاستراتيجية مع أولئك القادمين إلى معان لمقابلته. وفي تلك الأثناء ظل عملاؤه في عمان والسلط عاكفين على حشد التأييد المحلي له، فيما حرص نبيه العظمة في القدس على إبلاغه عن ردود الأفعال البريطانية على تحركاته.[36]

يمكن تقسيم أولئك الذين قدموا إلى معان للقاء عبد الله إلى فئتين متمايزتين، قادة تقليديين من جهة وحركيين قوميين من جهة ثانية.[37] وكان القادة التقليديون من عموم منطقة شرق الأردن وشيوخاً لتجمعات قبلية وعشائرية ومتباينة من حيث الحجم والأهمية وزعماء طوائف وجاليات وأعياناً محليين آخرين.[38] استندت مواقع قيادة هؤلاء إلى خليط من النفوذ العائلي الموروث والسمعة الشخصية الطيبة والثروة. قليلون منهم كانوا قد تلقوا تعليماً رسمياً وما من أحد منهم كان ينتمي إلى أية منظمة قومية - وطنية. أما الحركيون القوميون فكانوا من المدن والبلدات السورية والفلسطينية وتلك الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من شرق الأردن.[39] وجميعهم كانوا قد حصلوا على تعليم علماني باستثناء واحد كان حاصلاً على تعليم ديني، وكانوا مهنيين بأكثريتهم، محامين، ضباطاً وبيرقراطيين.

ولعل الميزة الأهم لهذه الفئة كانت، على أية حال، متمثلة بحقيقة أن جميع أفرادها كانوا ذوي دوافع فكرية إلى حدود معينة. فقد كان العديد منتمين إلى منظمات قومية كما أن معظمهم سبق لهم أن نشطوا سياسياً إما مع فيصل في سورية أو ضد الصهيونية في فلسطين.

كانت لكل من الفئتين وظيفتها المميزة عند عبد الله. فالقوميون كانوا يملكون المهارات والخبرات التنظيمية فضلاً عن معرفتهم لأهداف بريطانيا وفرنسا وقوتهما العسكرية ونقاط حساسياتهما السياسية. والأهم من ذلك هو أنهم كانوا ينطلقون من فكر قادر على اجتذاب الأتباع على مختلف الأصعدة الإقليمية والمهنية والطبقية. أما الزعماء التقليديون فكانوا مسيطرين على مناطق شرق الأردن الواقعة إلى الجنوب من عمان التي كان عبد الله سيجعلها قاعدته الأولى. وقد كان من شأن عدائهم العلني أن يظهر أن قيادته لم تكن إلا زعماً فارغاً.

أمضى عبد الله ثلاثة أشهر مشحونة بعدم اليقين في معان وهو يفكر بعمق بخطوته التالية. كانت هذه الأشهر فترة توتر صاعد بالنسبة لبريطانيا وفرنسا. قام صموئيل بزيادة الضغط باتجاه الاحتلال العسكري[40] خوفاً من تقدم عبد الله ومحتفظاً بالأمل في الضم المباشر لشرق الأردن إلى فلسطين. غير أن لندن بقيت مصرة على عدم إرسال أية قوات عسكرية. فقد كتب هربرت يَنْغ من وزارة الخارجية تعليقاً لاذعاً على حملة صموئيل الداعية إلى إرسال القوات قال فيه: «ما زلت غير مقتنع بجملة الحجج المختلفة، والمتناقضة أحياناً، التي يجري سوقها دفاعاً عن فكرة الاحتلال العسكري بشرق الأردن... يخشى السير هربرت صموئيل من عدم حصول فلسطين على حدودها الشمالية الصحيحة، وينظر بعين الطمع إلى الموقع الجغرافي لشرق الأردن بغية التعويض».[41] أما وزارة الحرب فقد شبهت الموقع الجغرافي لشرق الأردن بنظيره على الحدود الشمالية الغربية للهند، الذي تبين أنه بئر لا قرار له، من حيث تطلبه لأعداد متزايدة باطِّراد من القوات

أنه بئر لا قرار له، من حيث تطلبه لأعداد متزايدة باطّراد من القوات البريطانية.[42] وفي الوقت نفسه أدلى المفوض الفرنسي بدمشق المسيو دوكي بحديث خاص، اتهم فيه بريطانيا بتجنب احتلال شرق الأردن بهدف توجيه العداء العربي نحو فرنسا في سورية.[43]

فيما كان عبد الله ينتظر قابعاً في أروقة معان، كان فيصل في لندن يمثل أباه في مفاوضات إنجليزية ـ حجازية. وقد اعتبرت بريطانيا هذه المباحثات وسيلة لإشراك الملك حسين، وجعله طرفاً من أطراف القرارت التي اتخذها الحلفاء في سان ريمو، والتي قسمت البلاد العربية إلى دول منفصلة ووضعتها تحت نظامي الانتداب البريطاني والفرنسي. ولتحقيق هذا الهدف كانت بريطانيا مستعدة لتقديم قيادة هذه الدول إلى أبناء الحسين.[44] لقد كان ذلك الذي عرف باسم (الحل الشريفي) هو النهج الذي اعتمدته لندن، عاقدة الأمل ليس على استرضاء الحسين فقط، بل وعلى خلق شبكة سياسية متماسكة ومترابطة يؤدي الضغط على دولة من دولها إلى ضمان طاعة دولة أخرى.

كانت المنطقتان المطروحتان للمناقشة هما العراق وشرق الأردن. قام فيصل بتقديم مطالبة عبد الله بالعراق على أنها تحتل مرتبة أعلى من مرتبة مطالبته هو، ولكنه وافق على القبول بعرش العراق لنفسه بشروط معينة هي: أن على بريطانيا أن ترفض عبد الله، وأن تطلب منه أن يحل محله من جهة، وأن شعب العراق يجب أن يكون راغباً في القبول به ملكاً.[45] وكما هو متوقع، رجحت لندن كفة فيصل وتُرك أمر إعلان تنصيبه للسير بيرسي كوكس، المفوض السامي البريطاني في العراق.

كان عبد الله قد خسر العراق. غير أن لندن اعتبرت بقاءه دون أي منصب مشكلة تستوجب حلاً. وكان مستقبل شرق الأردن هو الآخر مشكلة تستوجب حلاً، وبالتالي فقد قررت لندن أن تحاول حل المسألتين

معاً. كانت بريطانيا قد حسمت مسألة الوضع القانوني لشرق الأردن بداهة حين قررت ببساطة أن تفترض أن شرق الأردن لم يكن إلا جزءاً من المنطقة المغطاة بنظام انتداب فلسطين، الذي كان قد أوكل إلى بريطانيا في مؤتمر سان ريمو قبل عشرة أشهر، رغبة منها في عدم إثارة مسألة تقسيم الشرق الأوسط في عصبة الأمم المتحدة مرة أخرى. غير أنه تقرر أيضاً أن يتم استبعاد شرق الأردن من البنود الصهيونية لانتداب فلسطين، لأن بريطانيا كانت حريصة على استرضاء العرب عن طريق الوفاء بقدر مقبول من وعود زمن الحرب. أما نوعية الإدارة التي كان سيجري خلقها فلم تكن محسومة بعد. ومع حلول شهر كانون الثاني كانت وزارة الخارجية قد سلمت بإمكانية حصول شرق الأردن على حاكمه العربي الخاص. ولدى حلول شهر شباط كانت قد أقرت أهلية عبد الله، بالاسم، لهذا المنصب.[46]

ربما كانت توجهات التفكير البريطاني قد وصلت إلى عمان، لأن وفداً رفيع المستوى من القوميين ذهب إلى معان في نهاية شباط عازماً على إعادة عبد الله معه إلى عمان. تألف الوفد من أربعة أعضاء هم: الشيخ كامل القصاب وأمين التميمي وعوني القضماني وعوني عبد الهادي، مع عضو خامس لم يكن متوقعاً هو مظهر رسلان الذي كان قد سبق له أن أبرق إلى عبد الله ناصحاً إياه بأن من الأفضل له أن يعود إلى الحجاز.[47] كان التغير الحاصل في موقف مظهر ذا دلالة، لأنه كان في ذلك الوقت يضطلع بمسؤوليات متصرف السلط بالتعاون مع ضباط سياسيين بريطانيين. وكان حضور عوني عبد الهادي هو الآخر حاسماً. فقد جاء إلى معان من القدس حيث كان صموئيل قد أبلغه بأن بريطانيا لم تكن عازمة على حكم شرق الأردن حكماً مباشراً، كما فعلت في فلسطين، بل أرادت أن تساعد السكان على تنظيم شؤون حكمهم بأنفسهم.[48] من الواضح أن مثل هذا النبأ أقنع عبد الله بأن تقدماً نحو الشمال لن يتمخض عن أية مجابهة مع

الشوط الأخير من رحلته إلى عمان. أكدت معلومات عبد الهادي أيضاً على أهمية استرضاء الزعماء المحليين داخل شرق الأردن، الأمر الذي كان في الغالب سيقف في المستقبل حجر عثرة في طريق الأهداف القومية.

وصل عبد الله إلى عمان في الثاني من آذار عام (1921 م). وفي وصف هذه المدينة في ذلك الوقت قال أحد الضباط البريطانيين إنها كانت:

> إنها كبيرة بالفعل نسبة إلى منطقتها في البلد، وهي مبينة على امتداد قاع واد ضيق، حيث بدت بيوتها معلقة على سفح التل. وأكثرية البيوت من طبقة واحدة وغير عادية من حيث الشكل، والعديد منها يذكر المرء بالشاليهات السويسرية، وبعضها شديد الشبه بالأكواخ الفلاحية الإيرلندية وبشعة مثلها محدراتها الخارجية المطلية باللون الأبيض... ثمة عدد هائل من الجنود [العرب] في هذا المكان.(49)

شكل وصوله بعد أشهر من الترقب والقلق نوعاً من الهبوط المفاجئ. ففي الكرك التي هي مركز الإقليم الأبعد في الجنوب، الذي كانت بريطانيا قد أرسلت إليه ضابطاً سياسياً، قام أليك كيركبرايد بالترحيب به.(50) وعلى الفور أحب كل منهما الآخر، وكانت صداقتهما ذات فوائد كبيرة للعلاقات الإنجليزية ـ الشرق أردنية في السنوات اللاحقة. بادر عبد الله فور وصوله إلى عمان إلى إيفاد عوني عبد الهادي إلى القدس مع رسالة إلى صموئيل يبلغه فيها عن رغبته في الحفاظ على علاقات ودية مع بريطانيا، شارحاً له أسباب مجيئه إلى عمان، زاعماً أنه لم يأت إلا ممثلاً لأخيه فيصل من أجل استعادة النظام والحكم في شرق الأردن الذي كان قد انزلق إلى حال من الفوضى منذ تعرض أخيه للنفي. وسارع صموئيل إلى تسطير رد ودي رغم إجهاد الأشهر.(51)

كان توقيت عبد الله مواتياً وربما لم يكن الأمر مصادفة. فسياسة بريطانيا الشرق أوسطية كانت موشكة على أن تتعرض لعملية إعادة نظر كاملة، عقب تجميع الاهتمامات والمصالح البريطانية الشرق أوسطية في إدارة شرق

أوسطية جديدة خاضعة لإشراف وزارة المستعمرات.[52] وكان ثمة أيضاً، مصادفة أخرى هي تعيين وزير دولة جديد لشؤون المستعمرات هو ونستون تشرتشل.

كانت سياسة بريطانيا الشرق أوسطية في ظل إدارة جديدة ورئيس جديد مقبلة على أن تصبح ممركزة، إن لم يتم دفعها نحو اتجاهات جديدة. وقد تمثل الجانب الاستعراضي لهذه العملية باجتماع لخبراء الشرق الأوسط البريطانيين في القاهرة. ولكن جملة من القرارات الأساسية كانت قد اتخذت في لندن قبل الاجتماع في القاهرة، منها تحديداً أن فيصل كان سيذهب إلى العراق، وأن الأردن كان سيبقى مفصولاً عن فلسطين إلى درجة معينة، وأن من شأن عبد الله أن يبرز على السطح في أثناء عملية ترتيب وضع شرق الأردن. ولم يبق أمام أولئك الذين اجتمعوا في القاهرة إلا أن يتوصلوا إلى اتفاق مع عبد الله.

افتتح مؤتمر القاهرة في الثاني عشر من آذار عام (1921 م).[53] كان العراق هو البند الأول على جدول الأعمال وتم الاتفاق، كما كان منتظراً، على السير قدماً في تطبيق خطة إجلاس فيصل على العرش. وفي السادس عشر من آذار وصل الوفد الفلسطيني برئاسة هيربرت صموئيل، فتحولت أنظار المؤتمر إلى شؤون فلسطين وإلى مشكلة شرق الأردن خصوصاً. لم يكن ثمة أي نزاع مكشوف حول الخطة الأساسية القائمة على ضرورة اقتراح نوع من الإدارة العربية الخاضعة للإشراف البريطاني في شرق الأردن؛ غير أن تحفظات معينة تم التعبير عنها بشأن تلك الخطة عن طريق التشكيك بمدى صلاحية عبد الله. فصموئيل لم يكن واثقاً من أنه سيكون مقبولاً، في حين عارض ويندهام ديدز، السكرتير المدني لحكومة فلسطين، تعيينه دون بيان الأسباب. وقد كان هذا الأخير، مثله مثل صموئيل، متعاطفاً مع الأهداف الصهيونية وشاعراً بأن «الشرقيين غير جديرين بالثقة وليس عبد الله استثناءً»[54] أما تي. إي. لورنس فقد عبر عن الأمل بأن تتم دعوة عبد

الله استثناءً»[54] أما تي. إي. لورنس فقد عبر عن الأمل بأن تتم دعوة عبد الله من قبل فرنسا لحكم سورية، وعن الخوف بأنه عندئذ قد يأخذ شرق الأردن معه إلى داخل دائرة النفوذ الفرنسي.

ما لبثت هذه المشاعر الغامضة أن تلاشت وتبددت أمام إصرار بريطانيا على الامتناع عن استخدام القوة المسلحة لخلع عبد الله، وفي غياب أي مرشح مناسب آخر. وبالتالي فقد كان تشرتشل في الثامن عشر من آذار قادراً على إبلاغ لندن بأن المؤتمر كان عاكفاً على اتخاذ ترتيبات تخص شرق الأردن، انطلاقاً من افتراض إمكانية التوصل إلى اتفاق مقبول مع عبد الله. وقد توقع أن يتم شغل منصب الحاكم التابع للمفوض السامي في فلسطين، إما من قبل عبد الله نفسه، أو من جانب شخص يوافق عليه.[55] جاء رد لندن حاملاً معه بعض التحفظات الخاصة. إذ من المؤكد أن الفرنسيين كانوا سيحتجون بصوت أعلى إذا ما تمت إقامة نظامين شريفيين في وقت واحد في منطقتين مجاورتين لسورية، فضلاً عن أن من المحتمل أن عبد الله نفسه كان سيفكر بأن شرق الأردن لم يكن إلا ثمناً ضئيلاً لجملة التنازلات التي كان سيطالب بتقديمها في حال قبوله بالعرض.[56] وبعد أن جرى تنبيهه إلى هذه المحاذير، انتقل تشرتشل إلى القدس ليتحدث مع عبد الله.

لم يكن وصول تشرتشل إلى القدس في السادس والعشرين من آذار مفاجئاً لعبد الله، فقد كان عوني عبد الهادي الذي بصّره بأسلوب إجراء المفاوضات قد أعده لمثل هذا اللقاء.[57] ففي هذه المرة لم يكن القوميون ـ الوطنيون من أمثال عوني ضد عقد صفقات مع بريطانيا بالضرورة، لأنهم كانوا قد باتوا يعترفون بالحاجة إلى قاعدة للعمل، وملاذ ويريدون تجنب استعداء بريطانيا وفرنسا، كلتيهما، في الوقت نفسه. أضف إلى ذلك أن بقاء شرق الأردن، وهو جزء من مملكة فيصل السورية برأي القوميين العرب، بعيداً ليس فقط عن الاحتلال الفرنسي، بل وعن الإدارة البريطانية المباشرة، بدا لهؤلاء القوميين العرب أمراً بالغ الأهمية.

كان قد تم إرسال لورنس إلى السلط لجلب عبد الله بالسيارة. وعلى طريق العودة إلى القدس قام الأول بإعداد الثاني لما كان تشرتشل سيعرضه.[58] ولانشغاله الكلي بحديثه مع لورنس تجاهل عبد الله مظاهر الترحيب التي كان الفلسطينيون قد نظموها على امتداد الطريق فأثار غضبهم واستياءهم.[59] وما لبث هذا الاستياء أن طفا على السطح في سنوات لاحقة، بوصفه نذير شؤم لأسلوب عبد الله في تعامله مع القيادة الفلسطينية، وفي استهانته بالتطلعات الفلسطينية. من المؤكد أن الاتهام ظل يتفاعل لأن عبد الله أقدم، في مذكراته المنشورة بعد خمس وعشرين سنة، على إزعاج نفسه بتوجيه اللوم إلى لورنس لأنه حال دون توقفه.[60]

دامت المباحثات بين تشرتشل وعبد الله ثلاثة أيام. وإضافة إلى المتفاوضين الرئيسيين حضر اللقاء كل من صموئيل وديدز وهيوبرت يَنْغ، كما اضطلع بمهمة الترجمة كل من تي. إي. لورنس وعوني عبد الهادي لكل من تشرتشل وعبد الله على التوالي. ونظراً لأن عوني لم يكن يعرف اللغة الإنجليزية فقد تمت المفاوضات باللغة الفرنسية. بدأ عبد الله باقتراح توحيد فلسطين وشرق الأردن تحت قيادة حاكم عربي، أو توحيد شرق الأردن والعراق. جرى رفض الفكرتين كلتيهما وسحقهما بقوة. وأخيراً وافق عبد الله على الاضطلاع بمسؤولية شرق الأردن وحده لفترة ستة أشهر، واعداً بإبقاء المنطقة قدر استطاعته خالية من نشاطات الإثارة المعادية لفرنسا والصهيونية، مقابل حصوله على جعالة قدرها خمسة آلاف من الجنيهات الإسترلينية.[61] وتم الاتفاق أيضاً على عدم نشر أية قوات بريطانية هناك.

ولكن أكثر العروض البريطانية إقناعاً كان اقتراح تشرتشل القاضي بأن «عبد الله كان، في حال نجاحه في لجم النشاط المعادي لفرنسا مدة ستة أشهر،... سيقوم بتحسين فرصه الخاصة لتحقق نوع من المصالحة الشخصية مع الفرنسيين، مما قد يفضي حتى إلى تنصيبه من قبلهم أميراً لسورية في

الملك التي ستفعل كل ما تستطيعه في سبيل بلوغ هذا الهدف، لم تكن قادرة بأي شكل من الأشكال على ضمان تحقيقه على أرض الواقع».[62] ولكن آخرين اعتقدوا بأن تشرتشل لم يصل إلى هذا المستوى من الصراحة. فقد قال جورج أنطونيوس، مثلاً، إن: «ما فعله تشرشل لم يكن في حقيقة الأمر.. إلا خداع عبد الله وإغراءه بالبقاء في عمان حاكماً لشرق الأردن، من خلال الوعد بتسوية فعلية لم تتحقق أبداً».[63]

بهذا الاتفاق كان تقسيم الهلال الخصيب إلى دول منفصلة خاضعة إما لبريطانيا أو فرنسا قد تم استكماله. وعلى الرغم من الطابع المؤقت القصير الأمد لهذا الترتيب، فإن شرق الأردن أثبت أنه كان كياناً دائماً. أما بالنسبة لعبد الله فإن أشهره الستة طالت حتى غطت عمراً كاملاً.

أدت عملية تمزيق سورية الجغرافية [الطبيعية] المتشكلة من سورية ولبنان وفلسطين؛ إضافة إلى شرق الأردن إلى إنزال ضربة قاسية بجملة الروابط الطبيعية المنسوجة عبر قرون التعامل والألفة على مختلف الأصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ففي ظل حكم الإمبراطورية العثمانية كانت المنطقة التي باتت تعرف باسم شرق الأردن منطقة هامشية.[64] ولعدم احتوائها على أية مراكز حضرية كبيرة وضآلة أصولها القابلة للترسيم وتحصيل الضرائب فإن حماية طريق الحج كان أساس اهتمام الإمبراطورية بهذه المنطقة. أما الروابط التجارية والسياسية فكانت بأكثريتها منظمة على امتداد طريق الحج الممتدة من دمشق في الشمال إلى المدينة ومكة في الجنوب. كانت سلسلة من الحصون قد شيدت في القرن السادس عشر على الخط الممتد من دمشق إلى الحجاز في أماكن معينة مثل: عجلون، السلط، قطرانة، ومعان. وحرصت الحكومة العثمانية على دعم القوة المسلحة بدفع الأتاوات لشيوخ القبائل على امتداد الطريق، وشكل رجال القبائل الذين يخدمون الدولة مقابل المال جزءاً لا يتجزأ من إدارة الحج. كانت دمشق أقرب المراكز التجارية، فضلاً عن كونها مركزاً سياسياً. ظلت

السيطرة العثمانية على طريق القوافل كما على شرق الأردن تتأرجح بين المد والجزر طوال القرون التالية. كان القرن السابع عشر فترة شيوع اللامركزية والإهمال، في حين شهد النصف الأول من القرن الثامن عشر نوعاً من التحسن في المواصلات بين دمشق والمدينة عبر الطريق العابرة لشرق الأردن. أما النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد كان فترة تدهور أخرى للأمن على امتداد طريق الحج، غير أن هذا التراجع للمد العثماني ما لبث أن انقلب رأساً على عقب خلال فترة الإصلاح والإحياء للإمبراطورية في القرن التاسع عشر.

ففي تلك الفترة قامت الإمبراطورية تدريجياً، مستفيدة من التجديدات التقنية على أصعدة النقل والاتصالات، بمركزة حكمها الفعال وتوسيعه بما يجعله شاملاً لمناطق كانت هامشية من قبل. ففي عام (1851 م) جرى تنظيم المنطقة الواقعة في الزاوية الشمالية الغربية من شرق الأردن والممتدة بين نهري اليرموك والزرقاء بجعلها قضاء مرتبطاً بمتصرفية حوران وعاصمته إربد تحت اسم قضاء عجلون. وما لبث الحكم العثماني أن اتسع جنوباً خلال السنوات الأخيرة من عقد ستينيات القرن التاسع عشر، ليتوغل في المنطقة المعروفة باسم البلقاء من نهر الزرقاء إلى وادي مجيب. وتم ضم قضاء البلقاء إلى سنجق نابلس، وصارت السلط التي وصفها رحالة تلك الفترة على أنها القرية المستوطنة الوحيدة في المنطقة عاصمته. كانت السلط بلدة مزدهرة فيها محلات تبيع أقمشة قطنية محلية ومجلوبة من مانشستر، وسلعاً صوفية محلية، ومواد غذائية، وأدوات مصنوعة من الحديد. وقبل تأسيس حامية عثمانية هنالك في العقد السابع من القرن التاسع عشر، كانت السلط تدفع أتاوة سنوية كبيرة لقبيلة العدوان ثمناً للحماية. وبعد عشر سنوات كانت الحامية قد نجحت في قلب الوضع رأساً على عقب إذ أصبحت السلط قادرة على جمع الضرائب من القبائل الرعوية الموجودة حولها.

شهدت البلقاء في العقد التاسع من القرن التاسع عشر تغييراً سكانياً، مع وصول مهاجرين شركس هاربين من الحكم الروسي، الذي كان يتوسع تدريجياً باتجاه الجنوب عبر القفقاس في القرن التاسع عشر. وهؤلاء المهاجرون الذين التمسوا السلطان طالبين ملاذاً لهم بدؤوا يصلون إلى القضاء في عام (1878 م).[65] واستقر ما يقدر بخمس مئة شخص بادئ ذي بدء بين الآثار الرومانية في عمان (غير المسكونة منذ أيام الرومان)، ثم ما لبثوا أن انتشروا إلى عدد من المواقع القريبة. وبعد حصولهم على الأرض والإعفاءات الضريبية من السلطان بغية تسهيل توطنهم، تمكن هؤلاء الفلاحون المجدون والمكتفون ذاتياً من حماية أنفسهم من البدو، بل واستحدثوا عربات كبيرة تجرها الثيران وشبكة طرق ترابية في المنطقة. غير أن توسع الاستقرار والزراعة لم يكن مقصوراً على الشركس. ففي الفترة نفسها انتقلت عائلات مسيحية كثيرة من الكرك إلى مادبا، واستقرت في الخرائب المهجورة هناك، كما أن عائلة أبو جابر السلطية بدأت تستنبت مزرعة مساحتها ستون فداناً على بعد ميلين إلى الجنوب من عمان.[66]

اكتسب شرق الأردن أهمية استراتيجية مع الاحتلال البريطاني لمصر في عام (1882 م)، لأن العثمانيين خافوا من توسيع السيطرة البريطانية شرقاً وباتجاه البحر الأحمر. ففي عام (1893 م) أرسلت إسطمبول إلى الكرك التي ظلت حتى ذلك التاريخ قانعة بأن تحكمها عن طريق مجرد إضفاء اسم الحاكم على الرجل القوي المقبول محلياً (من عائلة المجالي) حامية ومتصرفاً. وكانت منطقة الكرك الإدارية الجديدة تضم كلاً من معان والشوبك والطفيلة.

ثم جاء خط حديد الحجاز[67] ليزيد من قوة قبضة الحكم العثماني في أقاليم عجلون والبلقاء والكرك المنظمة حديثاً. ففي عام (1903 م) تم افتتاح الخط الممتد من دمشق إلى عمان، وما لبث الخط الحديدي أن وصل إلى كل من معان والمدينة [المنورة] مع حلول عامي (1904 و1908 م) على

التوالي. جرى تسيير القطارات بين دمشق ومعان ثلاث مرات أسبوعياً في كل اتجاه، وقد كانت تغادر دمشق في الساعة العاشرة صباحاً وتصل إلى معان حوالي الساعة الحادية عشرة قبيل ظهر اليوم التالي. جلبت السكة الحديدية معها قدراً إضافياً من فرص العمل والتجارة والأمن جنباً إلى جنب، مع قدر أكبر من الاتصال بالحكومة المركزية. جرى استخدام شركس عمان عمالاً على الخط وإداريين في المناصب الدنيا. باتت البضائع المشتراة في دمشق ليعاد بيعها في شرق الأردن ترسل جنوباً بالقطار، ويتم شحنها بالعربات الشركسية من المحطة إلى موقع بيعها. وما لبثت معان، حيث قام المهندس الألماني مايسنر باشا ببناء المستودعات ومرافق الإصلاح، بل وحتى مسكن له، أن أصبحت إحدى أكثر المحطات أهمية على الخط.

جاءت الحرب العالمية الأولى ومعها الثورة العربية لتضع حداً لهذه الفترة من الازدهار التجاري والسكاني والزراعي الناجم عن توسيع دائرة السلطة العثمانية. توقف النقل على السكة الحديدية خلال الحرب، وتوقفت معه سائر النعم التجارية والأمنية المرافقة. فقبائل الرحل البدوية التي كانت قد بدأت تنوع اقتصاداتها بإقامة تجمعات زراعية قائمة على عمل أبنائها، أو على عمل فلاحين مستأجرين وإخضاعها لسيطرتها، بدت الآن عائدة إلى نمط حياتي أكثر بداوة.[68] وبعد الحرب تأكدت هامشية المنطقة جراء انشغال البريطانيين والفرنسيين بالمناطق المجاورة الواقعة إلى الشمال والشرق والغرب. صحيح أن التجارة والزراعة تم استئنافهما، ولكنهما تغيرتا نتيجة بناء الأسوار الحدودية، وفرض جملة جديدة من المصالح الأجنبية المختلفة.

ليست الأرقام السكانية الخاصة بشرق الأردن فيما قبل عام (1920 م) جديرة بالثقة وهي في شدة التباين بين مصدر وآخر. فمن بين ثلاثة مراجع والتي هي: الأرقام العثمانية العائدة لعام (1915 م)،[69] والتقديرات البريطانية في عام (1921 م)[70] والأرقام المأخوذة من وثيقة عربية

معاصرة،[71] يبدو أن المصدر الأخير هو الأكثر واقعية، وقد جرى تقديمه في الجدول التالي، علماً أن مقاطعتي العقبة ومعان ليستا مشمولتين بهذه الأرقام.

سكان شرق الأردن في سنة (1922 م)

المجموع الإجمالي للسكان 225380 نسمة

السكان المستقرون

المنطقة	عدد القرى	القرى الرئيسية وسكانها		المجموع
عجلون	101			
		إربد	3500	69330
		الرمثا	4500	
		كفر نجة	3200	
		السوف	3200	
البلقاء	15			
		السلط	20000	39600
		عمّان	24000	
		وادي السير	3200	
		مادبا	2400	
الكرك	8			
		الكرك	3000	13300
		الطفيلة	2500	
مجموع الحضر				122340

السكان الرحل

القبيلة	عدد الخيم	عدد الأفراد
بنو صخر	5500	27500
العدوان وقبائل البلقاء	10400	52000
بنو حميدة، هاجايا، سالت	1500	7500
عشائر الكرك والطفيلة	3190	15950
مجموع البدو الرحل		102950

كانت المنطقة أكثر تجانساً من أية دولة شرق أوسطية أخرى خاضعة للانتداب. ولعل الانقسام الأبرز في صفوف شرق أردنيي المستقبل كان قائماً على نمط الحياة والاقتصاد، بين رعوي من جهة وفلاحي - زراعي من الجهة المقابلة، أكثر من استناده إلى أي تنوع عرقي (إثني) أو ديني. وكما يتضح من الجدول السابق فإن المجموع الإجمالي لأهالي شرق الأردن، باستثناء معان والعقبة، كان يبلغ حوالي مئتين وخمسة وعشرين ألف نسمة، أربعة وخمسون بالمئة منهم صنفوا كمستقرين وستة وأربعون بالمئة اعتبروا بدواً رحلاً. لم يكن الانقسام نفسه مطلقاً. فالعديد من البدو كانوا ينشطون في الأعمال الزراعية بصورة جزئية، كما أن الفلاحين كانوا يتحولون موسمياً إلى رعاة. كانت الجماعة الرئيسية غير العربية مؤلفة من الشركس، الذين كانوا يشكلون أقل من خمسة بالمئة من السكان. ولكن هذا الاختلاف العرقي (الإثني) كان مخففاً، جراء ديانة الشركس الإسلامية السنية التي كانوا يتقاسمونها مع الأكثرية الساحقة من عرب شرق الأردن. أما الانقسام الديني الرئيسي فقد كان بين المسلمين المتفوقين عددياً تفوقاً كبيراً والمسيحيين. وقد كان الأخيرون الذين لم يكونوا يشكلون إلا أقل من عشرة بالمئة من السكان موزعين بين طوائف الروم الأرثوذكس، الروم

كاثوليك واللاتين والبروتستانت مرتبة حسب أهميتها العددية. كان الشركس يعيشون في مجتمعات شركسية حصرية، باستثناء عمان التي كانت قد بدأت تجتذب كتلة سكانية أكثر تنوعاً. أما المسيحيون فكانوا يشكلون أقليتين كبيرتين في الكرك والسلط، ويسكنون مادبا وحدهم، كما كانوا مبعثرين بين العديد من قرى منطقة عجلون. كان بعضهم يعتمد بصورة رئيسية على الرعي في حياتهم في حين كان بعضهم الآخر مزارعين. كانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين وبين الشركس والعرب جيدة عموماً. وحين كانت هذه الجماعات تختلف فيما بينها، فإن أسباب النزاع كانت كامنة في التنافس بين الرعاة والفلاحين على الأرض أكثر من أن تكون عائدة إلى أي انتماء ديني أو عرقي.

على الرغم من أن رحالة القرن التاسع عشر الذين جالوا فيما وراء نهر الأردن أسهبوا في وصفهم للغابات الكثيفة وحقول القمح والشعير المتماوجة، فإن الجزء المزروع من شرق الأردن لم يكن كثير الاتساع فيما وراء وادي الأردن شريط الأرض الضيق الممتد مع سلسلة المرتفعات المحاذية له. وقد كان شح الماء مسؤولاً عن النمط الزراعي. فالمياه النهرية الوحيدة هي مياه نهر الأردن ورافديه اليرموك والزرقاء، وتتراوح الهطولات المطرية السنوية وسطياً بين ستة عشر إنشاً في الشمال وأقل من إنشين اثنين في الصحراء الشرقية. إن إقليم عجلون هو المنطقة الأكثر خصباً وكان في بدايات القرن العشرين ينتج القمح والشعير والعدس والحمص والعنب والزيتون. كما أن الذرة والقمح كانت الإنتاج الأكثر شهرة في المنطقة. أما إقليم الكرك فكان ينتج القمح والشعير، غير أن قسماً كبيراً من أرضه كان يبقى بوراً جراء الافتقار إلى الماء. لم تكن بلدات الواحات في المناطق الجنوبية تمتلك ما هو أكثر من بساتين منزلية صغيرة عدا العقبة التي كانت فيها أشجار النخيل.(72)

كان أهالي شرق الأردن، جميعهم تقريباً، ذوي انتماءات عائلية

وعشائرية وقبلية. وقد عكس هذا النمط من التنظيم الاجتماعي المستوى المتدني من التحضر والعلاقة الهامشية مع مراكز القوة في المنطقة. فدمشق العاصمة الإقليمية الطبيعية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي كانت أبعد بكثير من أن يكون لها تأثير عميق على أشكال التنظيم الاجتماعي في الأعماق، التي كانت تشكل شرق الأردن. وفي غياب الأمن كانت الأشكال القبلية من الانتماءات الاجتماعية والاقتصادية الواقية يجري التعبير عنها بعلاقات القربى، مصحوبة عادة بحياة رعوية بدوية ذات امتدادات مخترقة للمناطق والقرى الزراعية. وبالتالي فإن النزعة القبلية في شرق الأردن لم تكن مقصورة على البدو الرحل، لأن القبائل في شرق الأردن كانت تشغل سائر الميادين الاقتصادية، بدءاً برعي الإبل وانتهاء بالزراعة المستقرة، مشكلة شبكة معقدة من التحالفات الاجتماعية الموحدة والدافعة باتجاه التلاحم. فمع حلول عقد العشرينيات، وقبله في بعض الأحيان، بات ينظر إلى امتلاك الأرض بوصفه مصدراً للنفوذ الاجتماعي وأساساً للثروة، غير أن ملكية الأرض لم تفض بالضرورة إلى إضعاف المعنى الاجتماعي للقبيلة. وأكثر أولئك الذين برزوا فيما بعد في إطار السلطة السياسية المستقلة نجاحاً، كانوا ممن تمكنوا من الجمع بين زعامة قبيلة كبيرة من جهة وملكيات عقارية شخصية واسعة من الجهة الأخرى.

أما أكثر القبائل أهمية في شرق الأردن فكانت قبائل الحويطات وبني صخر والعدوان وبني حسن،[73] التي انطوت على أهمية كبيرة لكثرة أعدادها من جهة ولامتلاكها، للأسلحة من جهة ثانية. فالحويطات التي كانت أمداؤها تمتد من الطفيلة إلى الجنوب، اغتنت خلال الحرب بفضل الذهب البريطاني وأسعار الإبل المرتفعة. وبالتالي فقد تعرضت حقول الزراعة الخاضعة لهيمنتها، إما للإهمال أو للتأجير إلى الفلاحين، في حين عادت القبيلة نفسها إلى حياة بدوية كلياً. وبعد أن تم خلق شرق الأردن أصبح نصف القبيلة بزعامة عودة أبو تايه من الوهابيين، وأقسموا يمين

الولاء لابن سعود. أما التصف الآخر بزعامة حامد بن جازي فقد بقي في شرق الأردن ولكن في وضع بات ضعيفاً. وكان بنو صخر الذين وقعت مرابعهم القبلية ومضارب خيامهم في العمق إلى الشمال وداخل حدود شرق الأردن بصورة شبه كاملة، هم أيضاً بدواً رحلاً إلى حد كبير. وعلى امتداد القرن التاسع عشر كانت هذه القبيلة قد خرجت من السعودية وتحركت شمالاً بصورة تدريجية. ومع حلول القرن العشرين باتت مسيطرة على معظم البلقاء، فضلاً عن أن أمداءها في الشتاء صارت تصل إلى وادي سرحان في الجنوب. كان هؤلاء يرعون الأغنام والإبل، ويتلقون الريع العيني من صنائعهم الفلاحين، الذين درجوا على زراعة أراضيهم الواسعة. ففي ثمانينيات القرن التاسع عشر اضطلع أول شيوخ بني صخر، الذين باتوا حريصين على امتلاك الأراضي الزراعية سطام بن فايز شخصياً، بمهمة الإشراف على مزارع أم الآماد الواقعة إلى الجنوب من عمان، على الرغم من حفاظه هو وقبيلته على نمط الحياة البدوية. وبعد الحرب ما لبثت اثنتان من عائلات بني صخر القيادية أن أصبحتا بالمثل مهتمتين بالزراعة، ولكنهما اكتشفتا أن عشيرة ابن فايز كانت قد وضعت يدها على معظم الأراضي الخصبة. وخلال فترة الانتداب برزت عشيرة ابن فايز هذه بوصفها الجناح الأقوى في القبيلة. وأصبح زعيمها مثقال بن فايز، رغم أميته، أكبر ملاك الأراضي في شرق الأردن. أما قبيلة العدوان فكانت، مع حلول عام (1920 م) شبه مستقرة في البلقاء ووادي الأردن. صحيح أن هذه القبيلة كانت قد فقدت مكانتها المهيمنة أمام التجاوزات المتقدمة لقبيلة بني صخر خلال القرن السابق، غير أنها شكلت عام (1923 م) تحدياً كبيراً لحكم عبد الله. ظلت المنافسة بين قبيلتي العدوان وبني صخر طاغية على السياسة القبلية الداخلية خلال جزء غير ضئيل من القرن العشرين حيث درجت القبائل الأقل شأناً على التحالف مع إحداهما. أما قبيلة بني حسن التي ضمت ما قدر بـ (860) خيمة في عام

(1917 م) فكانت تقطن منطقة واقعة إلى الشمال من عمان على ضفاف نهر الزرقاء. وقد اتخذت موقفاً معارضاً من بني صخر بالتحالف مع العدوان.

لم يكن ثمة أي شيء ذو طابع ثقافي أو اقتصادي يميز سكان شرق الأردن تمييزاً خاصاً عن جيرانهم في مختلف الجهات. صحيح أن تنظيمهم القبلي ـ العشائري كان ملحوظاً، غير أن هذا لم يكن نتاجاً خاصاً منبثقاً من شرق الأردن بالذات، بمقدار ما كان مترتباً على البعد عن أي مركز حضري. ففي الزاوية الشمالية الغربية حيث المياه الكافية للزراعة الدائمة سادت الحياة القروية. وعلى الرغم من أن القرويين ربما كانوا منظمين في جماعات قبلية، فإنهم كانوا ذوي اهتمامات شبيهة باهتمامات جيرانهم الفلسطينيين في أماكن أبعد إلى الجنوب. وكذلك لم تكن هناك أية سمات جغرافية بارزة تميز شرق الأردن عن البلدان المجاورة. كان التضريس الوحيد الذي يمكن اعتباره حدوداً طبيعية على سطح الأرض متمثلاً بوادي الأردن ـ انهدام وادي عربة الذي هو أعمق وديان العالم والذي وقعت فلسطين وراءه.

لم يكن العامل الرئيسي الكامن وراء تميز الأردن واختلافه متمثلاً بالجغرافيا أو الثقافة أو الانتماء العرقي (الإثني) بمقدار ما كان نابعاً من تفريق سياسي فرضته أوروبا. فسورية إلى الشمال كانت خاضعة للانتداب الفرنسي، في حين كان شرق الأردن تحت الانتداب البريطاني. وفلسطين إلى الغرب كانت خاضعة للحكم البريطاني المباشر، ومفتوحة أمام الاستيطان والاستعمار اليهوديين. أما شرق الأردن فكان حكمه حكماً غير مباشر، فضلاً عن أنه لم يكون مفتوحاً أمام الاستعمار والاستيطان. وباتجاه العراق الخاضع هو الآخر لحكم بريطاني غير مباشر أيضاً، كان شرق الأردن يمد يداً عبر الصحراء، ليمكن بريطانيا من امتلاك ممر بري متصل ممتد بين حقول النفط وسواحل البحر الأبيض المتوسط. أما إلى الجنوب من شرق

الأردن فكانت ثمة ما اعتبرها الأوروبيون تلك النزعة القبلية الخطرة والمهددة المنبثقة من عمق الجزيرة العربية المتحررة من السيطرة الأوروبية.

لم يكن وجود الأردن مستنداً إلى أي منطق محلي أو إقليمي، بمقدار ما كان قائماً على المصالح الأوروبية. فبسبب هذه المصالح برز ما لم يكن ذات يوم إلا إقليماً هامشياً ـ وجزءاً من النسيج السياسي العثماني ومن بنية اجتماعية عربية وإقليمية ـ بصورة مفاجئة، بوصفه بلداً منفصلاً عن جيرانه. غير أن انفصاله لم يكن مطلقاً أو طويل الأمد بالضرورة في البداية. فالقبائل في نصفه الجنوبي ظلت على علاقات وثيقة بالسياسة القبلية المنبعثة من الأقاليم الأبعد جهة الجنوب. كما ظل القرويون في الشمال منخرطين في الأحداث الجارية في كل من سورية وفلسطين. واستمر ساسة بريطانيون سنوات عديدة يفكرون بدمج شرق الأردن بفلسطين. أما بالنسبة لعبد الله فلم يكن شرق الأردن هذا إلاّ العتبة الموصلة إلى قدر أكبر من النفوذ، إذ كان، في البداية، يحلم بالزحف إلى دمشق. غير أنه صار في السنوات التالية يعقد الآمال على توحيد شرق الأردن مع أي بلد مستعد من البلدان المجاورة.

5) التأقلم مع الواقع الجديد

ما إن انتهت اجتماعات تشرتشل وعبد الله في القدس حتى انطلق الرجلان في اتجاهين متعاكسين. عاد الأول إلى لندن للحصول على الموافقة الرسمية لخطته الخاصة بشرق الأردن. ورجع الثاني إلى عمان ليرسخ أقدامه في إقطاعيته الجديدة.

كانت مهمة تشرتشل هي الأسهل. لقيت خطته قبولاً مباشراً لدى الحكومة البريطانية (الوايت هول) لأنها لم تتطلب أية قوات، وكانت على درجة من التجريبية تكفي كي لا تبدو منحازة ضد ترتيبات أخرى، وربما أفضل، قد تصبح ممكنة في المستقبل. وقد وصف تشرشل وضع عبد الله بأنه (غير رسمي) وأضاف قائلاً: «لم تتم إثارة أية من مسألتي الحكم أو السيادة». أصر على التعامل مع صنيعته الجديدة بشيء من المرونة: «يجب منح عبد الله على صعيد الخطب التي يلقيها هامشاً مساوياً للهامش الذي يتمتع به عضو [في البرلمان] مؤيد للحكومة، ولكنه جالس على مقعد مهزوز».[1] وتم الاتفاق على تخصيص مبلغ خمسة آلاف من الجنيهات الإسترلينية معاشاً شهرياً لعبد الله.

بقي الشكل النهائي الذي كان الحكم البريطاني سيأخذه خاضعاً للمناقشة. فبعض الساسة البريطانيين ظلوا يفكرون بالضم الكلي لشرق الأردن إلى فلسطين، غير أن القيمة السياسية والاستراتيجية لشرق الأردن منفصل عن فلسطين ما لبثت تدريجياً خلال السنوات الأربع التالية أن أصبحت أكثر وضوحاً. وفي الوقت نفسه كان هدف بريطانيا متركزاً على

إبقاء شرق الأردن هادئاً حتى يتم ترسيخ أنظمة الانتداب في البلدان المجاورة الأكثر أهمية. وبالتالي فإن النشاطات البريطانية في شرق الأردن كانت في البداية مهتمة بقضايا الأمن أكثر من اهتمامها بأساليب الحكم.(2)

وفي مثل هذا الوضع لم يكن مركز عبد الله المعتمد على شخصه وعلى وضع الأردن الذين كان يتعين عليهما أن يبرهنا على أنهما كانا ينطويان على قيمة معينة بالنسبة لبنية الأمن الإقليمي لدى بريطانيا، آمناً. كان الرجل قد قبل باتفاقية مدتها ستة أشهر لأن ذلك كان يوحي له بأشياء أفضل في المستقبل القريب، بالانتقال إلى دمشق تحديداً؛ ولكنه ما لبث، مع تراجع تلك الإمكانية، أن أصبح أكثر حرصاً على ضمان مركزه حيث كان موجوداً. ولبلوغ هذا الهدف ابتعد عن الجماعة القومية التي كانت حليفته الأصلية في شرق الأردن وصار أكثر قرباً من بريطانيا. وبما أن هذه الجماعة لم تكن، بأكثريتها، من مواطني شرق الأردن، فإن مثل هذا التحرك لم يتمخض إلا عن الحدود الدنيا من المضاعفات الداخلية. ومع ذلك فإن انحيازه لبريطانيا ترك مع الزمن بصمات درامية مثيرة على طموحاته الإقليمية الأوسع.

كانت عمان التي عاد إليها عبد الله بعد اجتماعاته مع تشرتشل قرية عدد سكانها بين (2500) و(3000) نسمة.(3) صحيح أن كتلتها السكانية كانت قد تضخمت جراء التدفق الأخير للقوميين العرب غداة طرد فيصل من دمشق، غير أن نواتها كانت متمثلة بجماعة المستوطنين الشركس التي كانت هناك من ثمانينيات القرن التاسع عشر. سارعت هذه الأقلية الصغيرة في المنطقة إلى الترحيب بعبد الله والقبول بحمايته لها. أقام عبد الله مقر قيادة مؤقتاً في منزل شركسي بارز يدعى سعيد المفتي.(4)

عاش عبد الله طوال حكمه حياة متنقلة لم تعرف معنى الاستقرار. ففي السنوات الأولى قبل بناء قصره في عمان عاش في أماكن مختلفة من

البلقاء. داهمه صيف عام (1921 م) متلاً وهو في منزل عائلة أبي جابر المسيحية في السلط أولاً وفي مضارب خيمه بمادبا فيما بعد. أما في منطقة عمان فكان مضرب خيامه المفضل بقعة خارج البلدة شيد فيها المطار القديم لاحقاً. أدى الأسلوب القائم على التغيير في ترتيبات حياته إلى التشجيع على نوع من غياب الرسميات والتشكليات، غياب كان يذكر بأحواء، (معسكر الراية الذهبية). يقوم أبرمْسُن مثلاً بوصف إحدى زياراته له، حيث وجده في الخيمة وهو يلعب لعبة الغميضة وشد الحبل والذئب والحملان وما إليها مع حاشيته وضيوفه من شيوخ القبائل.[5] وفيما بعد صارت تحركاته أكثر انتظاماً بين عمان في الصيف وشونة نمرين في وادي الأردن في الشتاء رغم أن ولعه بالألعاب لم يتلاش.

وشيئاً فشيئاً باتت عمان، رغم مرافقها البدائية وحجمها الصغير، تحتل مكانة ذات أهمية أساسية في البلاد. ففيها كان مؤيدو فيصل قد تجمعوا عام (1920 م). وكانت على خط الحديد الحجازي الذي وفر لها أفضل سبل الاتصال المتوفرة مع كل من دمشق وحيفا (الميناء الرئيسي على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط) والحجاز. كما كانت واقعة على طرف الصحراء في بقعة متوسطة بين المنطقة الشمالية المأهولة أكثر والإقليم الجنوبي. صحيح أن السلط، العاصمة الإقليمية العثمانية القديمة، كانت أكبر بلدات شرق الأردن في ذلك الوقت إذ كان عدد سكانها يصل إلى حوالي عشرة آلاف نسمة، إلا أنها كانت شديدة القرب من فلسطين وذات تاريخ طويل من الصراع مع القبائل البدوية المنتشرة في العمق الصحراوي لشرق الأردن. وبالتالي فإن عمان كانت، بمعنى من المعاني، بقعة أكثر اتصافاً بالحياد. ومما زاد الطين بلة وأدى إلى حسم الأمر أن حاشية عبد الله البدوية تشاجرت مع أناس محليين، حين كان عبد الله في السلط صيف عام (1921 م). وفي الشجار هُزم أعوان عبد الله شر هزيمة، وأجبروا على مغادرة البلدة.[6] إن علاقاته اللاحقة بالسلط لم تكن جيدة جداً في أي من الأوقات.

بدأ عبد الله إدارته بتشكيل حكومة ذات أبعاد عظيمة. فقد عين مجلساً للوزراء مؤلفاً كلياً من قوميين سبق لهم أن كانوا في خدمة فيصل في سورية. كان المجلس برئاسة درزي من منطقة الشوف اللبنانية محكوم بالإعدام في سورية الخاضعة للفرنسيين يدعى راشد طليعة. وكان مع راشد بيك هذا في مجلس الوزراء كل من أمين التميمي من نابلس، مظهر رسلان من حمص، حسن الحكيم من دمشق، وعلي خلقي الشرايري من عجلون، وهو الوحيد من شرق الأردن.[7]

بدا هذا المجلس كما لو كان حكومة في المنفى، وكان خير تجسيد لطموحات عبد الله المتمثلة بالزحف إلى دمشق. كان كل من راشد طليعة وأمين التميمي ومظهر رسلان أعضاء في حزب الاستقلال العربي، الذي كان خلفاً علنياً فيما بعد الحرب لجمعية الفتاة السرية فيما قبلها. وقد كان الاستقلال، حسب الاسم المتداول عموماً، الحزب الأفضل تنظيماً والأوسع انتشاراً (إذ كانت له فروع منتشرة في سائر أرجاء سورية الجغرافية [الطبيعية] والعراق) والأكثر جذرية بين أحزاب ما بعد الحرب القومية. تركزت أهدافه على تحقيق هدفي توحيد سورية الكبرى (الجغرافية) والعراق. أما الوصاية الأجنبية فكانت - مثلها مثل خطة بريطانيا الصهيونية في فلسطين - مرفوضة.

على الطرف البريطاني من المعادلة تم تعيين الحاكم العسكري السابق للخليل والرئيس الحالي للجنة الأرض في فلسطين ألبرت أبرمْسْن ضابطاً سياسياً رئيساً، يضطلع بمهمات ضابط الارتباط بين المفوض السامي في القدس وعبد الله ويضمن بقاء الأخير، ملتزماً بوعوده. وعلى الرغم من أن لندن لم تكن تعرف إلا القليل عن الرجل، فقد جاء مصحوباً بقدر كبير من المديح من جانب كل من صموئيل وديدز ولورنس.[8] أما الضباط البريطانيون الآخرون المعينون من جانب صموئيل قبل ستة أشهر فكانوا سيبقون في مناصبهم، كما كان فريدريك بيك خصوصاً سيواصل مهمته المتمثلة بتشكيل قوة احتياطية محلية.

كان لابد للقومية العربية والإمبريالية البريطانية من التصادم فيما بينهما آخر المطاف في الشرق الأوسط. غير أن هذا الصدام المحتوم في النهاية لم يكن أوائل العشرينيات متجلياً بوضوح كامل رغم إحباطات مؤتمر السلام، لأن ما كان مشتركا ومتبادلاً بين الطرفين من حاجة كل منهما للآخر، وسوء تصور وخطأ فهم كان قد خلق الوهم القائل بوجود قدر معين من المصالح المشتركة بين الجانبين. كانت الحصيلة النهائية لعقد صفقة مع بريطانيا مموهة وغامضة من جهة، ومفتوحة وقابلة للتعديل من الجهة الأخرى، لأن السياسة البريطانية رمت إلى استرضاء القوميين العرب قدر الإمكان لدفعهم إلى تأييد نظام الانتداب. أضف إلى ذلك أن العديد من القوميين شعروا بأن بريطانيا لم تكن راضية عن الأساليب الفرنسية، فوقعوا في خطأ الاعتقاد بإمكانية قلب عدم الرضى هذا إلى دعم لقضيتهم الخاصة.

في ظل هذه الظروف استطاع عبد الله أن يجد لنفسه، مؤقتاً، موقعاً وسطاً بين مؤيديه القوميين وأسياده البريطانيين. فبتعيين حكومة قومية أرضى التطلعات القومية الطامحة إلى الاضطلاع بدور في الحكم. وبعزوفه عن المشاركة الشخصية المكثفة في الإدارة، ضمن إيقاع اللوم على مستشاريه وإدارييه عن أي تدابير متطرفة يتخذها الطرف القومي من المعادلة فيما يخص بريطانيا. وثمة استراتيجية أخرى اعتمدها تمثلت باستغلال (كسله وفتور همته) مما مكنه من الظهور بمظهر المطيع المذعن ولكنه العاجز عن تنفيذ أوامر معينة، بدلاً من رفض المطالب البريطانية رفضاً مباشراً، والتسبب بمجابهة قد لا تكون قابلة للتفاوض. كانت التهم البريطانية الموجهة إلى عبد الله تعكس نجاحه، فقد وصمته بالكسل وفتور الهمة والعجز، غير أنها لم تصفه قط بعدم الرغبة في التعاون أو التمرد والعناد في هذه الفترة المبكرة على الأقل. غير أن شكوكاً معينة كانت تحوم حول وجود أغراض أعمق تحت الغطاء السطحي لميزات عبد الله. فقد وصفه أبرمْسُن قائلاً: إنه

«محبوب، لبق وكريم، قد يكون بسيطاً وصريحاً، ولكن الاحتمال الأقوى هو أنه بالغ العمق قوي العزيمة».(9)

على الرغم من أن تلك كانت حيلاً ناجحة على المدى القصير فإنها لم تحم عبد الله طويلاً. ما لبثت سلسلة من النزاعات الثانوية، وجملة من الضغوط الخفية أن كشفت بوضوح عن قوة بريطانيا المتفوقة. كما أن غياب الدعم المطَّرد من جانب عبد الله ما لبث أن أفضى، آخر المطاف، إلى ابتعاد معظم مؤيديه القوميين عنه.

نشأ التضارب المكشوف الأول بين الرغبتين: البريطانية والقومية في شهر أيار، حول حجم القوات الاحتياطية المحلية الذي أرادته بريطانيا صغيراً، وأراده مستشارو عبد الله القوميون كبيراً. ولمناقشة المسألة دعي عبد الله إلى فلسطين، ونزل ضيفاً على سفينة الدوق الحديدي (الآيرون ديوك) الملكية الراسية في حيفا. سعيداً بدعوته وبسفينة (الدوق الحديدي المزدحمة) أذعن عبد الله متودداً للرغبات البريطانية المتعلقة بحجم القوة، ملمحاً إلى أن الرقم الأكبر كان قد تم طرحه بدفع من أتباعه السوريين، وملتمساً العذر لنفسه بلفت الأنظار إلى وضعه الصعب.(10)

لم يكن الصدام بين السياسة البريطانية والأهداف القومية، وإذعان عبد الله المتزايد لقوة بريطانيا المتفوقة على هذه الصورة المباشرة بشكل دائم على أية حال. فأحياناً كان الصراع يتم بين الانقسامات الطبيعية لسكان شرق الأردن، وعلى خلفية اضطرابهم وقلقهم بشأن المستقبل الذي كان ينتظرهم، نظراً لتسارع الأحداث السياسية الأخيرة. ففي حزيران مثلاً رفضت منطقة في مقاطعة عجلون تدعى الكورة أن تدفع ضريبة مفروضة على المواشي إلى الموظفين في إربد. نشأت المشكلة من التنافس المحلي بين قبائل الكورة وبلدة إربد، واستياء عائلة الشريدي القيادية من إدارة عبد الله.(11) ما لبثت قلعة عائلة الشريدي المتحصنة في تبنة أن قصفت بطائرات

سلاح الجو الملكي لإخماد التمرد. غير أن أبرمْسُن أصر على تحميل متصرف عجلون أمين التميمي مسؤولية ما حدث. فمع أن تقريره أقر بأن السبب المحلي للتمرد كان متمثلاً بحقيقة أن الكورة كانت قد سددت ضريبة العام للإدارة السابقة في إربد، أراد أبرمْسُن أن يضيف قدراً من زحرفاته قائلاً: «يمتعض أهالي شرق الأردن إزاء وجود منفيين سوريين في مناصب ذات رواتب عالية، واضطرارهم لدفع الضرائب من أجل توفير المناصب لهؤلاء المنفيين».[12] تلك هي الطريقة التي اتبعها أبرمْسُن للضغط على عبد الله ودفعه إلى إبعاد قومي من نابلس وعضو في حزب الاستقلال هو التميمي عن إدارته.

وفضلاً عن إلباس القلاقل المحلية أثواباً زائفة دأب الموظفون البريطانيون، على ما يبدو، على خلق معارضة محلية حقيقية، لما أطلقوا عليه اسم (حكم السوريين) بهدف تحرير شرق الأردن من (العناصر المتشاغبة). ثمة بينة غنية بالمعاني رغم أنها عرضية. ففي نيسان من عام (1921 م) قام رفيفان المجالي رجل الكرك القوي، وأحد ذوي النفوذ في شؤون شرق الأردن، بزيارة القدس للقاء الرسميين البريطانيين دون معرفة عبد الله المسبقة أو موافقته.[13] وبعد أقل من شهر تحدثت التقارير عن أن رفيفان المجالي وكل من مثقال بن فايز من بني صخر وبعض الزعماء المحليين قرروا إبلاغ عبد الله بضرورة إزاحة السوريين، ما لم يتصرف هؤلاء بقدر أكبر من الحذر، وبمستوى أعلى من الاهتمام بتحسين الأحوال في شرق الأردن.[14]

لم يكن الصراع بين الشخصيات المحلية والغرباء القادمين من دمشق ونابلس وما إليهما غريباً بحد ذاته، ولكن المنطلقات الوطنية التي استخدمت للتعبير عن المنافسة كانت آنذاك تشير إلى حساسيات بريطانية أكثر من أن تعبر عن مشاعر عربية. وثمة إشارة أخرى إلى وجود تلقين بريطاني كانت واضحة في عبارة التباهي التي أطلقها لورنس قائلاً: «إن تأليب الرأي العام وبثه على الساحة لن يتطلب أي وقت».[15] وفيما بعد كان المستشارون

البريطانيون سيكيلون المدائح لحركة عرفت باسم (شرق الأردن للشرق أردنيين). وقد كانت حركة وطنية حالمة أكثر منها فعلية في ذلك الوقت، غير أنها أفادت بريطانيا في حربها ضد الحركة القومية العربية الأوسع والأكثر تهديداً. من الحدير بالملاحظة أن مثل ذلك الشعار لم يصمد حتى عقد الثلاثينيات، حين باتت الإدارة الشرق أردنية مثقلة بالعديد من الفلسطينيين المتعاونين، على الرغم من أن أصداءه كانت قابلة لأن تسمع في ظروف ما بعد (1948 م) المختلفة جداً.

بعد مشكلات الكورة التي تمخضت عن العواقب الوخيمة بالنسبة للمصالح البريطانية والمتمثلة بتدمير القوات الاحتياطية المحلية، التي كان فريدريك بيك[16] قد أوجدها في ظل الرعاية البريطانية، بدأ استياء بريطانيا من إدارة عبد الله، أو من غياب مثل هذه الإدارة، يتصاعد. فقد شكا صموئيل من أن عبد الله كان مشغول البال بمشاريع أوسع وطموحات أكبر. وكانت (حاشيته السورية) مصدر إزعاج بالنسبة إلى أبرمْسُن ومكروهة في شرق الأردن، فضلاً عن اعتبارها باهظة التكاليف ومعدومة الكفاءة.[17] وبعد بضعة أيام قام الجنرال كونغريف بتضخيم هذه التعليقات، حين أضاف إليها ملاحظة قال فيها: «ليس عبد الله في شرق الأردن إلا محتالاً يبدد المعونات المالية المقدمة له على نفسه وأصدقائه. إنه عاجز أن يحكم لافتقاره إلى القوة والقابلية والنشاط ـ إننا نبدد أموالنا حين نقدمها له، ولن يلبث البلد أن يغرق في بحر من الفوضى».[18]

ولكن في لندن دافع لورنس عن عبد الله لافتاً الأنظار إلى الخطة البريطانية حين قال: «أعتقد أننا كنا نشعر بأن وضع شرق الأردن يجب أن يبقى معلقاً إلى أن يتحقق الاستقرار في البلدان المجاورة. لم نطلب من عبد الله سوى الحفاظ على السلام مع جيرانه، لم نطالبه بتسيير إدارة جيدة... ونظامه، على افتقاره إلى الشعبية العريضة والكفاءة الممتازة، لا يقف في طريقنا بأي شكل من الأشكال في أي من الحلول التي نرى فرضها!»[19]

غير أن تذكيره الذي جاء في الوقت المناسب لم يؤد إلى التخفيف من رد الفعل على الأزمة التالية التي هزت نظام عبد الله.

في الثالث والعشرين من حزيران عام (1921 م) شن كمين هجوماً على المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان الجنرال غورو، الذي كان يقوم بجولة تفتيشية في مكان قريب من حدود شرق الأردن. صحيح أن غورو نفسه نجا ولكن ضابطاً فرنسياً كان معه قتل. وبصورة شبه فورية تم إبلاغ صموئيل بما حدث من قبل القنصل العام الفرنسي في القدس، الذي أكد على أن الشكوك منصبة على أردنيين وسوريين مقيمين في الأردن. وعلى امتداد أكثر من شهر لم يجر البوح بأي شيء إضافي حول الموضوع. ومن ثم بادرت باريس فجأة، إلى طرح المسألة على لندن بصورة مباشرة، مؤكدة أن الجناة لم يكونوا مقيمين في الأردن فقط، بل ومن أعضاء حاشية عبد الله.[20] وبعد ذلك دأب أبرمْسُن وخلفه بالتناوب على ممارسة الضغط على عبد الله لتسليم المشبوهين. تجنب عبد الله الإذعان للطلب، بحجة أن ذلك كان يشكل مساساً بشرفه، وانتهاكاً لقواعد كرم الضيافة العربية، وعن طريق إرسال دوريات من الدرك لإلقاء القبض على المتهمين كانت لا تصل إلا بعد قليل من التأخير لتسهيل هروبهم. وبالفعل فإن بريطانيا كانت تشعر بأن الاتهامات الفرنسية كانت متطرفة، وظلت تدافع عن عبد الله خارج شرق الأردن؛ أما في الداخل فإن القضية خدمت المصالح البريطانية، إذ شكلت أداة مناسبة يمكن استخدامها بين الحين والآخر لتذكير عبد الله بالمخاطر التي كان ارتباطه بالنشاط القومي ينطوي عليها. لم يتم تسليم أي من المشبوهين، وبقيت القضية تجرجر ذيولها لمدة عامين اثنين إلى أن تم استبدال غورو بالجنرال مكسيم ويغان.

ما لبث أنواع أخرى من المنغصات أن أتاحت فرصاً مناسبة لزيادة الضغط على عبد الله. ففي أيلول (1921 م) أفضى خطأ سخيف اقترفه أبرمْسُن إلى حدوث مظاهرات في عمان. بدأ الحادث مع وصول إبراهيم

هنانو إلى المدينة. كان هنانو هذا، وهو أحد أكثر القادة الوطنيين ـ القوميين تمتعاً بالاحترام، قد قاد ثورة مسلحة ضد القوات الفرنسية في منطقة حلب. وبعد أن تم إخماد الثورة لاحقاً هرب هنانو، مثل قوميين آخرين قبله، إلى شرق الأردن. مر وصوله دون أن يلفت أنظار الرسميين البريطانيين في عمان الذين لم تكن لديهم، على ما يبدو، أية فكرة عنه. عندما لاحظ عبد الله غياب ردة فعل على الزيارة، طلب من أبرمْسُن أن يزود هنانو برسالة تعريف وتوصية موجهة إلى الإدارة البريطانية في فلسطين. وقام أبرمْسُن بتلبية طلب عبد الله. تابع هنانو سفره إلى فلسطين مزوداً بتلك الرسالة. غير أن موظفين بريطانيين أفضل اطلاعاً ما لبثوا أن اعتقلوا هنانو في فلسطين وقاموا بتسليمه إلى سورية.[21]

أدت أنباء المصير الذي آل إليه هنانو إلى كهربة الأجواء في عمان. وبصورة عفوية تجمع حشد غاضب وسط المدينة حيث أمسكوا بفريدريك بيك الذي كان ماشياً في السوق في تلك الأثناء، وهددوه بالموت إذا لم يعد هنانو إليه. أحدث مصير هنانو غضباً مماثلاً لدى عبد الله الذي اتهم بريطانيا بخيانة العهد. وفي النهاية جرى إنقاذ بيك من قبل أحد ضباطه (وهو فؤاد سالم الذي طرده بيك بعد عام واحد من القوة الاحتياطية بصورة عاجلة لكونه عضواً في حزب الاستقلال)، وتراجع عبد الله عن موقفه العاضب ووافق على اعتقال ثلاثة "سوريين" اتهموا بإثارة المشكلة.[22]

شكلت مشكلات عمان خلال شهر أيلول ضربة جديدة بعد فترة ستة أشهر اعتبرتها بريطانيا "مزعجة" بشكل عام. فمنذ شهر تموز كانت جل الأمور ذات العلاقة بشرق الأردن بما يشمل وضع البلد ووضع حاكمه، بالإضافة إلى نوعية الضابط السياسي الرئيس فيه الذي «لم يكن» حسب تعبير لندن المقتضب «أفضل من يمكن أن يضطلع بمهمة المستشار البريطاني لعبد الله»[23] كانت قد باتت مطروحة للمراجعة وإعادة النظر. وعلى الرغم من أن أي شيئاً من النقد لم يُقال عن أخطاء أبرمْسُن، فإن أشياء كثيرة

صارت تقال علناً عن عيوب عبد الله وهفواته، مع التركيز على مشاركته "الكسيحة" في إدارة البلاد وإنفاقه الباذخ.[24]

كان الشعور العام في لندن يميل إلى الاقتناع بضرورة الاهتداء إلى طريقة ما تتيح فرصة إراحة شرق الأردن من عبد الله. وكان الحل البريطاني المفضل هو دعوته إلى الشمال ليحكم في دمشق، فيصبح الأردن في ظل حاكم أقل شأناً إقليماً تابعاً لفلسطين. غير أن فرنسا كانت قد أوضحت أن عبد الله لم يكن مرحباً به في دمشق. أضف إلى ذلك أن فلسطين لم تكن بعد قد أصبحت تلك الدولة المستقرة المؤهلة، حسب (السيناريو) البريطاني، لأن تثير رغبة شرق الأردن الآلية في التوحيد. وهكذا فإن بريطانيا واجهت في أيلول مرة أخرى المشكلة نفسها التي كانت قد واجهتها قبل ستة أشهر، مشكلة كيفية إخراج عبد الله من شرق الأردن، وأسلوب التعامل مع المنطقة بعد أن يكون قد رحل.

لقد كانت الأشهر الستة بالنسبة للقوميين أيضاً فترة إحباط وخيبة. بات واضحاً أكثر فأكثر أن عبد الله كان عاجزاً، وربما غير راغب في توفير الدعم أو الحماية المطَّردَين. ففي آب من عام (1921 م) سقطت حكومة راشد طليعة، وحل محلها مجلس استشاري برئاسة مظهر رسلان.[25] كانت لهجة مجلس رسلان أقل تشدداً في قوميتها من حكومة طليعة. كما أن مظهراً نفسه، رغم كونه عضواً في الاستقلال، بدا لبعض زملائه غير أهل للثقة.[26] صحيح أن طليعة بقي في شرق الأردن عاماً أو حوله، ولكنه لم يتلق أي عرض بشغل أي منصب مرة أخرى، نتيجة حظر شبه كامل فرضه البريطانيون على وجوده في الحكم. وفي الوقت نفسه سمح عفوان صدرا في سورية والعراق بعودة أكثرية المهاجرين القوميين إلى أوطانهم. كانت الأشهر الستة فترة خيبة بالنسبة لعبد الله لأنه بات شيئاً فشيئاً يدرك أن دمشق كانت أبعد مما تصورها في البداية (أو مما جعلوه يعتقد). ولزيادة الطين بلة كانت الغيرة من أخيه فيصل الذي كان قد توج ملكاً للعراق في

آب تعذبه.[27] لقد وَصَفَه أبرمْسُن في تلك الأيام قائلاً: «إنه مكتئب معظم الوقت ونافد الصبر، برم جداً أحياناً أخرى».[28] ولدى تعرضه لسيل هائل من الضغوط الملحة على تسليم أولئك الذين هاجموا غورو انفجر أخيراً وراح يطلق شتائم مشحونة بالغضب لاعناً أقداره:

جئت إلى شرق الأردن عازماً على المطالبة بسورية، وفي القدس وافقت على سياسة (المستر) ونستون تشرتشل لأنني لم أرد أن أفعل أي شيء من شأنه أن يسبب المتاعب لبريطانيا، لأن سياستي خلال الحرب كانت تقضي بأن أنسق أعمالي مع بريطانيا العظمى؛ رفضت السماح لفيصل بقبول العرض الآتي من الأتراك؛ كان بوسعي أن آخذ العراق؛ وحين أشرت في القدس إلى أن من شأن ستة أشهر من الخمود في شرق الأردن بعد أن ذهبت إلى هناك وأعلنت للعالم العربي كله عن اعتزامي أخذ سورية، أن أدى ذلك إلى ضياع سورية وإثارة سخط العرب؛ فهمت أنه كانت هناك فرصة كبيرة للاهتداء - مع انتهاء الأشهر الستة - إلى الوسيلة الكفيلة بتنصيبي في دمشق. أما الآن فقد خسرت كل شيء... لقد شبعت حتى التخمة من هذه البادية المعروفة باسم شرق الأردن حيث يحاصرني هؤلاء السوريون الكريهون الذين لا يفكرون إلا بأنفسهم...[29]

لو كان الهدف من وراء ثورة الغضب هذه هو حفز مشاعر المواساة أو الإحساس بالذنب في الأوساط البريطانية فقد أخفقت في إصابة الهدف. فقد أدت، بدلاً من ذلك، إلى ترسيخ حلم بريطانيا المتمثل بأن عبد الله نفسه كان تواقاً لأن يرحل بمعزل عن أية رغبة بريطانية في إبعاده عن شرق الأردن.

تم ارسال تي. إي لورنس لاستعراض الأوضاع عن كثب. كان عائداً من الحجاز حيث كان قد أخفق في إقناع الملك حسين بتوقيع معاهدة أنجلو - حجازية.[30] بدت سياسة بريطانيا الشريفية موشكة على التمزق عند خطوط المفاصل. فقبيل وصول لورنس جرى تقويم وضع شرق الأردن على النحو التالي:

ما يتعين علينا أن نواجهه هو: إما الإنفاق المستمر على عبد الله الذي انحدر نفوذه إلى ما يقرب من نقطة التلاشي، والذي لم يعد يوازي ولو سرية مشاة، أو استجماع الشجاعة والإقدام على إرسال قوة صغيرة، ولو بصورة مؤقتة فقط من أجل وضع أمر جمع الموارد والضرائب في نصابه الصحيح، والاطمئنان إلى الخلاص من السوريين والحجازيين.

قد نتمكن، بطبيعة الحال، من تجنب... إرسال القوات إذا استطاع لورنس أن ينجح في تشجيع عبد الله ودفعه إلى الإطاحة بهؤلاء الناس وإلى تعيين عاهل مناسب مكانه؛ أما إذا ثبت، كما تقول التحذيرات هنا، أن عبد الله شديد العناد، فإنني لأرى حلاً آخر غير إزاحته وتعيين حاكم عربي في مكانه..[31]

توقع لورنس هو الآخر أنه كان سيتعين عليه أن يبعد عبد الله عن شرق الأردن، وكان واثقاً من قدرته على تحقيق ذلك. وحده هيوبرت يَنْغ في قسم الشرق الأوسط أطلق تحذيراً: «... لا نستطيع أن نتغافل عن حقيقة وهي: إن جميع الخطط التي وضعت في القاهرة في آذار عن شرق الأردن ما لبثت أن انقلبت عند التشاور مع عبد الله نفسه؛ من الممكن أن يحصل الشيء ذاته مرة أخرى».[32]

كانت ملاحظات يَنْغ بعيدة النظر وثاقبة. فلدى تعرضه لإمكانية رحيله عن الأردن أثبت عبد الله أنه متمسك بالبقاء. ولورنس الذي لم يكن عموماً يقدر إدارة عبد الله تقديراً عالياً لدى مغادرته للندن، ما لبث أن وجد، حين وصل إلى عمان، أن بريطانيا كانت مخطئة مثلها مثل عبد الله، ومسؤولة بالتالي مثله عن جملة المشكلات الأمنية والإدارية المتفاعلة.[33] وقد تناول العيوب البريطانية على صعيدي الإمداد والتنظيم بحيويته المألوفة، فيما عكفت لندن على تعيين ممثل جديد في عمان.

أما الاسم الجديد الذي كان مطروحاً للمناقشة في لندن كبديل لأبرمْسُن فقد كان اتش. سانت جون فيلبي الذي كان قد خدم في الإدارة

المدنية الهندية قبل خدمته الأخيرة في العراق؛ حيث اختلف مع الإدارة البريطانية حول تنصيب فيصل ملكاً، وبالذات حول أسلوب تنصيبه. وقد اتخذ موقفاً أجبر المفوض السامي في العراق، السير بيرسي كوكس أن يطلب من فيلبي مغادرة العراق.[34] لقد كان فيلبي، رغم اتصافه بالعناد والمشاكسة والتشبث بالرأي، إدارياً ناجحاً، قوي الإرادة، وطليق اللسان باللغة العربية.

ولدى سماع فيلبي نبأ عن تعيينه سارع بفرح إلى تسجيل ملاحظة حميمية في مذكراته قال فيها: «سنحصل على جولة أخرى مقابل أموالنا»[35] وما قصده هو أنه كان سيحصل على فرصة أخرى تمكنه من تشجيع خطة استقلال العرب، كما يتصورها. وعلى الرغم من احتجاجه الشديد على دسائس بريطانيا فيما وراء الكواليس بغية إجلاس فيصل على عرش العراق، فقد قبل بوضع عبد الله دون أية مماحكة أو تململ. فبعد لقاءات تفي بالغرض مع كل من عبد الله ولورنس في عمان، صموئيل في القدس، وتشرتشل في لندن، عاد إلى عمان في اليوم الحادي والعشرين من تشرين الثاني عام (1921 م) بوصفه الممثل البريطاني الرئيسي.

أما بالنسبة لعبد الله فقد كانت موافقة هادئة قد حصلت على أمر بقائه في شرق الأردن في الوقت الراهن بفضل التقويم الصادر عن لورنس. لم يصدر أي إعلان رسمي لأن بريطانيا أرادت أن تبقي آراءها في شرق الأردن مفتوحة وأن تتجنب إثارة الفرنسيين، الذين كانوا لا يزالون يستهجنون فكرة إقامة حكومات شريفية على حدود سورية.

في التاسع والعشرين من شهر تشرين التاني لعام (1921 م) قام كل من فيلبي ولورنس وأبرمسُن بزيارة عبد الله في مقره بدار سعيد المفتي المتواضعة، التي لم يتغير فيها شيء سوى إضافة محرسين على جانبي البوابة، مطلين بألوان العلم الشريفي الأخضر والأبيض والأسود. كان فيلبي قد جاء ليقدم

أوراق اعتماده، في حين كان مجيء أبرمْسُن للوداع. تمت دعوة الضيوف للبقاء لتناول الغداء في لقاء ذكوري مريح مشحون بالحديث عن الجياد والسلاح وما إليهما. أدى إتقان فيلبي اللغة العربية واهتمامه بالتقاليد القبلية إلى تقريبه من عبد الله، على الرغم من أن إعجابه بابن سعود جعله اختياراً غريباً بعض الشيء لشغل منصب في شرق الأردن. ولدى التطرق إلى موضوع قيام ابن سعود مؤخراً بإخضاع حائل، علق فيلبي قائلاً: «لقد كان حدثاً ذا أثر واضح على عبد الله دفعه إلى التأمل».[36] وما أثار حفيظة عبد الله أن فيلبي ظل فيما بعد محتفظاً بصورة ابن سعود على مكتبه.

كانت بريطانيا قد أرست، حين عينت فيلبي في عمان، قواعد نوع من نظام جديد، غير أن نواياها على المدى الطويل فيما يخص عبد الله وتجاه شرق الأردن لم تكن واضحة بعد. فالمسالة الأساسية المتمثلة بسؤال: «هل نريد أن نرى عبد الله وقد رسخ أقدامه بثبات في شرق الأردن جالساً على عرشه بوصفه سيداً دائماً للبلاد أم لا؟» ما زالت بلا جواب.[37]

وبالتالي فإن توجيهات فيلبي بقيت تخطيطية غامضة. فقد قيل له إن العامل الحاسم في شرق الأردن: «لم يكن تشجيع التطلعات الوطنية.. بمقدار ما هو حماية فلسطين من النشاطات المعادية لبريطانيا والصهيونية، وحماية سورية من الدعاية المعادية لفرنسا».[38] أي بعبارة أخرى لم يكن شيء ذو شأن قد تغير منذ مؤتمر القاهرة. أما الشؤون الداخلية فقد تم تركها لتقديره هو، شريطة ألا تكون ذات أصداء عبر الحدود.

بالنسبة لفيلبي ذي العقل المستقل المتمرد، كانت ندرة التوجيهات نعمة مكنته من أن يشعر بأنه حر في وضع أفكاره الخاصة عن الحكم الصحيح، بما فيها ما أطلق عليه اسم الاستقلال العربي، موضع التطبيق. وما عنته فكرة الاستقلال في سياق شرق الأردن لم يكن متمثلاً بالتحرر من التدخل الأوربي بمقدار ما تمثل بالاستقلال عن الإدارة الفلسطينية. وبالفعل فإن

فيلبي اضطلع بمهماته الإدارية الاستعمارية بجدية كبيرة، ولم تكن فكرته عن الاستقلال العربي متضمنة أي تسامح مع النشاطات القومية ـ الوطنية التي كان من شأنها أن تعرقل تنفيذ واجباته. فمثله مثل سلفه فعل كل ما بوسعه للخلاص من القوميين العرب في شرق الأردن، تحت ذريعة كونهم "أجانب". وفي سبيل ترسيخ ذلك النوع من الاستقلال الذي كان يتصوره، باشر فيلبي عملية خلق مؤسسات ديمقراطية وتنظيم مالية شرق الأردن، بغية الوصول مع الزمن إلى نوع من الاكتفاء الذاتي على الصعيد المالي. ما لبث الهدفان كلاهما أن أديا إلى دفعه باتجاه النزاع مع عبد الله. وثمة اثنان آخران من هموم فليبي قدر له أن يحقق فيهما قدراً أكبر من النجاح هما: تحسين علاقات عبد الله مع الإدارة الفرنسية في سورية، ورسم الحدود الجنوبية والشرقية لشرق الأردن.

خلال السنة الأولى من ولاية فيلبي كانت العلاقات بينه وبين عبد الله بالغة الوئام حيث تنازل له عبد الله عن دار سعيد المفتي[39] وكان الرجلان، كلاهما، مولعين بالشطرنج مع أن الأخير رأى أن الأول كان يلعب «بسرعة زائدة ودون أن يضع أية خطة».[40] كانا، كلاهما، قد عانيا من الإحباط إزاء العراق، كما لم يكونا يريدان الخير لفيصل. فحين مر هيوبرت يَنْغ بعمان ومعه تقرير مشرق عن إدارة فيصل، غرق عبد الله في بحر من الكآبة، امتنع عن تناول الطعام، وانسحب إلى مخدعه مبكراً رغم محاولة فيلبي إلهاءه ببعض المشكلات الشطرنجية المنشورة في جريدة الويكلي تايمز.[41] في البداية كان فيلبي أيضاً قد اعتبر عبد الله «عاهلاً دستورياً مثالياً، عازفاً عن المشاركة الفعالة في الإدارة، إلا إذا تمت استشارته في قرار معين، أو التماساً للنصيحة، إما من جانب الحكم المحلي أو من قبل الشعب».[42] غير أن نظرته سرعان ما تغيرت مما أدى إلى حدوث صدع كارثي بين الرجلين.

قام عبد الله وفيلبي خلال الدفقة الأولى من تعارفهما بزيارة سعيدة إلى

فلسطين معاً. وكان هدف الرحلة متمثلاً بجمع عبد الله والسير هيربرت صموئيل، المفوض السامي لفلسطين، لضمان تفهم الأول لالتزاماته، ولطمأنة الثاني إلى أن الأول سيكون جاراً متعاوناً وتابعاً. لم تكن المناقشات بين الاثنين رسمية بمعنى زيادة تحديد مكانة عبد الله أو مستقبل شرق الأردن. فبريطانيا كانت لا تزال ترغب في إبقاء هذه الأمور قابلة للمراجعة وإعادة النظر. من الواضح بالأحرى أن الرحلة استهدفت خلق المشاعر الودية في المقام الأول؛ إذ ظلت مثقلة بالمناسبات الاجتماعية، مثل ولائم الغداء والعشاء، وحفلات الشاي المفعمة ببهجة الموسيقى، والألعاب مع الرسميين البريطانيين والأعيان العرب. لعب عبد الله الشطرنج مع فيلبي (مرة واحدة) ومع ستورز (ثماني مرات بعد العشاء فيما كانت الأحاديث باهتة) ومع صموئيل (الذي فاز). وكذلك قام عبد الله بزيارة حيفا وعكا والخليل للقاء الأعيان والساسة المحليين. وفي طريق العودة سمح له الفرنسيون أن يسافر متنكراً بالقطار عبر درعا، في تنازل جعله يعقد آمالاً على إمكانية تحسن موقف الفرنسيين منه.[43]

غير أن نوايا بريطانيا في شرق الأردن ما كانت لتترك معلقة إلى الأبد. فبعد زيارة عبد الله لفلسطين كان تشرتشل قد عبر عن الرغبة في جعل الأمور في شرق الأردن «تتبع مسارها الحالي» (أي تبقى على حالها السائبة غير المحددة) «إلى أن يتم حسم وضع فلسطين بصورة نهائية على أية حال».[44] لم يكن هذا التصريح إلا إعلاناً للشعور العام السائد في قسم الشرق الأوسط، المتمثل بأن من شأن حسم الأمور في فلسطين أن يؤدي إلى جعل إدارة شرق الأردن بوصفه إقليماً عربياً تابعاً لفلسطين أكثر سهولة. ولكن الشؤون الفلسطينية لم تتقدم كما كان مأمولاً. فالحكم الدستوري المحدود الذي عرضته بريطانيا على الفلسطينيين قوبل بالرفض الكامل والمباشر، لأنه كان يتضمن السماح بخلق وطن قومي يهودي وحمايته. وما لبث إخفاق بريطانيا في تأمين تعاون الجالية العربية في فلسطين أن أفضى إلى إحباط الخطوة اللاحقة التي كانت مرسومة ـ خطوة أن شرق الأردن

كان من شأنه هو الآخر أن يصبح خاضعاً لإدارة فلسطينية منتظمة. وحين صادقت عصبة الأمم على ميثاق الانتداب البريطاني لفلسطين في أيلول من عام (1922 م) تم استثناء شرق الأردن من الفقرات الصهيونية الواردة في الانتداب، غير أنه لم يصبح قط إقليماً عربياً تابعاً لفلسطين.

وثمة أيضاً أحداث متزامنة على حدود شرق الأردن الأخرى شجعت الساسة البريطانيين على اعتبار شرق الأردن لذاته وبذاته كياناً مفيداً. فقد بذل فيلبي كل ما استطاعه من جهد في سبيل رعاية علاقات جيدة مع الفرنسيين في سورية. وبفضل المهارة التي أبداها على هذا الصعيد باتت فرنسا تنظر إلى وضع عبد الله في شرق الأردن بقدر أقل من العداء. وعلى الرغم من أن السيد روبرت كي، سكرتير غورو العام، أوضح لفيلبي أن حكومته كانت قد قررت بشكل نهائي وحاسم ألا تتعامل قط مع الشريفيين، فإنه قال: «إن فرنسا ستكون مستعدة للاعتراف بوضع عبد الله في شرق الأردن فور تسليم المتهمين بالتآمر على حياة غورو».[45]

أما في الجانب الجنوبي من شرق الأردن فكان ابن سعود قد شدد من قبضته على الأجزاء الشمالية من قلب الجزيرة العربية مندفعاً شمالاً إلى الجوف. وكانت الجوف هذه بلدة واحة ذات أهمية استثنائية لوقوعها على الطرف الجنوبي من وادي سرحان، الذي كان وادياً طويلاً جيد الري نسبياً ويُشكل طريقاً رئيسية إلى الشمال، تنتهي على مسافة خمسين ميلاً تقريباً إلى الجنوب من عمان. وفي الخامس عشر من آب عام (1922 م) انطلق من الجوف هجوم صاعق شنته قبائل موالية لابن سعود على اثنتين من قرى بني صخر لا تبعدان عن عمان إلى الجنوب سوى اثني عشر ميلاً.

أثر توسع ابن سعود باتجاه الشمال على وضع عبد الله في شرق الأردن وعلاقته ببريطانيا من ناحيتين. فالنزعة التوسعية السعودية القائمة على المذهب الوهابي أكسبت شرق الأردن قيمة جديدة في الاستراتيجية

البريطانية الخاصة بالمنطقة أولاً. وقد استندت هذه القيمة إلى انفصاله المستمر عن فلسطين. فبعد احتلالها لكل من حائل والجوف باتت قبائل الجزيرة العربية أقرب جغرافياً من الدول العربية الخاضعة للانتداب، وأدنى روحياً من وحدة كانت تشكل تهديداً محتملاً لأنظمة الانتداب. وكانت بريطانيا شديدة القلق بشأن فلسطين التي التزمت فيها باتباع سياسة استيطان صهيونية معادية، بنظر الطهريين الوهابيين، للإسلام. ومن الجوف كان ابن سعود في موقع جيد ليس فقط لشن الهجمات ضد شرق الأردن وفلسطين، بل وباتت هاتان المنطقتان أكثر هشاشة أمام "عدوى" الفكر الوهابي. وعلى الرغم من أن شرق الأردن لم يكن محصناً ضد العدوى أو الهجوم، فإنه كان يشكل قلعة معادية للوهابية طوال بقاء عبد الله عدو ابن سعود حاكماً له، وطوال بقاء سكانه بعيدين عن التذمر الشديد من السلطة البريطانية أو من عبد الله.

لم يصبح شرق الأردن ذا قيمة كبيرة بنظر البريطانيين: «نحن نعتبر شرق الأردن حاجزاً يحمي فلسطين أكثر من كونه بلداً قادراً عل التطور بحد ذاته، وما من مبرر يسوغ الأموال التي يتم إنفاقها على تلك البقعة حالياً؛ إلاّ حقيقة كونها تختزل المبالغ التي كان من شأنها أن تنفق على التدابير العسكرية في فلسطين، لو لم يكن شرق الأردن موجوداً».[46] غير أن شرق الأردن ما لبث أن حصل على نوع من الاعتراف بوصفه حاجزاً جغرافياً، كانت ظروفه السياسية المميزة تؤدي خدمة للمصالح البريطانية. فما إن بدأ البريطانيون يكتشفون مدى عمق المعارضة الفلسطينية للانتداب حتى باتوا شديدي الحساسية إزاء المدى الذي كان من شأن الوهابية أن تبلغه على صعيد تعظيم العواطف المعادية لبريطانيا وبلورتها. وقد كان الوطنيون ـ القوميون العرب في فلسطين على صلة بابن سعود، كما أن مقالات متعاطفة مع الوهابية وابن سعود كانت تظهر في صحف فلسطينية. وعلى الرغم من الاعتراف بأن مبادئ الوهابية المتشددة لم تكن مؤهلة بصورة

اعتيادية لأن تكون جذابة بالنسبة إلى الفلسطينيين الذين كانوا عموماً أفضل تعليماً وأكثر تطوراً من عرب شبه الجزيرة العربية، فقد ساد الشعور، في ظل الظروف الفريدة لفلسطين الخاضعة للانتداب، بأن من شأن المذهب الوهابي أن يشكل فكراً ملتزماً وقوياً.(47)

تمثل التأثير الثاني للنزعة التوسعية السعودية بجعل عبد الله أكثر اعتماداً على قوة بريطانيا العسكرية من أي وقت مضى، ومدركاً لهذه الحقيقة. كان قد سبق له أن تعرض لهزيمة كارثية في ترابة على يد ابن سعود ذات مرة وهو على رأس قبائل موالية له. أما في شرق الأردن فلم يكن هناك أي رابط يمكن تشبيهه بالمذهب الوهابي، الذي قام على صهر قبائل شبه الجزيرة العربية في بوتقة روح الجهاد الديني والحق، وإطلاقها ضد القبائل الأخرى في حملات الغزو والهداية القائمة على الوعظ والتبشير. صحيح أن عبد الله كان قد بدأ يؤسس بعض الروابط مع قبائل شرق الأردن وخصوصاً مع الحويطات وبني صخر الذين كانوا على طريق التوسع الوهابي المباشر، غير أن وسائله الوحيدة كانت المكاسب الضريبية والأرض والمساعدات المالية النقدية وما إليها.(48) أما ابن سعود فكان لديه فكر الإسلام الكفاحي المطهر الإصلاحي لتثبيت ولاء القبائل تحت رايته. وفي مواجهة هذه القوة القبلية المتفوقة كان عبد الله يعتمد على التقنية المتفوقة لبريطانيا.

وحين أصبح عبد الله أكثر إدراكاً لاعتماده على بريطانيا طلباً للحماية من الأعداء الخارجيين بات أشد إذعاناً للرغبات البريطانية في الشؤون الداخلية. واتبع فيلبي خطوات سلفه في إبعاد القوميين عن مواقع السلطة وحتى إلى خارج البلاد كلياً. ففي آذار تم تغيير المجلس الاستشاري الذي كان برئاسة مظهر رسلان. وكان المستشار الأول الجديد علي رضا الركابي قد جاء مؤخراً إلى شرق الأردن من دمشق. وعلى الرغم من أنه كان سورية، فإنه لم يكن من أولئك السوريين الذين شكلت "غربتهم" سبباً لاستبعادهم من الوظائف في شرق الأردن.

كان تاريخ الركابي السياسي متعدد الألوان. ففي أثناء الحرب كان قد خدم الأتراك بوصفه رئيساً لبلدية دمشق. وبعد تعرض الأتراك للهزيمة في عام (1918 م) انتقل بهدوء إلى إدارة فيصل وتم تعيينه حاكماً عسكرياً. وما لبث أن أصبح في تلك الأثناء عضواً في قيادة الجمعية القومية المعروفة باسم الفتاة. وبعد الغزو والاحتلال الفرنسيين لدمشق في عام (1920 م) بقي الركابي في المدينة بصورة علنية، خلافاً لحال سائر مؤيدي فيصل القوميين الآخرين الذين هربوا. ومع حلول نيسان من عام (1921 م) قيل إنه تصالح مع الجنرال غورو، وصار يقبض راتباً شهرياً بمبلغ خمسين ليرة، مع احتمال ترشيحه لمنصب وزاري. وبالفعل فإن علاقاته مع الفرنسيين في تشرين الأول من عام (1921 م) أهلته لأن يكتب إليه طالباً منه أن يفاتحهم حول إمكانية تحقيق نوع من التقارب.[49]

لم تكن الإدارة البريطانية في فلسطين واثقة بالركابي بوصفه «فاسداً وربما عميلاً ابتاعه الفرنسيون».[50] وجاء في تعليق لصموئيل «حتى أفضل أصدقائه يشعرون مضطرين لإبداء أقصى درجات التحفظ لدى الحديث عن مدى تماسك شخصيته الأخلاقية».[51] ربما كان ذلك الافتقار إلى الشهامة بالذات هو ما جعل فيلبي وخلفه يجدانه سلاحاً مناسباً جداً لمحاربة أصدقائه وحلفائه السياسيين السابقين. وخلال شهر واحد بعد أن أصبح مستشاراً أول، تم طرد اثنين من أبرز القوميين في شرق الأردن، هما السكرتير الأول عادل أرسلان، وقائد الشرطة نبيه العظمة من منصبيهما. كما أن تعيينه ساهم أيضاً في تحسين العلاقات مع الفرنسيين الذين كانوا يعتبرونه «أفضل رجل في سورية».[52]

في ظل هذه الأجواء من الاضطرابات في فلسطين والعداء الديني في شبه الجزيرة العربية والإستكانة المتزايدة في شرق الأردن، قامت الحكومة البريطانية أخيراً بدعوة عبد الله إلى زيارة لندن. كان عبد الله تواقاً للحصول على مثل هذه الدعوة من أشهر. غير أن الاضطرابات في العراق ظلت

تشغل اهتمام بريطانيا. فقد بلغ الخلاف بين فيصل وبريطانيا أشده خلال المفاوضات حول معاهدة إنجليزية ـ عراقية. وما لبث النزاع أن أدى إلى استبدال العلاقة الودية الرائعة ظاهرياً بين فيصل والإدارة البريطانية في العراق بأخرى قائمة على الشك وعدم الثقة. بل وقد قيل في تلك الأثناء إنه: «لو أمكن إحلال عبد الله محل فيصل لصار أكثر طواعية ولسقط شرق الأردن في مكانه المناسب كإقليم تابع لفلسطين».(53) ولكن تعرض فيصل المفاجئ للإصابة بالتهاب الزائدة الدودية في آب أدى إلى استبعاد حسم الصراع وفتح طريق لندن أمام عبد الله. ففي برقية وصفها فيلبي بأنها كانت: «مثيرة للرثاء... تفوح رائحة البخل من كل مقطع من مقاطعها...» جرى الإيعاز للمفوض السامي بدعوته إلى لندن.(54)

توجه عبد الله إلى لندن في الثالث من تشرين الأول من عام (1922 م). كان هدفه الرئيسي متركزاً على تحديد وضع شرق الأردن رسمياً وتثبيته هو أميراً ـ فبعد كل شيء لم يكن قد توصل إلى أي اتفاق رسمي مع بريطانيا، عدا مصافحة تشرتشل قبل ثمانية عشر شهراً. وإضافة إلى تلك الرغبة الرئيسية كانت لديه جملة من المطالب الملحقة، منها ما جرى رفضه مباشرة وبصراحة، مثل طلب الميناء على البحر المتوسط، ومنها ما تمت مراوغته بخفة اليد. فرغبته في تحقيق فك الارتباط الكلي مع فلسطين، تم تحقيقها مثلاً عن طريق التمييز الدقيق المتمثل بجعل فيلبي مسؤولاً أمام المفوض السامي بوصفه ممثلاً لسلطة الانتداب، ولكن ليس بوصفه رئيساً للإدارة الفلسطينية. (في السر بقيت لندن حريصة على «إبقاء الباب مفتوحاً أمام أي تقارب ممكن بين الإدارتين في المستقبل»).(55)

كانت الحدود هي الأخرى على جدول الأعمال. تمثلت المشكلة الكبرى بالمساحات التي يمكن التنازل عنها لابن سعود. قام السير غلبرت كلايتون السكرتير الأول في حكومة فلسطين بإقناع عبد الله بالتنازل عن واحة الجوف عند نهاية وادي سرحان، ولكنه وعد بأن يتم ضمان بقاء

الكاف الواقعة عند بداية الوادي داخل شرق الأردن. (لم تف بريطانيا بهذا الوعد). أما في الشمال والغرب فقد قبل عبد الله بالحدود القائمة مع كل من سورية وفلسطين التي كانت ما تزال تنتظر تثبيتها ورسمها على الأرض. وقد أحس بأن من شأن الحدود العراقية إلى الشرق أن تترتب بسهولة. وبالنسبة لحدود الحجاز في الجنوب فقد فضَّل تأجيل الموضوع إلى أن يتمكن من التحدث مع أبيه.[56]

نصت تسوية مالية على أن تكون المساعدة المالية البريطانية المقدمة إلى شرق الأردن مبلغ مائة وخمسين ألفاً من الجنيهات الإسترلينية للسنة البادئة بتاريخ الأول من نيسان عام (1923 م). وقد ارتبطت بتلك المساعدة شروط معينة، مالية وسياسية على حد سواء.[57] فالشروط المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالموازنة كانت تقضي بجعل تكاليف القوة الاحتياطية، ونفقات مؤسسة الممثل البريطاني الرئيسي العبء الأول على موارد شرق الأردن، وتفرض بتمكين لندن بصورة منتظمة من الاطلاع على المعلومات المالية الكاملة، بالإضافة إلى إصلاح النظام الضريبي الداخلي، وبتحديد قائمة عبد الله المدنية، أخيراً، بمبلغ ست وثلاثين ألفاً من الجنيهات الإسترلينية في السنة. موزعة على أقساط شهرية متساوية. أما الشرط السياسي الذي ارتبط بالمساعدة المجانية فقد تمثل بتوحيد قوات الأمن في شرق الأردن ـ القوة الاحتياطية التي أوجدها بيك وقوات الشرطة والدرك ـ في قوة واحدة يصل تعدادها إلى (1300) عنصر ووضعها تحت قيادة بيك. وعلى الفور أدى هذا الإجراء إلى اختزال عدد المناصب المتاحة للضباط العرب، وأطلق يد بيك في التحكم، دون أي تحد، بالجهاز الأمني كله.

غادر عبد الله لندن يوم الثلاثاء الواقع في الرابع عشر من تشرين الثاني. كانت رغبته في الحصول على اعتراف رسمي بوضعه في شرق الأردن قد تمت تلبيته بصورة جزئية عن طريق إصدار "تأكيد" مكتوب بلغة بالغة الإتقان. غير أن عقبة صغيرة ما لبثت أن برزت أمام إعلان "التأكيد" للملأ

في اللحظة الأخيرة، حين طلبت وزارة الخارجية تأجيل الأمر مدة عشرة أيام تقوم خلالها بتسوية الموضوع مع الفرنسيين. ولكن فترة الأيام العشرة امتدت إلى أسبوعين فثلاثة أسابيع. وأخيراً أعلنت وزارة الخارجية عن رغبتها في الحصول على لفتة حسن نية تجاه الفرنسيين من جانب عبد الله قبل أن تصبح قادرة على إعلان التأكيد للملأ. وقد قيل إن من شأن اعتقال واحد على الأقل من المتهمين في قضية الهجوم على غورو، أو اعتقال الزعيم الذي كان قد فر مؤخراً إلى شرق الأردن في أعقاب انتفاضة معادية لفرنسا في جبل الدروز سلطان الأطرش، أن يفي بالغرض.[58] وبالتالي اضطر عبد الله الساخط للعودة إلى عمان فارغ اليدين.

أدى احتجاز التأكيد إلى حفز فيلبي على مضاعفة مساعيه الرامية إلى سحق النشاطات القومية في شرق الأردن. فما إن عاد من لندن حتى زار دمشق، مصطحباً بيك حيث ناقشا مع الفرنسيين إمكانية التعاون العسكري على الحدود السورية ـ الشرق أردنية. وفيما بعد قام رئيس القسم السياسي في دمشق «الرجل الأكثر إثارة لمشاعر الكره في سورية» القائد آرلييوس بزيارة عمان لمناقشة المشروع العسكري المشترك. وكان عبد الله قد أطلق يد بيك مانحاً إياه شيكاً مفتوحاً في التعامل مع الفرنسيين وإقناعهم باستعداده للتعاون. وعلى حد قول قاله فيلبي إن آرلييوس أثنى على عبد الله قائلاً: «لو كان في دمشق رجل من هذا النمط بدلاً من فيصل لظل مستمراً إلى الآن».[59] وفي الأسبوع الثاني من شهر آذار لعام (1923 م) جرت مناورات عسكرية مشتركة.

خلال شهر بعد هذا الاستعراض للوحدة والتصميم استسلم سلطان الأطرش ووافقت وزارة الخارجية أخيراً على إطلاق التأكيد. وفي الوقت نفسه تقريباً أدت المقاطعة العربية الناجحة للانتخابات في فلسطين إلى الإجهاز على أية آمال متبقية في إمكانية هدوء الوضع في فلسطين في المستقبل القريب، مما أزاح أي تمنع مكتوم عن السير قدماً في طريق تعزيز

انفصال شرق الأردن عن فلسطين. وقد تم التغلب على العقبة المحلية الأخيرة أمام الإعلان دون مخاطر حين بادر عبد الله، رغم اعتراضات بعض مستشاريه، إلى الموافقة على تنفيذ عملية توحيد قوات الأمن في شرق الأردن تحت قيادة بيك، وفقاً لما سبق أن تم الاتفاق عليه في لندن. وما لبثت هذه القوة الموحدة أن ظهرت إلى الوجود تحت اسم **الفيلق العربي**.

أخيراً، بعد إزاحة نقاط الخلاف هذه عن الطريق، تم الإعلان عن نتيجة رحلة عبد الله إلى لندن قبل ستة أشهر في زحمة يوم احتفالي:

> شرط موافقة عصبة الأمم، ستعترف حكومة حلالة الملك البريطاني بوجود حكومة مستقلة في شرق الأردن تحت حكم سمو الأمير عبد الله بن الحسين، شريطة أن تكون مثل هذه الحكومة دستورية وتوفر لحكومة جلالة الملك البريطاني إمكانية الوفاء بالتزاماتها الدولية فيما يخص الإقليم عن طريق اتفاق يتم التوصل إليه فيما بين الحكومتين.(60)

لم يكن التأكيد الذي تميز بطابعه المشروط - (ستعترف... شريطة...) في الحقيقة يبعث بقدر كبير من الاطمئنان، إذ ألقى عبء الوفاء على عبد الله الذي كان يتعين عليه أن يوجد نظاماً دستورياً قبل أن يصبح الاعتراف نافذاً من خلال عقد نوع من "الاتفاق" بين بريطانيا وشرق الأردن. كان عبد الله قد بقي مصراً على التمسك بموقفه من مسألة اعتماد أي دستور حتى الآن، وكانت الاتفاقية الموعودة ستظل حبراً على ورق ما لم تقم لندن بفرض دستور عليه. وبالتالي فإن لندن كانت قادرة على جعل فكرة أي دستور ومعه أي شرق أردن "مستقل" تموت جراء الإهمال. فما الذي كانت بريطانيا مستعدة، آخر المطاف، أن تعترف به؟ لم يكن الاستقلال الوارد في "التأكيد" استقلالاً عن بريطانيا؛ فما قصدته بريطانيا بالاستقلال لم يكن، بالأحرى، سوى الحفاظ على وجود حكومة في شرق الأردن تكون منفصلة عن الحكومة الفلسطينية، ولكنها خاضعة مع ذلك للسيطرة البريطانية.

إن هذا هو ما كان فيلبي قد استهدف بلوغه، وشعر بقدر مبرر من السعادة حين وجد نفسه مقترباً خطوة واحدة من هدفه. وشعر عبد الله هو الآخر بالسعادة، غير أن سعادته كانت مشروطة. فانطلاقاً من تصرفاته العملية (لا من تصريحاته) كان عازماً على تأجيل اعتماد أي دستور أطول مدة ممكنة، غير أنه كان سعيداً، آنياً، بورود ذكره كتابة بوصفه "سمو الأمير" حاكم شرق الأردن. وأدى خطابه في المناسبة إلى تشجيع رعاياه على الاعتقاد بأن "التأكيد" كان إعلاناً للاستقلال وعلى اعتبار بريطانيا صديقة للعرب،[61] ولكنه هو نفسه كان يعلم بدون شك أن شيئاً لم يكن قد تغير في علاقته مع بريطانيا.

شكل إعلان "التأكيد" ذروة مسيرة التعاون بين عبد الله وفيلبي. ففي الأشهر اللاحقة تصاعد التوتر بين الرجلين حول قضية الدستور، وصولاً آخر الأمر إلى نوع من المجابهة والقطيعة غير القابلة للإصلاح.

كان فيلبي، منذ توليه لمهام منصبه في عمان، قد عكف على الضغط مطالباً بنظام دستوري قائم على مجلس تشريعي منتخب. ولكن عدم رغبة عبد الله في إقامة أية هيئة تمثيلية رسمية مهما كان نوعها ما لبث أن أقنع فيلبي بأنه كان شديد القلق إزاء تمتع حكومته بالقبول العام. وبرأي قبلي كان هناك ما يبرر قلقه بسبب العدد الكبير من الموظفين "السوريين" الذين لم يكونوا يتمتعون بالشعبية لدى السكان المحليين. راح فيلبي يمارس الضغط على عبد الله طالباً منه الخلاص من السوريين الذين كان يعني بهم القوميين العرب. أما السوريون النافعون مثل الركابي فكان مرحباً بهم. ومع ذلك لم يكن ثمة أي تحرك باتجاه إشاعة الديمقراطية، رغم أن القوميين العرب على اختلاف انتماءاتهم السورية والفلسطينية والعراقية كانوا يرحلون عن شرق الأردن بصورة تدريجية. لم يكن عبد الله مستعداً للتنازل عن أي جزء من سلطته المقيدة أساساً لأية مؤسسات ديمقراطية.

في أعقاب الإعلان عن "التأكيد" قام فيلبي العجول والأكثر اقتناعاً من أي وقت سابق بسلامة غاياته بتصعيد حملته. وفي مواجهة جمود عبد الله المستمر بادر إلى استغلال جميع الفرص المتاحة من أجل زيادة وزن وأهمية قضيته. وفي حزيران من عام (1923 م) نشأت فرصة كهذه. لم يكن في عمان مسجد مناسب وكان عبد الله تواقاً لأن يقيم مسجداً كهذا. عبر فيلبي عن تأييده للفكرة إلى درجة أن قام شخصياً بتحديد اتجاه القبلة، غير أنه ما لبث أن غضب غضباً شديداً حين أمر عبد الله بتدمير كنيسة (باسيليقا) بيزنطية تعود إلى القرن السادس الميلادي من أجل التمهيد لبناء المسجد (ولتوفير مواد البناء لبيت كان يجري بناؤه «لصالح أحد أتباع الأمير» حسب رواية فيلبي).[62] فقد كان هاوياً لعلم الآثار مغرماً به وعبر عن احتجاجه بلهجة قوية جداً. وقد زاد حنقه عندما رد عليه عبد الله قائلاً: «ومن سيعاقبني؟».[63]

بعد هذا الانفجار لم يعد الرجلان يكلم كل منهما الآخر. وراح كلاهما يلتمس الدعم والبراءة من السلطات العليا. بادر عبد الله إلى إبلاغ كلايتون بأن من المستحيل عليه هو وفيلبي أن يعملا معاً ولابد لأحدهما أن يذهب.[64] أما فيلبي فقد استخدم الحادث لشرح فضائل إيجاد مجلس تمثيلي سيتمكن: «إما من إجبار الأمير على اعتماد القنوات الدستورية والعقلانية، أو من دفعه إلى الهرب من البلاد» وتابع يقول: «وأنا مقتنع بأن غيابه سيكون أقل ضرراً من حضوره وهو في نمط تفكيره الحالي».[65]

ولتدعيم موقفه ضد عبد الله فتح فيلبي جبهة انتقادية أخرى لامست عصباً أكثر حساسية في لندن ألا وهي جبهة سوء الإدارة المالية. فحتى صيف عام (1923 م) كان فيلبي قد تابع إنفاق عبد الله الباذخ، غير أنه ظل متعاطفاً مع حاجاته وصعوباته المالية. أما بعد حادث الباسيليقا فقد قام بالكشف عن كل ما كان يعرفه عن صفقات عبد الله المالية غير النظامية. لعل أبرزها كان تقديمه هدايا باهظة الثمن إلى المقربين، ومنحه أراضي الدولة

تسديداً للدائنين، وخطباً لمودة القادة المحليين في شرق الأردن وربطهم به بشكل أكثر ضماناً.[66]

في هذا الجو تم إرسال غلبرت كلايتون من القدس لتهدئة الخواطر وإعادة المياه إلى مجاريها. نجح الرجل في تحقيق نوع من المصالحة أتاحت للخصمين فرصة الحفاظ على هيئة التعاون على الأقل، غير أنه أوصى وزارة المستعمرات باستغلال الفرصة المناسبة لنقل فيلبي (وإن لم يكن بصورة مباشرة لكي لا يظن عبد الله بأنه سجل انتصاراً).[67] وفي الوقت نفسه سُمح لعبد الله بمراسلة المفوض السامي في القدس بصورة مباشرة، لا عن طريق فيلبي كما كانت من قبل. صحيح أن فيلبي بقي في عمان فترة تسعة أشهر أخرى، غير أن حادثة الباسيليقا وضعت حداً لفعاليته التي كانت بالإضافة إلى مباريات الشطرنج الودية، والقصص الطريفة والألغاز، ومناقشة الأمثال العربية قد صقلت علاقته بعبد الله.

بعيد المشادة الكلامية، التي بات الجميع في عمان يعرفون عنها، لأن عبد الله وفيلبي كليهما لم يكونا قادرين على التحكم بلسانيهما، واجه الأول التهديد الأخطر في حياته كلها في شرق الأردن. وكان هذا متمثلاً بعصيان قبيلة العدوان. وانطلاقاً من الخلاف الحديث بين فيلبي وعبد الله، باتت الشائعات في عمان تحمل فيلبي مسؤولية حركة التمرد.

كانت الأزمة الممتدة بجذورها إلى عمق تربة المنافسة التاريخية بين قبيلتي العدوان وبني صخر قد تفجرت؛ جراء إشاعات قالت بأن الأعشار المحصلة في البلقاء من العدوان وغيرهم كانت ستعطى لشيوخ بني صخر. لم يكن هذا غير قابل للتصديق نظراً لانحياز عبد الله إلى بني صخر، هذا الانحياز الناجم عن تجاور أراضي بني صخر مع المناطق الخاضعة للسيطرة الوهابية. وبما أن بني صخر كانوا الهدف الأول لاعتداءات ووعظ الوهابيين، فقد بالغ عبد الله في الاهتمام بهم بهدف الحفاظ على ولائهم.

وقد اتخذ اهتمامه هذا شكل منح شيوخ بني صخر مساحات واسعة من الأراضي وتقدير ضرائبهم على أنها أجزاء صغيرة من الضرائب التي كان بنو العدوان وغيرهم من أهالي البلقاء يسددونها.[68] وكان لسياسة عبد الله هذه، مهما بدت ضرورية لضمان ولاء بني صخر له، لابد من أن تثير السخط والعصيان لدى أفراد قبيلة العدوان.

بدأت ثورة العدوان تتفاعل أواخر شهر آب من عام (1923 م).[69] كانت الضرائب غير المتكافئة، ومشاعر الغيرة والحسد بين القبائل هي الأسباب الأساسية، غير أن العدوان طالبوا أيضاً بمجلس تمثيلي وبزيادة مشاركة أهالي شرق الأردن في الحكم. إن إضافة مثل هذه المطالب هي التي دفعت البعض إلى رؤية يد فيلبي وراء القضية.[70] أما فيلبي نفسه فقد وجه الاتهام إلى (بعض الأفندية) (ساسة حضريين متعلمين) بتشجيع سلطان العدوان.

ظلت الأزمة تتصاعد إلى أن بادر سلطان العدوان صبيحة السادس عشر من أيلول إلى الزحف باتجاه عمان على رأس قواته القبلية. كان قد كتب لفيلبي مبلغاً إياه أن التمرد كان مسألة داخلية وغير معادية لبريطانيا، وإذا ما تدخل فيلبي لصالح عبد الله فإنه كان سيقدم تقريراً عنه إلى وزارة المستعمرات. أثارت هذه اللهجة حفيظة فيلبي فجاء رده متمثلاً بإنذار موجه إلى العدوان تضمن تهديداً بالهجوم إذا لم يتفرقوا. ولدى شروع العدوان بالتحرك من صويلح باتجاه عمان قوبلوا بالفيلق العربي وباثنتين من العربات المدرعة. ونتيجة لسلسلة من الأخطاء ما لبث القتال أن نشب.[71] بلغت خسائر المتمردين ستة وثمانين إصابة (بمن فيهم ثلاث عشرة امرأة) بين قتيل وجريح ولاذ قادتهم بالفرار إلى جبل الدروز في سورية. لم يخرج عبد الله من أزمة العدوان أقوى من ذي قبل. ومما كان منطوياً على ما ينذر بالشؤم أن "الأفندية" الذين اتهمهم فيلبي بإثارة العصيان جاؤوا من الكرك وعمان وإربد، ولم تكن إدانتهم بوصفهم مثيري شغب سوريين أمراً سهلاً. وقد تم

الحفاظ على عرشه بفضل الدعم البريطاني لا التأييد المحلي مما ذكره بتبعيته لبريطانيا واعتماده عليها. وكما قال فيلبي في ذلك الوقت فإن: «حركة العدوان التمردية دفعت الأمير وحكومته إلى.. نوع من الإحساس بالاعتماد على المساعدة البريطانية، وقد أصبحت واثقاً من أنهما سيكونان الآن أقل نزوعاً إلى تجاهل النصائح القائمة على النوايا الحسنة...».(72)

من المؤكد أن مكانة الموظفين البريطانيين المحليين تعززت جراء بروز تفوقهم العسكري والاعتقاد بأن عبد الله أصبح الآن أفضل تفهماً لوضعه. وانطلاقاً من رسوخ هذا الاعتقاد قرر كل من فيلبي وبيك أن الوقت قد حان لتحرير الفيلق العربي وحكومة شرق الأردن من الاستقلاليين المتبقين. تم تسريح ثلاثة ضباط، جميعهم من أعضاء الاستقلال، من الجيش [العربي]. وفيما بعد تم إجبار عبد الله على طردهم من البلاد مع اثنين من الاستقلاليين البارزين، هما عادل أرسلان وصبحي الخضرا. ومع حلول نهاية شهر كانون الأول كان عضو حزب الاستقلال الفلسطيني أحمد حلمي قد حرم أيضاً من منصبه في مجلس المستشارين. أما زميله الفلسطيني إبراهيم هاشم فلم يسمح له بالبقاء إلا بعد أن تعهد بقطع علاقاته كلها بحزب الاستقلال.(73)

بعمليات الطرد هذه جرى تطهير شرق الأردن من أكثر القوميين العرب البارزين الذين كانت بريطانيا تعتبرهم مشاغبين. ولم تأخذ العملية أكثر من عامين ونصف العام. خلال هذه الفترة كانت بريطانيا تعتقد أو تظاهرت بالاعتقاد بأن القوميين العرب كانوا وراء كل اضطراب محلي وكل إخفاق من جانب عبد الله والإدارة المحلية في الانصياع للإملاءات البريطانية. وقد استفاد عبد الله كثيراً من هذا التفسير الخاطئ. فعن طريق إلقاء اللوم والمسؤولية على القوميين، استطاع أن يتجنب أية مجابهة مباشرة مع بريطانيا حول مظهر عجزه أو عجزه الحقيقي عن تنفيذ السياسة البريطانية. غير أن تقلص صفوف القوميين ونفوذهم في شرق الأردن أدى إلى وضع عبد الله نفسه، وجهاً لوجه في مواجهة مباشرة مع السياسة البريطانية. فأي نظام

دستوري لم يتحقق بعد رحيل "السوريين" صار الآن نتيجة تفكير عبد الله نفسه الذي كان منذ البداية يعمل ضد مثل هذا النظام لأسباب تخصه هو، لا نتيجة نفوذ القوميين أو وجودهم. وكذلك وضح سوء الإدارة المالية التي ظلت حتى بعد رحيل "السوريين" وهم الذين كانت رواتبهم، برأي بريطانيا، سبب مديونية عبد الله. وهكذا فإن عبد الله نفسه ما لبث،بعد غياب الحاجز الذي كان القوميون يشكلونه، أن بات مسؤولاً عن نواقص إدارته وعيوبها. وما نتج عن ذلك من توتر في العلاقة بين عبد الله وبريطانيا تحول تدريجياً إلى صراع مباشر.

جاء نوع آخر من التدخل في شؤون شرق الأردن، وقد كان عائلياً هذه المرة، ليرجئ المجابهة الآتية. ففي كانون الثاني قام ملك الحجاز الحسين والد عبد الله بزيارة ابنه. وتحددت صيغة الزيارة لحظة نزول الحسين إلى العقبة، حين ترفع وأبى، رغم بلوغه التامنة والستين من العمر، ركوب سيارة المرسيدس الفاخرة التي أرسلها عبد الله، وسافر على ظهور الجمال والحمير إلى السكة الحديدية في معان. وكما أحدث خللاً في ترتيبات عبد الله الخاصة بالنقل تماماً؛ أحدث خللاً موازياً في عامة الشؤون في شرق الأردن خلال فترة زيارته التي دامت شهرين. كان وقتاً عصبياً بالنسبة للجميع، رغم ملاحظة فيلبي الطريفة التي قال فيها إن الزيارة «أدت إلى توقف شبه كامل لإدارة الأمير ـ وتلك نعمة لا تقدر بثمن بالنسبة للبلاد». فقد أصبح عبد الله يشغل مرتبة ثانوية فيما تولى الحسين مهمة السلطة شبه الكاملة في البلاد. كما أن بريطانيا فقدت مؤقتاً شيئاً من سيطرتها، بعد أن باتت مضطرة للتعامل مع الحسين بقدر أكبر من الحذر، بالمقارنة مع أسلوب تعاملها مع عبد الله.[74]

أدى وجود الحسين إلى جعل عمان بؤرة للاهتمام السياسي، شبيهة بحالها في زحمة الأيام الأولى من وصول عبد الله إليها. جاء العديد من الأفراد والوفود من فلسطين وسورية ولبنان ومصر. ومن القدس أتى موظفو

الانتداب البريطاني بل وحتى وفد صهيوني.[75] جرى الإصغاء إلى جميع الأهداف والمطالب والبرامج والقرارات بلباقة، ولكن الملك لم يقدم في النهاية إلا القليل من التوجيه والإلهام. فقط بريطانيا نجحت في جعله يفعل شيئاً.فبعد عملية إقناع طويلة وافق على إرسال ابنه الأصغر زيد إلى مؤتمر ترعاه بريطانيا في الكويت كان معقوداً آنذاك لمناقشة الحدود الهاشمية السعودية.

كان الحدث الرئيسي في زيارة الحسين متمثلاً بتوليه منصب الخلافة. ففي الثالث من آذار عام (1924 م) قام المجلس الوطني التركي بعزل الخليفة العثماني الأخير عبد المجيد، الذي جرى إبعاده عن البلاد خلال أربع وعشرين ساعة إلى منفاه في سويسرا. وبعد هذا البرق مباشرة جاء رعد إعلان دوى من الشونة، حيث كان الحسين مستمتعاً بدفء مشتى عبد الله، قائلاً بأنه هو نفسه سيقوم بشغل منصب الخليفة. وبما أن بريطانيا كانت قد تحدثت عن الخلافة أكثر من أية قوة أخرى في السنوات الأخيرة، فإن مطالبة الحسين باللقب ربما كانت موجهة إلى لندن بمقدار ما كانت موجهة إلى العالم العربي أو الإسلامي الأوسع، كمحاولة أخيرة لاستعادة الدعم البريطاني في صراعه مع ابن سعود.[76] غير أن تحركه هذا كان وبالاً عليه إذ انتهى بعد ثمانية أشهر بإزاحته عن العرش إلى اليوم.

زعم الحسين أنه تولى الخلافة استجابة للعديد من برقيات المبايعة التي جاءت من بلاد الهلال الخصيب والحجاز. غير أن الشكوك تحوم حول أن جزءاً على الأقل من طوفان البرقيات كان مزوراً. فالحجاز كانت، حسب كلام القنصل البريطاني هناك، شديدة البطء في ردها على الإعلان.[77] إلا أن الرواية الرسمية، كما أوردها عبد الله على مسامع مراسل المانشستر غارديان، قالت إن مفتي مكة كان قد أعلن الحسين خليفة أمام جمهور الحجاج الذين كانوا، بوصفهم ممثلين للعالم الإسلامي كله، قد عبروا عن موافقتهم على ذلك الإعلان. ومما قيل في وصف عبد الله إنه كان سعيداً

بالمجد النازل على البيت الهاشمي، في حين تظاهر الحسين، على العكس، بالتواضع والهم المتناسبين مع مسؤوليات منصبه الجديد.[78]

لم يحظ طلب الحسين للخلافة بالتأييد، في حقيقة الأمر، إلا في شرق الأردن وفلسطين وسورية، بينما اختلفت ردة الفعل في العراق والحجاز. أما في سورية، فصار إعلان اسم الحسين في خطب الجمعة تحدياً وطنياً، منذ قيام الإدارة الفرنسية التي أجبرت مفتي دمشق على حظر ذكر أي اسم على الإطلاق.[79] وبالتالي فإن التأييد العلني للحسين لم يكن رمزاً ذا معنى لتطلعات الحسين وطموحاته بمقدار ما كان تعبيراً عن السياسة السورية. وكان تأييد الحسين في فلسطين أيضاً قضية سياسية بالمثل، إذ كان مشروطاً بالدفاع عن القضية العربية وبمشورة شعب فلسطين قبل حل أية مسألة ذات تأثير على بلدهم.[80] غير أن تأييد الحسين على المستوى القومي لم يكن إجماعياً نظراً لأن كثيرين كانوا يعتبرونه أكثر تلوثاً، جراء ارتباطه ببريطانيا، من أن يكون أهلاً لشغل أعلى المناصب في الإسلام.[81] ظلت بريطانيا، متجافية كلياً تجاه تولي الحسين للمنصب، على الرغم من أنها كانت فيما مضى، في مراسلات حسين ـ مكماهون مثلاً، قد لوحت له به. وخارج الهلال الخصيب لم يكن الحسين متمتعاً بأي تأييد ذي شأن. فمسلمو الهند وجاوة ظلوا على ولائهم لعبد المجيد، وفي مصر كان الملك فؤاد نفسه طامحاً إلى المنصب.[82] أما خصم الحسين الأكثر مباشرة والأشد خطراً فكان ابن سعود الذي اعترف بأنه استاء كثيراً من غطرسة الحسين وتطاوله لتولي المنصب بنفسه. ولم يكتف ابن سعود باجترار الاستياء بهدوء بل باشر الاستعدادات الأخيرة لغزو الحجاز. وبالفعل فإن عجز إعلان الحسين عن الحصول على قدر ذي شأن من التأييد، ربما أدى إلى تشجيع ابن سعود على الاعتقاد بأن العالمين العربي والإسلامي لن يفعلا شيئاً لإنقاذه في حال تعرض الحجاز لهجوم سعودي.

غادر الحسين شرق الأردن بعيد توليه منصب الخلافة. وكان فيلبي الذي

لم تعد علاقاته مع عبد الله إلى سابق عهدها بعد خلافهما حول تدمير (الباسيليقا)، والذي كان موقعه قد تعرض للمزيد من الاهتراء جراء الخلافات المتكررة مع صموئيل، قد قدم استقالته في كانون الثاني. وكان فيلبي مشاكساً إلى النهاية حين أوضح للرسميين في شرق الأردن الذين كان يعمل معهم أنه كان قد ترك المنصب لأنه لم ير أي أمل مستقبلي لشرق الأردن، بسبب إخفاق عبد الله وحكومته في القيام بأي عمل مفيد.[83] كان عبد الله سعيداً لرحيله. فلدى سماعه نبأ إسلام فيلبي بعد سنوات علق قائلاً: «صحيح أن الإسلام لم يكسب إلا القليل بإسلام فيلبي، إلاّ أن المسيحية خسرت حتى ما هو أقل من هذا التحول».[84]

كان المقدم (السير فيما بعد) هنري كوكس الذي سبق له أن خدم في السودان قبل الحرب وأصبح في الأيام الأخيرة حاكم منطقة نابلس هو خلف فيلبي. ومثله مثل سلفه كان يتحلى بإحساس قوي بالواجب وبالتصميم على القيام بواجبه. غير أنه خلافاً لحال فيلبي كان منسجماً مع التسلسل الهرمي في وزارة المستعمرات البريطانية، ولم يكن يعاني من أي شعور باستقامة أخلاقية متناقضة مع معايير وزارة المستعمرات. فعلى النقيض من حماس فيلبي الشديد في التعامل مع شرق الأردن، كان كوكس يتأمل بكآبة قائلاً بينه وبين نفسه: «سأصنع شرق الأردن، وإلا فإن شرق الأردن سيكسرني».[85]

كانت منطلقات اضطلاع كوكس بمهام منصبه في شرق الأردن مختلفة جذرياً عن تلك التي كان قد سبق للسياسة البريطانية أن قامت عليها. فلدى تعيين أبرمْسُن وفيلبي في عمان كان اهتمام الحكومة البريطانية بالبلدان المجاورة لشرق الأردن أكبر من اهتمامها بشرق الأردن نفسه، مما أدى إلى المبالغة في التركيز على المسألة الأمنية والتي كانت تتطلب أولاً وأساساً قطع الروابط القومية العربية فيما بين المناطق المختلفة التي جرى إخضاعها لنظام الانتداب. وقد كان شرق الأردن عند مفترق الطرق بين

سورية وفلسطين كما بين الأخيرة والعراق، فضلاً عن كونه هو نفسه ملاذاً للعديد من اللاجئين السياسيين القادمين من تلك الأراضي. وبالتالي فإن الشؤون الداخلية غير المرتبطة ارتباطاً مباشراً بالأمن لم تحظ، بالمقابل، إلا بقدر قليل من الاهتمام.

كان التركيز على شرق الأردن قد بدأ يتحول خلال فترة ولاية فيلبي. أولاً: أصبحت حدود فلسطين وسورية أقل إثارة للقلق، بعد أن باتت فرنسا خصوصاً متآلفة مع مهمتها في سورية، وأقل خوفاً من التحالف البريطاني - الشريفي، فضلاً عن أن النشاط القومي المنبعث من عمان كان قد تناقص تناقصاً ملحوظاً. ثانياً: كانت بريطانيا قد اضطرت تدريجياً للتخلي عن أملها الخفي في إخضاع شرق الأردن في المستقبل القريب بوصفه إقليماً عربياً لفلسطين بصورة مباشرة. فالتهديد المتمثل بابن سعود والمذهب الوهابي كان قد أكسب شرق الأردن قيمته الاستراتيجية الخاصة. وبالتالي فإن الفكرة الموجهة للسياسة البريطانية كانت، لدى تولي كوكس للمنصب، قد أصبحت تقول: «لابد لإدارة [عبد الله] من أن تكون ذات طبيعة نستطيع، بوصفنا سلطة انتداب، أن نبررها لعصبة الأمم والعالم ككل».[86]

وجد كوكس نفسه داخل ما يشبه الكابوس في شرق الأردن. كانت المالية قد قررت، دون استشارة وزارة المستعمرات، وقف مساعدات شرق الأردن المجانية اعتباراً من تاريخ الأول من نيسان عام (1924 م). وكانت المساعدات المالية لشرق الأردن ستندرج، بدلاً من ذلك، في الموازنة المخصصة لحكومة فلسطين. وقد بلغت الخسارة الناجمة عن ذلك مقارنة بالعام المالي السابق تسعين ألفاً من الجنيهات الإسترلينية.[87] وقد جاء رد عبد الله على النبأ على شكل تساؤل عما إذا كان يستطيع أن يعتبر نفسه متحرراً من جميع التزاماته السابقة لبريطانيا، مضيفاً أن من الممكن الحصول على الأموال الضرورية من الحجاز، ولكن ليس دون ما يشبه ضم شرق الأردن إلى ذلك البلد.[88] وهكذا فإن شرق الأردن كان في وضع مالي

بالغ الصعوبة، فضلاً عن أن بريطانيا وعبد الله كانا على خلاف شديد عند وصول كوكس.

تمثلت مهمة كوكس الأولى بفرض أشكال متشددة من الرقابة المالية. وكان عمله الأول على هذا الصعيد هو إجبار عبد الله على تغيير الحكومة، بحجة أن الحكومة القائمة كانت مسؤولة عن الإخفاق المالي، لعدم تزويد فيلبي ببيان حسابات كان الأخير يستطيع تقديمه إلى الخزانة دليلاً على حاجة شرق الأردن لمساعدة مجانية، وتبريراً للمطالبة بمثل هذه المساعدة. ومرة أخرى أصبح علي رضا الركابي العائد لتوه إلى القدس بعد إخفاقه في الحصول على الدعم الفرنسي في الانتخابات السورية لمجلس اتحادي رئيساً للوزارة، بدلاً من حسن خالد أبو الهدى، صديق عبد الله منذ أيام إسطمبول.

كان عبد الله شديد الاستياء من أن يجد نفسه مرة أخرى في مركب واحد مع الركابي، لا بسبب كره الضعيف للقوي،(89) كما كان البريطانيون مقتنعين، بل لجملة الأسباب نفسها التي جعلت الجميع (عدا أولئك الذين وجدوه مفيداً) يكرهون الركابي وهي: عدم جدارته بالثقة، وطموحه المتطرف، وغطرسته. والآن في هذه اللحظة البالغة الحساسية صار الركابي مستشاراً أول لعبد الله. لم يكن الركابي مستعداً لحمايته، كما لم يكن عبد الله نفسه قادراً على تحميله مسؤولية الإخفاق في حال عدم تلبية الرغبات البريطانية، كما كان يفعل في الماضي مع كل من رشيد طليعة ومظهر رسلان. كما أن الركابي لم يكن يُكِن أية مشاعر صداقة شخصية أو ولاء لعبد الله خلافاً لحال حسن خالد، فضلاً عن أنه كان شديد الرغبة في الموافقة على جميع المطالب البريطانية في مجال الرقابة المالية، بغية إظهار الأمر كما لو كان عبد الله هو العقبة الوحيدة في طريق بريطانيا.

من المؤكد أن عبد الله لم يكن غافلاً عن التهديد الذي مثله الركابي. ففي أحد لقاءاته الأولى مع كوكس فعل أقصى ما يستطيعه ليسحره قائلاً: إن ما مضى قد مضى وبالنسبة للمستقبل لم يكن يرغب إلا في علاقات

سعيدة مع بريطانيا، وهو مستعد لقبول الرقابة المالية، ولتشكيل حكومة دستورية طوال بقاء بريطانيا ملتزمة ببنود تأكيد عام (1923 م) أي طوال بقائها معترفة باستقلال شرق الأردن تحت حكمه. وبقدر كبير من بعد النظر (أو بفضل الحصول على معلومات داخلية) في الحقيقة عبر حتى عن خوفه من أن تبادر بريطانيا، خلال فترة قيامه بأداء فريضة الحج، إلى اتخاذ قرار يقضي بأن عودته غير مرغوبة وباستبداله بالركابي.(90)

غير أن كوكس لم يتأثر بمحاولات عبد الله الهادفة إلى تحقيق المصالحة. ما حصل هو العكس، فخلال شهر من وصوله إلى عمان كتب إلى لندن عن عبد الله واصفاً إياه بأنه مرض يتفشى بسرعة، وأنه سيقود إلى تدمير البلد.(91) ونظراً للافتقار إلى الوقت اللازم لجمع الأدلّة اللازمة ليبرهن على هذا التشخيص، فلابد أنه كان قد تأثر بأولئك الذين كانوا على صلة وثيقة به في العمل مثل بيك والركابي. فبعد أسبوعين من وصول كوكس، كان بيك هو الضابط البريطاني ذو الخبرة الأطول مع عبد الله في شرق الأردن، مما اكسب كلمته قدراً كبيراً من الأهمية والنفوذ، قد قدم تقريراً شديد الإدانة لتاريخ إدارة عبد الله، قال فيه بعبارات لا تقبل اللبس: إن أية حكومة في شرق الأردن لن تنجح طوال بقاء عبد الله وأشار إلى أن فرصة ممتازة للخلاص منه ستتاح قريباً مع مغادرته إلى الحج.(92) وخلال هذه الأشهر القليلة التي فقد فيها عبد الله أو أخفق بالأحرى في كسب ثقة الممثل البريطاني الرئيسي، تقدم الركابي لملء الفراغ. فقد أبلغ صموئيل، مثلاً، أن الصعوبات التي واجهها في تطبيق الموازنة تضاعفت كثيراً جراء وجود عبد الله.(93) ومثله مثل بيك عبر كوكس عن رأيه القائل بوجوب عدم السماح لعبد الله بالعودة من الحجاز.(94)

لذا فإن عبد الله بدا مقدماً نفسه على طبق من الفضة حين غادر حسب الخطة متوجهاً إلى الحج أواخر شهر حزيران. وفي غيابه تمت صياغة إنذار وجرى الاتفاق على عدم السماح لعبد الله بالعودة ما لم يوافق عليه. وإضافة

إلى الشكاوى المالية الأصلية تضمن الإنذار مطالب أخرى ذات علاقة بالتفتيش والرقابة العسكريين، بطرد الأشخاص غير المرغوب فيهم، بعقد اتفاقية تسليم المطلوبين مع سورية، وبإلغاء قسم الإدارة القبلية. وقام غلبرت كلايتون مؤلف نص الإنذار باختتامه بتهديد لم يكن مبطناً قال فيه «أنا واثق من أن موافقة سموكم القاطعة على الشروط آنفة الذكر ستعفي حكومة جلالته من الاضطرار إلى إعادة النظر في وضع شرق الأردن كله».[95]

كان وصول عبد الله إلى العقبة منتظراً في الرابع عشر من آب عام (1924 م). وكان كوكس مكلفاً بتسليمه الإنذار شخصياً. وكتدبير احتياطي كانت إحدى سرايا كتيبة الرماة التاسعة قد أرسلت من فلسطين إلى عمان. غير أن القبائل الوهابية شنت، في اليوم نفسه، تماماً كما سبق أن حصل قبل عامين اثنين، هجوماً عنيفاً على قرى بني صخر القريبة جداً من عمان جهة الجنوب. سارعت طائرات سلاح الجو الملكي والعربات المدرعة إلى التدخل وأجبرت الوهابيين على التراجع. وفر هذا الحدث الغطاء المثالي لتحركات القوات المرتبطة بعملية تسليم الإنذار.[96] والأهم من ذلك هو أنه أجبر عبد الله بالقوة على أن يتذكر، إذا كان قد نسي درس ثورة العدوان والهجوم الوهابي الكبير الآخر في الخامس عشر من آب عام (1922 م) حقيقة أنه عاجز عن أن يحكم شرق الأردن ما لم يكن متمتعاً بالدعم العسكري البريطاني.

وبالتالي فإن تسليم الإنذار لم يشكل إلا نوعاً من الهبوط المفاجئ. قرأ عبد الله النص، احتج على براءته وحسن نواياه بالدموع في عينيه وأذعن مستسلماً.[97] شكلت موافقته النهائية الفعلية للفترة المؤقتة التي كان هو وتشرتشل قد أطلقاها في مؤتمر القاهرة قبل ثلاث سنوات ونصف. ودللت أيضاً على تفهمه لوضعه مع بريطانيا وقبوله به. صحيح أنه ظل مستاءً من سيطرة بريطانيا، غير أن الاستياء بات مستنداً إلى أسباب شخصية بصورة أوضح من ذي قبل.

6) اكتشاف حدود السلطة

شكل قبول عبد الله بالإنذار البريطاني بداية جديدة في علاقاته مع بريطانيا. أخيراً بات واضحاً أن السلطة بيد بريطانيا، وأن الأخيرة مستعدة لفرض سلطتها. كذلك أصبح الاهتمام البريطاني متركزاً، للمرة الأولى في الحقيقة، على شؤون شرق الأردن الداخلية. فالسلطة البريطانية لم تعد واضحة فقط، بل أوشكت على التدخل حتى في التفاصيل الدقيقة لشؤون شرق الأردن، وهو أفق غير مريح بالنسبة لعبد الله. وفي الوقت نفسه ساهمت الأحداث في شبه الجزيرة العربية وسورية في تفتيت الشرق الأوسط على الصعيد السياسي، وخصوصاً من وجهة النظر الشريفية، وقادت إلى عزل عبد الله في شرق أردن خاضع لسيطرة بريطانيا. غير أن الأخير، رغم تعرضه لقدر متزايد من العزل، لم يصبح أقل طموحاً. وفي الحقيقة فإن إدراكه لعيوب شرق الأردن وأشكال عجزه شكل الدافع الكامن وراء طموحه.

تمخض الإنذار عن تمكين بريطانيا من فرض إرادتها في سائر الشؤون المالية والعسكرية. وسارع كوكس إلى استغلال الميزة التي تحققت له بنشاط. وتم تعيين آلان كيركبرايد (الأخ الأصغر للمقيم البريطاني اللاحق أليك كيركبرايد) مستشاراً مالياً بريطانياً ليساعده في مراقبة الدائرة المالية. وساهم برنامج تقشف إلزامي في تقليص عجز شرق الأردن ولكنه لم يغير اعتماده المالي على بريطانيا التي ظلت تدعم وضع شرق الأردن المالي بمساعدات مجانية، بلغت حوالي ثلث الموارد الإجمالية السنوية حتى الحرب العالمية الثانية.[1]

كان أحد أكبر التقليصات في الموازنة، وهو التقليص الأصعب والأقسى بوضوح بالنسبة لعبد الله، متعلقاً بالقائمة المدنية التي انخفضت من ستة وثلاثين ألفاً من الجنيهات الإسترلينية في العام المالي (1923 - 1924 م) إلى عشرين ألفاً وثلاثة عشر ألفاً في العامين الماليين (1924 - 1925 م) و(1925 - 1926 م) على التوالي. ونظراً لأنه كان مديناً بمبلغ عشرة آلاف جرى رفع قيمة القائمة المدنية لاحقاً لتمكينه من سداد ديونه. ومقابل ذلك تولى كيركبرايد مهمة الإشراف على مجمل أشكال إنفاق القائمة المدنية.[2] وقد تمكن الأخير من سداد ديون عبد الله «عن طريق انتزاع آخر قرش منه والمخاطرة بإثارة مشاجرة جدية معه».[3]

تدبر عبد الله أمره مع السنوات العجاف عن طريق بيع بعض ممتلكاته، واستخدام ثروة زوجته الأولى.[4] وما إن تم تسديد الديون حتى جرى خفض قيمة القائمة المدنية مرة أخرى إلى اثني عشر ألفاً من الجنيهات، مما أدى إلى أن يتأثر حتى كوكس الذي كان فيما مضى شديد الانتقاد لعادات عبد الله في الإنفاق، بفقره المدقع وصولاً إلى جعله يتدخل لصالحه. كانت فكرة كوكس أن تبادر الدولة إلى منحه بعض الأراضي التي لم تكن لتقف عند حدود جلب الدخل، بل وكانت ستوفر عملاً لابنه الأصغر نايف في الوقت نفسه.[5] وهذه الفكرة، لا رفع قيمة القائمة المدنية بصورة مباشرة، هي التي أصبحت نافذة فيما بعد.

وفيما يخص الشؤون العسكرية كان بيك ممسكاً دون منازع بزمام القوة المحلية الموحدة المعروفة باسم الفيلق العربي من البداية. غير أن وضعه كان صعباً قبل الإنذار. «فالأمير والحكومة (باستثناء رئيس الوزراء الجديد [الركابي] وحزب الاستقلال يكرهون الفيلق العربي. ولهذا الكره أسباب مختلفة، ولكن الجميع متفقون على نقطة واحدة هي وجود ضابط بريطاني... وبالنسبة للضباط والأفراد فإن تأييدهم سيدوم بالتحديد طوال بقائي قادراً على الدفع لهم».[6] وفيما بعد تمت إخافة منتقديه الحكوميين،

على الأقل. وفي عام (1925 م) كان تعداد الجيش يصل إلى ألف وأربعمائة واثنين وسبعين بمن فيهم عناصر الشرطة والجيش وحراس السجون، ضباطاً وأفراداً.[7]

لم تكن ثمة مواقع للفيلق العربي إلى الشرق من الخط الحديدي الحجازي، فقد جرى أن تم في عام (1926 م) تشكيل قوة حدود شرق الأردن (ق. ح. ش. أ.) كجزء من القوات الملكية (الإمبراطورية) في فلسطين تحت قيادة بريطانية، لتولي مهام الإشراف القبلي في شرق الأردن. ومع انتقال واجبات خفر الصحراء إلى قوة الحدود، جرى تقليص الفيلق العربي إلى (855)، رجلاً فضلاً عن أن هذا الجيش «فقد طابعه شبه العسكري إذ انقلب إلى شرطة مدنية /حضرية راجلة، وشرطة ريفية راجلة من جهة، وخيالة من جهة ثانية».[8] وبهذه الطريقة فقد شرق الأردن، لفترة قصيرة، حتى هيئة ما كان يشبه الجيش النظامي الخاص به. وعلى الرغم من اختزال العدد فإن ثلاثة ضباط بريطانيين إضافيين عينوا في الفيلق العربي، ليتولوا مهام السكرتير المالي ومفتش الشرطة والمشرف على المستودعات على التوالي.

أدى خلق قوة الحدود إلى إعادة فتح ما كان قد أصبح موضوعاً لنزاع بيروقراطي دائم بين مختلف إدارات الحكومة البريطانية، أي مسألة: ما علاقة شرق الأردن بفلسطين؟ وكانت **قوة الحدود** تعاني من التباس كونها تحمل تسمية وتضطلع بمهمات متماهية مع شرق الأردن، ولكنها جزء من القوات الملكية في فلسطين مما يجعلها مسؤولية فلسطينية. والنتيجة التي ترتبت على هذا الغياب للوضوح، تمثلت بتوريط قوة الحدود في المماحكة المالية الجارية بين لندن والقدس، حول الجهة التي كانت ستقوم بتسديد فاتورة عجز شرق الأردن. فوازرة المالية، في مسعى منها لتقليص عجزها هي، أصرت على اعتبار شرق الأردن «مصلحة فلسطينية حصراً» لا بد من إجبار فلسطين على تسديد ما يترتب عليها[9] في هذا المجال، على الرغم من أن الجميع في لندن تقريباً

كانوا في عام (1926 م) قد وافقوا على فصل شرق الأردن عن فلسطين.

ومهما يكن فإن المفوض السامي اللورد بلومر عارض تسديد نفقات قوة الحدود بشدة.[10] بل ورفض بقدر أكبر من الحماس تغطية العجز المدني في شرق الأردن. فقد اعتبر إخضاع شرق الأردن لفلسطين، وهو أمر شيء لابد أن يُفترض إثر معاملة كهذه أمر مناقض للسياسة البريطانية. وبلغ سخطه حول المسألة كلها درجة جعلته يهدد بالاستقالة. وأخيراً قامت وزارة المالية بحل المسألة عن طريق جعل حصة فلسطين خمسة أسداس تكاليف قوة الحدود فقط، وفقاً للمنطق القائل بأن الأمن في شرق الأردن كان يسهم في تعزيز الأمن بفلسطين. وافق بلومر على الحل مكرهاً وأكمل فترة ولايته. ولكن قوة الحدود أثبتت على أية حال أنها كانت عاجزة عن خفر بادية شرق الأردن. فحين تم جلب جون باغوت غلوب من العراق في عام (1930 م) لتشكيل قوة بادية كجزء من الفيلق العربي، انسحبت قوة الحدود إلى ما وراء نهر الأردن للقيام بواجباتها في فلسطين.

جاء التحكم البريطاني المتشدد بشؤون شرق الأردن المالية والعسكرية في أسوأ الأوقات بالنسبة لوضع عبد الله في المنطقة. ففيما كان يجري إقحام تبعيته لبريطانيا في الشؤون الشرق أردنية عليه عنوة، كانت الأحداث على حدوده تعمل على استبعاده من الساحة العربية الأوسع.

لم يكن الهجوم الوهابي على شرق الأردن في آب من عام (1924 م) قد تم، كما حلا للبعض أن يعتقدوا، نتيجة التواطؤ مع بريطانيا من أجل إجبار عبد الله على قبول الإنذار.[11] فقد كانت الحملة، بالأحرى، جزءاً من إستراتيجية ابن سعود الرامية إلى إخضاع الحجاز. فبعد ثلاثة أسابيع استولت قواته على الطائف. وفي الثالث من تشرين الأول تنازل الحسين عن العرش لابنه البكر علي، وما لبثت مكة، بعد عشرة أيام، أن استسلمت. وبعدها ظل علي متشبثاً بجدة لمدة سنة قبل أن يحذو حذو أبيه.

كانت الطريق الموصلة إلى كل من مكة والطائف قد باتت مفتوحة أمام ابن سعود منذ أن كان قد هزم عبد الله في ترابة في عام (1919 م). غير أنه لم يكن، خلال السنوات الخمس التي مرت بعد ذلك التاريخ، قد حاول استغلال تفوقه على الهاشميين؛ بل كان بدلاً من ذلك قد عزز موقعه في أماكن أخرى من الجزيرة العربية. وفي ربيع عام (1924 م) وجد نفسه شمال الجزء الأوسط من شبه الجزيرة الذي كان سيقع خلفه خلال أي هجوم على الحجاز.وتزامنت عملية الإغارة على شرق الأردن في صيف ذلك العام مع حشد القوات الوهابية على حدود العراق. وكانت المناورتان كلتاهما مصممتين لإبقاء أبناء الحسين مشغولين وعاجزين عن التحرك في أثناء عملية غزو الحجاز. أما أن تكون إحدى النتائج الجانبية لاستراتيجيته متمثلة بضمان موافقة عبد الله غير المشروطة على الإنذار [البريطاني]، فلم يكن ذلك إلا مصادفة.

لم تكن عملية الإخضاع السعودية صعبة على الرغم من أنها استغرقت عاماً كاملاً نتيجة حساسيات دينية. فمنذ انتهاء الحرب كانت مكانة الحسين قد تدهورت.[12] فالثورة العربية لم تكن قد تكللت بخلق دولة عربية أكبر، بل بتقسيم أرض العرب وإخضاعها للسيطرة الأوربية. لم يصبح الحسين ملكاً للعرب، بل صار ملكاً للحجاز فقط. وكان استقلاله الجديد نعمة ملتبسة بعد التحرر من التبعية العثمانية. فبدلاً من السخاء العثماني بات الآن يحصل على معونات بريطانية متضائلة. وتعرض طقس الحج هو الآخر للتدهور جراء عدم وجود أي إطار إمبراطوري. وكانت انتفاضة ما بعد الحرب قد قطعت طريق الحج الآتية من تركيا وسورية، فضلاً عن أن التنافس السياسي بين الحسين وابن سعود من جهة، والحسين والملك فؤاد من جهة ثانية، قد جعله يغلق طريق الحج أمام الحجاج القادمين من نجد ومصر. وبغية التعويض عن فقدان الموارد الآتية مع الحج قام برفع الضرائب المحلية، وبتحميل الحجاج القادمين فعلاً أعباء كبيرة لا تطاق. وقد تحول موسم الحج

الأخير الذي تم تحت إشرافه إلى "فضيحة" جراء نقص المياه والأجور الباهظة، فأدى هذا الإخفاق في الحفاظ على مراسم حج منتظمة إلى أن يفقد التأييد في العالم الإسلامي. وما لبث فقدان الموارد الخارجية وارتفاع الضرائب أن أديا إلى أن يخسر التأييد الداخلي، وخصوصاً بين صفوف القبائل التي كانت تشكل العمود الفقري العسكري لنظامه.

لم يكن عبد الله إلا شخصاً عاجزاً وقف جانباً يتفرج على مملكة أبيه الحجازية وهي تتداعى وتسقط. كان قد فعل ما استطاع فعله لتحسين العلاقات بين أبيه وبريطانيا، غير أنه لم يحقق أي نجاح. وقبل كل شيء كانت بريطانيا قد أرادت عقد معاهدة مع الحسين كان من شأنها، باعتقادها، أن تخفف من المعارضة التي كانت تواجهها سياساتها الشرق أوسطية، وخصوصاً في فلسطين.[13] كان عبد الله قد ألح على أبيه مطالباً إياه بتوقيع مثل هذه المعاهدة، وقد فاوض على واحدة اعتقد أنها ستكون مقبولة حين كان لورنس في عمان في عام (1921 م)، ولكن الحسين رفض توقيعها. وبعد ذلك أملت بريطانيا في أن يفضي تهديد ابن سعود إلى إجباره على تليين موقفه. وقد عبر هيربرت صموئيل عن اعتقاد عام حين كتب يقول: «من الممكن أن يتمخض التهديد المتزايد للحجاز جراء العدوان الوهابي عن جعل الملك حسين أكثر طواعية وأكثر استعداداً لقبول شروط من شأنها أن تلبي حاجات سياستنا في فلسطين».[14] غير أنه ظل ثابتاً على موقفه وقامت بريطانيا بسحب تمويلها له في عام (1924 م).

في النهاية واجه الحسين السعوديين وقواتهم المعروفة باسم الإخوان وحده تقريباً، معولاً على عدد قليل من الطائرات المهلهلة التي اشتراها من الإيطاليين، واستأجر لقيادتها طيارين من الروس البيض.[15] صحيح أن عبد الله كان قد أرسل بضع مئات من رجال القبائل، من السعوديين الذين كانوا قد جاؤوا معه إلى شرق الأردن، ولكن هؤلاء لم يحدثوا أي تغيير في النتيجة. كذلك توسل عبد الله إلى بريطانيا طالباً منها أن تتدخل، ولكن

دون جدوى. فبعد ست سنوات من العلاقات المتدهورة باطِّراد مع الحسين، لم تحرك بريطانيا إصبعاً واحدة لمساعدة حليفها القديم.

لم يكن الحسين خلافاً لحال أبنائه، قد تمكن من تحقيق أي انتقال ناجح من الإطار العثماني القديم إلى النظام الإقليمي الجديد الخاضع لسيطرة بريطانيا. كان عبد الله قد قدم التنازلات الضرورية، وحصل بالمقابل على عرش آمن ومضمون إلى هذا الحد أو ذاك. وكان فيصل هو الآخر قد قدم تنازلات مماثلة وحصل على عرش أيضاً. (ونظراً لبنية العراق استطاع الأخير أن يوازن مصالح بريطانيا الإمبريالية بمصالح محلية، خالقاً لنفسه شعوراً بالاستقلال أقوى مما كان عبد الله قادراً على توفيره.) غير أن الحسين لم يتخل قط عن محاولة تبرير مبادرته الأولية إلى الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية وإضفاء صفة الشرعية عليها. فقد ظل يسعى، حتى بعد أن بات خلق المملكة العربية التي سبق له أن حلم بها أمراً مستحيلاً سياسياً، إلى فرض هيمنته المعنوية بوصفها الطريقة الوحيدة المتبقية له، لكسب تعاطف العرب والمسلمين الموزعين بين دول متنافسة خاضعة بأكثريتها للسيطرة الأوروبية. وقد كان هذا أحد أهداف توليه لمنصب الخلافة. ولهذا الغرض أيضاً كان قد أيد المطالب العربية في فلسطين، رافضاً أن يوقع مع بريطانيا أية معاهدة من شأنها أن تعني قبولاً بسياسة بريطانيا الخاصة بالوطن القومي اليهودي. وحسب تحليل عبد الله فإن رفضه كلفه عرشه.

وكان مما أثار غيظ عبد الله أن بريطانيا منعته من توفير ملاذ لأبيه. فعند توجه الحسين بعد مغادرته الحجاز إلى شرق الأردن عن طريق البحر الأحمر، لم تسمح بريطانيا أن يستقر ملك الحجاز السابق هناك، وطلبت منه أن يبقى في العقبة حتى يتم اتخاذ قرار بشأن مستقبله. فقام عبد الله المذعن على مضض بإرسال الخيم إلى العقبة ليقيم فيها أبوه، ريثما يتابع هو معالجة مصيره. وفي الوقت نفسه نشأ تنافس حاد بين فلسطين والعراق حول تجنب استقبال الحسين، إذ أصرت كل من إدارتي الانتداب في البلدين على إلقاء

العبء على الأخرى.[16] من الواضح أن الحسين لم يكن قادراً على البقاء طويلاً في العقبة، لأن من شأن وجوده هناك أن يشكل عنصر جذب للحجازيين الساخطين وهدفاً لابن سعود. وبعد عشرة أشهر هدد ابن سعود بمهاجمة العقبة، فجرى بسرعة وضع الحسين على ظهر باخرة بريطانية متوجهة إلى قبرص التي عاش فيها مع زوجه الثانية التركية أم زيد، وبناتهما إلى أن أصيب بمرض مميت في عام (1930 م). وبعد المرض سمح له بالذهاب إلى عمان ليكون قريباً من أولاده. عاش ستة أشهر مقلاً في الطعام والكلام إلى أن توفي في الرابع من حزيران من عام (1931 م) وهو في الثامنة والسبعين من العمر.[17] تم دفنه في القدس في مسجد صغير متاخم للحرم الشريف. وقد جرى فتح نافذة في جدار الحرم لجعل القبر متصلاً بالحورة المقدسة. تولى الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس وأحد ألد خصوم عبد الله فيما بعد، أمر تسهيل ترتيبات الجنازة، وألقى كلمة تأبينية بعد صلاة الجنازة في المسجد الأقصى. وقد حضر مراسم الدفن عدد من الشخصيات العربية والبريطانية المرموقة، إضافة إلى وفدين غير مدعوين من الحاخامية الرئيسية والوكالة اليهودية.[18]

بدا مصير الحسين عاملاً من عوامل بقاء عبد الله متمسكاً بنهجه القائم على اعتماد الحد الأدنى من المقاومة. فقد أعطاه سقوط الحجاز درساً أوضح له ضرورة الحفاظ على المصالح المشتركة بينه وبين بريطانيا مهما كان الثمن. لقد شكل ما حدث درساً كان ما زال طازجاً في ذهنه حين اندلعت الثورة ضد الفرنسيين في سورية.

ففي صيف عام (1925 م) أدت أحداث في جبل الدروز الواقعة مباشرة خلف الحدود الشمالية لشرق الأردن إلى إشعال حركة تمرد، ما لبثت أن انتشرت إلى شتى أنحاء سورية ولبنان.[19] وقد كانت لعبد الله في الماضي علاقات وثيقة مع الزعيم الدرزي سلطان الأطرش الذي سبق له أن لجأ إلى شرق الأردن خلال الانتفاضة الدرزية في عام (1922 م) أما في عام (1925 م)

فقد كان عبد الله لافتاً للنظر بامتناعه عن التعبير عن أي تجاوب. دامت الثورة حوالي عامين، وجرّت على سورية ويلات حملات انتقامية فرنسية مكثفة، إذ تم قصف دمشق مرتين، كما اجتذبت أعداداً من المسلحين وأشكالاً من الدعم المالي من الدول المجاورة. باختصار كانت الثورة السورية حركة التمرد الأهم ضد الانتداب في الشرق الأوسط، إلى أن انفجرت فلسطين أواخر عقد الثلاثينيات. ومع ذلك فإن الرجل الذي لم يكن قد مضى على خروجه من مكة لإعادة إقامة مملكة عربية في دمشق سوى أربع سنوات حرص على أن ينأى بنفسه عن الصراع الدائر.

هوت مكانة عبد الله في سورية إلى الحضيض بعد ذلك. وقد اعتبر عزوفه وعدم اهتمامه ناجمين عن رغبته في كسب تأييد فرنسا لفكرة إجلاسه على العرش. وفي الحقيقة كانت ثمة أسباب أخرى أكثر وجاهة. فقد كان مسكوناً بكابوس الحجاز وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، فضلاً عن أن مالية شرق الأردن وجيشها كانا الآن في قبضة بريطانيا المحكمة. وهناك حدث آخر: فبعد بعد موافقة بريطانيا كان قد سُمح لغير المقاتلين من الدروز باللجوء إلى شرق الأردن، ولكن هؤلاء اللاجئين الدروز ما لبثوا، بسبب الشكاوى الفرنسية، أن تعرضوا لعمليات الإبعاد جنوباً إلى الأراضي الخاضعة لابن سعود.[20]

شكل عزوف عبد الله عن دعم المتمردين نوعاً من المفاجأة.[21] صحيح أن القوميين العرب، وعدد كبير منهم سوريون، كانوا قد باتوا مستائين منه منذ وصوله إلى شرق الأردن، ولكن استياءهم لم يكن قد اكتمل بعد. كان الناس مازالوا يعتبرونه رمزاً مفيداً للقومية العربية، ممثلاً استمرارية المطالب العربية منذ أيام مراسلات حسين ـ مكماهون وعدم الوفاء اللاحق بالوعود البريطانية. غير أن أسس القومية العربية ما لبثت أن تحولت بمكر ودهاء بعد أن تم قمع الثورة. فبعد الثورة أقلع بعض القوميين العرب عن عادة رؤية مستقبلهم من منظور تصحيح وعود الماضي المنكوثة. وبدلاً من النظر إلى

الوراء إلى مملكة فيصل السورية، راحوا يعملون في إطار جديد، إطار متركز على سورية أكثر من تركزه على الوحدة العربية، إطار كان جمهورياً أكثر منه ملكياً. ولم يكن ثمة أي مكان لعبد الله في مثل هذا الإطار.

أدى إخفاق الثورة السورية إلى تأكيد النزعة الإقليمية الواضحة منذ عام (1921 م) والسائرة باتجاه تفكك الوحدة القومية العربية الشاملة. باتت القومية العربية الآن منظمة داخل كل دولة عربية خاضعة للانتداب، ومرتكزة عليها كبديل عن التأكيد السابق على الوحدة. وكانت المشكلة بالنسبة لعبد الله المستند إلى شرق الأردن متمثلة بافتقار مرتكزه إلى البنية السكانية أو الاجتماعية اللازمة لدعم حركة وطنية ـ قومية خاصة به وحده. كان مفتقراً إلى المدن وإلى مراكز التعليم والتجارة والثروة، التي شكلت منابع التنظيم و(الأيديولوجيا) القوميين ـ الوطنيين خلال فترة ما بين الحربين. وكان مفتقراً إلى طبقة وسطى ذات شأن ـ طبقة المهنيين والتجار ورجال الدين المستائين التي كانت مصالحها في طليعة الأشياء المرشحة لأن تتضرر جراء التدخل الأوربي في التجارة والمال، في القوانين والحكم، في العلم والدين. كان مفتقراً إلى الأعداد ـ إلى السكان الحضريين القابلين للتنظيم السريع في المظاهرات ـ اللازمة لإظهار المشاعر الشعبية بصورة مؤثرة. وكان مفتقراً إلى الموارد ـ إذ كان شرق الأردن معتمداً على التمويل البريطاني ـ اللازمة لجعل الاستقلال الفعلي أمراً قابلاً للتصديق. وبالتالي فإن عبد الله المحصور في شرق الأردن ظل عاجزاً عن التحرر من ضغط المصالح البريطانية.

كانت ندرة الجيوب المحلية للنفوذ المستقل نعمة ونقمة على حد سواء بالنسبة لعبد الله. فمن جهة لم تتعرض علاقته ببريطانيا لأي تحد جدي قط، ومن جهة أخرى لم يكن يملك جملة القوى المعقدة التي كان من شأنها أن تتيح له فرصة خلق ساحة تحرك مستقل له هو. وعلى الرغم من أن قادة الدول العربية الأخرى الخاضعة للانتداب لم يكونوا غرباء عن ظاهرة

المساومة مع أوربا، فإن هؤلاء كانوا قادرين على التعامل مع أوربا من منطلق قدر معين من القوة، من مواقعهم كقادة قادرين، عبر توظيف الفكر القومي - الوطني، على تعبئة التأييد الشعبي بما يجعل الأمور بالنسبة لبريطانيا أو فرنسا أكثر صعوبة. وكانت التنازلات التي تمكنوا من الحصول عليها تتم من خلال عملية معقدة قائمة على استعراض القوة والقيادة السياسيتين؛ عبر سلاسل من الإضرابات والتظاهرات من جهة، والتفاوض مع سلطات الانتداب من جهة أخرى. أما التنازلات التي حصل عليها عبد الله فلم تكن إلا مكافآت على السلوك الحسن. وبالتالي فقد بات عبر السنين ينظر إليه في المنطقة على أنه دمية بريطانية، وليس ذلك القومي العربي الذي كان يعتبر نفسه تجسيداً له.

بدا شرق الأردن، في عزلته، أكثر شبهاً بإمارات شبه الجزيرة العربية ومشيخاته منه بجاراته إلى الشمال والغرب والشرق. كانت السلطة موزعة بصورة لا متكافئة بين بريطانيا وعبد الله. وفي عام (1927 م) تم تغيير لقب الممثل البريطاني الرئيسي إلى مقيم بريطاني، وهو لقب ذو تاريخ إمبريالي مميز. كما أن قائد الفيلق العربي كان بريطانياً، مثله مثل كبار الضباط العاملين معه. كان الموظف العربي الرئيسي، إضافة إلى عبد الله، هو رئيس الوزارة (الوزير الأول)، الذي ظل حتى أواخر الأربعينيات ممن حصلوا حديثاً على جنسية شرق الأردن، دون أية قاعدة نفوذ محلية مستقلة عن بريطانيا أو عبد الله. وقد تعين على الوزير الأول، غير المرتبط بأية حركة قومية - وطنية ذات شأن، أن يتعايش مع كل من بريطانيا وعبد الله. إذ كان يتم تغييره لدى فقدانه لثقة الأولى، وحين كان الثاني يرى أن خسارته في حال الصراع دفاعاً عنه بدلاً من الإذعان والامتثال ستكون أكبر. وأولئك الذين شغلوا هذا المنصب كانوا، بالتحديد، - أفراداً دون أي لون سياسي، تناوبوا على الكرسي مرة بعد أخرى، دون أن يتركوا تأثيراً ذا شأن على الخط السياسي. وكذلك فإن البيروقراطيين في المجلس التنفيذي تحت إمرة الوزير

الأول كانوا أغلب الأحيان مواطنين حاصلين على الجنسية أيضاً. ما من أحد كان مطالباً بالمثول أمام قاعدة شعبية ذات دوافع سياسية بصورة دورية، وكان كل منهم قادراً على تقديم التنازلات اللازمة للبقاء في المنصب. أما محصلة جملة التنازلات الإفرادية فكانت تصب في خانة المصلحة البريطانية.

ساهم موظفون بريطانيون وفلسطينيون رشحتهم الإدارة الفلسطينية في تشكيل الجهاز البيروقراطي الجديد. ففي عام (1924 م) شغل ضابطان بريطانيان منصبي المستشارين المالي والقضائي، كما تم تعيين أربعة فلسطينيين في مناصب السكرتير المدني، المدير العام للبريد، مدير الصحة العامة ومدير الأشغال. وفيما بعد زاد عدد الموظفين المرشحين البريطانيين منهم والفلسطينيين. وبالإضافة إلى ذلك كان ثمة فلسطينيون وسوريون يعملون موظفي صحة، ومساحين، ومعلمين وموظفي زراعة، لعدم وجود مؤهلين من شرق الأردن قادرين على شغل هذه الوظائف. وهناك فلسطينيون آخرون مثل رئيس وزراء المستقبل إبراهيم هاشم وتوفيق أبو الهدى كانوا منتمين إلى الفترة السابقة، غير أنهم حصلوا على نعمة البقاء في مناصبهم بعد أن قاموا بقطع روابطهم القومية. ولم يأت سمير الرفاعي، وهو رئيس وزراء مستقبلي آخر، إلى عمان من فلسطين أساساً إلا بوصفه عضواً في الجهاز المدني التابع لسلاح الجو الملكي.[22]

وفي أواسط العشرينيات انضم سوريون وحجازيون هاربون من الاضطرابات الجارية في بلديهم أيضاً إلى سكان عمان. غير أن هؤلاء لم يتمتعوا مثل الفلسطينيين بفرص الالتحاق المباشر بالإدارة الشرق أردنية. وصلت مجموعة من التجار السوريين في أعقاب القصف الفرنسي لمدينة دمشق خلال الثورة السورية.[23] ولقي هؤلاء السوريون قدراً أكبر من الترحيب بالمقارنة مع أسلافهم ذوي الدوافع السياسية - فقد كانوا تجاراً بحاجة إلى الهدوء الإقليمي لتسويق بضائعهم المؤلفة من الأقمشة والمواد

الغذائية بأكثريتها. لم تشكل السياسات الاقتصادية البريطانية المتركزة على الاستقرار في الأرض وضريبة الأرض أي تهديد لهم، كما أن السلع المصنعة في سورية لم تكن خاضعة لأية رسوم جمركية. تمكن هؤلاء من التأقلم بسهولة مع حياة عمان وما لبثوا أن أصبحوا جالية مزدهرة.

وبعد الاحتلال السعودي للحجاز انتقلت أعداد من الحجازيين إلى بلاط عبد الله. ومن صفوف هؤلاء خرج عبد الله سراج الذي شغل منصب رئاسة الوزارة لفترة وجيزة في الثلاثينيات. وقام بعضهم، نظراً لمهارتهم في العلاقات القبلية، بمساعدة عبد الله في مجال الشؤون القبلية والعشائرية، كما التحق بعضهم الآخر بالفيلق العربي.

وفي عام (1925 م) حضرت عائلة عبد الله المباشرة[24] المؤلفة من زوجين وخمسة أولاد من الحجاز مع مرافقة خاصة. كانت شريفة مصباح، زوجه الأولى، ابنة عمه ناصر. وكانا قد تزوجا في عام (1902 م) ورزقا ولدين هما الأمير طلال (1909 م) ابن عبد الله البكر ووريثه، وابنته حياة. أما زوج عبد الله الثانية، وهي تركية من أصول تترية، فقد كانت أساساً تعمل خادمة في منزل الحسين بإسطمبول، وحين عاد الحسين في عام (1908 م) إلى الحجاز شريفاً لمكة، جاءت مع العائلة وتزوجها عبد الله حوالي عام (1912 م).[25] وما لبثت أن أنجبت ثلاثة أطفال هم ابن سمي نايف (1914 م) وابنتان سميتا مقبولة ومنيرة.

كان اهتمام عبد الله الأول في الأسرة منصباً على ابنه البكر الذي كان في السادسة عشرة من العمر حين انتقلت العائلة إلى شرق الأردن. وفي الحجاز كان الفتى قد تلقى تعليمه من معلمين في البيت كما كانت حال عبد الله في زمانه. وبعد وصوله إلى عمان جرى الترتيب لإرساله إلى إنجلترا لإعداده لدخول امتحانات القبول في الجامعة، بهدف تمكينه خلال عامين أو ثلاثة من الالتحاق بإحدى جامعتي أوكسفورد أو كامبردج.

وصل طلال إلى إنجلترا للالتحاق بالدورة الصيفية لعام (1926 م).[26] وبقي خلال العامين من تعليمه الخاص مع معلمين مختلفين، كانا يقبلان بانتظام أربعة إلى خمسة تلاميذ داخليين لثلاثة فصول يتألف كل منها من ثمانية أسابيع في السنة. وعلى الرغم من أن معلميه، كليهما، امتدحاه، فإن خلفيته التعليمية العامة قبل مجيئه إلى إنجلترا ما لبثت أن تكشفت عن أنها شديدة النقص، مما دعا إلى اتخاذ قرار يقضي بصرف النظر عن الجامعة واستهداف الأكاديمية العسكرية الملكية في ساندهيرست كبديل عن الجامعة. وفي خريف عام (1928 م) التحق طلال بالأكاديمية كطالب ضابط.

ربما لم يكن طلال تلميذاً استثنائياً، غير أن السيد إف. ايزكييل الذي تولى مهمة الإشراف على شؤونه التعليمية والمعيشية وتسهيلها في إنجلترا، امتدحه قائلاً إنه «شاب ذو مزاج هادئ وقنوع» و«شخص لطيف لطفاً استثنائياً».[27] بدا طلال حريصاً على إرضاء والده، وكان مثله شديد الولع بلعبة الشطرنج. ومع حلول كانون الأول من عام (1929 م) كان طلال، وهو في العشرين من العمر، قد أنهى دراسته في ساندهيرست وأصبح متبطلاً. بلغت الفترة الإجمالية التي أمضاها في إنجلترا ثلاث سنوات لم يزر الوطن خلالها إلا مرة واحدة خلال صيف عام (1927 م).

لم يكن طلال قد أمضى قط وقتاً بصحبة والده، وبعد عودته إلى عمان بات واضحاً أن الاثنين لم يكونا منسجمين. رأى المستشارون البريطانيون أن من الأفضل إبعاده عن عمان لعدد آخر من السنين، فتم إرساله إلى قبرص ليشغل منصباً فخرياً في جهاز السير رونالد ستورز.[28] وبعيد وصوله مرض جده الحسين فعاد برفقته إلى عمان، ومنها تابع السفر إلى العراق حيث انتسب إلى مدرسة الجيش العراقي العسكرية. ثم عاد إلى عمان لحضور جنازة جده وبقي فيها بعد الجنازة لا يقوم بأي عمل، ويعيش على دخل صغير كان يأتيه من أراض في مصر، ومعاش شهري بمبلغ خمسة عشر جنيهاً من عبد الله.

تلك هي الفترة التي أصبحت خلالها الخلافات بين الأب والابن مصدر قلق وذعر بالنسبة للمراقبين البريطانيين. فقد كتب المفوض السامي في فلسطين السر جون تشانسلر في عام (1931 م) يقول: «يجب إبعاد طلال عن شرق الأردن. فأبوه يتنمر عليه بشكل لا يطاق حتى أصبح الصبي المسكين خانعاً خنوعاً كاملاً. وما يتوقع حصوله هو أن الساخطين سيحاولون دفعه في طريق التآمر على أبيه».[29]

في شباط عام (1932 م) تم ضم طلال إلى فوج ميدلسكس في القدس، غير أن عملية الضم هذه لم تدم سوى ستة أشهر. شكا رؤساؤه من أنه كان يفضل مرافقة العرب على مصاحبة «الضباط الإخوة».[30] وقد كان العقيد كوكس الذي كان متعاطفاً مع طلال قلقاً بشأنه، فأوصى بإبعاده عن القصر إما عن طريق الزواج الذي سيمكنه من أن يصبح صاحب بيت يخصه، أو من خلال اتباع فترة دراسية أخرى في إنجلترا. ارتبط اسم طلال بالعديد من بنات عميه علي وفيصل، غير أن خطبته في ربيع عام (1934 م) تمت على سفينة بنت علي حيدر، منافس الحسين القديم على منصب الشريف. غير أن أم طلال بادرت بطريقة دكتاتورية إلى فسخ الخطبة لصالح ابنة أخيها، بنت خال طلال اللزم، زين،[31] في صيف العام نفسه، فيما كان عبد الله في إنجلترا. وعلى الرغم من انزعاج عبد الله إزاء نسف ترتيباته هو، فإن طلال تزوج من زين في تشرين الثاني من عام (1934 م). وفي تشرين التاني التالي ولد ابنهما الأول وسمي باسم جد أبيه الحسين.

كان عبد الله أشد ولعاً بابنه الثاني من زوجه التركية نايف، الذي كان ذا مزاج مرح أكثر شبهاً بعبد الله منه بطلال ذي الطبع الحدي. كان نايف هذا المولود عام (1914 م) في الحادية عشرة من العمر عندما جاء إلى عمان. وفي عام (1927 م) تم تسجيله في إحدى المدارس الحكومية في القدس.[32] وخلال بقائه في القدس أقام في الكلية العربية تحت إشراف مدير الكلية أحمد الخالدي وتلقى دروساً خاصة في مواد اللغة العربية واللغة الإنجليزية

والدين من أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية. أعلن الخالدي أن نايف (غير قابل للتعلم) وباتت وزارة المستعمرات مقتنعة بأنه كان (متخلفاً وميالاً للكسل) وبأن طلالاً «ذلك الشاب اللطيف جداً.. [كان] نموذجاً أفضل من أخيه».[33] وعلى الرغم من أن عبد الله أراد إرسال نايف إلى إنجلترا لتلقي المزيد من التعليم، فإن أقصى ما أمكن ترتيبه لم يتجاوز دورة في كلية فكتوريا بالاسكندرية، وهي مدرسة من نمط المدارس البريطانية العامة، التحق بها وهو في الخامسة عشرة من عمره في خريف عام (1929 م) وبعد كلية فكتوريا التحق بمدرسة الشرطة في فلسطين. وهنا انتهى تعليمه.[34] وخلال حياته اللاحقة كثيراً ما تكرر وصفه من قبل المراقبين البريطانيين عن طريق التذكير بتقويم أحمد الخالدي الفظ له.

في صيف عام (1934 م) التقى عبد الله العائد من إنجلترا بالصبيين في القدس. صحيح أن أياً منهما لم يكن صبياً في ذلك الوقت إذ كان طلال في الخامسة والعشرين ونايف في العشرين ـ غير أن الانطباع الذي تركاه في المقر البريطاني حيث كانا مقيمين كان شديد الاختلاف:

> ...كانا يحملان سيفين ومزودين بالمهاميز، مما جعل المرء يسمع قرقعاتهما آتية من الطرف الآخر للممر، مثل أشباح بانتش [مجلة بانتش الساخرة]، قبل دخولهما إلى الغرفة. سبق للأكبر أن كان في ساندهيرست.. وقد بدا ودوداً باعتدال، أما الأصغر فلم يكن قادراً إلا على الضحك المكبوت مختبئاً خلف يده. كانا يلعبان الغميضة مع والدهما في الممرات إلى منتصف الليل ـ أو لربما لعبة أخرى صوتها كذلك ـ وكانا يستيقظان في الرابعة والنصف فجراً ليستمعا إلى تلاوة القرآن من قبل (البابا).[35]

أما نساء العائلة فقد عشن حياة بعيدة إلى حد كبير عن أعين العامة. فلدى وصولهن إلى عمان أخذن قصر عبد الله المشاد حديثاً المعروف باسم قصر رغدان، الذي كان مقسماً إلى جناحين لكل من الزوجين وأولادهما. كانت النوافذ محمية بستائر خشبية محكمة الإغلاق عادة جرياً على

العادات الحجازية وانسجاماً مع أفكار عبد الله بشأن احتشام النساء.[36] وفي حال توفير أي قدر من التعليم لبناته، فقد تم ذلك عن طريق معلمين في البيت. وللتسلية كن يخرجن في عربات مغلقة بستائر سميكة، ويشاهدن أفلاماً من مقصورة معزولة في سينما سلاح الجو الملكي. ولم يتم مد خط هاتفي إلى مسكن زوجي عبد الله إلا نتيجة ضغط زوج المقيم البريطاني (الليدي) كوكس. أما عروس طلال الجديدة زين التي كانت قد نشأت في مصر دون حجاب، فقد تم إجبارها على ارتداء الحجاب من قبل حميها المحافظ. وعلى الرغم من أن حياتهن العامة كانت مقيدة، فإن نساء العائلة كن يقمن بإدارة الممتلكات وممارسة النفوذ من وراء الكواليس.[37]

شكل وصول عائلة عبد الله رمزاً لعملية استقرار عمان وشرق الأردن وترسخهما التي كانت بادئة لتوها. فقبل عام (1925 م) لم يكن قد تم فعل شيء ذي شأن، من أجل إضفاء معنى على المصافحة التي كان تشرتشل وعبد الله قد خلقا شرق الأردن من خلالها. أما بعد ذلك العام فقد بدأت عمليات تشكيل المؤسسات السياسية، ورسم الحدود والهجرة التدريجية القادمة للجاليات المختلفة، تملأ ببطء إطار البنية السياسية والاجتماعية لشرق الأردن. ثمة تخمينات غير رسمية قالت (ربما بالغت) إن عدد سكان عمان بلغ عشرين ألف نسمة بعد تدفق السوريين عليها في عام (1925 - 1926 م).[38] وعلى الرغم من أن السكان الدائمين كانوا أقل بالتأكيد فإن المدينة شهدت طفرة عمرانية. وكان عبد الله قد بدأ ببناء قصر له في عام (1923 م) كما أن الشوارع الرئيسية أعيد تخطيطها وتوسيعها في عام (1925 م)، فضلاً عن أن دكاكين ومنازل جديدة بدأت تصطف على امتداد الشوارع الجديدة. وخلال العامين التاليين تم بناء مكاتب لعبد الله ومقر إقامة بريطاني. ظلت الاتصالات بدائية؛ كان نظام البرق بحاجة إلى إعادة بناء؛ كانت رحلة نصف شهرية بالسيارات تربط عمان ببغداد؛ وكانت أجزاء من الخط الحديدي الحجازي تصل عمان بكل من معان وحيفا ودمشق. وقامت عمان بنشر دليل هاتفها

الأول في عام (1926 م)، كما جرت إعادة تنظيم الخدمات البريدية، فضلاً عن أن اثنتين من الصحف ظهرتا في عام (1927 م).[39] أدى زلزال عام (1927 م) إلى تدمير أو تخريب بعض مباني عمان التي تمت إعادة بنائها بمساعدة أعضاء المنظمات الكيبوتزية من فلسطين، وبالأسمنت.[40]

كان قصر رغدان متواضعاً ولكنه بدا جليلاً ببساطته الحجرية الرملية. كانت الطبقة الأولى العائدة لعبد الله تشتمل على مكتبه، قاعة استقبال صغيرة، وغرفة طعام وسمية ذات شرفة لنافخي أبواق القرب المكلفين بإمتاع الضيوف وهم يتناولون الطعام. وفي واجهة الطبقة الثانية كانت قاعة عرش كبيرة مخصصة للمراسم. وكان عبد الله يعقد فيها جلسات السلامليك (الرجالية) الأسبوعية في ساعات الصباح أيام الجمعة. كانت صالة المدخل المفضية إلى الغرف الرسمية محاطة بمرايا تشويه تعكس صور المفوضين السامين وغيرهم من كبار الضيوف، وقد باتوا مفرطين في الطول والنحول أو في القصر والبدانة بما يدغدغ خياله بمقدار ما يزعج ضيوفه.[41] وكانت ثمة خيمة مضروبة في باحة القصر حيث كان يستطيع أن يسترخي.

غير أن عبد الله ظل متمسكاً بنمط حياة التنقل والترحال. وقد فعل ذلك لأسباب سياسية من ناحية، مخيماً عدداً من الأسابيع دفعة واحدة في أماكن مختلفة من شرق الأردن، لترسيخ العلاقات مع القبائل والقرى، ولمتعته الخاصة من ناحية ثانية. وقد كان على الدوام يقضي أشهر الشتاء في وادي الأردن، رافضاً، على امتداد عدد من السنوات، بناء منزل هناك كي لا تتمكن زوجاه من الالتحاق به.[42]

ساهم وجود جاليات من السوريين والحجازيين والفلسطينيين في تمكين عبد الله من امتلاك قدر من تنوع القوى، ساعد على صعوده المحلي، وإن لم يسمح له بتحدي بريطانيا بصورة فعالة. استطاع أن يبقي مسافة معينة بينه

وبين أهالي شرق الأردن، مبعداً إياهم عن مؤسسات السلطة الرسمية، كما لو كان يخشى من أن يؤدي نفوذهم القائم على المجتمع المحلي إلى نسف نفوذه هو في سياق الأمور حسب المخطط البريطاني. وعلى الرغم من أنه اعتمد على الأعيان المحليين في الشؤون اليومية للإدارة غير الرسمية، فإنه قاوم، باستثناءات قليلة تكريس أوضاعهم وتمكينهم من الاتصال المباشر مع بريطانيا ـ لم يصل هؤلاء في أحسن الأحوال إلا إلى عضوية المجالس الإدارية في الأقاليم. كذلك أرجأ عملية اعتماد أي دستور أو مجلس تشريعي منتخب قدر الإمكان، خشية أن تفضي إشاعة الديمقراطية إلى اختزال سلطته المحدودة أساساً. وما لبث المجلس التشريعي الذي تم إيجاده في عام (1928 م) أن أثبت أنه كان مدخلاً يمكن أبناء شرق الأردن الأصليين من الوصول إلى المجلس التنفيذي.

شكل اعتماد الحكم الدستوري الشرط المنصوص عليه في تأكيد عام (1923 م) لتوقيع اتفاقية رسمية مع بريطانيا. ومع استكمال المعاهدة الإنجليزية ـ العراقية في عام (1927 م) بات عبد الله شديد الحرص على مواكبة أخيه فيصل، عن طريق استكمال اتفاقيته الخاصة مع بريطانيا.[43] ذلك هو السياق الذي دفعه أخيراً إلى أن يعلن دستوراً. وفي هذه الأثناء تمخضت الاتفاقية الإنجليزية ـ الأردنية عن إضفاء الصفة الرسمية على تحكم بريطانيا بشؤون شرق الأردن وفقاً لما جاء في الإنذار، وجرى توسيعه منذ ذلك التاريخ. غير أن الدستور الذي أدى إلى خلق مجلس تشريعي أفضى، بصورة غير متوقعة، إلى قدر معين من الخلخلة في الحبال المشدودة الرابطة لعبد الله ببريطانيا.

ظلت اتفاقية مع بريطانيا وجملة وثائق الحكم الدستوري قيد الإعداد طوال سنتين اثنتين، من عام (1926 إلى 1928 م). وفي تلك الأثناء كانت أشكال الدقة في التمييز مثل تغيير تسمية شرق الأردن من منطقة إلى إمارة، والفصل بين المهام الفلسطينية ونظيرتها الشرق أردنية للمفوض السامي، بما

قد يقضي على تسميته المفوض السامي لشرق الأردن ببساطة، تستهدف إغناء معنى وجود شرق الأردن.

أما النتيجة التي باتت واضحة بعد الانتهاء من الأعمال الورقية الخاصة بشرق الأردن في عام (1928 م) فقد كانت مخيبة لآمال معظم أولئك الذين سبق أن جرى إيهامهم بأن من شأن أية اتفاقية مع بريطانيا أن تعني الاستقلال. غير أن الاتفاقية قامت، بدلاً من ذلك، بتفصيل حقوق بريطانيا وواجباتها في شرق الأردن.(44) وكانت هذه الحقوق واسعة الآن ذات علاقة بالشؤون الخارجية والقوات المسلحة والاتصالات ومالية الدولة، بينما لم يرد أي ذكر صريح لاستقلال شرق الأردن في نص الاتفاقية، فضلاً عن أن بريطانيا ظلت ممسكة بدفة سائر الفعاليات الحكومية الحاسمة. وكما حدث من قبل بقي شرق الأردن مسؤولاً عن تغطية نفقات المقيم البريطاني وجهازه، بوصفها البند الأول من بنود ميزانيته. أما ما حصل عليه شرق الأردن مقابل ذلك فقد كان متمثلاً باستمرار الدعم المالي السنوي من جانب بريطانيا.

كان الدستور هو الآخر وثيقة مقيدة،(45) وكان عنصر التجديد الرئيسي فيه هو إيجاد مجلس تشريعي يتألف من واحد وعشرين عضواً، منهم أربعة عشر عضواً ينتخبوا وممثلان قبليان يعيّنان، بالإضافة إلى رئيس الوزراء وأربعة آخرون من أعضاء المجلس التنفيذي المعينين. وكانت مهام هذا المجلس استشارية في المقام الأول. ولم يكن اعتماد أي تشريع ممكناً إلا إذا اقترحه رئيس الوزراء أو أحد رؤساء الإدارة حيث يجب أن يحصل بعد ذلك على موافقة الأكثرية المطلقة، مع بقائه على الدوام ملزماً بأن يكون «منسجماً مع تعهدات سمو الأمير». أما رئيس الوزراء، وهو الذي كان يضطلع بمهام رئيس المجلس التشريعي فلم يكن يدلي بصوته عادة في المجلس إلا لكسر الجمود وتغليب كفة الحكومة. ظل رئيس الوزراء مسؤولاً، شكلياً، أمام عبد الله، غير أن بريطانيا كانت هي التي تقرر مسألة تغييره واستبداله بين الحين والآخر.

انطوى التناسب بين المعينين والمنتخبين من الأعضاء وأسلوب الانتخاب على إمكانية تشكيل المجلس التشريعي، بطريقة لا تسبب إزعاجاً ذا شأن لأي من عبد الله أو البريطانيين. فالأعضاء المنتخبون الأربعة عشر جاؤوا من ثلاث دوائر انتخابية هي: عجلون (ثلاثة مسلمين ومسيحي واحد)، البلقاء (ثلاثة مسلمين عرب، شركسيان ومسيحيان)، والكرك (ثلاثة مسلمين ومسيحي واحد). وقد بولغ في تمثيل الأقليات. وجرى انتخاب الأعضاء باقتراع الذكور ممن هم في الثامنة عشرة وأكثر، في عملية انتخابية على مرحلتين. ففي المرحلة الأولى كان يجري اختيار منتخب ثانوي واحد لكل مائتين من المنتحبين الأوائل. والمنتخبون الثانويون (كنقباء) هم الذين كانوا يختارون أعضاء المجلس التشريعي في النهاية كانوا يتعرضون لمختلف أساليب الإقناع، لأنهم باتوا معروفين وقليلي العدد. أما الممثلان القبليان فقد كان يجري تعيينهما من منطقتي الشمال والجنوب القبليتين. كانت المنطقة الشمالية تضم قبائل بني صخر، السرحان، بني خالد، العيسى، مع ما يخضع لحمايتها من عشائر وأفخاذ وبطون. أما المنطقة الجنوبية فكانت تضم قبائل الحويطات والمناع والحجايا مع القبائل والعشائر الخاضعة لحمايتها. قام عبد الله بتعيين لجنة من عشرة أشخاص لكل منطقة، وبعد ذلك قامت اللجنة باختيار ممثل المنطقة. وبالتالي فإن أولئك الذين كانوا يعرفون باسم البدو كانوا محرومين من حق الانتخاب.[46]

وما إن تفجرت موجة مظاهرات احتجاجاً على الاتفاقية الإنجليزية الشرق أردنية،[47] حتى بادر قادة محليون طامحون لأن يتم انتخابهم لعضوية المجلس التشريعي إلى استغلال هذا الاستعراض غير الاعتيادي للإدارة الشعبية في سبيل توسيع صلاحيات السلطة التشريعية، وهددوا بمقاطعة الانتخابات ما لم يتم جعل المجلس التنفيذي مسؤولاً أمام المجلس التشريعي. غير أن المقاطعة لم تتم متابعتها بصدق وإخلاص، لأن هؤلاء القادة لم يكونوا مستعدين للتخلي عن فرصة المشاركة في السياسة الرسمية

للإدارة المركزية.[48] وبالفعل فقد تم انتخاب أعضاء في المعارضة السابقة لعضوية المجلس التشريعي دون أن يفوزوا بما طالبوا به، وما لبثوا أن أقدموا على تصديق الاتفاقية.

ومهما يكن فإن المجلس التشريعي زود عبد الله فعلاً ببعض النفوذ مع بريطانيا. رفض المجلس، مثلاً تمرير موازنة عام (1931 م) بتشجيع منه هو على ما يبدو. وعندئذ طلب منه المقيم البريطاني أن يحل المجلس التشريعي ويغير مجلسه التنفيذي أيضاً. صحيح أنه نفذ الأمر ولكنه شارك بنشاط في انتخاب مجلس تشريعي جديد، ساعياً إلى إنجاح رجال قادرين على «التأثير في الأعضاء الآخرين ودفعهم لمقاومة أي تدبير يتنافى مع إرادة سلطة الانتداب، ولا تستطيع حكومته أن تعارضه علناً».[49] وعلى الرغم من أن الموازنة أبرمت أخيراً، فإن كوكس وصف بالشكل التالي ما كان يعتقد أن هدف عبد الله:

> تقول وجهة نظره:... لا بد من إقناع سلطات الانتداب بأنه هو وحده من يستطيع تسيير الأمور دون مصاعب وبأن علينا أن نهرع إليه هو عندما يتعين القيام بأي شيء، أو لدى الاضطرار إلى تصويب هذا الخطأ أو ذاك. وبالتالي فهو يريد... أن يمتلك فريقاً... يبادر، بأوامر منه، إلى خلق الصعوبات كما يقوم، بأوامر منه أيضاً، بإزالة تلك الصعوبات عن الطريق مرة أخرى.[50]

من جانبه كان عبد الله راغباً في الخلاص من كوكس المتسلط. ففي تلك الفترة تقريباً ألمح أمام موظفين في الوكالة اليهودية إلى أن من شأن نفوذ الوكالة في لندن أن يساعده في هذا الاتجاه.[51]

فيما كان عبد الله يناور طبقة زعامة ناشئة في شرق الأردن ناشئة بألاعيبه السياسية، كانت بريطانيا قد عكفت على إطلاق برامج هدفها وضع أسس ملكية الأرض والبنية الضريبية في البلاد.[52] وما لبثت هذه البرامج أن أفضت إلى تضييق الصلاحيات المزاجية التي كان عبد الله قد درج على التمتع بها أوائل العشرينيات على صعيد التصرف بأراضي الدولة،

وتقدير الضرائب بطرق تحقق الفوائد السياسية له هو. ولتحقيق الغرض المطلوب تم إيجاد دائرة للأراضي والمساحة، وأُخضعت لمدير بريطاني. وبين عامي (1928 و1933 م) جرت إعادة تقويم رسوم الأرض وجعلها متماثلة وعادلة في سائر أرجاء البلاد. وفي عام (1933 م) انطلق المشروع الكبير المتمثل بتحديد الحيازات الفردية وتقسيم الأراضي المشاع، استناداً إلى الوثائق المكتوبة العثمانية وغير العثمانية، الشهادات الشفوية، والتحكيم. كانت منطقة عجلون الأكثر سكاناً واستيطاناً هي الوحيدة التي تم درسها قبل الحرب العالمية الثانية[53] وقد جرى تقيسم بعض الأراضي القبلية إلى حيازات فردية، إذ تم مثلاً توزيع خمسة آلاف سند ملكية على أفراد قبيلة بني حسن في منطقة عجلون. وثمة قبائل أخرى حصلت على بعض الأراضي الزراعية كحيازات فردية وعلى بعض المراعي كملكية مشاعية. على العموم كانت بريطانيا ترمي إلى عدم التشجيع على نشوء ملكيات كبيرة كما سبق أن حصل في العراق وإلى خلق طبقة مستقرة من الفلاحين أصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة والمتوسطة.[54] غير أن عدداً من كبار الملاكين، وخصوصاً شيوخ القبائل مثل مثقال بن فايز من قبيلة بني صخر، وسلطان العدوان من العدوان، ورفيفان المجالي الذ كان أحد أعيان الكرك، وعبد الله نفسه، ممن حصلوا على هبات من أراضي الدولة باقتراح من بريطانيا في عام (1931 م) ظهروا إلى الوجود.

أدى تنظيم ضريبة الأرض واستحداث أسلوب موثوق في تسجيل الأراضي إلى تقليص قدرة عبد الله على استخدام مثل هذه الموارد لتوسيع شبكات وصايته وتعزيزها. وبدءاً بعام (1930 م) مع وصول جون باغوت غلوب، جرى إبعاد بعض القبائل التي كانت تحت وصايته عن متناول يده أيضاً. على امتداد عقد العشرينيات كان الشريف شاكر قد ظل وسيط عبد الله العشائري الرئيسي، إذ كان رئيس قسم الإدارة القبلية الذي ألغاه إنذار عام (1924 م) لأن صلاحياته كانت قد تسللت إلى المناطق المستقرة،[55]

ورئيس مجلس الإشراف على البدو فيما بعد. فمثل هذه الهيئات كان يتم إيجادها لإدارة شؤون (البدو من الرحل والمستقرين) الخاضعين لـ (قانون العشائر) بدلاً من الشريعة والمحاكم المدنية في البلدات. (أما من كان يعتبر بدوياً ولماذا؟ فليس واضحاً. ومع وصول غلوب ربما كانت صلاحيات مجلس الإشراف على البدو تغطي تلك القبائل المشمولة بالمنطقتين القبليتين الشمالية والجنوبية لأغراض التمثيل في المجلس التشريعي).

نُقل غلوب إلى شرق الأردن لاستئصال ظاهرة الغزو بعد إنجازه مهمة مماثلة في العراق. وكان استئصال ظاهرة الغزو مثله مثل عملية الإستيطان للأرض يستهدف اختزال الاحتكاك وأسباب الاستياء بين سكان شرق الأردن. وبعد بداية متواضعة تتألف من بضعة متطوعين جاؤوا معه من العراق، قام [غلوب] بتشكيل وحدة حرس بادية، مؤلفة من حوالي مائة وخمسين رجلاً. ومع حلول عام (1932 م) تمكنت وحدة حرس البادية هذه، بالإفادة من العربات المدرعة والأسلحة الحديثة والاتصالات اللاسلكية، من وضع حد لظاهرة الغزو والإغارة.

وما لبث غلوب بوصفه قائداً لحرس البادية، ونائباً لقائد الفيلق العربي، أن أصبح الوسيط الرئيسي بين "البدو" والحكومة، حالاً محل الشريف شاكر الذي توفي في عام (1934 م). صار غلوب الحكَم الأول في قانون العشائر؛[56] بات ينظم عمليات الإغاثة في مواسم الجفاف من عمان، كما أصبح خلال أوقات الاضطرابات يحصل على مبالغ خاصة، ينفقها في سبيل تأمين الهدوء في المناطق المأهولة بالقبائل.[57] وعلى الرغم من أن وحدة حرس البادية لم تكن تشكل سوى (12٪) من مؤسسة الفيلق العربي في البداية، فإن نسبة العنصر "البدوي" ما لبثت، مع توسيع الفيلق العربي رداً على الثورة الفلسطينية في أعوام (1936 - 1939 م) والحرب العالمية الثانية، أن تضاعفت حتى تجاوزت النصف، مما أدى إلى إضفاء الطابع البدوي على الفيلق العربي. تمكنت بريطانيا، بفضل وجود غلوب، من

الالتفاف على عبد الله في التعامل مع القبائل، ونجحت في خلق قوة متميزة، خلال فترة الانتداب وبعدها، بحصانتها ضد القومية العربية.

تزامن تشكيل قوة بادية غلوب مع عملية إضفاء الصفة الرسمية على حدود شرق الأردن وتحديدها. وتولت بريطانيا قيادة المفاوضات حول جميع القضايا الحدودية، وتم تحديد ما يعود لأي من الأطراف وفقاً للمصالح البريطانية في المقام الأول. وبما أن عمليات الغزو والإغارة كانت تعكر صفو علاقات بريطانيا مع جيران شرق الأردن، مع الفرنسيين في سورية وابن سعود، وتعرض مصالحها الإقليمية للخطر، فقد تمثل أحد أهداف الفيلق العربي بوقف عمليات الإغارة على كل من سورية والجزيرة العربية. أما الحدود مع فلسطين والعراق، وهما بلدان خاضعان لسيطرة بريطانية مماثلة، فلم تكن منطوية على مشكلات موازية، مع أن الفيلق العربي ساهم في قطع طريق الوصول إلى فلسطين عبر حدود الأخيرة مع شرق الأردن، مع تصاعد حدة معارضة السياسة البريطانية في فلسطين خلال عقد الثلاثينيات.

منذ ما قبل سقوط الحجاز، ظلت بريطانيا دائبة على السعي إلى تسوية مسألة الحدود بين شبه الجزيرة العربية وشرق الأردن. ففي مؤتمر الكويت المشؤوم الذي عقد شتاء عام (1923 - 1924 م) كانت بريطانيا قد تبنت خطة يتخلى عبد الله بموجبها عن الكاف عند الطرف العلوي من وادي سرحان لابن سعود، مقابل تخلي الأخير عن واحة الخرمة للحسين الذي كان سيكمل الدائرة بتخليه عن العقبة ومعان لعبد الله.[58] لم يوافق أي من الأطراف على الفكرة، بل وتعمد الحسين، خصوصاً، إحباط خطة بريطانيا القاضية بضم العقبة ومعان إلى شرق الأردن، حين أكد سيطرته الإدارية على المنطقة خلال زيارته لشرق الأردن في عام (1924 م).[59] ولكن التصرف بكل من معان والعقبة ما لبث، فجأة أن أصبح أمراً ذا أهمية بالنسبة لعبد الله أيضاً، بعد وقت قصير، حين بات الغزو السعودي للحجاز وشيكاً.

عبرت بريطانيا في البداية عن استعدادها لحماية إقليم العقبة ـ معان لإغراء عبد الله بضمان إلحاقه بشرق الأردن. وانطلاقاً من إدراكه لدافع بريطانيا وافق عبد الله على الفكرة شرط اضطلاع بريطانيا بدور الوساطة في الحرب الحجازية ـ السعودية.(60) ولكن بريطانيا رفضت الشرط، وتخلى الحسين عن العرش، وهرب إلى العقبة التي جعلها وجوده فيها هدفاً لابن سعود، مما جعل بريطانيا أكثر حرصاً من أي وقت مضى على ضمان ضمها إلى شرق الأردن. وحين شكا ابن سعود من أن الحسين كان يساعد الجيش الحجازي من هناك، وهدد بتوجيه قواته إلى الشمال، سارعت بريطانيا، أخيراً إلى ترحيل الحسين.(61) وبعد الرحيل، تقدم عبد الله إلى معان لإعلان الترتيبات الإدارية الجديدة للإقليم. أما علي فقد أذعن لعملية الإطاحة التي لم يكن قادراً على منعها، قائلاً بأنه كان غارقاً في بحر هموم الأراضي التي كان أعداؤه يضمونها، وغير قادر على الاهتمام بتلك التي كان أصدقاؤه يستولون عليها.(62)

حتى قبل استكمال عملية إخضاع الحجاز، كان السيرغلبرت كلايتون قد أوفد للتفاوض حول الحدود بين نجد من جهة، ودولتي العراق وشرق الأردن الخاضعتين للانتداب من جهة ثانية.(63) وقد تم توقيع التسوية بين شرق الأردن ونجد المعروفة باسم اتفاقية جدة في الثاني من تشرين الثاني لعام (1925 م) حيث تم رسم خط حدودي قريب جداً من الحدود الحالية الفاصلة بين العربية السعودية والأردن، تحلى ابن سعود. بموجبها عن المطالبة بأي اتصال بري مع سورية، غير أنه حصل على حقوق العبور الحر إلى سورية عبر الممر العراقي ـ الشرق أردني الذي طالبت به بريطانيا لأغراض إستراتيجية. وبموجب الاتفاقية جرى ضم وادي سرحان كله، بما فيه الكاف على الطرف الشمالي، إلى أراضي ابن سعود، أما العقبة ومعان فلم تكونا مدرجتين على جدول أعمال مفاوضات جدة، غير أن الموضوع تمت إثارته في عام (1927 م) حين سعت بريطانيا نفسها إلى التوصل إلى معاهدة مع

ابن سعود. كانت وزارة المستعمرات مصممة على ضم المنطقة إلى شرق الأردن، لا لكونها منفذ شرق الأردن الوحيد على البحر بل لأن بريطانيا كانت تخشى من أن يؤدي وجود حدود مشتركة بين الحجاز وفلسطين وسيناء إلى إضعاف السيطرة البريطانية على كل من فلسطين ومصر.[64] صحيح أن ابن سعود وافق آنذاك على بقاء المنطقة بصورة مؤقتة تحت إدارة شرق الأردن، ولكنه رفض التخلي عن مطالبه كلياً.

أما الحدود السورية فكانت قد أصبحت مصدر قلق خلال الثورة السورية. وقبل ذلك كان ثمة نوع من الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا حول تقسيم الأراضي وفقاً لبنود اتفاقية سايكس ـ بيكو؛ غير أن عملية انتقال اللاجئين الدروز عبر الحدود، في أثناء الثورة، ورغبة الفرنسيين في إعادة إخضاعهم لسلطتهم، شجعتا الفرنسيين على اعتبار أي مكان في شرق الأردن مأهول بالسكان من الدروز جزءاً من سورية. ففي عام (1927 م) كان التفسير الفرنسي للحدود مختلفاً عن نظيره البريطاني اختلافاً يصل إلى اثني عشر ميلاً في بعض النقاط. ثمة بطاقات هوية صادرة عن دولة جبل الدروز السورية أوردت بعض أماكن الإقامة مثل الأزرق، جبل الدروز معتبرة واحة الأزرق الواقعة في عمق الأراضي الشرق أردنية تابعة لدولة جبل الدروز السورية.[65] وفي عام (1931 م) جرى تخطيط الحدود على الأرض. صحيح أن بريطانيا قدمت بعض التنازلات للفرنسيين، غير أنها ضمنت ما كانت تحتاج إليه في شرق الأردن، من أجل مد خط حديدي بين بغداد وحيفا في المستقبل (لم يتحقق قط) وخط أنابيب شركة نفط العراق.[66]

لم تكن الحدود، ولا سيما مع الجزيرة العربية، تروق عبد الله كثيراً، غير أن الأخير كان، برأي كلايتون، يعرف حدوده: «إنه يرى بوضوح... أنه لا يستطيع أن يحتل أرضاً ليست حكومة جلالة الملك مستعدة للدفاع عنها لصالحه...».[67] حقاً كان عبد الله يدرك فعلاً حدود ـ ليس فقط ـ اعتماده

على بريطانيا، بل وبنية شرق الأردن التي جعلت هذا الاعتماد أكثر اتصافاً بصفة الإطلاق. وقد شكل هذا الفهم الأساسي سبب بقائه طوال سني حياته طامحاً إلى توسيع دائرة حكمه وصولاً إلى تعديل بنية اعتماده بما يخدم مصالحه. فخلافاً لحال الواقع اليومي لشرق الأردن لم تكن لأحلام التوسع عنده أية حدود.

كان حلم عبد الله الخاص متمثلاً بعرش سوري، وقد ظل هذا الطموح أحد ثوابت حياته التي عاد إليها دائماً، بصرف النظر عن الواقع السياسي. إلا أن الثورة السورية كانت قد أبعدت السياسة السورية إلى درجة جعلت حلمه أبعد منالاً بصورة متزايدة باطّراد. فبعد الثورة أدت مسألة الملكية إلى شق صفوف القوميين، حتى باتت مصدر إزعاج لا بد من تجنبها قدر الإمكان. وفي ظل هذه الظروف كان الفرنسيون، لا القوميون، هم الذين لاذوا، في الأوقات العصيبة وفي أثناء الانتخابات، بوضع العرش على الطريق القومي، أملاً في شق صفوف القوميين وإحباط الضغوط القومية.[68] وفيما تناقص عدد السوريين المتبنين لأي نظام ملكي أكثر فأكثر بعد الثورة، ظل البعض يمارسون المناورات السياسية مع مختلف الملوك والمطالبين بالعرش الافتراضي. صحيح أن قائمة المرشحين صارت مع مرور الأعوام أطول، غير أن حدية المسألة تناقصت.[69] وصحيح أن طموحات عبد الله ظلت حية، إلا أن إمكانية تحقيقها صارت سراباً ووهماً أكثر فأكثر.

أصبحت الحجاز هدفاً آخر لطموحات عبد الله بعد غزو ابن سعود لها. ففي عام (1932 م) تم توريطه في انتفاضة قبلية غير ناجحة هناك، وكاد يدفع عرشه ثمناً لهذا التورط، لأن المغامرة شكلت انتهاكاً للاتفاقيات الإنجليزية ـ الشرق الأردنية الموقعة في عام (1928 م)، غير أن بريطانيا قررت ألا تنزل به ما استحقه من عقاب. وفي غضون شهرين تحدثت الشائعات عن وجود علاقة له بحركة أخرى معادية للسعودية في عسير هذه المرة. لم تدم حركة التمرد هذه طويلاً، كما أن تواطؤه لم يثبت بالدليل القاطع.[70]

وعلى الأثر أجبرته بريطانيا أخيراً على توقيع معاهدة صداقة مع ابن سعود ساهمت في اختزال نزعة المغامرة في المستقبل. كانت المفاوضات استثنائية إذ خضعت لسيطرة العقيد كوكس على الجانب الشرق أردني والوزير البريطاني في جدة السير أندرو ريان. فابن سعود كان لا يعتبر علاقاته مع شرق الأردن إلا «علاقات.. في حقيقة الأمر، بيننا وبين البريطانيين» وانسجاماً مع منطقه إلى النهاية، أصر على أن تقوم بريطانيا بضمان التزام عبد الله بالمعاهدة.[71]

انفتح أمام عبد الله في عقد الثلاثينيات بابان جديدان يمكنه ولوجهما؛ هما باب العراق بسبب موت فيصل، وباب فلسطين بسبب مشكلات بريطانيا المتنامية هناك.[72] كان عبد الله يرى أن فيصل وبريطانيا قاما دون وجه حق بحرمانه من العراق في عام (1921 م). وكان شديد الغيرة من فيصل، ولم ير الأخوان أحدهما الآخر إلا نادراً طوال الفترة الممتدة بين عام (1921 م) وعام وفاة فيصل. وفيما بعد حاول، دون نجاح، أن يفرض نفسه وصياً على الملك غازي. وبعد وفاة علي في عام (1935 م) بدأ يطرح فكرة وحدة الهلال الخصيب تحت حكمه بحجة أنه الأكبر سناً. أما على الصعيد الجغرافي فإن فلسطين هي التي شكلت موضوع طموحاته الأكثر طبيعية. وما لبث عجز بريطانيا عن التعامل مع القيادة الفلسطينية بعد عام (1936 م) أن أتاح فرصة لعبد الله الذي كان من شأنه، بفضل اعتماده على بريطانيا، أن يكون وسيطاً أكثر طواعية بين المصالح البريطانية والتطلعات الفلسطينية.

كان شرق الأردن بعد عام (1924 م) أشبه ببقع صحراوية بعد عاصفة رملية. كانت رياح القومية العربية قد أثارت مؤقتاً شياطين غبار التغيير السياسي ثم رحلت. بدت المشاهد التي خلفتها العاصفة مألوفة، ولكنها مختلفة. لم يعد عبد الله دلك القومي العربي الذي كانه قبل عام (1921 م) فيما لم تعد بريطانيا شريكة بل صارت رئيسة وآمرة.

ودونما تخطيط كانت الأحداث الخارجية قد تآمرت مع نظيرتها الداخلية لتثبيت الصورة وترسيخها. لم يكد معنى إنذار (1924 م) - التعبير الصريح عن نفوذ بريطانيا في مثل هذا التعامل - يتم استيعابه حتى تداعت الحجاز، وسقطت لأسباب منها عدم وجود معاهدة مع بريطانيا. كما أن عزوف عبد الله عن المشاركة في الثورة السورية زاد من إبعاده عن السياسة القومية التي كانت في تلك الفترة أساس القوة المتصدية للسيطرة البريطانية. وفيما أدت هذه الأحداث إلى زيادة ارتماء عبد الله في أحضان بريطانيا، فإنها ذكرته في الوقت نفسه بأن هذه الأحضان لم تكن مريحة ومرحبة إلى الأبد. صحيح أن التحالف مع بريطانيا كان ضرورياً، ولكنه مشروط، وبريطانيا نفسها هي التي وضعت الشروط في عام (1928 م). فالاتفاقية الإنجليزية - الشرق الأردنية التي تفوح رائحة اللامساواة من كل فقرة من فقراتها، كانت الثمن الذي دفعه للحصول على منصبه، وهو ثمن كان مستعداً لأن يدفعه. وقد عبر عن ذلك تعبيراً ينبض بالحياة حين قام، لدى استلامه لنسخة مصدقة من الاتفاقية، بالانقضاض على الوثيقة وتقبيل توقيع جورج الخامس بحماس.[73]

غير أن هذا التصرف كان مخادعاً بمعنى من المعاني. صحيح أن عبد الله كان بحاجة إلى اتفاقية مع بريطانيا وأحس بالسعادة لحصوله عليها، غير أنه لم يكن راضياً بالضرورة عن الظروف التي وجد نفسه فيها. وبالفعل فإن السبب الرئيسي الكامن وراء إصراره الشديد والمستمر على التورط في سلسلة طويلة من المغامرات وراء حدوده، لم يكن إلا رغبته في الخلاص من جمود وضعه الداخلي المطبوع بشكل فاضح بعلاقته القائمة على التبعية مع بريطانيا.

7) عبد الله وفلسطين (1921 - 1939 م)

ما كانت فلسطين قط الهدف الوحيد أو حتى الرئيسي لطموحات عبد الله، حتى عام (1948 م) على الأقل. غير أن المستقبل غير المحسوم لذلك البلد، وخضوعه المشترك للانتداب البريطاني ما لبثا أن أديا، تدريجياً إلى إقحامه في شؤونه.

أملت الجغرافيا والاستراتيجية البريطانية السياسية والعسكرية علاقة وثيقة بين شرق الأردن وفلسطين. صحيح أن حكومتيهما الخاصتين كانتا مختلفتين، غير أنهما كانتا خاضعتين للانتداب نفسه، بما أفضى إلى نوع من التداخل الإداري، وبروز عدد معين من الهموم المشتركة. فالمندوب السامي في فلسطين كان هو نفسه المندوب السامي في شرق الأردن. وفي فلسطين كان هو نفسه رئيس الحكومة في نظام غير قائم على أية هيئات "وطنية" وسيطة، بالنسبة للعرب على الأقل. أما في شرق الأردن فقد كان يجسد سلطة الانتداب في حين كان عبد الله الرئيس الرمزي للحكومة.

كانت الحدود الطويلة بين شرق الأردن وفلسطين سهلة العبور جداً. لم يكن الانتقال من الأول إلى الثانية أو العكس يتطلب، عموماً، أية أوراق أو جوازات سفر. وقد تم تشجيع الصلات التجارية منذ عام (1920 م) بين الطرفين اللذين باتا يتقاسمان الليرة الفلسطينية نفسها بعد اعتمادها في عام (1927 م). شكل شرق الأردن خزاناً احتياطياً للعمالة الموسمية غير الموصوفة بالنسبة لفلسطين، التي كانت تزوده بالمؤهلين والمتعلمين لشغل وظائف جهازه البيروقراطي الجديد. وبالتالي فإن أصداء المشكلات الاقتصادية في

أحد الطرفين كانت تتردد في الطرف الآخر؛ كما أن أصداء المشكلات السياسية كانت هي الأخرى تتردد عبر وادي الأردن.

في البداية ظلت تصريحات عبد الله العلنية وتحركاته العملية ذات العلاقة بفلسطين محكومة بحاجته إلى التعايش مع بريطانيا. فحين اجتمع بتشرتشل في مؤتمر القاهرة عام (1921 م) حرص على تجنب انتقاد سياسة الوطن القومي اليهودي البريطانية.[1] وقد اتُهم في فلسطين بأنه «باع نفسه للصهاينة»[2] غير أن بريطانيا كانت مستعدة لتعويضه عما لحق به من ضرر. وكما علق أحد الضباط البريطانيين في ذلك الوقت: «ما من شيء كان بالغ السوء لعبد الله إلى أن جاء إلى القدس وعبر عن تأييده للصهيونية، إن ولم يكن صادقاً بالطبع. بعد ذلك لم يعد طموحه يقف عند حد»[3] فبعد عام واحد أقدم هو وراغب النشاشيبي، رئيس بلدية القدس وحليف في المستقبل، على كسر المقاطعة العربية لحفل تنصيب صموئيل، وكانا العربيين الوحيدين من ذوي المناصب اللذين حضرا ذلك الحفل.[4] وتعبيراً عن تقدير إدارة الانتداب لهذا التصرف ألحت على وزارة المستعمرات طالبة منها التساهل مع مطالب عبد الله المالية.[5] وهكذا تم اعتماد نظام قائم على تقديم المكافآت المادية الفورية لضمان تعاونه على صعيد الشؤون الفلسطينية، ظل نافذاً طوال سني حياته.

كانت الحركة الصهيونية هي الأخرى مهتمة بعبد الله. لم يكن سبب الاهتمام كامناً في الإحساس بأنه صاحب نفوذ في فلسطين بالذات؛ بل في العقيدة الصهيونية القائلة بأن شرق الأردن جزء من فلسطين، وينبغي، بالتالي، أن يصبح جزءاً من الوطن القومي اليهودي.

فقبيل مؤتمر القاهرة كان وايزمن قد أوضح الموقف الصهيوني من شرق الأردن. وكان مستنداً، مثله مثل المطالبة بفلسطين ذاتها، إلى حجج اقتصادية واستراتيجية تمَّ إلباسها ثوباً كتابياً [دينياً]:

... لا يمكن حل مسألة الدفاع عن وادي الأردن كله حلاً مرضياً إلا عن طريق توطين كتلة سكانية مسالمة على الهضبة الشرق أردنية... فحقول جلعاد [منطقة عجلون] ومؤاب [منطقتا البلقاء والكرك] وأدوم [منطقة الطفيلة وحوبها] مع نهري أرنون [وادي مجيب] ويبوق [الزرقاء]، ناهيك عن اليرموك... مرتبطة تاريخياً وجغرافياً واقتصادياً بفلسطين، و... على توافر هذه الحقول، وتلك السهول الخصبة الواقعة إلى الشمال [جنوب لبنان] التي تم فصلها عن فلسطين وإعطاؤها لفرنسا، يتوقف نجاح الوطن القومي اليهودي إلى حد كبير. لقد ظل شرق الأردن منذ أقدم الأزمان يشكل جزءاً عضوياً وحيوياً من فلسطين. فهناك نصبت قبائل رؤوبين وجاد ومنسي الكتابية خيمها ورعت قطعانها أولاً.[6]

عندما قررت بريطانيا إقامة إدارة منفصلة في شرق الأردن، ثار غضب الصهاينة. فالعقيد ماينرتزهاغن، مثلاً، وصف نفسه قائلاً: «إن الزبد ليتطاير من فمه لشدة غيظه وسخطه».[7] وفقط تم التسليم بالفصل على أنه أمر تطلبته ظروف عابرة، غير أن (إعادة توحيد) ضفتي الأردن بقيت هدفاً صهيونياً ثابتاً.[8]

ومما قاله وايزمن عن خطته إن «الطريق إلى جسر اللنبي التي سنتبعها للعبور إلى شرق الأردن لن تكون مرصوفة بالجنود بل بالعمل اليهودي والمحراث اليهودي».[9] جرى تأمين الأطباء لعبد الله وأفراد أسرته من تل أبيب. وكان العقيد كيش، رئيس المنظمة الصهيونية في فلسطين في عقد العشرينيات يقوم بزيارات منتظمة [لعبد الله]. كما مد أعضاء الكيبوتزات يد المساعدة في إعادة بناء عمان والسلط بعد زلزال عام (1927 م) المدمر.[10] وفي أوائل عقد الثلاثينيات جرت مناقشة العديد من المشاريع المشتركة في مجالات مختلفة، مثل الكهرباء، والصرف الصحي، والطرق المرصوفة في عمان.[11] كان عبد الله مطلعاً على الحجج الاقتصادية الصهيونية المؤيدة للتعاون. فعلى الباخرة التي كانت قد أقلته من حيفا إلى

تريست في طريقه إلى إنجلترا عام (1922 م)، كان قد تقاسم الرحلة البحرية مع مهندس كيمياء من يهود روسيا مهتم باستخراج المواد الكيميائية من البحر الميت يدعى إي. إم. نوفوميسكي. وقد كان الأخير متبنياً للعقيدة الصهيونية الجامدة القائلة بأن شرق الأردن جزء من فلسطين، وخلال الرحلة أطنب في إطراء فوائد التعاون بين البلدين على مسامع عبد الله.[12] وبعد هذه الأحاديث تم في لندن لقاء مع حاييم وايزمن، عرض فيه عبد الله ضمان نشوء وطن قومي يهودي، شرط أن توظف المنظمة الصهيونية العالمية نفوذها لتمكينه من أن يصبح ملك فلسطين.[13] إلا أن عرضه قوبل بالرفض.

ما لبثت فكرة نوفوميسكي الداعية إلى التعاون الاقتصادي أن أثمرت فيما بعد، بالنسبة لبعض رجال الأعمال المبادرين اليهود. ففي عام (1927 م) أتيحت لشركة كهرباء فلسطين برئاسة بالنحّاس روتنبرغ فرصة شراء ستة آلاف دونم من الأراضي في شرق الأردن، عند موقع جسر المجامع لإقامة مشروع في نقطة التقاء نهري الزرقاء والأردن. وفي التدشين الرسمي لهذا المشروع قام عبد الله، احتفالياً، بتشغيل المولدات. غير أن بعض الزبائن الشرق أردنيين أصروا، رغم مباركته هو للمشروع، على مقاطعة الطاقة الكهربائية المولدة في مشروع تعود ملكيته لليهود عن طريق شراء مولدات خاصة. وفي عام (1929 م) نجحت شركة البوتاس الفلسطينية العائدة لنوفومسكي، بالتعاون مع شرق الأردن، في الحصول على امتياز استخراج مادة البوتاس من البحر الميت. وكانت مثل هذه المشروعات تخفي عادة آمالاً بأن من شأنها أن توفر إمكانية إدخال مستوطنين يهود إلى شرق الأردن. ما لبث روتنبرغ مثلاً أن اكتشف أن شركته لم تكن بحاجة إلى ستة آلاف دونم فحاول الترتيب لبيع الأرض إلى مستوطنين يهود شمال نهر الزرقاء، الجزء الأكثر خصوبة من البلاد.[14]

لم يكن الاهتمام الصهيوني بشرق الأردن (واطلاع عبد الله على هذا

الاهتمام)، رغم المزاعم الصهيونية، أكثر من إحدى التيارات الخفية بين تيارات الشؤون الشرق أوسطية على امتداد سنوات عقد العشرينيات. ولم يصبح تياراً معاكساً جارفاً حتى عقد الثلاثينيات عندما صار من الصعب مقاومته وبإمكانه أن يقذف عبد الله إلى عرض البحر. أما سبب تكثيف الاهتمام الصهيوني بشرق الأردن فكان يكمن في العواقب التي ترتبت على أعمال شغب حائط المبكى في (1929 م).

دفعت أعمال الشغب إلى إمعان النظر في تأثيرات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإلى إعادة النظر في السياسة البريطانية. ونص كتاب باسفيلد الأبيض الناتج عن عملية الدراسة وإعادة النظر على فرض قيود انتدابية مشددة على بيع الأراضي والهجرة على حد سواء. تم جعل الهجرة متوقفة تحديداً على قدرة مجمل الاقتصاد، بجناحيه العربي واليهودي، على استيعاب مهاجرين جدد.

ما لبثت هذه السياسة أن أفرزت اهتماماً متجدداً بشرق الأردن بين صفوف الصهاينة. فالقادة الصهيونيون كانوا قد أصيبوا بقدر كبير من الرعب؛ على الرغم من أن الكتاب الأبيض لم يتم تنفيذه عملياً قط، وراحوا، بالتالي، يبحثون عن صمام أمان إقليمي يضاف إلى المنطقة المفتوحة من فلسطين، ويؤدي إلى خفض أسعار الأرض في فلسطين. وقد كان صمام الأمان هذا هو شرق الأردن.[15]

تمثل المؤشر الدال على الاهتمام الصهيوني المتجدد بشرق الأردن بالأعداد المتزايدة من العقود المبرمة بين يهود مستوطنين في فلسطين من جهة، وعرب شرق الأردن من الجهة الثانية. وكانت إمكانية أن تتمخض هذه العقود فعلاً عن الثمار المرجوة ـ المتمثلة أساساً بحيازة الأرض ـ قد تحسنت، جراء تسوية مسألة التخصيص التي كانت جارية آنذاك في شرق الأردن، والتي ساهمت في «تسهيل قيام أي مالك للأرض برهن

ملكيته».[16] وقد كان كبار ملاك الأرض هدف المبادرات الصهيونية، لأن هؤلاء كانوا يعتبرون جذابين لأنهم «مسيطرون على المجلس التشريعي من جهة ومتحكمون بالرأي العام من جهة ثانية».[17] فالاستراتيجيون السياسيون الصهاينة رأوا أن من شأن النجاح في إقناع هذه الجماعة بفضائل ومميزات توظيف الرساميل اليهودية، في تمكينها هي بالذات من الحصول فعلاً على فوائد مثل هذا التوظيف، أن يدفعها باتجاه جعل حكومة شرق الأردن توافق على تمكين اليهود من حيازة الأرض واستيطانها.

تجاوبت هذه الرغبة في توسيع دائرة حيازة الأرض لتشمل شرق الأردن؛ مع حاجة الطبقة الجديدة من كبار ملاك الأراضي إلى السيولة النقدية، لدفع رسوم التسجيل وتسديد الضرائب بغية ضمان حيازاتهم العقارية الجديدة. ففي عام (1933 م) صدر قانونان ضريبيان جديدان أعادا توزيع أعباء الضرائب العقارية في شرق الأردن حسب المناطق، وأديا خصوصاً إلى رفع مستوى قيمة الأرض في منطقة الكرك. وكذلك أفضت القوانين الضريبية الجديدة إلى تغيير مبدأ فرض الضرائب في منطقة البلقاء، وجعله قائماً على عدد الدونمات، بصرف النظر عما إذا كانت الأرض مزروعة أم لا، بعد أن كان مستنداً إلى مبدأ العشر الذي يتم تحصيله من الإنتاج الفعلي.[18] وبما أن الأرض كانت المجال المحلي الوحيد تقريباً للاستثمار، فإن معظم كبار الملاكين حاولوا تأجير أو بيع جزء من حيازتهم للحصول على رأس المال اللازم لتسديد الضرائب وتطوير الباقي. وما لبثت حمى بيع أو تأجير الأراضي الهامشية أن تفاقمت جراء الجفاف الذي كان سنة (1933 م) في عامه الثالث.[19]

كان مثقال بن فايز أول من عرض أرضاً على مستثمرين يهود. فقد كان مديناً بمبلغ (2396) جنيهاً استرلينياً لخزينة شرق الأردن عن (34000) دونم، كان قد اشتراها في قرية الجيزة الواقعة على الخط الحديدي الحجازي إلى الجنوب من عمان.[20] وبسبب عجزه عن تسديد دينه تعاقد في كانون

الأول من عام (1930 م) مع مستثمر يهودي كان يعمل لصالح الشركة الفلسطينية لتطوير الأراضي. وقد طلب مثقال بن فايز جنيهاً واحداً عن الدونم الذي كان قد كلفه عشرة قروش، وسلفة بمبلغ (2500) جنيه استرليني لعدم قدرته على بيع الأرض، حتى يكون قد سدد ما كان عليه من دين للخزينة.[21] وبالطبع فإن الوكالة اليهودية اعترضت على مثل هذا المبلغ الكبير، ولكن تعاظم حاجة الرجل الماسة إلى السيولة النقدية أدى إلى مضاعفة قوة الإغراء. فإضافة إلى العرض الأصلي اقترح أن يبيع أراضي أخرى قريبة من الجيزة بمساحة تصل إلى مئة ألف دونم. وبعد ذلك تقدم باقتراح قضى برفع مساحة الأرض عن طريق إشراك شيوخ آخرين من بني صخر إلى نصف مليون دونم.وفيما بعد قام بعرض واحة الأزرق جاعلاً المساحة المعروضة تصل إلى مليون من الدونمات.[22]

وفي هذه الأثناء لفت أعيان آخرون من شرق الأردن أنظار المستثمرين اليهود. ففي عام (1932 م) قام خبيران زراعيان من بتاح تكفا بزيارة شرق الأردن، لمعاينة أراضي رفيفان المجالي وحسين الطراونة القريبة من الكرك. كذلك اصطحبهما رفيفان إلى قطعة أرض في غور الكبد كانت الدولة قد وهبتها حديثاً إلى عبد الله، قائلاً: «إن الأمير كان قد أبلغه بأنه سيكون سعيداً جداً إذا ما تحملا أيضاً مشقة معاينة هذه الأرض، وقدما النصيحة والمساعدة الضروريتين». وبعد الفحص تبين أن أراضي المجالي والطراونة كانت ملائمة لزراعة الحمضيات. وفيما بعد جرى زرع بساتين البرتقال والموز للرجلين مقابل تمتين العلاقات الودية الطيبة. أما بالنسبة لقطعة الأرض العائدة لعبد الله فقد «قاما بفحص تلك الأرض بصورة سطحية جداً، ولكنهما همسا [في أذن رفيفان] قائلين بأنها ستكون مفيدة جداً بالمثل إذا ما حان الوقت المناسب...».[23] ومع حلول نهاية عام (1932 م) كان نصف دزينة من ملاك الأرض الآخرين في شرق الأردن قد باتوا على قائمة المتعاقدين المحتملين لدى الوكالة اليهودية.[24]

على الرغم من هذه البدايات الواعدة، فإن الوكالة اليهودية لم تكن قادرة على أن تتحرك إلا ببطء شديد. فحتى تتمكن من المراهنة على عقودها مع الشيوخ، كانت الوكالة بحاجة إلى أمرين: هما المال من جهة، وتعديل السياسة البريطانية بما يتيح فرصة الشراء الحر والصريح للأرض في شرق الأردن من جهة ثانية. فخلافاً لقناعة العديد من العرب كانت الأموال الصهيونية قليلة. وقد قيل إن الصندوق القومي اليهودي لم يكن لديه فائض ذو شأن، إضافة إلى المبلغ المطلوب لتسديد قيمة مشتريات سابقة في فلسطين. غير أن القاضي لويس بْرَنْدَيْس أبدى اهتماماً بالمشروع الشرق أردني وأعطى إيمانويل نيومان بعض المال لدعم هذا المشروع. أما اهتمام الصهاينة الأمريكيين بالأردن فقد كان شديد الصخب، حتى أن حاييم آرلوسوروف، رئيس المكتب السياسي في الوكالة اليهودية حذر بْرَنْدَيْس من أن الأمر قد يؤدي إلى إخافة البائعين المحتملين في شرق الأردن.[25]

لم يكن الحصول على تعديل في السياسة هو الآخر أقل صعوبة. كانت مناقشة كتاب باسفيلد الأبيض في لندن قد أثارت مسألة فتح أبواب شرق الأردن أمام الحيازة اليهودية للأرض، لتوطين مستعمرين يهود أو نازحين فلسطينيين. وقام كل من وايزمن ولويس نامير (المؤرخ الشهير الذي كان آنذاك السكرتير السياسي للمنظمة اليهودية في لندن.) بنقل القضية مباشرة إلى مجلس الوزراء ولجنة الشرق الأوسط. غير أن الرسميين البريطانيين كانوا شديدي الحرص، زاعمين أن اتفاقية عام (1928 م) بين بريطانيا وشرق الأردن كانت تمنعهم من التدخل في شؤون شرق الأردن. وقد أشاروا إلى أن السبيل الوحيد للحصول على موطئ قدم صهيوني في شرق الأردن هو التوصل إلى اتفاق مع عبد الله. وبعد أن جوبهت بالصد في لندن انتقلت الجبهة الصهيونية إلى القدس. اتصل كل من وايزمن والبارون ادموند دو روتشيلد، بالتناوب، مع المندوب السامي، السير جون تشانسلر، ولكن أياً منهما لم يحقق أي نجاح. كذلك لم تفلح الجهود المبذولة مع المندوب

السامي الجديد، السير آرثر واتشوب، الذي تولى منصبه في أواسط عام (1931 م). لم يتعد ما كان الرسميون البريطانيون في لندن والقدس مستعدين لأن يقولوه، إن فتح أبواب شرق الأردن أمام المستوطنين العرب واليهود لاحقاً لم يكن أمراً غير وارد، إلا أن الظرف الحالي لم يكن هو الوقت المناسب.[26]

بقيت إمكانية الالتفاف على الحذر البريطاني عن طريق الاتفاق المباشر مع عبد الله. ولفهم كيفية حصول هذا، لا بد من العودة إلى أحداث شغب حائط المبكى في عام (1929 م).

كان ينتظر من عبد الله خلال أحداث الشغب، كما في أثناء أية اضطرابات أخرى في فلسطين، أن يحافظ على الهدوء في شرق الأردن، وأن يمنع رعاياه من المشاركة في النزاع. وعلى الرغم من أن قبائل شرق أردنية هددت فعلاً بعبور نهر الأردن، فضلاً عن أن تظاهرات جرت حقاً في البلدات، فإن الافتقار إلى التنسيق بين هاتين الحركتين، وغياب التنظيم داخل كل منهما، كانا يعنيان أن جهود عبد الله الرامية إلى الحفاظ على الهدوء في شرق الأردن كانت ناجحة إلى حد بعيد، بما أتاح فرصة نقل الجزء الأكبر من القوات الملكية المتمركزة هناك (سلاح الجو الملكي وقوة الحدود) إلى فلسطين.[27] ومكافأة له على خدماته تقرر منحه مزرعة خاصة من أملاك الدولة، وهي فكرة كان كوكس قد اقترحها قبل سنوات، كطريقة تمكن بريطانيا من زيادة دخل عبد الله، دون أن تتحمل هي إلا الحدود الدنيا من التكاليف. وقد انطوت الفكرة على الإغراء الإضافي المتمثل بزيادة ارتباط مصالحه بشرق الأردن، وباحتمال دفع ابنه الأصغر نايف باتجاه الاهتمام بالزراعة، فيصبح صاحب مزرعة محترماً. وبما أن بريطانيا نفسها لم تكن متمتعة بسلطة منح الأراضي الشرق أردنية، فقد تم طرح المسألة عبر المجلس التشريعي الذي لم يتردد في إصدار قانون يقضي أصولاً بمنح الأرض لعبد الله. وفيما بعد تم إعفاؤه من الضرائب المتحققة

على ممتلكاته العقارية الجديدة، فضلاً عن أن وزارة المستعمرات أعطته مبلغ ثلاثة آلاف جنيه استرليني لمساعدته على إطلاق مشروعه الزراعي.[28]

تألفت الأراضي من ثلاث قطع، الأولى في الحُمَّر (أو عين الحمر) مساحتها ثلاثة آلاف دونم، الثانية في زور القطار مساحتها ألفا دونم، والثالثة في غور الكبد مساحتها ستون ألفاً من الدونمات. كانت الحُمَّر هي الأغلى ثمناً في ذلك الوقت، إذ وقعت على مرتفعات تبعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الغرب من عمان، وفيها نبع ماء وقابلة للري جزئياً. ولدى منحها لعبد الله كانت مؤجرة لفلاحين من التركمان من قبل الحكومة مقابل مبلغ (102.600) جنيه استرليني في السنة. وفي عام (1933 م) قام عبد الله بتأجيرها لزيد الأطرش، شقيق الزعيم الدرزي سلطان باشا الأطرش، وعقلة القيطاني الذي كان مسيحياً أرثوذكسياً ومستشاراً مقرباً من عائلة الأطرش، مقابل ريع سنوي بمبلغ (150) جنيهاً استرلينياً. ولدى إجراء التخمين لمعرفة ما ستخسره الدولة جراء إعفاء عبد الله من الضرائب، تم تقدير الدخل المحتمل للمزرعة بحوالي ستمئة وستين جنيهاً، أي خسارة سنوية بمبلغ ست وستين جنيهاً من موارد الخزينة. أما مزرعة زور القطّار فكانت مشاطئة لنهر الأردن إلى الشمال من جسر اللنبي مباشرة. لم تكن هذه مزروعة في عام (1930 م)، على الرغم من أنها كانت قابلة للري بالراحة ومناسبة لاستنبات أشجار الحمضيات والموز. ومع حلول عام (1933 م) لدى تقويمها من أجل الضرائب، لم تكن مزروعة بعد. وفي ذلك الوقت قدر أن ألفاً من الدونمات فقط كانت قابلة لأن تصبح صالحة للزراعة بعد الاستصلاح والتنظيف، ويغدو كل دونم قادراً على إنتاج ما تصل قيمته إلى خمسين فرنكاً (مِلاً) في السنة. وكانت أراضي غور الكبد الواقعة في وادي الأردن والمحدودة بنهر الزرقاء من جهة الشمال، هي الأقل قيمة والأبخس ثمناً آنياً. على الرغم من أن هذه الأراضي كانت صالحة للزراعة شرط توفير الماء اللازم للري، فإنها لم تكن عملياً شيئاً في عام (1930 م) لأن أية قطرة واحدة من ماء الزرقاء لم

تكن موفرة لها؛ فضلاً عن أن تكاليف الضخ من نهر الأردن كانت باهظة لا تطاق. ولدى تقويمها لتحديد الضرائب في عام (1933 م) تم اعتماد افتراض يقول بأنها لن تجلب أي دخل لبعض الوقت.(29)

التحق عبد الله - بوصفه مالك أرض - بركب ملاك الأراضي من شيوخ القبائل وأعيان المدن. صحيح أنه يملك الأرض مثلهم، غير أنه كان مفتقراً إلى الخبرة ورأس المال اللازمين لاستغلالها. ومثلهم أيضاً كان هدفاً للاهتمام الصهيوني بسبب ملكيته ومنصبه. فقد بات ممثلوا الصهيونية قادرين على الرجوع إليه طلباً للسماح لليهود بشراء الأرض والهجرة، ليس فقط لخير بلده العام - كما زعموا - بل ولفائدته الشخصية أيضاً. في الإطار العام كان كل من اللورد ريدنغ (رئيس إدارة مؤسسة كهرباء فلسطين) وحاييم آرلوسوروف قد قابلاه، ولكن شيئاً ملموساً لم يتحقق. أبلغ اللورد ريدنغ أنه شخصياً لم يكن لديه أي اعتراض على المستوطنين اليهود، ولكن شعبه قد يعارض، وكرر على مسامع آرلوسوروف أنه شخصياً لم يكن يخشى من الهجرة اليهودية، ولكنه أضاف بأن مثل هذا الخوف كان موجوداً فعلاً في فلسطين، ولم يكن هو ولا الوكالة اليهودية قادرين على تجاهله.(30) إلا أن شيئاً ملموساً ما لبث أن تحقق بعد أن قام كل من إيمانويل نيومن وجوشوا فاربشتاين، ممثلي الوكالة اليهودية، بمقابلته لالتماس استئجار أرضه الكائنة في غور الكبد. لم يحصلا على عقد الإيجار مباشرة بل وقعا وثيقة ضمنت حق الاستئجار لهما لمدة ستة أشهر مقابل خمسمئة جنيه استرليني. أما فترة الإيجار الواردة في الوثيقة فكانت تلاتة وثلاثين عاماً قابلة للتجديد مرتين بما يوصل المدة الإجمالية إلى تسع وتسعين سنة مقابل ألفين من الحنيهات سنوياً، إضافة إلى نسبة خمسة بالمئة من الأرباح السنوية. وقد تم افتراض نفاذ الإيجار فور التوصل إلى إزالة الصعوبات السياسية. أما تكاليف الوثيقة المبدئية فكانت ستحتسب من ريع السنة الأولى.(31)

لم تكن صفقة عبد الله مع فاربشتاين ونيومن هي المرة الأولى التي كان

عبد الله قد حاول فيها تأجير أراضي غور الكبد. ففي عام (1932 م) من قبل، كان قد عقد، عبر وساطة صديقه القديم عباس حلمي، صفقة مماثلة، ولكن أدسم مع شركة الشرق الصناعية الزراعية والتجارية في لوسيرن. وفي تلك المرة استلم مبلغ ألفين من الجنيهات كعربون لاستئجار غور الكبد بعد دراسة الجدوى. وفي حال عدم الاستئجار، وهو ما حصل فعلاً، لم يكن ملزماً بإعادة العربون أو السلفة.(32)

مالياً كان عبد الله قد حقق نجاحاً غير قليل. فعن أرض اعتبرها مخمنوا الضرائب البريطانيون غير ذات قيمة كان قد حصل على مبلغ ألفين وخمسمئة جنيه استرليني من كل من الشركة والوكالة اليهودية. وفي آذار من عام (1933 م) حين مدد فترة الوثيقة (السند) مع الوكالة اليهودية لستة أشهر أخرى، استلم مبلغ (500) جنيه آخر.(33) وقد كان مبلغ ثلاثة الآلاف من الجنيهات غير الوارد في الموازنة، وغير الخاضع لمحاسبة بريطانيا هذا نعمة كبيرة نزلت عليه من السماء «كانت مخصصاته المدنية في تلك السنة (14481) جنيهاً». وبما أنه لم يكن قد أجر الأرض فعلاً، فقد حصل على المبلغ بصورة بدت مجانية. غير أن العملية كانت منطوية على تكاليف خفية.

شاع نبأ الوثيقة مباشرة. وبعد موجة احتجاج صاخبة، حصوصاً في فلسطين، نشر عبد الله تكذيباً رسميا،(34) غير أنه كان تكذيباً زائفاً وخادعاً، إذ قام سراً بطمأنة مستأجريه المنتظرين خطياً مؤكداً على بقاء الوثيقة نافذة.(35) كما أن تمديده اللاحق لمدة الوثيقة أكدت نيته.

تمخضت الإشاعات الدائرة حول صفقات عبد الله مع المستوطنين اليهود عن عواقب خطيرة بالنسبة لسمعته، ولا سيما في فلسطين؛ ومع ذلك ليس واضحاً بعد ما إذا كان عبد الله يفكر بفلسطين حين أقدم على الصفقة. ففي ذلك الحين كان متهماً بإثارة الاضطرابات القبلية في الحجاز وعسير

وربما شعر بأن حصوله على المال اللازم لدعم تلك التحركات كان أكثر أهمية من سمعته في فلسطين. وقد وصف رئيس القسم الشرقي السير جورج رندل تحليل عبد الله للوضع السعودي في عام (1932 م) قائلاً: «في هذا التاريخ كان دائباً بحزم على رفض الاعتراف بملك الجزيرة العربية ابن سعود على الأرض، لأن العربية السعودية كانت، كما بين لي، في حالة فوضى (وهو أمر كان يعلم أنه غير صحيح)، ولأن حكم ابن سعود كان متداعياً موشكاً على الانهيار (هراء فاضح). لم أستطع أن أزحزحه عن قناعته الراسخة بأية من النقطتين...».[36] غير أن حركات التمرد ما لبثت أن سحقت بسهولة، وأقنعته بريطانيا بعد فترة قصيرة بتوقيع معاهدة مع ابن سعود.

اكتسب الجدل حول الوثيقة قدراً أكبر من الحدة خلال ربيع وصيف عام (1933 م)، إذ لم يكن إغفالها أو نسيانها في وقت كان يشهد هجرة يهودية صاعدة أمراً سهلاً. وبالفعل فإنها باتت تحتل مكاناً خاصاً بها في كل من السياستين الشرق أردنية والقومية العربية الأوسع على حد سواء.

محلياً كان عبد الله قادراً على الاستناد إلى تأييد مجموعة كبار ملاك الأراضي الصغيرة الحالمة بمكاسب مالية مشابهة. ففي نيسان أقامت الوكالة اليهودية وليمة في فندق الملك داود حضرها عدد من الشرق أردنيين.[37] وبعد بضعة أيام قام مثقال برهن (750) دونماً في قرية بارازين، مقابل الحصول على قرض بمبلغ (650) جنيهاً استرلينياً.[38] ونتيجة لإلحاح عبد الله بادر ملاك الأراضي هؤلاء إلى تشكيل "حزب" مؤيد له، عرف باسم **حزب التضامن** برئاسة مثقال بن فايز في البداية، وحزب الشعب بقيادة ماجد العدوان فيما بعد. وقد كان الحزبان كلاهما عرضيين سريعي الزوال.

كان الشعور الشعبي المواكب للقضية بفضل الصحافة الفلسطينية مع مجموعة متباينة لملمت صفوفها في "حزب" معارض مستنفراً ضد عبد الله.

وقد كان الحزب مؤلفاً من حشد عريض لنشطاء سياسيين و(بيروقراطيين) كانوا يبالغون في تصوراتهم للقوى العاملة في العالم العربي، إضافة إلى أنهم لم يكونوا ذوي مصالح عقارية مثل أولئك المؤيدين للوثيقة. وكان حسين الطراونة الذي سبق له، هو نفسه، أن كان على صلة بالوكالة اليهودية بشأن أرضه القريبة من الكرك، على رأس هذه المجموعة. ولم تكن معارضته للوثيقة، على ما يبدو، نابعة من معاداة الصهيونية بمقدار ما كانت متجذرة في سياسة الكرك المحلية، حيث كان المجاليون يتمتعون بالتفوق على الطراونة الذين كانوا منافسيهم الرئيسيين. ونظراً لأن المجاليين اشتهروا بميلهم إلى التعامل الاقتصادي مع الوكالة اليهودية، فإن الطراونة تبنى، بالضرورة، موقفاً معارضاً بصرف النظر عن سلوكه السابق. غير أن المعارضة لم تكن مع ذلك معارضة انتهازية كلياً. فقد ضمت في صفوفها رحالاً شديدي الاختلاف، مثل الحجازي عبد الله سراج، رئيس الوزراء في ذلك الوقت؛ والفلسطيني توفيق أبو الهدى، السكرتير الأول في ذلك الوقت؛ والقوميين السوريين العرب كعادل العظمة وصبحي أبو غنيمة، في المجلس التشريعي. كان هؤلاء ينطلقون من اعتبارات متباينة قائمة على الحسابات السياسية الاستراتيجية المحلية والإقليمية بالنسبة للبعض، وعلى حسابات مبدئية بالنسبة للبعض الآخر.

ما لبثت الأحزاب الوحدوية العربية، وفي طليعتها حزب الاستقلال ذي المنشأ الفلسطيني الذي تمت إعادة تأسيسه من جديد،[39] أن باتت هي الأخرى ذات علاقة جراء انطواء الوثيقة على مضاعفات إقليمية. وقد تبنى هذا الحزب مثله مثل **حزب الاستقلال** القديم فكر قومي عربي وحدوي هادف إلى استئصال الحزازات المحلية والشخصية، وإزالة الخلافات الطائفية تعزيزاً للنضال المشترك ضد السيطرة الأجنبية في سائر البلدان العربية. وكان مؤسسو الحزب استقلاليين قدامى مثل عوني عبد الهادي، وعزت دروزه، وصبحي الخضرة، انضم إلى صفوفهم فلسطينيون أصغر من أن يكون قد

سبق لهم أن نشطوا في حزب الاستقلال الأصلي. ورث **حزب الاستقلال** الجديد عن سلفه ميزتين أخريتين، إضافة إلى الفكر والعضوية، هما ميزة الانقسام الداخلي بين مؤيدي الهاشميين من جهة، ومؤيدي السعوديين من الجهة المقابلة، وميزة تفضيل فيصل على عبد الله عند أعضاء الفئة الهاشمية.

تمخضت صلات حزب الاستقلال بالمعارضة الأردنية، مع زيارة قام بها فيصل إلى عمان في عام (1933 م) عن إيصال الوضع السياسي إلى درجة الغليان. وقد كان السبب كامناً في الخوف من أن فتح أبواب شرق الأردن أمام الاستيطان اليهودي بات وشيكاً، إذ كانت الشائعات تتحدث عن أن المعارضة كانت تطالب بتوحيد شرق الأردن والعراق، للحيلولة دون احتمال الإقدام على مثل تلك الخطوة، من جهة، وفي أن رد فعل عبد الله انطلق من موقف دفاعي ورعب شديد إزاء السيل الهائل من الانتقادات الموجهة إليه من جهة ثانية، حيث ساور عبد الله المفعم بالحسد والكره القديمين لأخيه شك في أن يكون فيصل نفسه طرفاً في المطالبة بالتوحيد. وبالفعل فقد كان متأكداً من وجود مؤامرة خبيثة؛ إلى درجة أنه أرسل ابنه البكر طلال إلى الصحراء لمنعه من مقابلة فيصل والتواطؤ معه في مؤامرة ما. وقد جرى نقاش حاد بينه وبين صديقه القديم ورفيق سلاحه زيد بن شاكر الذي اتهمه بتأييد فيصل.[40] وبعد ذلك شن هجوماً عاماً ضد المعارضة الشرق أردنية، وضد حزب الاستقلال خصوصاً. قام الطرفان كلاهما بتنظيم المؤتمرات واللقاءات الجماهيرية الأخرى المختلفة لعرض خلافاتهما. بلغت حدة المشاعر ذروتها إذ لم يتردد أي من الطرفين، الموالي والمعارض، في توجيه أشنع الاتهامات إلى الطرف الآخر. تعرض أحد أعضاء المعارضة المرموقين للضرب المبرح في الشارع الرئيسي بعمان التي هي قلعة عبد الله بالطبع.[41]

جاءت صدمة الوفاة المبكرة لفيصل في أيلول لتخفف من شدة الزوبعة السياسية الصاعدة. وعلى الفور سعى عبد الله إلى تحقيق المصالحة مع

الاستقلال، كما أن قائدي الاستقلال الموالين للهاشميين عادل العظمة وعوني عبد الهادي سافرا مع حاشيته إلى بغداد لحضور الجنازة.[42]

تركت وفاة فيصل فراغاً في قمة الحركة القومية العربية. فمنذ أيام مملكة سورية العربية ذات العمر القصير، كان قد أصبح يعتبر الزعيم الرمزي للحركة العربية الواحدة، والوريث الشرعي لمملكة عربية موحدة، وعلى الرغم من تفكك الحركة القومية العربية على الصعيد العملي، فقد بقيت الفكرة نموذجاً قوياً على المستوى الفكري.

كان عبد الله على الدوام مفعماً بالغيرة من شهرة شقيقه الأصغر، وحين توفي الأخير عقد الأول آمالاً على احتلال مكانه. ولكن هبة الأرض التي كانت بريطانيا تريد لها أن تربطه ببلده كانت قد فعلت ذلك بأساليب غير متوقعة. فقد بات الآن متماهياً مع مجموعة صغيرة من ملاك الأراضي الشرق أردنيين،[43] وابتعد أكثر من أي وقت مضى عن الاهتمامات في المنطقة بشكل عام. أما عن محاولاته الرامية إلى تحقيق نوع من الزعامة الإقليمية بالاستناد إلى تعامله الأخير مع الوكالة اليهودية، فقد عجزت، في أحسن الأحوال، عن ترك أي انطباع جدي، وفي أسوأ الأحوال إلى اتهامه بالخيانة.

جاءت فرصة حملة عبد الله الكبرى للاضطلاع بمنصب زعامة عربية مع دعوته لزيارة لندن. وخلال ستة أشهر قبل مغادرته في تموز من عام (1934 م) بذل كل ما استطاعه من جهد ليحصل على تفويض من قادة فلسطينيين يمكنه من أن يتحدث باسمهم مع البريطانيين، ولكن جهوده باءت بالاخفاق الكامل. لم يقبل به أحد من القادة الفلسطينيين الرئيسيين أو الأحزاب الفلسطينية الرئيسية ناطقاً باسمهم. وقد كانوا شديدي عدم الثقة به، إلى درجة أنه تم اقتراح ترتيب وجود عوني عبد الهادي في إنكلترا في الوقت نفسه لإبقائه تحت المراقبة. والشخصية الوحيدة التي أيدت مزاعم

عبد الله كانت متمثلة بشخصية راغب النشاشيبي، الذي كان قد سبق له أن رافق عبد الله قبل اثنتي عشرة سنة إلى حفل تنصيب المندوب السامي الأول. غير أنه لم يكن يشكل أي وزن مقابل عواطف الأكثرية الفلسطينية المعادية لعبد الله، والتي عبر عنها حزب الاستقلال والحاج أمين الحسيني الذي كان، بوصفه مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، أقوى السياسيين العرب في فلسطين.

ما إن حاول عبد الله اقتحام ساحة السياسة الفلسطينية حتى وجد نفسه في نزاع مباشر مع الحاج أمين. والعلاقات بين الاثنين لم يسبق لها قط أن كانت دافئة. فخصوماتهما المتبادلة كانت واضحة منذ وقت مبكر يعود إلى عام (1921 م)، حين اقترح الحاج أمين ذات يوم لعبد الله بعد تناول طعام الغداء بمقر الحكومة في القدس، بطريقة جارحة، أن يأخذ قسطاً من الراحة والنوم حتى يتمكن هو من محادثة المندوب السامي وحده.(44) غير أن العلاقات بين الرجلين لم تبدأ بالتكشف عن الضغائن المكشوفة، التي أفضت إلى جعل الكثيرين يحملون الحاج أمين مسؤولية اغتيال عبد الله في عام (1951 م) حتى أواسط الثلاثينيات، عندما بدأ عبد الله يسعى إلى احتلال مرتبة الوسيط الرئيسي بين بريطانيا والفلسطينيين.

قبل أن يغادر عبد الله متوجهاً إلى لندن قام واتشوب بتحذير وزارة المستعمرات قائلاً: «أي تمثيل قد يدعيه سيكون رأيه الشخصي هو فقط وبدون أي تأييد من الرأي العام».(45) وأية شكوك متبقية حول مدى تمتعه بالقبول كناطق باسم فلسطين ما لبثت أن تبددت لحظة قيام السفينة برفع المرساة. ففي غضون الساعة تم في كل من فلسطين وشرق الأردن نشر بيانات تدين وتشجب أية مفاوضات قد يجريها في لندن نيابة عن فلسطين.(46)

مهما يكن من أمر، فإن رحلة عبد الله إلى لندن لم تكن منطوية على أي

مضمون سياسي ذي شأن، بل رُتبت لأغراض التعبير عن النوايا الطيبة، إذ قام بجولة سياحية إلى أدنبره عبر أوكسفورد، وستراتفورد، ومنطقة البحيرات، عائداً إلى لندن عن طريق يورك وكامبرج، فضلاً عن أنه زار عدداً من الأماكن الترفيهية السياحية مثل آسكوت، المعرض الدولي للجياد، ومباراة البولو في الإمبراطورية البريطانية التي تجاوبت مع ولعه المعروف بالخيل.[47] وبعد عودته إلى الوطن قام بوصف ذلك كله وصفاً مفعماً بالحماس على مسامع المندوب السامي:

> ...كيف تجول في أرجاء مصنع همبر، كيف ذهب إلى مجلس العموم وجلس في مقصورة الضيوف المميزين، ولوح له السير هيربرت صموئيل، كيف زار معرض الطائرات في هندون، ورأى الرجال يهبطون من الطائرات بالمظلات، واضطر أن يغطي عينيه إلى أن فتحت المظلات؛ كيف دهب إلى إدنبره واستقبله اللورد بروفوست، وإلى بيلز ونزل في أفضل فندق: تحدث عن هذا كله مثل صبي في الرابعة عشرة من العمر عاد لتوه من ومبلي، محاولاً الوقت كله أن يتذكر الشيء الأكثر إثارة الذي كان قد رآه بعد ذلك؛ كان متمتعاً بموهبة طفولية جميلة في الوصف، خصوصاً حين بدأ يقلد الطائرات وأزيز القنابل الساقطة على الأرض؛ كان قد جلب هدايا لسموه على الطريقة الشرقية الأصيلة صوراً ضوئية له هو في وضعية مثيرة، لفافات سيحار، أقمشة حريرية، (وهديته الأفضل) التي كانت عبارة عن كعكة مثلجة على شكل أحد جوامع ماك فيتيز، لتذكير سموه بقبة الصخرة لدى تناولها فيما أظن غير أن من المؤسف أن القبة تحطمت تماماً في الطريق، كما أن جدران القائمة المستديرة كانت قد اهترأت في الجهة الشرقية.[48]

إلا أنه ظل عاجزاً عن استخدام علاقته مع بريطانيا من أجل التوصل إلى تسوية في فلسطين، وفي سبيل توفير إمكانية القفز إلى عرش فيصل الفارغ. فصفقاته العقارية مع الوكالة اليهودية كانت قد أفقدته الشيء الكثير على صعيد مصداقيته بين أهله وعشيرته.

لم يكن عبد الله قادراً على أن يلوم أحداً غيره هو على مأزقه. فقد كان

شديد التوق إلى الكسب السهل - وأذكى مما ينبغي - ولم يكن، على ما يبدو، مدركاً لحقيقة المنطلقات المبدئية أو العواقب السياسية لرجل في منصبه. غير أن بريطانيا كانت تتحمل جزءاً من المسؤولية عن إيصاله إلى مأزقه الحالي. كانت بريطانيا، بمعنى من المعاني، قد قدمت الحبل الذي شنق عبد الله نفسه به، في مسألة الصفقات العقارية مع الوكالة اليهودية.[49]

منذ عودة شرق الأردن إلى البروز ثانية، بوصفه بؤرة اهتمام اللوبيات الصهيونية في أعقاب صدور كتاب باسفيلد الأبيض، ظلت بريطانيا تطلق إشارات متناقضة حول موقفها من المطامع الصهيونية في شرق الأردن. فبدلاً من التمسك ببنود نص الانتداب، التي استبعدت شرق الأردن بوضوح من منطقة الاستيطان اليهودي، كان الرسميون البريطانيون في لندن والقدس قد تبنوا صيغة إمكانية الاستيطان اليهودي اللاحق، رغم عدم كون الوقت الحاضر هو الوقت المناسب. وقد بادر المندوب السامي، مثلاً، إلى توظيف نفوذه في شرق الأردن لمنع المجلس التشريعي من إصدار قانون يحظر بيع الأراضي أو تأجيرها للأجانب، لأنه، حسب ما فهمه موشي شرتوك «كان مؤيداً بشكل حاسم لفكرة توسيع دائرة النشاطات الاستيطانية اليهودية، بما يمكنها من شمول شرق الأردن في المستقبل...».[50] ومع ذلك فإن القانون الوارد في النصوص التي تسمح للأجانب بشراء الأرض شرط الحصول على إذن من الحكومة كان منطوياً على ما يكفي من الحماية، حتى إن بريطانيا اضطرت، حين قام مثقال بتأجير أرضه، لأن تحذر من عدم وجود «أية ضمانة تؤكد على أن المؤجر سوف يرى ماله، أو سيحصل على ما يوازيه من الأرض».[51]

وفي مثل هذا الوضع فعلت الوكالة اليهودية، بالطبع، كل ما استطاعت فعله لجعل الحاضر وقتاً مناسباً للاستيطان اليهودي في شرق الأردن. وقد شكل الحصول على تأييد عبد الله عن طريق الوثيقة جزءاً مهماً من مسعاها. فعلى الرغم من أن المندوب السامي كان قد عارض الوثيقة لانطوائها على

إلحاق الضرر بهيبة عبد الله، وبالتالي بفاعليته وصلاحيته كحليف، فإنه ساعد على وضع جملة من الشروط التي ستحكم عملية الاستيطان اليهودي في شرق الأردن مستقبلاً والتي قبلها وايزمن.(52) غير أن بريطانيا ما لبثت، في السنوات التالية، لدى طرح الوثيقة للتجديد السنوي، أن أصبحت أكثر تحفظاً حول الحديث عن إمكانيات الاستيطان بسبب التوترات المتصاعدة في فلسطين. أما البديل المتمثل بتمكين عرب فلسطين من الاستيطان في شرق الأردن وإن لم تتوفر مثل هذه الإمكانية لليهود، فقد قوبل بالرفض الشديد من جانب المندوب السامي، بوصفه أشد خطورة سياسية حتى من الاستيطان اليهودي بالذات، لأنه «سيعتبر إجراءً يرقى إلى مستوى الطرد...».(53)

مع حلول عام (1935 م) كان استمرار الوثيقة قد أخذ طابع نوع من الدعم السياسي لعبد الله. صحيح أن الوكالة اليهودية كانت على الدوام ترى أن اليهود لم يكونوا إلا (بقرة حلوباً) في نظر عبد الله وغيره من ملاك الأراضي في شرق الأردن، غير أن الأمر بدا جديراً بالاستثمار في سبيل إبقاء عبد الله صديقاً. وعلى الرغم من أن فتح أبواب شرق الأردن أمام الاستيطان اليهودي لم يكن وارداً في المستقبل القريب، فإن الوثيقة تم تجديدها في كانون الثاني من عام (1935 م) لفترة أربعة أعوام أخرى مقابل تكاليف بلغت ثلاثة آلاف وخمسمئة جنيه استرليني.(54)

كانت بريطانيا قد جعلت صفقات عبد الله مع الوكالة اليهودية ممكنة، ولكن عبد الله هو الذي دفع الثمن على صعيد الإحباط السياسي. ففيما تمخضت وفاة فيصل عن توفير مدخل يفضي إلى الساحة القومية العربية، جاءت صفقات عبد الله مع الوكالة اليهودية لتؤكد عدم أهليته لولوجها. ومع ذلك فإن مغامراته في فلسطين لم تكن قد انتهت بأي شكل من الأشكال. ففي عام (1936 م) ما لبثت التوترات المتراكمة أن بلغت نقطة الاشتعال. وما لبث الانفجار الحاصل أن دفع بريطانيا إلى مراجعة سياستها

الفلسطينية. وفي أثناء العملية برزت أمام عبد الله سلسلة جديدة من الفرص والمطبات.

كان عام (1936 م) عام اضطراب غير عادي في سائر أرجاء الشرق الأوسط. ففي بداية العام قامت سلسلة طويلة من الاضطرابات والمظاهرات الشعبية العارمة بتمهيد طريق العودة إلى الحكم البرلماني في مصر، وإلى استئناف المفاوضات الإنجليزية المصرية. ولم ينته إضراب عام في سورية دام خمسين يوماً في شهري كانون الثاني وشباط إلا بعد دعوة وفد وطني إلى باريس لبدء المفاوضات حول معاهدة فرنسية ـ سورية. أما في نيسان فقد انفجرت فلسطين بالثورة.

قبل الانفجار في فلسطين مباشرة مرت ثلاث سنوات شهدت معدلات عالية جداً من الهجرة اليهودية المدفوعة بالصعود السريع والمفاجئ للفاشية ومعاداة السامية في أوربا. ومع حلول عام (1936 م) كان قد بات واضحاً للسكان العرب أن بلدهم كان موشكاً على أن ينقلب رأساً على عقب، بما لا يبقي أي أمل لهم في التمتع بحقوقهم في وطنهم، ما لم يتم فعل شيء لوقف هذه الموجة مباشرة. وفي الوقت نفسه كانت فكرة القيام بإضراب، وهي فكرة باتت ذات شعبية جراء نجاح الإضراب العام في سورية، في الأجواء. وما إن تمخضت أشكال اليأس والإحباط لدى الجالية العربية عن غليان أفضى، منتصف شهر نيسان، إلى سلسلة من الاغتيالات العربية التي استهدفت اليهود، وقوبلت بعمليات قتل انتقامية نفذها اليهود ضد العرب، حتى عقدت اجتماعات جماهيرية في المدن الفلسطينية دعت إلى الإضراب، وسمت اللجان المكلفة بتنظيمه. أما أهداف الإضراب كما صاغها رؤساء مختلف الأحزاب الفلسطينية التي اجتمعت في لجنة وطنية للقيادة والتنسيق عرفت باسم اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني، فكانت: وقف الهجرة اليهودية، وحظر نقل ملكية الأرض من العرب إلى اليهود، واستحداث مؤسسات حكم ذاتي.[55]

شكل الإضراب، بالنسبة لعبد الله، فرصة ليفعل ما مُنع من فعله قبل عامين، أي ليجترح لنفسه دوراً في العالم العربي عن طريق الاضطلاع بمهمة الوساطة بين فلسطين وبريطانيا العظمى. وبالفعل فإنه كان في تلك اللحظة في وضع أفضل من معظم القادة العرب للقيام بمثل هذه المهمة، نظراً لأنه كان متمتعاً بعلاقات جيدة مع بريطانيا، فضلاً عن أنه لم يكن متورطاً في أية نزاعات ومفاوضات خاصة به مع أوروبا، مثل مصر وسورية، أو مشغولاً باضطرابات داخلية مثل العراق. أضف إلى ذلك أنه كان حريصاً على التوصل إلى نوع من الحل الوسط مع بريطانيا، خوفاً من أن تصبح الفجوة المتسعة بين بريطانيا والعرب أعمق من قابلية الردم. قررت الهيئة العربية العليا بالذات توظيف دعم عبد الله بهدف منعه من العمل لتحقيق أغراض أخرى معارضة. ولبلوغ هذا الهدف قام عدد من أعضاء الهيئة بزيارة عمان. طالبهم عبد الله، بإلحاح، بوقف الإضراب وإرسال وفد إلى لندن، غير أنهم رفضوا.(56)

كان رد بريطانيا على الإضراب يتمثل في اقتراح إرسال لجنة ملكية لدراسة الوضع فور إيقاف الإضراب. ولدى سماعه لهذا النبأ اجتمع عبد الله ثانية بالهيئة العربية العليا ونصحها مرة أخرى بإنهاء الإضراب. ولكن الهيئة كررت رفضها، غير أنها بينت هذه المرة طبيعة الحد الأدنى من التنازل الضروري المتمثلة بوقف مؤقت للهجرة اليهودية خلال فترة زيارة اللجنة الملكية. وعندئذ أصبحت مهمة عبد الله واضحة. بات واضحاً أنه كان عليه أن يتوصل بطريقة ما إلى نوع من التعليق المؤقت للهجرة، إذا لم يتمكن من إقناع الهيئة بالإلغاء غير المشروط للإضراب.

قام عبد الله أولاً بمفاتحة بريطانيا ولكنه لم ينجح. ومن ثم توجه إلى قادة صهاينة في فلسطين، كان يأمل في إقناعهم بإعلان تعليق طوعي للهجرة، أو رفع الضغط عن فلسطين بإعادة توجيه المستوطنين إلى شرق الأردن على الأقل. فبهذه الطريقة كان يمكن تحقيق ما يشبه وقف الهجرة، بما قد يمكن

بريطانيا وعرب فلسطين من تسوية خلافاتهما. وقد استندت مطالبه إلى فكرة أن «الأرض مشتعلة تحت أقدامهم (أقدام الهيئة العربية العليا) ولابد من تقديم بعض المساعدة إلى القادة لتمكينهم من استعادة ولو جزء من ثقة الشعب» تحت افتراض أن القادة اليهود كانوا يفضلون ألا يضطروا إلى التعامل مع كتلة سكانية فلسطينية معبأة تعبئة شاملة.[57] غير أن الوكالة اليهودية لم توافق على اتخاذ مثل تلك الخطوة، فبادر عبد الله، في بداية شهر حزيران، إلى استدعاء الهيئة العربية العليا إلى عمان لمطالبتها ثانية بالإنهاء غير المشروط للإضراب. وقد قوبل طلبه بالرفض مرة أخرى.

لم تصدر عن بريطانيا أية بادرة ضعيفة تشير إلى إمكانية كسر الجمود الدبلوماسي حتى نهاية شهر تموز. ففي التاسع والعشرين من هذا الشهر كان مقرراً أن يقوم وزير الدولة لشؤون المستعمرات، وليم أُرْمْزْبي ـ غور، بإعلان منطلقات اللجنة الملكية وتركيبتها. وقبل أسبوع واحد كان البرلمان قد طلب منه طمأنة المجلس، والالتزام بعدم حدوث أي تغيير في سياسة الهجرة، حتى تكون اللجنة قد استكملت دراستها، وقامت بتقديم تقرير يتضمن توصياتها. قدم الوزير التعهد المطلوب، غير أنه بدا كما لو كان يوحي بأن تعليقاً مؤقتاً للهجرة كان ما يزال ممكناً شرط إلغاء الإضراب أولاً.[58]

ما لبثت هذه الإمكانية أن حفزت عبد الله على تجديد نشاطه. فاتح الهيئة العربية العليا مرة أخرى، بطريقة اقترحتها عليه الوكالة اليهودية أساساً هذه المرة.[59] فقد عرض أن يبادر «بوصفه هاشمياً وأحد حماة المصلحة العربية» إلى توجيه نداء علني إلى الهيئة يدعوها فيه إلى إنهاء الإضراب. وكان سيقوم في النداء بامتداح الهيئة على «مثابرتها وتضحياتها»، وبالتعهد بالتحدث مع اللجنة الملكية نيابة عنها. ورداً على النداء كانت الهيئة العربية العليا ستنشر بياناً يتضمن إطراءً على الإضراب وما بذل فيه من جهد، ولكنه يطالب الفلسطينيين باحترام رغبات عبد الله. دامت مناقشة هذا الاقتراح اللافت للنظر بكونه شبيهاً بالاستراتيجية التي وضعت حداً

للإضراب أخيراً في تشرين الأول ساعات طويلة. غير أن أحداً من الهيئة، عدا راغب النشاشيبي، لم يؤيد عبد الله. فالآخرون جميعاً امتنعوا عن منحه مثل هذه السلطة في الشؤون الفلسطينية، كما أن الحاج أمين الحسيني أنهى الجدل حين جعل وساطة عبد الله مشروطة بتصريح أُرْمْزْبي - غور أمام البرلمان. وهكذا فإن الهيئة كانت ستمنح عبد الله حق دعوة الأمة إلى إنهاء الإضراب، وستعبر عن تأييدها لندائه هذا، إذا قام أورمسبي - غور بتقديم وعود معينة.[60]

وكان عبد الله غير قانع بأن يبقى متبطلاً لا يفعل شيئاً، منتظراً ما سينطق به أُرْمْزْبي - غور، لذا أوفد صنيعته الموثوق محمد الأنسي[61] إلى الوكالة اليهودية، ومعه تقرير عن اجتماعه بالهيئة العربية العليا وطلب مساعدة على صعيد جعل وزير الدولة يوجه إلى العرب في خطابه "كلاماً لطيفاً". وافق موشي شرتوك (شاريت لاحقاً)، رئيس القسم السياسي، على الفكرة، وزار المندوب السامي الذي وعد بدوره بإرسال برقية إلى لندن يقول فيها: إن السيد شرتوك «يرى... مع تكراره لمعارضة الوكالة اليهودية لأي شكل من أشكال تعليق الهجرة، أن على وزير الدولة أن يضمن بيانه المنتظر صدوره غداً نداء موجهاً إلى الحنكة السياسية للقادة العرب، يطالبهم فيه بوقف العنف واستعادة الأوضاع الطبيعية».[62] غير أن تصريح أُرْمْزْبي - غور المنتظر طويلاً لم يتضمن، لسوء حظ عبد الله، أية رسائل أو وعود خاصة بالعرب، على الرغم من أنه أبقى مسألة التعليق المؤقت للهجرة مفتوحة.

وقد ظل عبد الله، بتشجيع من واتشوب، مؤمناً بأن بريطانيا كانت ستعمد إلى تعليق الهجرة خلال فترة قيام اللجنة بالتحقيق. ففي الخامس من آب عاد مرة أخرى إلى دعوة الهيئة العربية العليا إلى عمان أملاً في إقناعها بقناعته. ولتحسين فرصه حشد إلى الاجتماع فلسطينيين من خارج الهيئة، موالين لحليفه راغب النشاشيبي. غير أن تكتيكاته أخطأت الهدف. رفضت الهيئة قفزة عبد الله القائمة على الإيمان، وطالبت بضمانات مكتوبة قبل

المبادرة إلى وقف الإضراب ـ بضمانات كان عبد الله عاجزاً عن تأمينها. والأسوأ من ذلك هو أن تحركه أدى إلى تأكيد انشقاق متزايد في الهيئة بين: أولئك الذين ظلوا مصرين على تعليق الهجرة بقيادة الحاج أمين من جهة، وأولئك الذين كانوا أكثر استعداداً للقبول بالمساومة والتوصل إلى حل وسط حول هذه النقطة، ممثلين براغب النشاشيبي من الجهة المقابلة. وما لبث تزايد مؤقت للاضطرابات في فلسطين غداة تدخل عبد الله أن أظهر قوة الحاج أمين المتفوقة.(63) وبعد أسبوعين أرسلت الهيئة العربية العليا رسالة إلى عبد الله شكرته فيها على جهوده التي بذلها في سبيل إيجاد حل للأزمة.(64) ولم تكن الرسالة، في حقيقة الأمر، إلا تعبيراً عن قطيعة مفاجئة.

وما إن تم إقصاء عبد الله حتى ظهر وسيط جديد هو وزير خارجية العراق نوري السعيد. لم يكن ظهور نوري على مسرح الشؤون الفلسطينية ظهوراً جديداً. فمنذ بداية الإضراب كانت الهيئة العربية العليا قد طالبت قادة عرب بالتعبير الصريح عن تأييد عرب فلسطين، وكان معظمهم قد فعلوا. كان كل من نوري السعيد وابن سعود وبعض القادة المصريين قد وجهوا، جميعاً، نداءات وعروضاً بالوساطة إلى رسميين بريطانيين في بلدانهم المختلفة أو في لندن، كما أن كلاً من نوري السعيد ومحمد علي ألloبا (أحد قادة الحزب الليبرالي في مصر) قد تحدثا أيضاً مع قادة صهاينة من منطلقات شبيهة بموقف عبد الله. غير أن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يشارك في المساومة السياسية اليومية التي كانت جارية في فلسطين، بالقدر نفسه من الكثافة والحميمية كما فعل عبد الله. إلا أن وصول نوري السعيد إلى القدس في العشرين من آب أدى إلى تغيير ذلك كله بصورة درامية مثيرة. ففي القدس قام الأخير باحتلال ميدان المفاوضات المباشرة، وجهاً لوجه، مع الهيئة العربية العليا من جهة، والوكالة اليهودية من جهة ثانية، والإدارة البريطانية من جهة ثالثة، وهو ميدان كان فيما مضى حكراً على عبد الله بصورة فريدة.

كان عبد الله ساخطاً على الطريقة التي كانت الهيئة العربية قد اعتمدته لإبعاده وعلى تدخل نوري اللاحق.[65] فقد رفض حضور حفل استقبال تم في دار الحكومة بالقدس تكريماً لنوري، وأكد لكوكس استغرابه لنجاح محاولة نوري المستندة إلى قيامه هو بالحصول من بريطانيا على الوعود نفسها التي طالما ظلت تراوغه. ومما أثار لديه استياء خاصاً أن حليفه في الهيئة العربية العليا، راغب النشاشيبي، كان قد فتح ذراعيه مرحباً بوساطة نوري السعيد. غير أنه لم يتدخل عدا عن مطالبته لندن بإبقائه مطلعاً على التطورات. وما لبث غيظه أن هدأ لدى سماعه نبأ عدم حصول نوري على أية تنازلات.

أخفقت مبادرة نوري، وفي أوائل أيلول من عام (1936 م) أعلنت لندن عن اعتزامها إنهاء الإضراب بالقوة. إلا أن محاولات رامية إلى إيجاد حل دبلوماسي وسلمي للأزمة ما لبثت، في أثناء الفترة التي استغرقتها عمليات اجتراح التفاصيل الحقوقية للحكم العسكري، ووصول المزيد من القوات البريطانية إلى فلسطين، أن تكثفت، وتكللت بنداء الملوك والأمراء العرب الذي أنهى الإضراب، في اللحظة التي أصبحت فيها آلية الحكم العسكري (العرفي) جاهزة لأن توضع موضع التنفيذ العملي.

أحس عبد الله بأن الموقف الجماعي كان يهدف إلى تحييد نتائج وساطته الشخصية فلم يشارك في صياغة النداء. بل وسعى، بالفعل، إلى تعطيل النداء المشترك عبر محاولة أخيرة بذلها لإقناع لندن بضمان التنازلات أمامه هو في السر، بما يمكنه من استعادة السيطرة على الوساطة. غير أن إلحاح راغب النشاشيبي تمخض في اللحظة الأخيرة عن وضع اسمه على النداء.[66]

في التاسع من تشرين الأول قام كل من ملكي العربية السعودية والعراق، وإمام اليمن، والأمير عبد الله بإرسال نص النداء التالي:

إلى أبنائنا عرب فلسطين عن طريق رئيس الهيئة العربية العليا: لقد شعرنا بألم عميق إزاء الوضع الحالي للأمور في فلسطين. ولهذا السبب اتفقنا مع إخوتنا الملوك والأمير على دعوتكم إلى الوقوف في صف السلام، في سبيل وقف المزيد من إراقة الدماء. وحين نفعل هذا، إنما نعتمد على النوايا الطيبة لصديقتكم بريطانيا العظمى التي أعلنت عن اعتزامها تحقيق العدل. عليكم أن تثقوا بأننا سنستمر في بذل الجهود الرامية إلى مساعدتكم.(67)

تم نشر هذا البيان بعد يومين مصحوباً بآخر صادر عن الهيئة العربية العليا داعياً عرب فلسطين إلى إنهاء الإضراب. واستجابة للنداء قام عرب فلسطين بإلقاء السلاح وهم مطمئنون، واستأنفوا نشاطاتهم الاقتصادية الاعتيادية بعد الحصار الطويل. وهكذا باتت اللجنة الملكية قادرة على مباشرة مهمتها.

احتفل عبد الله بانتهاء الإضراب عن طريق قضاء إجازة في مصر، بعد أن ظل خلال الأشهر الستة السابقة مشغولاً ومهموماً. وعلى الرغم من أن شرق الأردن لم يكن مسرحاً للغليان السياسي الذي طبع البلدان العربية المجاورة في عام (1936 م) فإنه تأثر بها، ولا سيما بأحداث فلسطين. جرت أعمال تخريبية استهدفت شبكات الاتصالات، أنابيب النفط، والمكاتب الحكومية في شرق الأردن، كما تم في مدن وبلدات شرق الأردن تنظيم سلسلة من الإضرابات والتظاهرات التضامنية. وبرز بين صفوف النشطاء اتجاهان فكريان: اتجاه أولئك الذين أرادوا تنظيم متطوعين أردنيين يلتحقون بمعارك النضال في فلسطين، واتجاه أولئك الذين أيدوا فكرة إشعال حركة تمرد محلية لإبعاد القوات البريطانية عن فلسطين. ولكن أياً منهما لم يتحقق على أرض الواقع، على الرغم من أن بعض أبناء شرق الأردن التحقوا فعلاً بصفوف جماعات الفدائيين المتنامية في فلسطين، كما جرى تهريب كميات من الأسلحة عبر حدود شرق الأردن إلى داخل فلسطين. وكانت الاضطرابات السياسية مصحوبة بالصعوبات الاقتصادية. فالأمطار في الشتاء السابق كانت شحيحة مما أدى إلى أن يكون حصاد الصيف هزيلاً؛

أضف إلى ذلك أن مراعي قطعان البدو كانت هي الأخرى فقيرة وجرداء. أما فلسطين التي درجت في الأوقات العادية، على أن تكون سوقاً للعمالة فقد أغلق الإضراب أبوابها.[68]

تم استعمال العصا والجزرة، كلتيهما، لتبديد هذه السحب وإبعادها عن السماء الصافية المشمسة لهدوء شرق الأردن. فقد جرى نشر قوات الفيلق العربي وقوة الحدود في عمان لحماية قلب البلاد السياسي. وقبل انتهاء الإضراب كان الفيلق العربي قد زيد بمئتين من الجنود النظاميين كما كان قد تم إيجاد قوة إحتياطية لدعمه. وجرى إصدار قانونين ينصان على إنزال العقاب الجماعي بالقرى القريبة من مواقع أعمال تخريب خطوط الأنابيب وعلى طرد الفلسطينيين، كما تم تعطيل المدارس قبل انتهاء السنة الدراسية للحيلولة دون المظاهرات الطلابية. أما على صعيد تقديم الإغراءات والحوافز فقد جرى توزيع الأموال بسخاء على الزعماء القبليين البارزين من ذوي التأثير. فمع حلول نهاية شهر آب كان العقيد غلوب وعبد الله قد وزعا ألفاً وخمسين وألفا وخمسمئة وتسعين جنيهاً استرلينياً على التوالي. وتم ـ إضافة إلى ذلك ـ إنفاق حوالي (16225) جنيهاً استرلينياً على تنظيم عمليات الإغاثة، وشق الطرق بالدرجة الأولى، التي قطعت «شوطاً كبيراً على صعيد إبقاء الناس في المناطق الفقيرة والمحرومة هادئين».[69] إن جزءاً من الهبات التي وزعها عبد الله بسخاء جاء من الوكالة اليهودية.[70]

على الرغم من أن الإضراب كان منتهياً، فإن عمل اللجنة الملكية لم يكن قد أصبح سهلاً بعد. ففي الخامس من شهر تشرين الثاني، وهو اليوم الذي غادرت فيه اللجنة إنجلترا متوجهة إلى فلسطين بالذات، تم إعلان برنامج الهجرة الجديد. كان ثمة تخفيض متعمد، ولكن الإعلان شكل بالنسبة للهيئة العربية العليا التي ظلت تعقد الآمال على تحقق وقف مؤقت للهجرة، صفعة موجعة على الوجه. وقررت الهيئة العربية العليا ـ التي رأت أن استمرار الهجرة كان تعبيراً عن انحياز اللجنة في موقفها، وبرهاناً على أن

بريطانيا لم تكن تنوي بصورة جدية أن تراجع سياستها في فلسطين وتعيد صياغتها - أن تقاطع أعمال اللجنة.(71)

في هذه الأزمة الجديدة حاول عبد الله مرة أخرى أن يقوم بدور الوساطة بين فلسطين ولندن. رأى أن المقاطعة كانت مبررة بالنسبة للقادة الفلسطينيين، وطرح نفسه ممثلاً لعرب فلسطين على اللجنة الملكية كبديل عن زعمائهم.(72) قد يكون قطع الطريق على مثل هذا الاحتمال هو السبب الذي دفع الهيئة العربية العليا أخيراً إلى قبول نصيحة الملكين: ابن سعود وغازي، وصرف النظر عن المقاطعة بداية شهر كانون الثاني.(73)

ومهما يكن فإن عبد الله كان العربي الأول الذي قابل اللجنة الملكية رسمياً؛ إن ثلاثة من أعضائها زاروه في عمان بعد إلغاء المقاطعة بيضعة أيام. قال لهم: إن حل المسألة الفلسطينية يمكن العثور عليه في بنود وثيقة الانتداب بالذات، حيث يتعين على بريطانيا أن تفي بوعودها للعرب، كما وفت بوعودها لليهود، وهو أمر يمكن تحقيقه عن طريق إيجاد نظام حكم قائم على التمثيل في فلسطين. وكان رد عبد الله على اعتراضات اللجنة التي قالت بأن من شأن مثل هذا النظام أن ينطوي على تنكر بريطانيا لوعودها مع اليهود، نظراً لأن العرب متفوقون كثيراً على اليهود من حيث العدد، متمثلاً بإمكانية إقامة نظام حكم تمثيلي يلتزم بالخطوط السياسية العامة للانتداب،تماماً كما قامت حكومة العراق بخلافة سلطة الانتداب مع استمرار عملها في إطار المنطلقات التي ضمنتها المعاهدة الإنجليزية العراقية. وقال أيضاً إنه كان سيرحب بالمهاجرين اليهود في شرق الأردن بعد تسوية المشكلة في فلسطين، شريطة أن يأتوا كمواطنين عاديين وألا يطالبوا بمعاملة تفضيلية. كان انطباع اللجنة عن عبد الله إيجابياً، كما أن الأخير كان سعيداً بالاهتمام الذي لقيه منها.(74)

عادت اللجنة الملكية إلى لندن مع حلول نهاية شهر كانون الثاني. وعلى

امتداد الأشهر السبعة التالية ظل مستقبل فلسطين، مثله مثل مستقبل عبد الله، أسير متاهات آلية صنع القرار الملكي ـ الإمبراطوري، على الرغم من أن تتويج جورج السادس الذي حضره عبد الله وضع حداً للانتظار المقلق، حيث بادر الأخير إلى استغلال المناسبة من أجل كسب بعض التأييد في أوساط وزارة المستعمرات.

احتل المال صدر سلم قائمة هموم عبد الله. وقد استطاعت لندن توفير بعض الراحة له على هذا الصعيد، إذ كان قد صدر قرار قضى بزيادة المساعدات المجانية. وكان عبد الله يريد أيضاً إدخال بعض التعديلات الطفيفة على الاتفاقية الإنجليزية ـ الشرق أردنية، ولكن الحكومة البريطانية رغبت في إبقاء الأمور على حالها إلى أن تخرج اللجنة الملكية بتقرير للملأ. أما لجيبه الشخصي فقد طالب بالتعويض عن تخليه ـ كما زعم ـ عن خططه الرامية إلى تأجير الأراضي للوكالة اليهودية امتثالاً لرغبات بريطانيا. ولكن هذا الطلب لم يلق أذناً صاغية، على الرغم من أن وزارة المستعمرات لم تكن، على ما يبدو، تعلم بأن الوثيقة كانت ما تزال في الحقيقة نافذة.[75] كذلك قابل عبد الله بعض ممثلي الحركة الصهيونية، وناقش مسألة توطين اليهود في شرق الأردن مقابل الحصول على المساعدة المالية.[76]

توقف عبد الله في طريق عودته إلى الوطن في تركيا تعويضاً عن خيباته في لندن. كانت تلك زيارته الأولى لتركيا منذ عام (1914 م). كان أتاتورك ودوداً معه رغم أطواره الغريبة؛ فهو لم يصل إلى حفل الاستقبال الذي أقيم على شرف عبدالله إلا بعد أن كان الأخير قد انسحب إلى غرفة نومه، وكان معظم المدعوين قد غادروا إلى بيوتهم. عاد عبد الله من جناحه وأمضى الجزء الباقي من الليل يتحدث مع أتاتورك «دون احتساء الخمر بالرغم من ضغط رئيس الجمهورية». وبعد هذه الجلسة التي دامت الليل كله كان أتاتورك قد وجه رسالة مفعمة بالتملق إلى لندن نصح فيها بريطانيا

قائلاً: «إن من شأن توسيع صلاحيات سمو الأمير بجعله ملكاً أن يقدم خدمة كبيرة ليس فقط للعرب الذين يقدسونه إلى درجة العبادة، بل وللحكومة البريطانية أيضاً...». ولكن الشُكْر الذي «يفسر اتصاف رسالة أتاتورك بقدر غير قليل من المبالغة»[77] أدى، لسوء حظ عبد الله، إلى صرف النظر عن مضمون الرسالة.

أخطأ أتاتورك حين اعتبر عبد الله مقدساً لدى العرب. وبالفعل فإن العواطف العربية كانت عكس ذلك تماماً، إذ اضطر عبد الله إلى تغيير مسار طريق العودة. فزيارته كانت قد تمت في وقت شهدت فيه العلاقات التركية ـ العربية توتراً شديداً جراء التجاوزات والانتهاكات التركية المتزايدة في لواء (سنجق) إسكندرونة السوري. ساورت الشكوك القوميين ـ الوطنيين في سورية حول أن يكون مستعداً للموافقة على سلخ اللواء في سبيل الحصول على التأييد التركي لطموحاته السورية. وصل الغضب الذي أثارته زيارته بين صفوف العرب حداً جعل السفير البريطاني في أنقرة يصر على عودته إلى حيفا عن طريق البحر ومنها إلى القدس في قطار خاص،[78] بدلاً من العودة بالقطار عبر سورية كما كان مخططاً.

أنكر عبد الله بعد عودته إلى عمان وجود أية نوايا خبيثة وراء زيارته لتركيا. كما أنكر بقوة جملة الشائعات التي راجت في تلك الأثناء عن تأييده لفكرة تقسيم فلسطين: «ليس كل ما ينسب إلي فيما يخص تقسيم فلسطين إلا كذباً متعمداً. إن الكذب هو أشنع الخطايا».[69]

تمت إماطة اللثام عن تقرير اللجنة الملكية في السابع من تموز عام (1937 م). تضمن التقرير في جزأيه الأول والثاني تلخيصاً لتاريخ الانتداب وإدارته على التوالي، في حين قدم في جزئه الثالث والأخير اقتراحاً يقضي باعتماد (معالجة صارمة) لـ (الصراع المستعصي بين جاليتين قوميتين داخل الحدود الضيقة لبلد صغير). أما المعالجة فكانت متمثلة

بالتقسيم. كانت إحدى الدولتين الجديدتين مرشحة لأن تكون «دولة عربية مؤلفة من شرق الأردن والجزء العربي من فلسطين، والأخرى دولة يهودية». أثار التقرير أيضاً إمكانية نقل السكان أي نقل العرب من السواحل الفلسطينية.[80]

لم تكن وزارتا الخارجية والمستعمرات، كلتاهما، راضيتين عن التقرير لدى مراجعته قبل نشره. فالنتيجة الطبيعية المتمثلة بتمكين عبد الله من كسب الجزء المتروك للعرب من فلسطين كانت تزيد من تعقيد قابلية التقسيم المشكوك فيها بالذات. لم يكن السبب كامناً في أن عبد الله كان مكروهاً في لندن، أو في أن خدماته خلال السنوات الماضية لم تكن مقدرة. كان الاستقبال الفاتر للتقرير ناتجاً، بالأحرى، عن معرفة بريطانيا لحقيقة أن من شأن حصول عبد الله على مثل هذا المكسب العرضي أن يتمخض بالضرورة عن استعداء قادة عرب آخرين، بما يعرض قبولهم بفكرة التقسيم ذاتها للخطر:

> من شأن الاقتراح الذي يقضي بضرورة إدماج الدولة العربية الجديدة بشرق الأردن، رغم صحته المؤكدة من حيث المبدأ، أن يتعرض لقدر كبير من المعارضة، لأنه قد يعني إخضاعها لحكم الأمير عبد الله الذي تعتبره الأكثرية في العالم العربي مثيراً لقدر كبير من الشك على صعيد الولاء للقضية العربية، والذي أقدم، إضافة إلى ذلك، على إلحاق الضرر بمكانته، مؤخراً، جراء إقامة علاقات وثيقة مع الأتراك. فالأمير عبد الله، رغم تمتعه بالعديد من الفضائل، قصير النظر، وشديد الولع بالدسائس الصغيرة. وبالتالي فقد يفضي الحاق مساحات واسعة من فلسطين بدولة جديدة خاضعة لحكمه إلى بروز صعوبات من نمط جديد بين شرق الأردن... ودول عربية أخرى مثل سورية والعربية السعودية...[81]

كانت وزارة المستعمرات تعلق آمالاً على إمكانية (رشوة عبد الله). وقد تم تنبيه عبد الله عن طريق واتشوب إلى أن أية محاولة يبذلها «على صعيد

الإلحاح على طلبه أو عد كتاكيته قبل فقسها، لن تؤدي إلا إلى إلحاق الضرر بفرصه مع كل من حكومة جلالته والعرب في فلسطين وغيرها». طُلب من واتشوب أن يبلغ عبد الله بأن بريطانيا كانت تفضل خطة التقسيم، غير أنها لم تكن ملتزمة بأية نقاط تفصيلية.[82] إلا أن الاقتراح القاضي بإمكانية ضم الجزء العربي من فلسطين إلى شرق الأردن كان شديد الإغراء لعبد الله إلى درجة جعلته غير قادر على تجاهله. سارع فوراً إلى إعلان تأييده للتقسيم،[83] وكان الزعيم العربي الوحيد الذي فعل ذلك على الملأ.

في الأسابيع التالية تكاثفت سحب رعود الاحتجاج في سماء فلسطين. فالسكان العرب في فلسطين أجمعوا على رفض خطة التقسيم التي اقترحتها اللجنة الملكية. أما عبد الله فقد تم نبذه سياسياً مثل المصاب بالجذام جراء قبوله المتسرع للمشروع. حاول وأخفق في كسب تأييد الحاج أمين وإقناعه بالفكرة، عن طريق إغرائه بمنصب رئاسة الوزراء في الدولة الجديدة.[84] لم يكن أصدقاؤه القدامى أقل استياء إذ بادر راغب النشاشيبي وحزبه، الذي عرف باسم حزب الدفاع الوطني إلى الابتعاد عنه علناً. أما مؤيدوه في حيفا وعكا فقد أصيبوا بالرعب إزاء احتمال أن يقبل بتقسيم يبقيهم في الجزء اليهودي من فلسطين، وثمة آخرون من أنصاره اضطروا إلى الهرب من فلسطين خوفاً على حياتهم.[85] كذلك ترددت أصداء استنكار التقسيم وقبول عبد الله به في عواصم عربية أخرى. كانت معارضة التقسيم نابعة، كما تخوفت لندن، من العداء لعبد الله بمقدار ما كانت صادرة عن استهجان الفكرة نفسها. وكانت لدى دمشق حسابات تريد تصفيتها مع عبد الله الذي كان قد زار تركيا قبل شهر واحد، والذي ظل دائباً على التدخل في السياسة السورية سعياً وراء إقامة نظام ملكي هاشمي في سورية. ومن الطبيعي أن ابن سعود كان معارضاً لأي تعزيز لنفوذ خصمه اللدود منذ القدم. أما الهجمات الأقوى والأعنف فقد جاءت من مصدر غير متوقع، من أقرباء عبد الله في العراق. وقد تضمن رفض العراق الشديد

للتقسيم الذي علق عليه وزير المستعمرات قائلاً: «ما من عمل أكثر عداءً أو أكثر إحراجاً لي على الصعيد الشخصي كان يمكن اقترافه»[86] من الهجوم العنيف على عبد الله شخصياً في الصحافة العراقية. وكان رد الفعل العراقي، مثله مثل ردود الأفعال العربية الأخرى، يعكس مظالم متراكمة. أضف إلى ذلك أنها عكست أيضاً القلق المتزايد للنظام العراقي الذي لم يكن يستطيع تحمل تبعات المبالغة في التماهي مع عبد الله المكروه أكثر فأكثر.

منذ انقلاب بكر صدقي في تشرين الأول من عام (1936 م) ظل عبد الله حريصاً على متابعة الشؤون العراقية عن كثب. وقد كان بطبيعة الحال مستاء من الانقلاب - من ضياع سلطة ابن أخيه غازي - ملك العراق، وتحدي مشروعية الدعاوى الهاشمية التي ظلت تتمتع بالرعاية منذ الثورة العربية. بلغ قلقه حداً جعل غازي يدعوه إلى بغداد في كانون الثاني، ليرى بنفسه أن الوضع لم يكن على الدرجة التي تصورها من الخطورة. وبالفعل فإن عبد الله قد شعر بالارتياح إزاء ما وجده ولا سيما إزاء النزعة الانعزالية التي طبعت الحكومة، والتي تركت ساحة سياسة القومية العربية والوحدة العربية مفتوحة أمام نشاطاته الخاصة.[87] غير أن قلقه على سلامة عرش غازي ما لبث أن بلغ أوجه في ربيع عام (1937 م). ولم يعرف تدخله حدوداً وهو يحاول إقناع غازي بالاجتماع معه خارج حدود العراق، أو إبلاغه رسائل عن طريق عشيقة المرحوم فيصل. وقد أكثر من اتصالاته الهاتفية ببغداد، حتى أن المقسم العراقي اضطر إلى تبني ذريعة إبلاغه أن الخط كان معطلاً.[88]

بعد أشهر من مثل هذا الإزعاج الذي أثار سخط غازي الشديد، والذي كانت الحكومة العراقية قد حاولت، دون نجاح، جعل بريطانيا تلجمه، وفر قبول عبد الله بالتقسيم الفرصة المثالية لتشويه سمعته، لتحييد أي تأثيرات قد تترتب على دسائسه، ولإطلاق العنان للإحباط المكبوت. كما وفر للحكومة

فرصة توسيع دائرة جاذبيتها عن طريق الالتحاق مجدداً، ولو خطابياً، بركب دعاة الوحدة والقومية العربية.

وهكذا فإن عبد الله كان يقف وحده في العالم العربي في صيف (1937 م). كانت رائحة مؤامرات الاغتيال المنبعثة من سورية وفلسطين تملأ الأجواء، مما أدى إلى بعض الاعتقالات. ومواطنوه بالذات كانوا منقسمين حول قضية التقسيم، وقيل إن بعضهم كانوا مستعدين لأن يعملوا كطابور خامس ضده إذا ما وافق ابن سعود على غزو شرق الأردن.[89] بلغ إحساسه بالعزلة حداً جعله يوفد محمد الأنسي إلى القدس، ليتأكد من أن الوكالة اليهودية لم تكن هي الأخرى قد تخلت عنه للتعامل مع زعماء عرب آخرين يتمتعون بقدر أكبر من الشعبية.[90]

لماذا كان عبد الله، وحده، قد احتضن التقسيم؟ لم يجد معاصروه أية صعوبة في الاهتداء إلى دافع. فهو وحده كان سيكسب منه. أما الفلسطينيون فقد رفضوا الفكرة بأكثريتهم الساحقة؛ وقد أوضح ذلك عصيان مسلح دام عامين اثنين اندلع بعد بضعة أشهر من صدور تقرير اللجنة الملكية ودلّ على مدى غضب الفلسطينيين وشعورهم بالإحباط. كما ساعد على إقناع بريطانيا بأن التقسيم لم يكن سبيلاً لتصويب سياستها المتأزمة في فلسطين.

غير أن حركة التمرد قدمت بالفعل خدمة معينة لعبد الله، إذ أراحت القادة القوميين ـ الوطنيين الذين كانوا ينافسونه في فلسطين عن الطريق. وقد كان مؤيداً لقيام بريطانيا بإبعادهم منذ الإضراب العام.[91] وما إن زادت المعارضة حدة وخطورة بعد إعلان مشروع التقسيم حتى بادرت بريطانيا أخيراً إلى اتخاذ قرار يقضي باعتقال أعضاء الهيئة العربية العليا. صحيح أن الحاج أمين نجا من الاعتقال في فلسطين، ولكنه ما لبث أن قبض عليه في لبنان حيث وضع تحت الاعتقال المنزلي. أما أولئك الذين نجوا من الاعتقال تماماً ففروا إلى كل

من دمشق والقاهرة وبغداد. ومن دمشق قاموا بتوجيه حركة العصيان في فلسطين. ولسوء حظ عبد الله فإنه ظل، جراء ظروف العصيان، عاجزاً عن استغلال غيابهم وتوظيفه من أجل زيادة نفوذه في فلسطين.

أدت طبيعة العصيان المسلح بالذات إلى استبعاد عبد الله من المشاركة زعيماً صورياً، ناطقاً رسمياً، أو وسيطاً. كانت الحركة «حالة متوسطة بين حرب فلاحية من جهة، وحرب شعبية ثورية من جهة ثانية»[92] وما لبثت أن بدأت تكشف النقاب عن البنية التحتية للمجتمع الفلسطيني، وتدفع عناصرها المكونة المختلفة باتجاه معاداة بعضها بعضاً، وتلقي بظلال الشك على جملة المنطلقات والافتراضات التي كانت قد أبقت التنظيمات الهرمية السياسية على حالها إلى ذلك الحين. وكذلك فإن حركة العصيان أظهرت مدى صلابة القبضة الفولاذية للسيطرة البريطانية. أدى تصميم بريطانيا على سحق الثورة أولاً، والانتقال إلى الحديث عن مستقبل فلسطين بعد ذلك، إلى استبعاد الوساطة، فضلاً عن أن عبد الله كان، على أية حال، قد جعل نفسه شخصياً غير مؤهل للاضطلاع بمثل هذا الدور جراء تأييده الفاضح لعملية التقسيم.

طوال عامي الانتفاضة المسلحة أبقى عبد الله صوته خافتاً جداً. لم يسافر قط إلى خارج شرق الأردن، حتى إلى القدس؛ وجرى اختزال اتصالاته مع الوكالة اليهودية، وإن لم يتم قطعها في أي وقت من الأوقات. نأى بنفسه عن الرسميين البريطانيين في شرق الأردن، وقلص من تصريحاته الرسمية عن الوضع.

حاول عبد الله أن يبقى شبه غائب عن الأنظار في هذا الأوقات المضطربة. ولكن شرق الأردن كان، بسبب موقعه الجغرافي، شريان حياة الفدائيين المسلحين في فلسطين. فالأسلحة والرجال وصلت إلى فلسطين من الحجاز وسورية والعراق عبر شرق الأردن، كما شكل الأخير ملاذاً

للمقاتلين لدى تصاعد الضغط العسكري البريطاني في فلسطين. كانت الأراضي الوعرة والأدغال المزدهرة في منطقة عجلون الواقعة في الزاوية الشمالية ـ الشرقية لشرق الأردن المعابر الرئيسية للرجال والأسلحة والرسائل الآتية من دمشق وما وراءها، وأحد أكثر الأماكن أمناً لاجتماعات المتمردين. أضف إلى ذلك أن ولاء أهالي المنطقة من الفلاحين لعبد الله كان مشكوكاً به على الدوام، لأنهم ظلوا يشعرون بأنهم أقرب إلى فلاحي حوران والجليل من العناصر القبلية المفضلة في عمان. وقد ظلوا، مثلهم مثل أكثرية فلاحي فلسطين، يوفرون الغطاء والمؤن للمتمردين عند الحاجة.[93] تراوحت تخمينات أعداد الشرق أردنيين الذين التحقوا بصفوف المقاتلين بين الخمسين والمئتين وخمسين.[94] أما داخل شرق الأردن نفسه فقد تعرضت شبكات الاتصالات وخطوط أنابيب النفط والمكاتب الحكومية للأعمال التخريبية بصورة منتظمة.

اضطلع الفيلق العربي بمهمة حماية عبد الله من مثل هذه الانعكاسات الداخلية، كما قام هو بتشجيع القرويين في الشمال على تنظيم الدفاع الذاتي ضد المتمردين. وكانت هذه الفكرة شبيهة بتلك التي كمنت وراء خلق روابط السلام المزعومة في فلسطين، تلك الجماعات المسلحة المعادية للمتمردين المنظمة لمنع القرويين من دعم المتمردين. وبالفعل فإن الإشاعات تحدثت عن وجود اتصالات بين عبد الله وبين منظمي هذه الجماعات الرئيسيين: فخري النشاشيبي وفخري عبد الهادي.[95]

على الرغم من أن بريطانيا كانت عازمة على سحق الثورة، وكلفت جزءاً كبيراً من قواتها العاملة بتنفيذ المهمة، فإن فكرة التقسيم لم تلق قط ترحيباً دافئاً لدى الحكومة البريطانية. فما إن باتت استنتاجات اللجنة الملكية معلنة على الملأ حتى بدأت الحكومة البريطانية تنأى بنفسها عن الفكرة. وما لبثت لجنة تقسيم برئاسة السير جون وودهد، تم إيفادها لاحقاً للنظر في الكيفية العملية لاجتراح التقسيم على الأرض، أن وفرت مخرجاً للتراجع.

تضمن التقرير [الذي أعدته اللجنة الجديدة] ثلاثة مشاريع تقسيم، وأشار إلى أكثرها اتصافاً بالمعقولية، غير أنه استخلص أن أياً من المشاريع المطروحة لم يكن قابلاً لأن يتمخض عن دولتين قادرتين على الاستمرار والحياة. وبالتالي فإن التصريح السياسي المستند إلى استنتاجات اللجنة قام بدفن فكرة التقسيم، وأعلن أن بريطانيا كانت ستسعى إلى حل قائم على التفاهم بين العرب واليهود. وللتوصل إلى مثل هذا الحل كان سيتم سريعاً دعوة قادة فلسطينيين وعرب آخرين ومندوبين صهاينة إلى لندن ليتشاوروا مع الحكومة البريطانية من جهة، ومع بعضهما بعضاً من جهة ثانية، إذا سارت الأمور كلها سيراً حسناً.[96]

كان عبد الله قد اجتمع بأعضاء من لجنة التقسيم، على الرغم من المقاطعة الفلسطينية الاجماعية لعملها. فقد قدم بياناً مكتوباً اقترح فيه، كبديل للتقسيم، توحيد فلسطين مع شرق الأردن تحت حكمه هو، وضمان حكم ذاتي للمناطق اليهودية في إطار الدولة الموحدة الأكبر. واقترح أيضاً إبقاء الانتداب البريطاني عشر سنوات، يتم بعدها استبداله بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الإنجليزية ـ العراقية. أما الهجرة، وهي المشكلة الأشد تعقيداً، فكانت ستستمر في المناطق اليهودية المتمتعة بالحكم الذاتي. وفيما بعد «سيتم ترك اتخاذ القرار بشأن مسألة السماح بهجرة أعداد مناسبة إلى أراضي الدولة العربية الموحدة (خارج المناطق اليهودية) كما يراها العرب، إذا ما أثبتت تجربة حسن النية واستعداد اليهود للاندماج بهم أن مثل تلك الهجرة لا تنطوي على أي ضرر».[97]

لم تكن خطة عبد الله جديدة، على الرغم من أن بعض التفاصيل كانت حديثة. وقد أطلق المنتقدون العرب عليها اسم (مشروع تقسيم مصغر) وشجبوا تدخله من خلف ظهور القادة الفلسطينيين المنفيين. وعلى الصعيد الشعبي تم إغلاق المحلات التجارية في العديد من مدن وبلدات شرق الأردن تعبيراً عن التضامن مع فلسطين، وعن المعارضة لعبد الله.[98]

وما إن علم عبد الله أن استنتاجات وودهد كانت قد نسفت مشروع التقسيم حتى أبلغ لندن عن أنه كان ينتظر تعويضاً. إنه يعتبر حكومة جلالته ملزمة أدبياً بالتعويض عن تبدد الأحلام «لأنه دعم سياستها وأبقى شرق الأردن هادئاً».[99] جاء رد لندن سريعاً ورشيقاً. على الفور جرى التصويت على منحه مبلغ ألف وخمسمئة جنيه استرليني كمنحة استثنائية، كما تمت دعوة رئيس وزرائه توفيق أبو الهدى إلى لندن على رأس المندوبين العرب الآخرين القادمين للمشاركة في مفاوضات الطاولة المستديرة المقترحة حول فلسطين من أجل مناقشة وضع شرق الأردن.[100]

عُقد مؤتمر سانت جيمس الذي كان سيشكل أداة لصياغة سياسة فلسطينية جديدة على عجل بسبب الاقتراب المؤكد بشكل لا لبس فيه للحرب مع ألمانيا. فمنذ أيلول (1938 م) خلال أزمة ميونخ، كانت خطط التصرف بالشرق الأوسط في حال نشوب حرب أوربية قد دُرست. وكان قد تقرر آنذاك، قبل استكمال تقرير لجنة التقسيم بوقت غير قصير، تعليق عملية التقسيم ووقف الهجرة في حال نشوب الحرب، وتم إرسال بيان يتضمن ذلك، برقياً، إلى سائر المراكز البريطانية في الشرق الأوسط، يكون جاهزاً للإعلان لحظة اندلاع الحرب بصورة مفاجئة.[101] وعلى الرغم من أن الأعمال العدوانية تم تجنبها بصورة مؤقتة، فإن (سلام زماننا) حسب تعبير تشمبرلين كان موشكاً على الإنتهاء، وليس أكثر من عملية تأجيل للحرب. وفي هده المهلة كانت إحدى المهمات الكثيرة التي تواجه بريطانيا متمثلة بتصفية الحسابات في الشرق الأوسط، بغية تعزيز القدرة الدفاعية للإمبراطورية. لتلك الغاية كان مؤتمر سانت جيمس قد دعي إلى الاجتماع.

من الجانب العربي ضم المؤتمر أعضاء من الهيئة العربية العليا (ولو بدون الحاج أمين) ومن تنظيم النشاشيبي، ومن حزب الدفاع الوطني (بمن فيهم راغب النشاشيبي)، ممثلين لفلسطين، مع ممثلي كل من مصر والعراق وشرق الأردن والعربية السعودية واليمن. أما من الجانب اليهودي فقد حضر ممثلون

عن الوكالة اليهودية في فلسطين، وعن الجاليات اليهودية في كل من بريطانيا وأوروبا وجنوب افريقيا وأمريكا. اجتمع الوفدان مرة اجتماعاً غير رسمي، غير أن المؤتمر كان من حيث الجوهر مؤتمرين، لأن المندوبين العرب من جهة ونظرائهم اليهود من الجهة المقابلة لم يجتمعوا مع بريطانيا إلا بصورة منفصلة. تجنب توفيق أبو الهدى، ممثل شرق الأردن، البروز في جلسات المؤتمر وظل حريصاً على مسايرة المشاعر العربية العامة في سائر النقاط.

في نهاية المؤتمر كان الجانبان البريطاني والعربي قد توصلا إلى قدر أكبر من التفاهم، بالمقارنة مع التفاهم المتحقق بين الجانبين البريطاني واليهودي. وقد جاءت النتيجة المتمثلة بالكتاب الأبيض عاكسة لمدى اتفاق الأطراف. كان نظام حكم دستوري سيقام تدريجياً في فلسطين على مدى عشر سنوات؛ تحددت الهجرة اليهودية خلال السنوات الخمس القادمة بخمس وسبعين ألفاً، وقد قُدر أن من شأن هذا الرقم أن يوصل حجم السكان اليهود إلى حوالي ثلث العدد الإجمالي لسكان فلسطين؛ وأية هجرة إضافية لن يتم السماح بها بعد تلك الفترة إلا بموافقة العرب، كما أن عمليات بيع الأراضي كانت ستخضع للتنظيم.[102] أما الاستقلال اللاحق لفلسطين فقد جرى ربطه بشرط وجود علاقات جيدة بين العرب واليهود، وقد كان هذا غموضاً أثار استهجان الهيئة العربية العليا وشعورها بعدم الثقة.

أقبل عبد الله على احتضان سياسة بريطانيا الجديدة. فالتنازلات التي كان توفيق أبو الهدى قد استطاع الحصول عليها لصالح شرق الأردن في مناقشاته المسبقة مع وزارة المستعمرات كانت قد نزعت بعض الأشواك من خيبته إزاء التقسيم. وكانت هذه المناقشات منطوية على قدر من الأهمية لأنها كشفت عن حقيقة وضع عبد الله في شرق الأردن. أكد أبو الهدى على أن شرق الأردن لن يقدم على المطالبة باستقلاله قبل أن تصبح متوفرة على الموارد المالية اللازمة لدعمه، وأضاف أن شرق الأردن ينبغي أن يتحد

مع كل من سورية وفلسطين ليتمكن من (الوقوف على قدميه). كما أنه رفع صوته إلى الحد الأقصى مطالباً بإعطاء عبد الله مبالغ مناسبة من الأموال لتمكينه من الإنفاق على كسب المزيد من التأييد في البلاد.

فالشعب، والبدو وجميع شيوخ مختلف القرى، شديدو الارتباط به [بعبد الله] شخصياً لأنه مسلم ولأنه حفيد النبي ولأنه ديمقراطي جداً معهم، وهم يجدون دائماً أبوابه مفتوحة على مصارعها... هذا بحد ذاته ليس كافياً.. وأحياناً ينوء الأمير تحت عبء الديون، حتى يتمكن من الإنفاق على حملة النشاطات التي من شأنها أن تبقي الشعب ملتفاً حوله... ولدى الفيلق العربي وغيره من السلطات الإدارية الأخرى بعض الصناديق السرية الخاصة لمثل هذا النوع من الإنفاق...

وتابع كلامه داعياً إلى تمكين عبد الله من امتلاك صناديق مماثلة. وقد تم إعلان التنازلات قبل السياسة الفلسطينية بيوم واحد، «لإعطائها فرصة يوم واحد قبل الكتاب الأبيض الفلسطيني لتمكين الأمير عبد الله من تحقيق حملة دعائية ناجحة متركزة على التنازلات التي كان قد فاز بها». وكانت التنازلات تخص تعيين الممثلين القنصليين في بلدان عربية مجاورة معينة، بالإضافة إلى إطلاق يد عبد الله على صعيد زيادة حجم القوات العسكرية وإدامتها، وزيادة ميزانيته المدنية إلى ثمانية عشر ألفاً من الجنيهات الاسترلينية في السنة، وتخفيض الرقابة المالية والإدارية، واستبدال الموظفين الأجانب بموظفين من شرق الأردن عندما يصبح ذلك ممكناً.(103)

كانت ردود الفعل العربية الأخرى على السياسة الفلسطينية الجديدة لبريطانيا ملتبسة. بادر راغب النشاشيبي، حاذياً حذو عبد الله، إلى الترحيب بها، وما لبث الرجلان أن تصالحا بعد عامين من النفور والجفاء.(104) أما الحاج أمين فرفضها وجر معه الهيئة العربية العليا علناً، على الرغم من أن بعض الأعضاء نظروا إليها نظرة أكثر إيجابية. كذلك بادرت الدول العربية إلى رفضها علناً، غير أن مصر والعراق ألحتا في السر على قبولها. وهكذا

فإن الكتاب الأبيض ساعد عبد الله على الاهتداء إلى طريق العودة إلى الحظيرة العربية [الصف العربي] في الوقت الذي ساهم فيه بتدهور الهيئة العربية العليا، عن طريق إحداث انشقاق في الصف العربي داخل فلسطين وخارجها.

ساهم اندلاع الحرب العالمية الثانية بعد خمسة أشهر هو الآخر في تدهور أحوال منافسي عبد الله في فلسطين. فمع نشوب الحرب عادت آمال الحرب السابقة وأحلامها إلى الانتعاش. وعلى الرغم من أن العالم العربي كان قد تعرض للخذلان جراء الترتيبات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، فإن الحرب، بمخاطرها ومفاجآتها، بدت قادرة على فتح أبواب مختلف أنواع الاحتمالات أمام الشعوب التي لم تتورط فيها إلا بصورة هامشية. حلت التوقعات الدبلوماسية محل التنظيم السياسي بين صفوف عرب فلسطين، وخلال سنوات الحرب الخمس ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية أسيرة شلل قاتل. أما البريطانيون فكانوا فارضين سيطرة عسكرية مكثفة على فلسطين. وأمضى الحاج أمين جزءاً كبيراً من فترة الحرب في ألمانيا. وخلال هذه المدة كان عبد الله حريصاً على أن يتمكن، مع انتهاء الحرب، من المشاركة في تسوية مسألة فلسطين غير المنتهية.

8) الحرب والسياسة

وصل نبأ إعلان الحرب إلى عمان بعد ظهر الثالث من أيلول. سارع عبد الله فوراً إلى تطيير برقية تأييد للملك جورج السادس، وتم في مساء اليوم نفسه احتجاز جميع الألمان المقيمين وزجهم في المعتقلات. وفي اليوم التالي جرى وضع أنظمة الطوارئ التي تضمنت صلاحيات استثنائية وغير عادية، مثل الرقابة والحبس الإداري موضع التنفيذ. وقام عبد الله أيضاً بعرض الفيلق العربي على بريطانيا، وخاب أمله لعدم وجود ساحات قتال محلية توفر له من البداية فرصة البرهان على ولائه المفعم بالحماس.[1]

بين سائر الدول العربية المتعاهدة مع بريطانيا، أو التي ترتبط بها بروابط انتدابية كان شرق الأردن الأقل مقاومة للاندفاع بقوة باتجاه تلبية متطلبات تلك التحالفات. فعلى النقيض من حال شرق الأردن، لم تكن مصر مستعدة لأن تذهب إلى أبعد من إعلان نفسها حليفة غير محاربة، كما ساد الاعتقاد بأن الملك فاروق ورئيس الوزراء علي ماهر كانا متعاطفين مع المحور. وحاولت الحكومة العراقية أن تحتفظ بموقف محايد في الصراع. وكانت مشاعرها الغامضة متجلية في تفسيرها الضيق للمعاهدة الإنجليزية - العراقية، وقد كان تفسيراً شديد الاختلاف عن التفسير البريطاني، إلى درجة أدت إلى نشوب حرب بين القوات العراقية والبريطانية في عام (1941 م). ولكن الحرب في أوربا كانت، بصرف النظر عن أشكال التعبير عن الولاء أو عدمه، تعني شيئاً واحداً بالنسبة للدول العربية، ألا وهو أنها الفرصة المناسبة لاستكمال عملية التحرير التي بدأت في الحرب العالمية الأولى. وما إذا كان ذلك سيتحقق عبر التحالف مع بريطانيا، أو من خلال عقد الآمال على احتمال تعرضها للهزيمة،

لم يكن إلا مسألة ظروف تاريخية إلى حد كبير. ولم يكن أمام عبد الله الذي كان وضعه في شرق الأردن من صنع بريطانيا، فضلاً عن تعويل حكومته على التمويل البريطاني الضخم أي خيار سوى اللحاق بركب بريطانيا وتمني ما هو أفضل.

لم تواجه سياسة عبد الله الموالية لبريطانيا داخل شرق الأردن معارضة ذات شأن. فخلال سنوات الانتداب البريطاني العشرين لم تكن أية بنى تنظيمية سياسية مستقلة قد ظهرت، كما لم تكن البنية السكانية أو الاقتصادية لشرق الأردن قد شهدت قدراً من التغيير يكفي لإتاحة الفرصة أمام نشوء سياسة وطنية فعالة. قُدر العدد الإجمالي لسكان شرق الأردن في عام (1938 م) بثلاثمئة ألف نسمة؛ وكانت المدينتان الكبريان في البلاد هما عمان والسلط اللتين، كانت كل منهما تؤوي ما يقرب من عشرين ألف نسمة.[2] كان الفيلق العربي خاضعاً لسيطرة بريطانيا الصارمة، وبالتالي لم يشكل قناة لأي نفوذ سياسي داخلي كما كانت حال الجيش في العراق. أما التعليم المتوفر في شرق الأردن فقد كان ما يزال بدائياً ولم يكن قد تمكن بعد من إفراز طبقة مثقفة محلية،[3] في حين كانت المؤسسات الصناعية قليلة وصغيرة.[4] لم تكن مؤسسات السلطة السياسية قد حققت أي قدر من الاستقلالية السياسية منذ إيجادها في عام (1928 م)، وبالفعل فإن المقيم البريطاني كان يمارس قدراً من التحكم بالشؤون الإدارية، أكبر مما نصت عليه الاتفاقية الإنجليزية ـ الشرق أردنية صراحة. فالمقيم البريطاني الجديد أليك كيركبرايد، مثلاً، علق في تشرين الثاني من عام (1939 م) قائلاً: «توصلت مع رئيس الوزراء [توفيق أبو الهدى] إلى اتفاق مرض حول التشاور الثنائي وغير الرسمي بشأن الأمور الإدارية بوصفها مسائل يمكن اعتبارها عائدة لحكومة جلالة الملك».[5] وبهدف التأكيد بصورة مطلقة من عدم إتاحة أية فرصة لمناقشة الروابط الإنجليزية ـ الشرق أردنية تم تمديد فترة ولاية المجلس التشريعي من ثلاث إلى خمس سنوات، مما أدى إلى تأجيل

الانتخابات إلى عام (1942 م) بدلاً من عام (1940 م). وحين اجتمع المجلس التشريعي في تشرين الثاني من عام (1940 م) بادر إلى رفع مستواه المألوف من الطواعية والامتثال، عن طريق إصدار اثنين وثلاثين قانوناً في أسبوعين اثنين دون تسجيل صوت معارض واحد.[6]

وعلى أية حال فإن المعارضة التي برزت على السطح بين الحين والآخر لم تكن إلا معارضة متفرقة وغير منظمة وانتهازية في الغالب. وفي مواجهة مثل هذه المعارضة كان لدى بريطانيا سلاحان هما قانون الطوارئ والمال. فالأول كان يقضي بتعليق الإجراءات الأصولية بما يجيز الاعتقال استناداً إلى الشبهة والشك؛ والثاني كان مرحباً به رغم أنه لم يكن متوفراً بكثرة كما كانت حاله خلال الحرب العالمية الأولى. ففي كانون الأول من عام (1940 م) تم تسليف غلوب الذي كان قد خلف بيك في قيادة الفيلق العربي، مبلغ ألف جنيه استرليني لتغطية "دفعات غير عادية أو غير متوقعة." وفي عام (1940 ـ 1941 م) المالي تم إعطاء عبد الله مبلغ خمسة آلاف جنيه استرليني إضافة إلى قائمته المدنية البالغة ثمانية عشر ألفاً من الجنيهات.[7]

على الرغم من الآفاق الشرق أردنية المشرقة بالنسبة لبريطانيا كانت ثمة بقعة مظلمة في الأفق، أو أن كيركبرايد على الأقل اعتقد بوجودها، ألا وهي تلك المتمثلة بشخصية ابن عبد الله البكر ووريثه طلال.

كانت الآمال قد عقدت على أن من شأن زواج طلال في عام (1934 م) أن يساعده على الفوز بقدر من الاستقلالية المنزلية عن أبيه، فيتمكن من الاستقرار في حياة عائلية هادئة في عمان، ولكن ذلك لم يحصل. لم يتوفر له ما يكفي من المال ليفتح بيتاً منفصلاً، وأدى قربه المستمر من أبيه الذي لم يسبق له قط أن كان على علاقة طيبة معه، وإحساسه المرير بالتبعية المالية، إلى سلسلة من الانفجارات بين الطرفين. ومما يقال: إن ولادة حسين، الابن الأول لطلال في تشرين الثاني من عام (1935 م) ما لبثت بصورة مؤقتة أن

أدت إلى تخفيف التوتر؛ ومع ذلك فإن طلالاً جرى ترحيله، في غضون ثلاثة أشهر، إلى القاهرة طلباً لتوفير الراحة له من ضغوط القصر.[8]

بدت الخصومة الشخصية بين الأب وابنه مكتسبة لوناً وبعداً سياسيين، مع تماهي طلال عموماً مع "المعارضة". خشيت بريطانيا من أن يؤدي الشقاق بين الاثنين إلى اجتذاب الانتهازيين السياسيين. ففي عام (1937 م) كان بيك، مثلاً قد علق قائلاً:

أعتقد أن الصراع المعروف جيداً بين هذين الشخصين قد يشجع بعض الأشخاص المتعصبين على السعي لاغتيال سمو الأمير عبد الله أو طلال. يتحدث كلاهما بقدر مفرط من الغباء أمام من هب ودب عن أحوال شؤون الأسرة. وفي حين أن طلالاً على علاقة جيدة مع المعارضة التي يشجعها كما قيل لي، فإن هذا الشاب يتحدث بقدر كبير من الحماقة، وقد عرف عنه بأنه دائب على التعبير عن عواطف معادية للإنجليز، وأنا متأكد من أنه الآن بعد أن بات مهووساً بكره أبيه صار يطلق طوفاناً من الأفكار الخطرة.[9]

وما لبثت هذه المخاوف أن تزايدت جراء اندلاع الحرب.

كتب عبد الله في أوائل عام (1939 م) رسالة وجهها إلى كيركبرايد الذي لم يكن المقيم البريطاني الجديد فقط بل وصديقاً قديماً، قال فيها: إن سلوك طلال أجبرني «على توجيه قصارى اهتمامي نحو ابني الثاني».[10] وقام كيركبرايد بإيصال هذه المعلومة إلى المندوب السامي مصحوبة بإيمانه بأن ما كان يجول في ذهن عبد الله هو اعتزام جعل نايف خليفته بدلاً من طلال. وأضاف المندوب في رسالة التغطية الموجهة إلى لندن قائلاً: «لا شك أن نايفاً سيكون الآمن والأسلم بين الاثنين».[11]

حتى قبل اندلاع الحرب كان كيركبرايد قد اتخذ خطوات أولية باتجاه استبعاد طلال. كان قد أطلع عبد الله بصورة غير مباشرة على إمكانية اعتماد قانون خلافة مختلف، وأكد على أن أياً من رئيس الوزارة الحالي والسابق لم يكن مستعداً لقبول المنصب في ظل طلال. وتجاوباً مع إلحاح

كيركبرايد أرسل المندوب السامي برقية إلى وزارة المستعمرات قال فيها: إن «الأمير يعاني من داء السكري» وإن من الضروري إعداد قانون للخلافة. اتسم رد فعل وزارة المستعمرات بقدر من الشك، حيث قيل: «اعتقدت أن هذا كان معروفاً منذ بعض الوقت، وبعد تأخير دام عشرة أعوام!» تعليقاً على الوضع الصحي لعبد الله ورداً على دعوة المندوب السامي إلى اتخاذ التدابير العاجلة.[12]

وجدت وزارة المستعمرات الاقتراح مهزوزاً لعدد من الأسباب. فقد رأت تفسير المندوب السامي لعدم أهلية طلال (شديد الإيجاز) كما لم تقتنع بأن نايفاً «المشهور بأنه مخلوق غبي جداً وغير فعال» كان ملائماً.[13] غير أنها قررت ترك الأمر لمن هم في الميدان، فسارع كيركبرايد إلى حسم القضية قائلاً عن طلال: إنه «متطرف في عادته، غير جدير بالثقة في العمق، ويكن عداء عميقاً لبريطانيا»[14] إلا أن طلالاً وعبد الله كانا، لدى صدور موافقة وزارة المستعمرات على استبعاد الأول من العرش، قد تصالحا. ومع ذلك فإن المندوب السامي قام بإعداد مشروع قانون خلافة يكون جاهزاً في المرة القادمة التي ينشب فيها صراع بين الطرفين، وقد حصل في تشرين الثاني من عام (1940 م).

نص مشروع القانون على أن تؤول الخلافة إلى أقرب ذكر لعبد الله الذي هو طلال أولاً وإلى نايف ثانياً، وإلى ابن طلال الحسين ثالثاً، كما نص على إمكانية استبعاد أي منهم، بإرادة ملكية، بذريعة عدم الأهلية. ذلك هو البند الذي كان سيجري تجاوز طلال بموجبه.[15]

أما جوهر الصراع بين عبد الله وطلال في شهر تشرين الثاني فليس واضحاً. ربما كان الخلاف حول اثنين اشتهرا بسوء السمعة من المفضلين لدى عبد الله طالب طلال بطردهما،[16] أو حول زوج عبد الله الجديدة: ناهدة التي كان المجتمع العمّاني يطلق عليها لقب "العبدة" إشارة إلى سواد

بشرتها، فقد كان كلاهما موضوع خلاف بينهما في تلك الأيام.

كانت ناهدة ابنة إحدى الجواري اللواتي خدمن قصر الشريف في الحجاز. وبعد سقوط الحجاز جاءت الأم وابنتها إلى عمان، حيث تم إعطاء ناهدة لابنة عبد الله مقبولة لتلعب معها. ما لبثَ أن لفتت نظر عبد الله الذي أعتقها، وأسكنها في جناح خاص بها وفي قصر لها فيما بعد، ثم تزوجها أخيراً. صارت صاحبة نفوذ كبير لدى عبد الله وظفته في مراكمة الثروة عن طريق العقارات بالدرجة الأولى.[17] غير أنها لم تحصل قط على لقب الأميرة الذي حملته الزوجان الأخريان، كما لم يتم الاعتراف بالزواج على الصعيد الاجتماعي. عزت الإشاعات نفوذها إلى السحر. وكان عبد الله الذي رأى علائم انحطاط النظام الملكي البريطاني في تنازل إدوارد الثامن عن العرش لأن الملك لم يكن قادراً على الزواج ممن يختارها، أنه قد نجح ولو لمرة واحدة في أن يفعل شيئاً لم تنجح بريطانيا في موازاته. صحيح أن الأسرة وعمان كلها ضجتا بالفضيحة، إلا أن طلالاً كان الوحيد الذي تصدى لأبيه وجابهه.

بصرف النظر عن الأسباب، وفر النزاع فرصة إعادة طرح مسألة الخلافة. وقد تم إقرار قانون الخلافة الجديد أصولاً من قبل المجلس التشريعي، وأصبح نافذاً في السادس عشر من كانون الثاني في عام (1941 م)؛ وفي اليوم نفسه أصدر عبد الله إرادة سرية قضت باستبعاد طلال. جرى وضع ثلاث نسخ في مظاريف مختومة وحفظها: واحدة في ديوان الأمير (مكتبه الخاص). والثانية في مكتب رئيس الوزراء، والثالثة في مكتب المقيم البريطاني.[18]

ومع إزاحة طلال عن الطريق بات كيركبرايد يشعر بالاطمئنان إلى أن شرق الأردن أصبح مفروشاً بورود الأمن والهدوء، وذلك في الوقت المناسب تماماً لأن الحرب كانت، مع حلول ربيع عام (1941م) قد اقتربت اقتراباً خطيراً من حدود شرق الأردن.

أدى سقوط فرنسا وما أعقب ذلك مباشرة من تحول الجيش الفرنسي في المشرق إلى قوة معادية محتملة إلى إقحام الحرب في قلب الشرق الأوسط وعلى عتبة باب عبد الله. ومع ذلك فإن الاندلاع الأول للقتال جراء التوترات الحربية لم يتم في سورية بل في العراق في ربيع عام (1941 م) حين أطاح انقلاب بابن شقيق عبد الله، الملك الموالي لبريطانيا عبد الإله، وراح يهدد المصالح البريطانية هناك كما في سائر أرجاء المنطقة.

شكل الانقلاب صدمة قوية لعبد الله. فقد كان مؤشراً واضحاً وضوحاً لا لبس فيه على أن العواطف في العالم العربي كانت تشهد تحولاً، وعلى أن قوى جديدة مناوئة لأسلوبه في السياسة ومعادية لمصالحة كانت تستجمع قوتها. أما أخوه في القلق والخوف فكان نوري السعيد، رئيس الوزراء ووزير الخارجية السابق في العراق والمتماهي تماهياً كاملاً لا انفصام له مع بريطانيا. كان نوري السعيد قد وصل عن طريق الجو إلى عمان في الحادي والثلاثين من آذار، دون إعلان سابق، ونتيجة (توقع استخباراتي لانقلاب) على ما يبدو. أما الملك عبد الإله الذي فر من بغداد بمساعدة المفوضية الأمريكية، مع عراقيين آخرين من العصبة الموالية لبريطانيا، فقد التحق بركب نوري السعيد في عمان بعد حوالي أسبوعين.[19] وفيما كانت هذه المجموعة تنتظر في الأروقة، استعدت بريطانيا للتحرك من أجل عمل شيء بشأن حكومة رشيد عالي الكيلاني الجديدة.

وضعت الإطاحة بأقرب أصدقاء بريطانيا العراقيين حداً للمساعي الدبلوماسية الرامية إلى جر العراق وإقحامه في أتون الحرب في صف الحلفاء. فبعد أن سئمت من رفض العراق لإعلان الحرب على ألمانيا وقطع العلاقات مع الإيطاليين، وباتت مذعورة لدى سماع الإشاعات الدائرة حول اتصالات عراقية مع قوى المحور، قررت بريطانيا ضمان تعاون العراق بوسائل عسكرية قبل فوات الأوان. واندلع القتال بين بريطانيا والعراق بعد شهر واحد من انقلاب رشيد عالي. وتلك كانت الفرصة التي كان عبد الله قد

ظل ينتظرها، فسارع إلى إرسال لواء آلي يضم (350) رجلاً من الفيلق العربي لارشاد القوات البريطانية عبر الصحراء. وبعد انجاز هذه المهمة قام الفيلق العربي بقطع السكة الحديدية إلى الشمال من بغداد.[20] وما إن أصبح رشيد عالي محاصراً بالقوات البريطانية من جهتي الغرب والجنوب وبالفيلق العربي من جهة الشمال، حتى فر مع مؤيديه إلى إيران. وبعد ذلك عاد الملك ودخل العراق من جهة الغرب، مقترضاً أسطولاً من السيارات من عبد الله وصندوقاً من قوارير الجعة من كيركبرايد.[21]

ما كان حادث استخدام الفيلق العربي ضد دولة عربية (شقيقة) ليمر دون أن يترك آثاراً ملموسة في عمان. فالحكومة المتخوفة من النقد أو مما هو أسوأ بادرت إلى فرض الأحكام العرفية التي تحظر الاجتماعات والتظاهرات، وتمنع التنقل بالسيارات، وتعين حرساً قبلياً خاصاً لحماية جسور الطرق والسكك الحديدية، وتراقب الإذاعات والصحف، وتقطع الطريق على تداول الإشاعات بين موظفي الحكومة. وبفضل مثل هذه التدابير استطاع كيركبرايد أن يقدم تقريراً إلى لندن، يتحدث فيه عن أن مشاركة الفيلق العربي في الحملة العراقية كانت متمتعة بالشعبية بصورة عامة. غير أن دلائل تشير إلى مشاعر مغايرة كانت موجودة. فقد تظاهر تلاميذ المدارس وتعرضوا للطرد من مدارسهم؛ كما أن معلميهم طردوا من وظائفهم.[22] ودعا حديثة الخريشة الذي كان أحد شيوخ بني صخر أبناء عشيرته إلى الاستقالة من الفيلق العربي، كي لا يضطروا إلى مقاتلة إخوتهم العرب بأمر بريطانيا، وقام بزيارة إلى العربية السعودية للتهرب من عواقب أفعاله.[23] أما الحدث الأكثر شؤماً وخطورة فقد تمثل بعصيان بين صفوف قوة حدود شرق الأردن، حين رفضت إحدى السرايا عبور الحدود مع العراق، وجرى اتهام سبعة من ضباط الصف بالتورط في مؤامرة استهدفت السطو على الأسلحة والالتحاق بصفوف المقاتلين ضد بريطانيا.[24] ومع ذلك فإن الفيلق العربي بقي موالياً لضباطه البريطانيين.

بعد إمساك بريطانيا بزمام المبادرة في العراق، تابعت تقدمها لإنجاز حملتها المنتظرة منذ أمد طويل ضد قوات فيشي في سورية. لم يتم إشراك الفيلق العربي في الهجوم الأولي، غير أنه شارك فيما بعد في سلسلة من المناوشات حول تدمر واضطلع ببعض مهام الدورية والحراسة في منطقة دير الزور والفرات. وبعد إنجاز هذه المهمات عبرت بريطانيا عن ثقتها بالفيلق العربي عن طريق السماح بتوسيع صفوفه. وقد تمخض هذا عن النتيجة غير المقصودة المتمثلة بتعطيل الجاهزية القتالية لدى الفيلق العربي عن طريق صرف اهتمامه نحو عمليات التجنيد والتدريب. ومع أن هذا الجيش لم يكلف بأية مهمات قتالية أخرى خلال فترة الحرب، فإن حجمه كان قد أصبح مع حلول عام (1946 م) أربعة أضعاف قوته فيما قبل الحرب.(25)

تلك هي الطريقة التي اعترفت بها بريطانيا بدور الفيلق العربي وفائدته. ومع ذلك فإن المسألة الأكثر تعقيداً والمتمثلة بكيفية مكافأة عبد الله بقيت دون حل. صحيح أن ولاءه ربما كان على الدوام ناتجاً عن تبعيته واعتماده، غير أنه كان باستمرار يحصل على نوع من المكافأة، وكان من الطبيعي أن تكون لديه هذه المرة أيضاً آمال مماثلة. إلا أن فكرته عن التعويض العادل التي تمت صياغتها بعبارات تذكر بالثورة العربية، بدت مفرطة في المبالغة بالمعايير البريطانية، إذ أراد استقلال الأردن الذي كان ممكناً، وخلق سورية الكبرى الذي كان مستحيلاً.

كان عبد الله يطمح في هذه الحرب إلى أن يضطلع بدور شبيه بدور أبيه في الحرب العالمية الأولى. فقد أراد أن يكون حليف بريطانيا العربي الأول وأن يتم الاعتراف به، بفضل ذلك الموقع، زعيماً عربياً رئيسياً شرق مصر. ولكن بريطانيا كانت قد طورت مصالحها، خلال السنوات العشرين منذ الحرب الأولى، عدداً كبيراً من المصالح في الشرق الأوسط، وغازلت عدداً كبيراً من الحلفاء، ولم تعد مضطرة للتعويل على حليف واحد فقط. وعلى الرغم من أن رجال دولة بريطانيين تخلفوا عن ركب الزمن، وظلوا يفكرون

من منطلق زعيم عربي أعلى واحد كانوا ما زالوا موجودين، فإن أنظار هؤلاء لم تتجه نحو عبد الله. فصديق عبد الله القديم ونستون تشرشيل مثلاً كان يعتبر عدو عبد الله القديم واللدود ابن سعود "أعظم العرب الأحياء"، الذي كان يمكن توسيع نفوذه بشكل مفيد حتى يصبح شاملاً كلاً من العراق وشرق الأردن. ومن منطلقات تعيد إلى الذاكرة تلك المنطلقات التي سبق لها ذات يوم أن اعتمدت مع والد عبد الله، بادر تشرتشل إلى طرح الفكرة القائلة بأن من شأن ابن سعود، حامي الأماكن المقدسة، أن يحظى بالقبول التام لدى العرب، كما هو لدى بريطانيا، شرط أن يوافق على إيجاد تسوية في فلسطين.[26]

لم يكن عبد الله الزعيم العربي الوحيد الذي أدت الحرب إلى تضخيم طموحاته وحفزها. كان ثمة قادة آخرون في بلدان عربية أخرى، حالمون بالاستقلال وبنوع من الزعامة الإقليمية والمعنوية الأوسع لأنفسهم في ساحة عربية أكبر. فكل من سورية ولبنان وفلسطين، مثلها مثل شرق الأردن، كانت تعقد الآمال على استبدال أنظمة الانتداب فيها بمعاهدات. ورغم استقلالهما الاسمي كانت مصر والعراق تسعيان إلى إعادة صياغة معاهدتيهما مع بريطانيا بما يفضي إلى قدر أكبر من المساواة. كان الزعماء العرب يعتقدون بأن من شأن زوال البنية الفوقية للمصالح الأوروبية المتضاربة أن يفضي فوراً إلى تجمع الأجزاء مرة أخرى، بفعل قوة سحرية، في كيان واحد يجسد ما هو مشترك من تاريخ وثقافة ولغة، وما هو مشترك، حسب افتراضهم، من مصالح عائدة للعرب.[27]

بالنسبة لعبد الله انقلبت علاقة الوحدة بالاستقلال رأساً على عقب. من ناحية كان يعي بحدة مدى ضيق إمكانيات شرق الأردن ومدى اعتماده هو على بريطانيا، وبالتالي فإن الوسيلة الوحيدة لبلوغ أي استقلال حقيقي عن بريطانيا كانت متمثلة بخلق دولة عربية أكبر يكون هو على رأسها. ومن ناحية أخرى كان يرى أن بريطانيا هي حليفته الوحيدة في الشرق الأوسط،

وأنه، إذا ما انتظر حتى تتنازل بريطانيا عن سلطتها لأنظمة عربية مستقلة، كان سيجد قدراً أكبر من الصعوبة في تحقيق فكرته القائمة على الوحدة. ومن هنا فإنه سعى إلى الوحدة قبل الاستقلال، وبقدر أكبر من الزخم والحماس.

على امتداد عشرين سنة ظل عبد الله يحاول بسط سيطرته على سورية أو الحجاز أو فلسطين، كما حاول في آخر المطاف. غير أن أنظاره كانت، معظم الوقت، مشدودة إلى دمشق ومسمّرة عليها. بقي اهتمامه منصباً على سورية منذ طرد فيصل منها في عام (1920 م). وكان هذا الأخير قد حصل على العراق الذي كان عبد الله يعتبره هديته الخاصة، ومنذ ذلك الوقت ظل يخطط لتسوية الحساب عن طريق الفوز بعرش سورية لنفسه. كان حلمه وطموحه هذا معروفاً جيداً وكان تشرتشل قد أومأ سامحاً له بالمرور في عام (1921 م) حين وعد عبد الله بأن بريطانيا كانت ستفعل ما بوسعها في سبيل إقناع فرنسا بقبوله في سورية، شريطة أن يثبت أنه ناجح في شرق الأردن. وهذان الحادثان كلاهما ـ حادث قيام فيصل بالاستيلاء على عرش العراق، وحادث الوعد الذي قطعه تشرتشل بأنه سيفعل لصالحه شيئاً في سورية ـ شكلا حجتين نموذجيتين من الحجج الداعمة لقضية مطالبة عبد الله بسورية.

وهكذا فإن سورية كانت أحد ثوابت حلم عبد الله السياسي؛ غير أن مستوى تحركه النشيط باتجاه ذلك الهدف الثابت كان يصعد ويهبط مع صعود موجة الظرف السياسي وهبوطها. ففي السنوات الثلاث التي سبقت الحرب، مثلاً، كانت الموجة في حالة من الجزر الهابط، حيث كانت سورية خاضعة، في تلك الفترة، لسيطرة حكومة الكتلة الوطنية بزعامة كل من (رئيس الجمهورية) هاشم الأتاسي و(رئيس الوزارة) جميل مردم بك،التي كانت حكومة معادية لمصالح عبد الله. ولحسن حظ الأخير، أدى مشروع تقسيم فلسطين في (1937 م) إلى توفير فرصة جديدة للتوسع في اتجاه لم

يكن قد سبق له أن تعامل معه بجدية، مما جعله مع انغلاق أبواب سورية مؤقتاً، قادراً على توجيه طاقاته السياسية نحو فلسطين. ولكن التقسيم كان، مع حلول عام (1939 م) قد سقط، وباتت موجة الفرص المواتية تتصاعد ثانية في سورية، حيث كانت حكومة الكتلة الوطنية قد فقدت شعبيتها جراء امتناع فرنسا عن تصديق المعاهدة الفرنسية ـ السورية، ونتيجة إخفاقها هي في الحيلولة دون قيام تركيا بضم لواء اسكندرون، فاستقالت وقامت فرنسا بتعليق الدستور وتعيين مجلس يحكم بالمراسيم يحل محلها. وبعد شهر واحد تم إعلان الحرب في أوروبا.

إذن فإن عام (1939 م) كان بالنسبة لعبد الله عاماً يبعث على التفاؤل، عاماً شجعه على استئناف اختبار حظه في سورية.صحيح أنه لم ينس فلسطين، ولكنه وضع طموحه في عرش سوري في إطار أوسع وأكثر طموحاً، في إطار توحيد سورية الكبرى الشاملة لكل من فلسطين ولبنان جنباً إلى جنب مع شرق الأردن وسورية. وبعد شهر من اندلاع الحرب كتب إلى وزير المستعمرات عن وعد تشرتشل في (1921 م) وطلب منه إبلاغ تشرتشل «إنني مازلت ملتزماً بالعمل وفقاً لنصيحته ومازلت أنتظر نتيجة وعوده».[28] لم يكن يعلم أن حصوله على عرش سورية كان قد أصبح أمراً "يتعذر تصوره" بنظر لندن، أو أن ونستون تشرتشل، لم يكن يفكر به هو بل بابن سعود لدى تناوله لمسائل الوحدة العربية. ولندن، من جانبها، لم تكن مخطئة بالضرورة حين ابتعدت عن الصراحة، رغبة منها في الإبقاء على علاقتها الودية معه.[29] ومهما يكن فقد بدأ عبد الله يرى الطريق ممهدة أمامه مع قيام الحلفاء باحتلال سورية عام (1941 م).

في الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن من حزيران قام كيركبرايد بإبلاغ عبد الله عن اعتزام الحلفاء غزو سورية ولبنان. ولكنه استقبل النبأ بامتعاض.[30] كان ثمة أمران يزعجانه بشكل خاص؛ فمن جهة لم يكن قد تم ضمه مسبقاً إلى حلقات التشاور البريطانية، مما كان يشير إلى أن بريطانيا

لم تكن تقيم أي وزن لمطالبته بالعرش السوري؛ ومن الجهة الثانية، كانت سورية ولبنان قد حصلتا عشية الغزو على الوعد بالاستقلال، في تطور انطوى على خطر إبقائه ومعه شرق الأردن متخلفاً عن الركب في وضع أقل شأناً. رسمياً عبر عن قدر فاتر من العرفان بالجميل والارتياح، ولكنه حذر من أن «من شأن غياب أية إشارة إلى شرق الأردن بعد تعاونه الأمين وولائه الكامل، أن يبدو ضربة عنيفة موجهة إلى سياسة الصداقة التي ظلت متبعة في هذا البلد منذ تأسيسه».[31] أما في السر فقد كان غارقاً في بحر من الاستياء والذعر. وقد تضاعف إحساسه بالقلق جراء الطبيعة المتناقضة للاحتلال، لأن بريطانيا نبذته على الملأ في اللحظة التي باتت فيها، نتيجة احتلالها لسورية، قادرة على تلبية مطالبه.

ساهم احتلال الحلفاء في إدخال النفوذ البريطاني المباشر إلى سورية. فمن تلك النقطة دأبت بريطانيا في السر [وبقدر غير قليل من العلنية كما يتضح من الأزمتين اللبنانية عام (1943 م) والسورية عام (1945 م)] على إقناع حكومة فرنسا الحرة بمنح سورية استقلالها. وكان الدافع إلى ذلك متمثلاً بالرأي القائل بأن من شأن إرضاء العرب في سائر الأماكن أن يفضي إلى جعلهم أكثر استعداداً للقبول بالحلول التوفيقية لمسألة فلسطين. ولكن إرضاء العرب في سورية لم يكن يعني فرض عبد الله حاكماً على هذا البلد، وما لبث السير أوليفر ليتلتون، وزير الدولة في القاهرة أن وصل إلى عمان في أيلول وأطلع عبد الله على هذه الحقيقة.

جرى استقبال ليتلتون في القصر من قبل عبد الله الذي كان يرتدي جلباباً بسيطاً أصفر اللون وقد بدا الأخير «رجلاً قصير القامة ذا لحية مدببة وعينين لطيفتين تنمان عن قدر من عدم الرضى». أمسك الأمير بيد ضيفه وقاده إلى غرفة الجلوس المفروشة بأثاث فرنسي مُقَلّد، وصمديات أوربية متزاحمة فوق السجاجيد الشرقية، مع زحمة من المصنوعات اليدوية العربية. جلس الرجلان على صوفا بدت فرنسية الطراز، وبادر ليتلتون إلى الكشف

عن مضمون رسالته، فيما كان عبد الله ما يزال ممسكاً بيده. وما إن أوشك الضيف على استكمال مجاملاته التمهيدية حتى قاطعه عبد الله، «مع ابتسامة أميل إلى الشحوب» معبراً عن تخمينه لما حمله من أخبار قائلاً: «من الواضح أن البريطانيين لا ينوون تنصيبي ملكاً على سورية».(32)

كانت سياسة بريطانيا في سورية تسترشد مبدأها العام القاضي بإيجاد لغة مشتركة مع القومية العربية. ولتحقيق ذلك فاتحت بريطانيا الكتلة الوطنية،أعداء عبد الله الجمهوريين، وخصوصاً عضو الكتلة القيادي شكري القوتلي. وفي بدايات عام (1943 م) توفي رئيس الجمهورية المعين من قبل فرنسا في سورية الشيخ تاج الدين الحسيني. وفي تلك الأثناء كانت فرنسا حريصة على استعادة الحكم الدستوري في سورية وضمان وضعها هناك عن طريق المبادرة أخيراً إلى إعلان معاهدة (1936 م) الفرنسية ـ السورية التي كانت سورية قد صادقت عليها، في حين لم تكن فرنسا قد فعلت بعد. وبالتالي فإن الجنرال كاترو (المندوب العام لفرنسا الحرة) أعلن عن إجراء انتخابات وعرض عقد صفقة مع شكري القوتلي، تقوم بموجبها بدعمه في رئاسة الجمهورية، شريطة أن يرفع لواء المعاهدة القديمة بعد أن يشتغل المنصب. بدا العرض مغرياً بنظر القوتلي، ولكن كلاً من بريطانيا والعراق ألحت عليه طالبتين منه رفضه. وكانت الحجة التي استندت بريطانيا إليها هي أنه كان سيلحق الضرر بسمعته عبر التعامل مع فرنسا للحصول على مكسب شخصي. وهذان الطرفان بريطانيا، والعراق، كانا أيضاً متفقين على ضرورة بقاء سورية مصرة على تجنب أية علاقة خاصة بفرنسا من شأنها أن تشكل عقبة تعترض سبيل التحاقها بأي مشروعات وحدوية عربية مستقبلية في شرق أوسط خاضع لسيطرة بريطانية. وما لبثت النصائح البريطانية والعراقية أن نجحت في دفع القوتلي باتجاه العزوف عن الإقدام على عقد أية اتفاقيات سرية مع الفرنسيين. وحين جرى انتخابه رئيساً للجمهورية في شهر آب من قبل المجلس المنتخب حديثاً، كانت بريطانيا قد أسمعته كلمتها

وكان هو قد حصل على الدعم البريطاني الخفي.[33] وكرد فعل على ما جرى حاول عبد الله، دونما نجاح، أن يجترح تحالفاً مع فرنسا التي كانت الطرف الخاسر الآخر من الانفراج في العلاقة بين الإنجليز والقوتلي.[34]

لم يكن عبد الله، في نظر بريطانيا أو فرنسا، قادراً في سورية على مضاهاة القوتلي من حيث النفوذ. فأكثرية مؤيديه في سورية كانت انتهازية، لأن سهولة جره إلى الموضوع السوري، وإمكانية تصويره على أنه بعبع، كانتا قد جعلتاه نقطة جذب طبيعية بالنسبة لسوريين مستائين ومعارضين بصورة مؤقتة وعابرة.[35] وقد ظل رصيده في سورية يرتفع وينخفض مع تقلبات السياسة الداخلية - حتى إن الكتلة الوطنية أقدمت على اعتماد سلسلة من المبادرات الودية معه لفترة في عام (1941 م) حين قامت فرنسا الحرة بتعيين الشيخ تاج الدين الحسيني المفرط في التعاون معها رئيساً للجمهورية[36] غير أن هذا الرصيد لم يكن على المستوى الرفيع الكافي ولم يبق فترة كافية لإقناع أحد بأن له مستقبل في سورية. أما أولئك الذين كانوا ينعطفون نحوه تعبيراً عن معارضة هذا النظام القائم أو ذاك، أو هذه السياسة المتبعة أو تلك، فإن اهتمامهم به لم يكن طويل الأمد، حافزاً طموحه دون توفير الدعم والمحتوى الحقيقيين اللازمين لتحقيق مثل ذلك الطموح.

كان أنصار عبد الله الوحيدون أصحاب الشأن في السياسة السورية، والذين كانوا قد ظلوا ثابتين على ولائهم عبر السنين جماعة صغيرة من الملكيين القوميين، من نمط عائلة البكري، ومن حلفاء الهاشميين القدامى، ومن عبد الرحمن الشهبندر. فبالنسبة لعائلة البكري كان عبد الله يجسد الثقافة والتقاليد العربية، وكانت روابطه بها تعود إلى أيام شبابه في إسطمبول. أما تأييد الشهبندر فقد كان من نوع مختلف.

كان الشهبندر وطنياً متمتعاً بالاحترام، ملكياً، ومتعاطفاً مع الإنجليز. وكان أيضاً شديد المعارضة للكتلة الوطنية. وبنظره فإن عبد الله كان الرمز

المثالي لتطلعاته. غير أنه كان قد جرى نفيه من سورية بعد ثورة (1925 - 1927 م) ولم يسمح له بالعودة حتى عام (1937 م) (نتيجة دسائس منافسيه في الكتلة الوطنية جزئياً).

في أيار عام (1939 م) قام الشهبندر ومعه وفد ضم خمسة وعشرين سورياً بينهم فوزي البكري بزيارة شرق الأردن لتقديم التعزية إلى عبد الله بوفاة ابن أخيه غازي ملك العراق. وبوفاة غازي ابن فيصل ووريثه، هذا كان المنصب الرمزي لرئاسة الحركة العربية قد بات شاغراً مرة أخرى، وقام الشهبندر باستغلال الزيارة لإعلان تأييده العلني لترشيح عبد الله للعرش السوري بوصفه زعيم الوحدة العربية. وكذلك فإنه استخدم قنواته الخاصة مع بريطانيا لدعم فكرة توحيد شرق الأردن مع سورية تحت حكم عبد الله، وخلق اتحاد فضفاض يجمع الدول العربية عن طريق إيجاد لجنة تنفيذية يتولى عبد الله رئاستها.[37]

كان الشهبندر متمتعاً بتأييد لا يستهان به في سورية، ولم يتمكن عبد الله من الحفاظ على أي حضور مقنع على صعيد السياسة السورية إلا من خلاله. وبالتالي فإن قضية عبد الله في سورية تعرضت لأضرار لا يمكن التعويض عنها حين تم اغتيال الشهبندر في تموز (1940 م) ويعتقد على نطاق واسع بأن خصومه في الكتلة الوطنية هم الذين دبروا عملية الاغتيال.

وبرحيل الشهبندر فَقَدَ عبد الله جزءاً كبيراً من نفوذه في سورية. صحيح أن المشاعر الملكية كانت ذات شأن، غير أن الملكيين كانوا منقسمين فيما بينهم حول مسألة اختيار المرشح (الجدير بأن يصبح ملكاً لسورية).وبين أبرز منافسي عبد الله على المنصب كان العاهل العراقي، عبد الإله، وملك العراق الشاب فيصل الثاني، وفيصل ابن سعود. وثمة مطالبون بالعرش أقل جدية أضفوا جواً من المزاح والسخرية على المسألة. فبعد الإعلان عن الانتخابات في (1943 م) مثلاً، بادر الأمير سعيد الجزائري إلى عقد

اجتماعات حضرها أتباع مأجورون في دمشق وانتهت بإطلاق الرصاص وهتافات (عاش الملك سعيد ملك سورية!). غير أنه لم يلفت نظر أحد سوى جيرانه الذين عبروا عن الشكوى من الضجيج.[38]

قام عبد الله بتوزيع الهبات السخية وتشجيع التغطيات الصحفية الموالية في سبيل كسب التأييد. ونظراً لأن محفظة نقوده كانت شبه خاوية وخاضعة للإشراف البريطاني الصارم، فإن الأموال التي أنفقها في سورية جاءت من قنوات لا علاقة لها بموازنته الرسمية. وقد قيل إنه كان يكسب الأموال اللازمة لممارسة آيات السخاء في سورية عن طريق إرسال سياراته عبر الحدود محملة بالبضائع التي تباع في الأسواق السورية، حيث الأسعار كانت أعلى من نظيرتها في شرق الأردن بكثير.[39] وما كسبه من سباقات الخيل في القاهرة مكنه من تمويل حركة اضطراب وجيزة بين القبائل السورية.[40] تعين عليه أن يعتمد عملاء مختلفين لإيصال الأموال والدعاية نيابة عنه، لأنه لم يكن يستطيع أن يزور سورية شخصياً. فما أثار غضبه الشديد أنه منع من الحصول على ميزة العبور مرتين في رحلتين إلى كل من تركيا ولبنان ما لبثتا أن ألغيتا، مما أوحى بأن الهدفين كانا أقل أهمية من الطريق.[41]

احتلت سورية مكانة مركزية بصورة مطلقة في مخطط سورية الكبرى لدى عبد الله، فضلاً عن أنها كانت، لأسباب تاريخية، طريدته الأكثر جاذبية. لم يظهر لبنان إلا بصورة عابرة في مجمل عمليات الصياغة لمخططاته؛ اكتفى بالدعوة إلى إيجاد نوع من الحكم الذاتي في سبيل احتواء النزعة الانفصالية المارونية. لم يكن عنده حلفاء تقليديون في لبنان، كما لم يكن ذا شعبية فيه. صحيح أن الحزب القومي السوري، وهو حزب لبناني بأكثريته الساحقة، الذي كان يستهدف، مثل عبد الله، إعادة توحيد سورية الجغرافية (الطبيعية) اتصل به،[42] غير أن فكر الحزب الذي كان يؤكد على فكرة هوية سورية سابقة للإسلام، ويتجاهل وجود أي عنصر عربي، كانت

شديدة التناقض مع الأساس الذي استند إليه عبد الله في مطالبته بقيادة سورية.

وبالمثل فإن فلسطين بقيت هي الأخرى ذات أهمية ثانوية، على الرغم من تصاعد اهتمام عبد الله بها جراء خطة (1937 م) للتقسيم. كانت صعوباته هنا على صعيد وجود قيادة محلية منافسة أقل بالمقارنة مع الوضع في سورية، لأن الحاج أمين وغيره من القيادات الوطنية ـ القومية كانوا قد هربوا أو تم نفيهم غداة حركة العصيان الفلسطينية في (1936 ـ 1939 م) وكان يكفي مجرد منعهم من العودة إلى البلاد من أجل العمل لخدمة قضيتهم.[43] ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يستغل غيابهم وأخفق في توسيع دائرة نفوذه إلى ما بعد حزب الدفاع الوطني لراغب النشاشيبي. أما الاهتمام الذي تم إغراق الأمير منصور، أحد أبناء ابن سعود في بحره لدى زيارة قام بها إلى فلسطين في عام (1943م) فقد سلط الأضواء الكاشفة على افتقار عبد الله إلى النفوذ والجاذبية بأسلوب مؤلم بصورة استثنائية.[44] مع اقتراب الحرب من نهايتها حاول رعاية جبهة موحدة تضم سائر الأحزاب الفلسطينية تحت إشرافه، غير أن حزب الحاج أمين المعروف باسم الحزب العربي، وكان ما يزال أكبر الأحزاب وأقواها في فلسطين، رفض الالتحاق بالجبهة.[45]

كذلك بقي عبد الله على صلة بالوكالة اليهودية آملاً في الحصول على دعم صهيوني لفكرة سورية الكبرى، مقابل الحكم الذاتي، وإمكانية الاستيطان في مناطق أوسع من تلك المعروضة في مشروع التقسيم،[46] إلا أن الوكالة لم تبادر قط إلى التعامل بجدية مع عرضه. وبدلاً من ذلك، فإن المنظمة الصهيونية العالمية قامت، في مؤتمرها الذي عقدته بنيويورك في أيار من عام (1942 م) بتبني جملة القرارات المعروفة باسم برنامج بلتيمور. وقد دعت هذه القرارات إلى القيام فوراً بتأسيس كومنولث يهودي في فلسطين، إلى رفض الكتاب الأبيض الصادر عام (1939 م) وإلى هجرة واستيطان

يهوديين غير محدودين إلى فلسطين وفيها تحت إشراف الوكالة اليهودية، وإلى تشكيل قوة عسكرية يهودية تحت رايتها الخاصة بها والاعتراف بها.

صحيح أن عبد الله اعترف بوجود أخطاء وهفوات، كما كان ينتظر بتوجس رسالة ليتلتون، غير أنه لم ير الانعدام الكامل للأمل في وضعه، ناهيك عن أنه لم يسلم بأنه في مثل هذا الوضع الباعث على اليأس. فبعيداً جداً عن أن يكون سياسياً واقعياً أصر على التمسك بأحلامه عن عرش سوري بقدر من العناد، جعل المندوب السامي السير هارولد ماك مايكل يشعر بالقلق على توازنه الذهني.[47] وكما أقر المندوب السامي الخلف السير آلان كنينغهام بقدر أكبر من الإشفاق فقد كان: «عجوزاً مسكوناً بهاجس الخوف من ضياع فرصته الأخيرة لتحقيق أي من أهدافه».[48]

كانت نشاطات قادة عرب دائبين على الدعوة لأفكارهم الخاصة عن الوحدة العربية هي التي جعلته عصبي المزاج بصورة استثنائية. وكان الأكثر حيوية بين هؤلاء هم العراقيون بزعامة نوري السعيد والمصريون بقيادة النحّاس باشا، رئيس الوزراء الوفدي. أما ابن سعود فكان عنصراً سلبياً ظلت كراهيته الفطرية المعروفة للهاشميين كافية لوضع مشكلات جدية أمام أي مشروع هاشمي يخص الوحدة.

خلال فترة الحرب ثمة آراء عن الوحدة العربية ظلت تتردد في الأجواء. وقد شجع خطاب أنطوني إيدن في مانشن هاوس عام (1941 م) الذي تضمن وعداً بأن حكومة جلالته كانت مستعدة: «لتوفير دعمها الكامل لأي مشروع يحظى بالقبول العام» فضلاً عن الاقتراب الواضح من الاستقلال بالنسبة لكل من سورية ولبنان، هذا الاستقلال الموعود عشية غزو الحلفاء، على صياغة مثل هذه الآراء وتطويرها رغم أنها كانت غامضة في البداية. ومع انحسار القتال عن الشرق الأوسط في عام (1943 م) باتت الحديث عن مستقبل المنطقة فيما بعد الحرب ممكناً.

لم تجد بريطانيا خطط عبد الله الخاصة بسورية الكبرى خططاً متمتعة بأي تأييد عربي عام. بل وكانت تتطلع إلى قيادة رجال مثل نوري السعيد في العراق والنحّاس باشا في مصر، ممن كانوا موالين لبريطانيا ولكنهم كانوا في الوقت نفسه متمتعين بقدر من الاحترام في العالم العربي؛ وكانت أهمية القاهرة قد تعززت بشكل خاص بنظر العرب والإنجليز على حد سواء جراء الحرب. أما عبد الله فقد كان، كما أدرك هو نفسه بعمق، أسير فخ تفاهة شرق الأردن وعدم انطوائه على أية أهمية.

أما نوري السعيد فقد دأب منذ عام (1939 م) على استشعار الخطوط العريضة العامة للوحدة العربية. وكان، خصوصاً، قد اقترح على عبد الله إقامة اتحاد فدرالي بين النظامين الملكيين الهاشميين في ظل حكم الفرع العراقي للعائلة؛ غير أن رد فعل عبد الله كان سلبياً سيئاً. وقيل: إن عبد الله كان قد رد على اقتراح جعل غازي الرأس الأبرز للاتحاد قائلاً: إن «صبياً ومحتالاً» لن يتمكنا من خداعه واستغفاله. إن حدة المنافسة بين عبد الله والفرع العراقي من الأسرة الهاشمية انتقلت إلى فترة حكم فيصل الثاني والوصي على العرش عبد الإله. وكذلك فإن الطرف العراقي تحدى مطالبة عبد الله بسورية. وفي سبيل استبعاد أي صدام على هذا الصعيد، حاول نوري السعيد توجيه طموحات عبد الله نحو فلسطين. وكان نوري السعيد يرى أن على شرق الأردن وفلسطين أن يتحدا، ثم تقيم تلك الدولة الموحدة اتحاداً فدرالياً مع العراق (دون تحديد القيادة)، اتحاداً لن تلبث سورية أن تسقط فيه «مثل حبة بلح ناضجة». ولكن عبد الله لم يكن يثق بدوافع نوري السعيد، وكان مستعداً لدفع مطالبه في سورية ضد مطالب أبناء أشقائه، كما هو الأمر في مواجهة أية مطالب صادرة عن أي طرف آخر.[49]

لم تنطلق أي تحركات ملموسة باتجاه الوحدة العربية واقعياً حتى عام (1943 م) بعد هزيمة رومل في العلمين. ففي ذلك الوقت تقريباً تضافر

حافزان على إطلاق فيض كثيف من الفعاليات من قلب ضباب أشكال النزوع الغامضة نحو ذلك الاتجاه. تمثل الحافز الأول بموت رئيس الدولة في سورية الخاضعة لفرنسا، الشيخ تاج الدين الحسيني، وبروز احتمال إجراء الانتخابات في الأفق. أما الحافز الثاني فقد جسده قيام إيدن، في مجلس العموم، بتكرار دعمه لأي مشروع وحدوي ينبع من العرب أنفسهم ويحظى بقبولهم العام.

وقبل خطاب إيدن كان نوري السعيد قد طرح على الحكومة البريطانية خطة مكتوبة. وفيما بعد أوفد جميل المدفعي إلى العواصم العربية لجس النبض. وفي زيارته لدمشق تمكن الأخير من إقناع شكري القوتلي بفوائد عدم التوصل إلى عقد اتفاقية خاصة مع فرنسا لمستقبل الوحدة العربية. وكانت خطة نوري السعيد تنص على توحيد سورية الكبرى التي كان مواطنوها سيقررون شكل الحكم فيها. أما اليهود في فلسطين فكان سيتم منحهم حكماً شبه ذاتي، كما كان سيجري تمكين الموارنة في لبنان من الحصول على نظام قائم على الامتيازات إذا أرادوا ذلك. وبعد ذلك كان سيتم تشكيل رابطة عربية لسورية الكبرى والعراق، رابطة تستطيع الدول العربية أن تلتحق بركبها.[50]

جوبه المشروع برفض عنيف في كل من عمان والرياض. فعبد الله أبلغ المدفعي بعبارات واضحة لا لبس فيها أن مستقبل الدول السورية (شرق الأردن، فلسطين، لبنان وسورية) لم يكن شأناً من شؤون العراق «طالما هناك أطراف أخرى مستندة إلى مؤهلات أفضل، ومنطلقة من مطالب أكثر عدلاً»[51] وللتصدي لأفكار نوري السعيد، ألهم ديوانه بإصدار خطة بديلة. وفي حقيقة الأمر فإن الخطتين كانتا متماثلتين، وتختلفان في أن الخطة الشرق - أردنية نصاً تقضي بجعل عبد الله حاكم الدولة السورية الكبرى من منطلق وضعه في شرق الأردن «الذي يشكل جزءاً هاماً من سورية الكبرى» وعلى أساس ماضيه ومساعدته اللاحقة للحلفاء، ولكونه الوريث

الشرعي لحقوق والده المتوفى إستناداً إلى وعد تشرتشل في عام (1921 م)، فضلا عن توق أهالي سورية الكبرى إلى نظام حكم ملكي دستوري.[52] وفي أعقاب هذه المذكرة قام عبد الله بوضع بيان موجه «إلى شعب سورية من حضر وبدو، من خليج العقبة إلى البحر الأبيض المتوسط فأعالي حوض الفرات» دعا فيه إلى عقد (مؤتمر سوري) كان يتطلع إلى رعايته في عمان.[53] حال القائم بأعمال المندوب السامي دون إذاعة البيان عبر الصحافة والإذاعة الفلسطينية، غير أن عملاء عبد الله ووكلاءه قاموا بتوزيعه على شكل منشور وحين جوبه حول محاولته الرامية إلى مراوغة التشاور المطلوب مع بريطانيا على صعيد التصريحات المتعلقة بالسياسة الخارجية (الأمر الذي تم توقيته في أثناء غياب كيركبرايد عن البلاد)، أقر عبد الله بأنه اقترف ذنباً، وبأنه لم يكن قد فعل ذلك إلا لأنه كان يعلم بأن أي التماس يتقدم به للحصول على الإذن كان سيقابل بالرفض. ورغم الأسف فإنه لم يكن نادما لأنه كان يحس بأنه كان ملزماً بتذكير بريطانيا بوجوده «عن طريق وخزها بإبرة».[54]

أما معارضة ابن سعود لمشروع نوري السعيد فكانت متجذرة في شكه وارتيابه المزمنين في العائلة الهاشمية، حيث اعتبر المشروع قناعاً لمد النفوذ الهاشمي إلى سورية، ولم يبد مدركا لحقيقة - أو ربما تجاهلها - وهي أن عبد الله كان العامل الأقوى والأشد صراخا للحطِ من قدر هذا المشروع.[55]

بصرف النظر عن قابلية تنفيذ مقترحاته العملية كانت إحدى المشكلات التي يعاني منها مشروع نوري السعيد، متمثلة بالقناعة السائدة بأنه كان يخفي وراءه خطة سرية هادفة إلى تمكين العراق من السيطرة على سورية الكبرى. ولهذا السبب حاول نوري السعيد أن يحصل على تعاون مصر البعيدة عن مشاعر الغيرة والحسد السائدة في الهلال الخصيب، في إيجاد منبر يوفر إمكانية مناقشة آرائه. وكان النحّاس باشا، رئيس وزراء مصر، قد اكتسب شهرة بوصفه وسيطاً أميناً في عام (1942 م) حين كان قد ساعد

القادة اللبنانيين والسوريين على التوصل إلى اتفاق حول مستقبل لبنان، ما لبث، بعد عام واحد، أن أصبح جزءاً من الميثاق الوطني اللبناني.[56] كان نوري السعيد يظن بأن مصر لم تكن تريد ما هو أكثر من الاعتبار والاحترام السياسيين، وبأن من شأن أي دور يضطلع به النحّاس باشا خصوصا في الشؤون الإقليمية أن يكون مساعداً له على الجبهة الداخلية، على الأقل ذلك هو ما باح به لعبد الله.[57] وقد يكون ذلك هو ما كان النحّاس يريده في تلك اللحظة. إلا أن مصر، ما إن باتت متورطة في شؤون الهلال الخصيب، حتى أصبحت بسرعة منافسة العراق الأكبر هناك.

في صيف عام (1943 م) بدأ النحّاس باشا يردد موضوع الوحدة العربية على مسامع الحكومات العربية. وقد اجتمع بمختلف الوفود العربية التي دعيت، الواحد بعد الآخر، إلى القاهرة وبهذا الأسلوب قام بإرساء القاعدة اللازمة لعقد مؤتمر الإسكندرية ولتأسيس الجامعة العربية.

كان زائر القاهرة الأول، كما هو متوقع، هو نوري السعيد. وفي طريقه إلى هناك توقف في عمان لإقناع عبد الله بضرورة التعاون مع النحّاس باشا. في البدء كان رد فعل عبد الله عدائياً، إذ قال: إن الحياة قصيرة، وإنه كان قد بقي في الظل وفي الصفوف الخلفية طوال خمسة وعشرين عاما، وإنه كان يريد أن يرى شيئاً تم إنجازه. وكعادته على الدوام ألح عليه نوري السعيد طالباً منه أن يركز اهتمامه على فلسطين، وأضاف بأن من شأن تحركه الحذر أن يدفع السوريين باتجاه انتخابه حاكماً. (أما مع كيركبرايد فقد كان نوري السعيد أكثر صراحة، إذ اعترف بأن أنصار عبد الله في سورية كانوا قليلين، غير أنه أشار إلى عدم وجود ما يدعو إلى مصارحته بذلك). كذلك قام نوري السعيد بإقناع عبد الله بعدم اهتمام مصر اهتماماً جوهرياً بسورية، وكان عبد الله لدى انتهاء لقائهما، قد سطر رسالة ودية وجهها إلى النحّاس باشا ينقلها إليه نوري السعيد، طالباً فيها متابعة جهوده في خدمة القضية العربية على أساس القواعد التي كان أبوه الملك الحسين قد أرساها.[58]

يبدو أن عبد الله كان قد استلطف النحّاس باشا وأُعجب به. كان قد اجتمع به في تشرين الثاني من عام (1940 م) في أثناء زيارة للقاهرة دامت عشرة أيام، وكان بعد عودته قد وصفه للمندوب السامي قائلا: إنه القوة الفعالة حقاً الوحيدة بين المصريين. ولكن إعجابه الشديد بالنحّاس باشا ربما كان في جزء كبير منه نابعاً من مقته المفرط للملك فاروق. فخلال الزيارة نفسها استقبله فاروق داساً يديه في جيبتيه، خاطبه بلغة المفرد قائلاً: (أنت) بدلاً من (أنتم) وقدم له الشاي في فنجان أصغر من فنجانه هو. أما عن وضع فاروق في الحرب فقد أعلن عبد الله أن لا فرق فيما لو كان موسوليني في قصر عابدين أم فاروق.[59] أما النحّاس باشا فبنقيض فاروق كان ميالاً لأن يتخذ موقفاً واضحاً في صف الحلفاء، غير أنه كان أسير الصراع مع فاروق على السلطة. (لم يكن قد أصبح رئيسا للوزارة في شباط عام (1942 م) بعد غياب دام خمس سنوات إلا بعد أن قامت المدرعات البريطانية بمحاصرة قصر عابدين).

نجحت حجج نوري السعيد المقنعة المدعومة بانطباع عبد الله الإيجابي السابق عن النحّاس باشا في التخفيف مؤقتاً من غيرة عبد الله وحسده. فلدى تلقيه دعوة تطلب منه إرسال وفد إلى القاهرة في آب (1943 م) وافق على إيفاد رئيس وزرائه توفيق أبو الهدى، الذي زوده بتوجيهات حول اطلاع النحّاس باشا على ضرورة تحقيق الوحدة أو الاتحاد بين البلدان السورية، قبل التوصل إلى أية وحدة عربية أوسع شاملة لمصر والعراق. وقد كان مسروراً ومتفائلاً، مبالغاً في التفاؤل في الحقيقة، بشأن النتائج العملية التي كانت بيانات توفيق أبو الهدى ستتمخض عنها.[60]

التزم أبو الهدى بالتوجيهات، وحدث النحّاس باشا عن الأهمية البالغة لإعادة توحيد سورية الكبرى. وأضاف أن شرق الأردن وسورية كانتا في كل الأحوال قادرتين على الاتحاد، وعلى صياغة البنود اللازمة لضم لبنان وفلسطين لاحقاً إذا ما برزت أية مشكلات أو عقبات أمام انضمام الموارنة

واليهود إلى مثل هذا الاتحاد. وكان في كلامه مؤيداً لقيام نظام ملكي، وحين سأله النحّاس باشا عما إذا كان أي ملك يتم اختياره من بين السوريين سيكون مقبولاً لدى أهل شرق الأردن، أجاب قائلاً: فقط الذين هم من نسل الملوك يستطيعون أن يتطلعوا إلى المناصب الملكية. وراء الكواليس قال النحّاس باشا، إن هناك من يفضل فيصل الثاني للمنصب، وهنا كان رد توفيق لأن الذين كانوا قد أعلنوا فيصل الأول ملكا على سورية كانوا فيما مضى أعلنوا عبد الله ملكا على العراق أيضاً. فلو كان الإعلان الأول ملزماً فكذلك يجب على الإعلان الثاني. ولكن الكلمة الأخيرة كانت للنحّاس باشا حيث عبّر عن قناعته بأن من الواجب تمكين السوريين من الحصول على نظام جمهوري إذا كانت رغبتهم في هذا الاتجاه.(61)

انتشى عبد الله بمهمة توفيق أبو الهدى في مصر، وقد بالغ في النشوة حقاً إلى درجة أن المرء يشك حول ما إذا كان الأخير قد أبلغه فحوى حديثه الخاص مع النحّاس باشا. وعلى أية حال فإن بهجته العارمة ما لبثت أن تبددت حين تلقى نبأ الدعوة التي تلقاها ابن سعود لإيفاد أحد أنجاله إلى الولايات المتحدة. أخطأ في تفسير النوايا الأمريكية إذ ظنها تعبيراً عن تأييد ابن سعود بوصفه مرشحها - مرشح الولايات المتحدة - لقيادة أي اتحاد عربي، وحين دعي عبد الإله إلى لندن، بعد حوالي أسبوع ظن أن بريطانيا كانت هي الأخرى قد بدأت بإبراز مرشحها.(62) وما لبث انزعاجه وسخطه أن تزايدا بسرعة، حتى انحدر في غضون أسبوع واحد من ذرا النشوة العالية إلى أعماق جنون الشعور بالاضطهاد السحيقة، وراح يزعم أن بريطانيا كانت قد دبرت ضده مؤامرة بالتعاون مع رئيس وزرائه هو، ورؤساء الوزارات في كل من مصر والعراق ولبنان وسورية لمنعه من تحقيق طموحاته.(63)

وفي طريقه إلى لندن كان وصي العرش العراقي قد توقف في فلسطين، حيث قابل عبد الله وحاول تهدئة مخاوفه عن طريق إبلاغه بأن رحلته لم

تكن من أجل إجراء مناقشات سياسية. ولكن عبد الإله لم يصل إلى لندن في الحقيقة إلا في الوقت الذي كان اجتماع للجنة وزارة الحربية الخاصة بفلسطين مقرراً أن يتم فيه، وكان محتماً أن يتم إشراكه في المناقشات ولو بصورة هامشية. وقد كانت لجنة فلسطين الخاضعة لسيطرة وزارة المستعمرات مؤيدة التقسيم، وبالارتباط مع التقسيم لفكرة سورية الكبرى. وكانت النظرية في الواقع بسيطة المغزى إذ قامت على قاعدة أن العرب كانوا سيخسرون شيئاً جراء تقسيم فلسطين وكانوا سيربحون شيئاً بفضل توحيد سورية الكبرى، ونتيجة لعملية المبادلة هذه لم تكن مكانة بريطانيا ستتعرض لأي ضرر. ولكن كيفية الوصول إلى عملية التوحيد كانت مشكلة صعبة بالنسبة لبريطانيا كما بالنسبة للعرب.

كان دور عبد الله باعثاً على قدر استثنائي من الحيرة والارتباك. فبريطانيا لم تكن تستطيع جعله ملكا لسورية الكبرى ـ لأن السوريين لم يكونوا يريدونه، ولأن ابن سعود كان سيعترض وسيثير المشكلات بالتأكيد ـ غير أنها لم تكن في الوقت نفسه تستطيع أن تتنكر لخدماته على امتداد السنوات العشر الأخيرة، سواء نتيجة إحساس صادق بالعرفان أم جراء الخوف من أن تبدو أية سياسة قائمة على الصداقة مع بريطانيا سياسة عديمة الفائدة في أنظار حلفاء المستقبل المحتملين. وبالتالي فإن اللجنة توصلت مضطرة إلى استنتاج يقول: إن سورية الكبرى لم تكن ممكنة خلال سني حياة عبد الله، إلا أن اقتراحاً يقضي بضم أي جزء من فلسطين يتم تخصيصه للعرب إلى شرق الأردن كخطوة أولى على طريق خلق سورية الكبرى جرى طرحه تسهيلاً لعملية تقسيم فلسطين. أما استكمال وحدة سورية الكبرى «فلربما كان سيتحقق مع وفاة الأمير غير المتمتع بصحة جيدة بأي شكل من الأشكال».[64]

وبالتالي فإن تصميم عبد الله على عدم السماح للندن بتجاهله كان ناجحاً في الاتجاه المعاكس؛ صحيح أنه لم يتعرض للتجاهل، ولكن أهدافه

لم تصبح أقرب إلى التحقق. ومهما يكن فإن وزارة الخارجية عارضت تقسيم فلسطين وخلق سورية الكبرى. وبعد قيام إرهابيين يهود باغتيال اللورد موين في الخامس من تشرين الثاني عام (1944 م) تم التخلي عن التقسيم جنباً إلى جنب مع فكرة سورية الكبرى.(65)

وفيما كان عبد الإله في لندن، اطلع على جانب من هذه المخططات في مراحلها المبكرة. واكتشف، على الأقل، أن بريطانيا عادت إلى طرح مسألة تقسيم فلسطين، وأنها كانت عازمة على تنفيذ مشروعها بالقوة إذا اضطرت، وأنها اقترحت إلحاق الجزء العربي من فلسطين بشرق الأردن. تلك هي المعلومات التي نقلها إلى عبد الله.(66) أما إذا كان عبد الإله يعرف تفاصيل المخططات البريطانية، أو تجرأ على إطلاع عبد الله عليها، فليس معروفاً.

ربما كانت الأنباء التي نقلها الوصي على العرش عن اهتمام بريطانيا بسورية الكبرى هي التي حفزت نوري السعيد، في كانون الثاني من عام (1944 م) على اعتماد مستويات جديدة من النشاط، غير أن الدافع الكامن وراء تحركه المتجدد قد يكون أيضاً متمثلاً ببواكير مخاوفه من نوايا مصر. فالوصي على العرش كان قد عبر لعبد الله عن شكوكه حول مصر في طريقه إلى لندن، وكان الأخير قد وافق على ضرورة بذل جهود جدية لتأكيد قيادة الهاشميين.(67) كانت الفكرة تقول بضرورة بذل تلك الجهود بصورة منسقة، ولكن تحركات نوري السعيد ونشاطاته لم تتمخض إلا عن استبعاد عبد الله واستعدائه. فقد قام الأخير، أولاً، بتجاوز حرمة فلسطين، التي كان عبد الله يعتبرها دائرة اهتمامه الخاص، في مسعى منه للاعتراف بالقيادة الفلسطينية. واجتمع أيضاً بمسؤولين رسميين يهود، كان عبد الله يعتبرهم زبائن وعملاء يخصونه هو وحده.(68) والأسوأ من ذلك هو أنه ألمح، في إحدى زلات اللسان، إلى أن الوفد السوري في القاهرة كان قد طالب بنظام جمهوري، وأن نسخاً من محاضر الاجتماع المتضمنة لهذا المطلب كانت قد أرسلت إلى لندن وواشنطن.

أثار النبأ غضب عبد الله الذي وجه توبيخاً عنيفاً إلى نوري السعيد الذي أفسح إهماله المجال لتطور كهذا. دخلت العلاقة بين الطرفين في مأزق حين رد نوري السعيد قائلاً: إن السوريين ما كانوا سيبدون ذلك القدر من التشدد والتصميم لو لم يكن مندوب عبد الله قد بادر أولاً إلى التشدد في الإلحاح على النظام الملكي. ومن ثم اتهم عبد الله نوري السعيد بالتآمر من وراء ظهر مصر من أجل إيجاد جمهورية سورية الكبرى: في سبيل تمكين العراق من استعادة دوره القيادي في مسائل الوحدة العربية، وهدد بفضحه لدى النحّاس باشا. وهكذا فإن المنافسة بين شرق الأردن والعراق خلقت فرصة لجوء أحد النظامين الهاشميين إلى النحّاس باشا ملتمساً لجم تحركات الآخر.[69] ولوضع حد لهذه الحالة المزرية للأمور، قام عبد الإله بدعوة عبد الله إلى بغداد، ولكنه لم يحقق نجاحاً كاملاً، إذا أخذنا تعليقات عبد الله على الوضع في العراق في طريق العودة إلى عمان بنظر الاعتبار. صحيح أن ملاحظات عبد الله حول الوضع العراقي كانت مفعمة بالمرارة، غير أنها انطوت، مع ذلك على قدر من البصيرة وبعد النظر، إذ قال إنه لن يفاجأ إذا ما لقي نوري السعيد يوماً مصير بكر صدقي (الاغتيال)، وأضاف أن سلك الضباط في الجيش العراقي كان منقسماً إلى تكتلات يعادي بعضها بعضاً.[70]

فيما انشغل الهاشميون بالشجار فيما بينهم، كان النحّاس باشا قد تابع مهمته المتمثلة بالاجتماع مع وفود الدول العربية الأخرى، مع وفود كل من العربية السعودية، سورية، لبنان واليمن. وقد نجح في إقناع الجميع، بالحسنى، بحضور اجتماعات مؤتمر الإسكندرية. وفي الوقت نفسه كان عبد الله قد استطاع أن ينتزع من بريطانيا تصريحاً يتضمن اعتزامها استبدال الانتداب بمعاهدة لدى انتهاء الحرب،[71] ولكن هذا لم يكسب حضور شرق الأردن لمؤتمر الإسكندرية أي وزن إضافي.

مع اقتراب موعد عقد المؤتمر، فعل عبد الله ما استطاعه على صعيد

الدعاية لمطالبه وتقوية موقعه. قام بتوزيع مذكرة على أولئك الذين توقع مشاركتهم في المؤتمر، باستثناء الممثل السعودي، ملخصاً دور الهاشميين في اليقظة العربية، ولافتاً النظر إلى مطالبه بوصفه عميد الأسرة [العضو الأكبر سناً في العائلة الهاشمية].[72] اجتمع أيضاً بالوصي على العرش والوفد العراقيين لاقتراح استراتيجية هاشمية. فقد رأى أنه كان من الضروري تشكيل كتلة تلح على قيام نظام ملكي هاشمي في سورية الكبرى، وتعمل على تحرير الحجاز. ولكن العراقيين رفضوا مقترحاته قائلين: إن مؤتمر الإسكندرية كان يهدف إلى تعزيز الوحدة، لا إلى زرع بذور الخلاف والنزاع، وإن أقصى ما يمكن للمؤتمر أن يتمخض عنه هو نوع من الاتفاق بين الدول العربية في وضعها الحالي. غير أن عبد الله عارض أي اتفاق يتضمن اعترافاً بالتقسيمات الإدارية القائمة في العالم العربي، فانتهى الاجتماع الهاشمي دون أن يتمخض عن أية نتيجة.

كان مؤتمر الإسكندرية في خريف (1944 م) وتمخض عن بروتوكول يبين الخطوط العريضة للتعاون العربي، ويدعو إلى إقامة جامعة للدول العربية. شكل البروتوكول وثيقة موجهة إلى الرأي العام العربي، ولكنها لم تتناول، في حقيقة الأمر، مسألة الوحدة العربية.[73] اكتفت بالأحرى بإرساء الأساس اللازم للتعاون فيما بين الحكومات العربية من منطلق سيادتها المضمونة، ولم تتطلع إلى ما هو بعد من اندماج الشعوب العربية في المستقبل. ولدى صياغة مسودة ميثاق الجامعة العربية بعد ستة اشهر، جرى تعزيز التأكيد على السيادة الإفرادية، وتمييع الآمال المعلقة على إمكانية جعل الجامعة الخطوة الأولى على طريق الوحدة العربية الأكبر. وبالتالي فإن الجامعة العربية لم تكن ترمز، لدى تأسيسها رسمياً في أيار من عام (1945 م) إلى ما هو أكثر من شبكة علاقات بين دول.[74]

فيما بعد وصف عبد الله الجامعة العربية قائلاً إنها: «سبعة رؤوس محشوة في كيس»؛[75] وقد كان الوصف مناسباً، لأن الجامعة كانت قد

شيدت على أساس السيادة المؤكدة والمضمونة لكل من الدول. وكذلك فإن موقف عبد الله كان يعكس استياءه المرير وسخطه، إزاء إخفاق الجامعة في تبني وجهة نظره عن الوحدة العربية المتمثلة بسورية الكبرى كخطوة أولى. بالفعل أدى تشكيل الجامعة إلى تغيير ميزان القوة في الشرق الأوسط تغييراً ألحق الضرر بوضعه هو، كما ألحقه بوضع الهاشميين عموماً، إذ تمخض عن إشراك مصر والعربية السعودية في الصراع الدائر على سورية. وهاتان الدولتان كانتا، حتى قبل التأسيس النهائي للجامعة قد بدأتا تتقاربان لتأليف كتلة معادية للهاشميين.

في كانون الثاني من عام (1945 م)، قبل ظهور الجامعة العربية إلى الوجود بخمسة أشهر، كان الملك فاروق قد زار ابن سعود. ولدى سماعه بالنبأ ثار سخط عبد الله الشديد، وخصوصاً لأن خصميه كانا قد التقيا في الحجاز. خشي عبد الله أن تبادر مصر والعربية السعودية إلى التوحد ضده وهدد بالانسحاب من الاجتماع القادم في القاهرة الذي كان من المقرر أن يستكمل إنجاز ميثاق الجامعة العربية. وبوصفه «أكبر أنجال الرجل الذي أرسى قواعد الاستقلال العربي لم يكن مستعداً لأن يذعن لقيادة الملك فاروق أو ابن سعود المغتصب...».[76] ولكن عبد الإله ونوري السعيد اللذين كانا قد استدعيا إلى عمان للتشاور حول استراتيجية هاشمية مضادة أقنعاه بأن عليه أن يرسل وفده إلى القاهرة حسب ما كان مخططاً.

لم تكن السلسلة الأخرى من الاجتماعات التي عقدت في القاهرة أواخر شباط (1945 م) أقل إثارة للقلق. فـ (الثلاثة الكبار)، أي تشرتشل، وروزفلت وستالين كانوا قد اجتمعوا في منتجع يالطا في القرم لمناقشة تسوية ما بعد الحرب السياسية، في كل من أوروبا الوسطى والشرقية من جهة والشرق الأقصى من جهة ثانية. كانت هيبتهم في أوجها لأن النصر كان قاب قوسين أو أدنى فضلاً عن أن الوجه السلبي الدنيء لعملية صنع السلام لم يكن مكشوفاً للملأ. وفي طريقهما إلى بلديهما توقف كل من تشرتشل

وروزفلت في القاهرة حيث كان الأخير قد رتب لقاء مع ابن سعود. كما أن تشرتشل قابل ابن سعود فضلاً، عن اجتماعه بكل من الملك فاروق وشكري القوتلي الذي كان موجوداً في القاهرة في الوقت نفسه. وعدم لقاء أي من هذين الزعيمين السياسيين بأي هاشمي شكل ضربة كبيرة بالنسبة لعبد الله. صحيح أن رئيس جمهورية الولايات المتحدة لم يكن مديناً له بشيء، ولكن «مجيء رئيس الوزراء، وهو صديق قديم، إلى مكان بهذا القرب، دون أن يعبر ولو عن الرغبة في أن يراني آلمني كثيرا» كما قال. لم يكن أي صدع في علاقة الصداقة أمراً يستهان به، غير أن لقاءات القاهرة بدت أيضاً مشيرة بنظر عبد الله، وبنظر العالم العربي كله كما كان يخشى - إلى أن المستقبل كان للآخرين وليس للهاشميين.(77)

كان استياؤه شديداً جداً إلى درجة دفعت الوزير المقيم في الشرق الأوسط، السير إدوارد غريغ إلى أن يهرع فوراً إلى عمان من القاهرة لتهدئة خاطره وتمسيد ريشه المنفوش. استقبله عبد الله بلباقة ولكن ببرود، وأبلغ كيركبرايد فيما بعد بأنه لم يقتنع بما قاله الوزير عن أن اللقاءات كانت صدفة، وعن أن شيئاً من شأنه أن يلحق الضرر لم يكن قد حصل. من الواضح أن مزيداً من الطمأنة وجبر الخواطر كان ضرورياً، على الرغم من أن بريطانيا لم تكن مستعدة للوصول إلى المدى الذي كان عبد الله يطلبه. لم تكن مستعدة، مثلاً، لإصدار تصريح رسمي يصحح الاعتقاد السائد الذي يقول: إن «الأمم المتحدة باتت تعتمد في سياستها في الشرق الأوسط على ابن سعود وفاروق ومن يدور في فلكيهما». كما لم تكن مستعدة لدعوته مباشرة إلى إنجلترا. ومع ذلك فإن تشرتشل أرسل إليه بالفعل رسالة شخصية أيد فيها أقوال غريغ وتفسيراته، وأكد على أسفه لأنه لم يستطع، خلال زيارته القصيرة، أن يرى جميع أصدقائه القدامى في الشرق الأوسط. ومهما يكن من أمر فإن عبد الله ظل دائباً، طوال أسابيع كاملة، على العزف على أوتار هفوة تشرتشل المؤسفة.(78)

ما لبثت هذه المنافسات الغامضة أن تحددت بشكل أفضل في اجتماعات اللجنة السياسية الفرعية المكلفة بصياغة نص ميثاق الجامعة العربية. كانت مصر والعراق قطبين متعارضين يتنافسان على الزعامة، في حين بادرت السعودية إلى التحالف مع مصر ضد أعدائه القدامى من الهاشميين. أما لبنان فقد رأى في القاهرة، عاصمة العالم العربي الثقافية، مدينة أكثر (كوزموبوليتية)، أقدر على تفهم حاجات لبنان الخاصة من سورية والعراق وشرق الأردن وهي البلاد التي رمزت إلى العمق الإسلامي لجغرافية المنطقة. وفي سبيل تأكيد الروابط التاريخية بين البلدين جرت الإشارة حتى إلى بعض الذكريات عن إبراهيم باشا، ابن نائب السلطان في مصر، الذي حكم لبنان بين عامي (1830 - 1840 م). وعلى الرغم من عدم حماسها لموالاة مصر، فإن سورية انجرت هي الأخرى إلى الملك المصري جراء رغبتها في الحصول على الحماية من المخططات الملكية الهاشمية، وبسبب علاقتها الوثيقة بالعربية السعودية. بقي الهاشميون وحدهم؛ وبدلاً من أن تكون الجامعة أداة لخدمة الطموحات الهاشمية، ما لبثت أن غدت عقبة أخرى على الطريق الموصلة إلى سورية الكبرى. ولكن عبد الله، على شعوره بالخيبة، لم يسلم بالهزيمة وتابع حربه الهادفة إلى الحصول على عرش سورية رغم احتشاد القوى ضده في الجامعة.

ولكن هذه الحرب لم تتمخض في النهاية لا عن تاج سورية الكبرى على رأس عبد الله، ولا عن استقلال شرق الأردن. وبالتالي فإن عبد الله أمضى الجزء الباقي من حياته مثل كيميائي [عطار قديم، كيميائي قديم أقرب إلى الساحر أو الحاوي] دائب على البحث عن التركيب الصحيح للعناصر التي كان من شأنها، إذا ما اجتمعت في مناسبة عرضية واحدة، أن تدفع به وتجلسه على عرش سورية الكبرى. أما الاستقلال فقد كان هدفاً أكثر واقعية على الأرض إذ لم يكن إلا مسألة توقيت.

ظلت بريطانيا طوال مدة الحرب متعاطفة مع التماسات عبد الله بشأن

الاستقلال بطريقة لم تكن ممكنة تجاه رغبته في الحصول على عرش سورية. فمبدأ الانتداب كان نهاية المطاف منطوياً على مفهوم حكم ذاتي لاحق. وأدى دعم بريطانيا للاستقلال اللبناني والسوري في عام (1941 م) وبعده، خصوصاً، إلى وضعها في موقف حساس ودقيق فيما يخص استقلال شرق الأردن. كان المأزق ببساطة متمثلاً بما يلي: «إذا كنا مستعدين لإنهاء الانتداب في سورية لكسب تأييد العرب الذين قد يصبحون أعداء لنا إذا لم نفعل؛ فهل ثمة أي سبب وجيه يدعونا إلى الإبقاء على نظام الانتداب في شرق الأردن، حيث الحاكم وشعبه كانوا، على مدى عشرين سنة، أصدقاءنا العرب الأكثر ثباتاً»؟[79] كانت الإجابة القصيرة هي (لا)، ولكن وزارة المستعمرات لم تشعر بأية حاجة لأن تهتم بشأن الثبات والاضطراب، بسبب عدم وجود أي شيء أو أي شخص في شرق الأردن يمكنه أن يهدد مركز بريطانيا. لم تكن ثمة أي حركة وطنية جديرة بالذكر، وقد علق أحد المراقبين لاحقاً قائلا: «كان غياب الاستقلال الداخلي الذاتي أفضل بنظر الشعب من رفع مستوى مثل هذا الاستقلال... لأن كل خطوة على طريق الحكم الذاتي تزيد من سلطة الأمير المطلقة».[80]

في غياب الضغط الشعبي، كان الاستقلال قادراً على الانتظار. وقد حاول المندوب السامي أن يجعل منح الاستقلال أمراً يفيده سياسياً، وآمن بأن لربما أفضل لحظة لإعلان الإستقلال كانت عندما يدرك عبد الله أخيراً أن آماله المعلقة على أي عرش سوري ليست سوى أضغاث أحلام. عندها تكون لحظة مناسبة وجيدة للتكرم بالاستقلال على عبد الله.[81] وما لبثت وزارة المستعمرات أن وافقت على هذه الرؤية وأضافت أسباباً أخرى داعية للتأجيل مثل احتمال تمخض منح الاستقلال عن إلحاق الضرر بتسوية ما بعد الحرب في الشرق الأوسط؛ احتمال أن يفضي إلى التحرك في فلسطين للمطالبة بالاستقلال من جانب العرب، وبتنازلات موازية من جانب اليهود؛ احتمال أن يصاب ابن سعود بالذعر فيبادر

بصورة مؤكدة إلى تجديد مطالبته بالعقبة ومعان؛ وقد يفضي الاستقلال، أخيراً، إلى تعطيل استخدام بريطانيا غير المشروط وغير المحدود للقواعد الجوية في شرق الأردن.[82] قيل له ببساطة: إن فعل أي شيء كان متعذراً طالما كانت الحرب دائرة، وقد كان هذا جواباً مفتقراً إلى القدرة على الإقناع نظراً إلى أن سورية ولبنان كانتا قد وُعدتا بالاستقلال في زحمة القتال،[83] ولدى توقف القتال لم يكن عبد الله قد تخلى عن التفكير بسورية، وبالتالي لم يكن ثمة ما يدعو إلى تعويضه عن أحلام غير متحققة لم يكن قد اعترف بعد بتعذر تحقيقها. غير أن بريطانيا كانت قد قررت أن تبحث عن شروط جديدة لانتدابها في فلسطين. ففي الثالث عشر من شهر تشرين الثاني، عام (1945 م) أعلن وزير الخارجية الجديد إرنْسْتْ بيفن أن لجنة انجلو ـ أمريكية كانت ستذهب إلى فلسطين للسعي إلى اكتشاف اتفاقية مقبولة وقابلة للتنفيذ. وتم تأمين الحصول على رد فعل عبد الله الإيجابي على هذا الإعلان عن طريق دعوته إلى لندن لإجراء مباحثات حول المعاهدة.[84] كان قرار المندوب السامي الأصلي القاضي بانتظار اللحظة المناسبة قد أعطى ثماره أخيراً.

وصل عبد الله إلى لندن نهاية شهر شباط عام (1946 م). سارت المفاوضات بيسر، وفي غضون شهر واحد كانت معاهدة بعيدة جداً عن الاتصاف بأي صفة استثنائية قد كُتبت، وقد نصت على استقلال شرق الأردن، وسيادة عبد الله وعلاقة السلام والصداقة الدائمين بين شرق الأردن وبريطانيا. ثمة مسالة واحدة شغلت باله خصوصاً بصورة مسبقة؛ كان يخشى من أن تبادر الحكومة البريطانية، بعد الاستقلال، إلى وقف دعمها للفيلق العربي أو اختزاله اختزالاً كبيراً. وبالتالي فإنه كان، قبل مغادرته لعمان، قد اجتمع بكل من عبد الإله ونوري السعيد بهدف جعل العراق يضطلع بتلك المهمة، إذا رفضت بريطانيا الاستمرار في دعم الفيلق العربي. وافق العراقيون على الفكرة بشغف لأنهم كانوا شديدي الحرص على

الحلول محل بريطانيا في شرق الأردن. ولكن عبد الله لم يكن قد أراد أكثر من ورقة مساومة في حال بروز صعوبات في لندن، وما لبث أن اطمأن حين رأى أن بريطانيا وافقت على الاستمرار في دعم الفيلق العربي، مقابل استخدام مرافق عسكرية معينة في شرق الأردن، كما جاء في ملحق عسكري خاص للمعاهدة.[85] غير أن الملحق ما لبث أن ثبت فيما بعد أنه صعب ومزعج، إذ أطلق يد بريطانيا بصورة شبه كاملة في إدارة المرافق العسكرية الشرق أردنية، ووفر لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، اللذين كانا لأسباب مختلفة، راغبين في حجب الاعتراف، ذريعة تمكنانهما من التصرف كما يريدان.

لم تتمخض المعاهدة بصورة فورية عن البنية التحتية اللازمة للاستقلال الحقيقي؛ فقد بقي شرق الأردن معتمداً على بريطانيا، وتابعاً لها على الصعيدين المالي والعسكري. أضف إلى ذلك أن العادات السائدة طوال خمس وعشرين سنة لم تكن قابلة للزوال بين عشية وضحاها. وبعد فترة قصيرة من "التحلي بالكرامة" عاد رئيس الوزراء وأعضاء المجلس الوزاري إلى استئناف ممارستهم القديمة لاستشارة كيركبرايد بصورة غير رسمية حول مختلف المسائل والقضايا. وكما أقر الرجل بنفسه أن (رئيس الوزراء)كثيراً «ما طلب مني استخدام نفوذي الشخصي لدى الملك في أمور محلية وداخلية خالصة».[86] وبالمثل حافظ عبد الله على عادة إطلاع كيركبرايد على «ما يدور في ذهنه من مسائل رسمية وخاصة بصراحة، تكاد تكون مروعة أحياناً، وأنا أقوم، بطبيعة الحال، بإيصال كل ما ينطوي على أهمية» كما أكد كيركبرايد لوزارة الخارجية.[87]

عاد عبد الله عودة ظافرة إلى شرق الأردن رغم الطابع المحدود لإنجازه. جاء أولاً إلى مطار اللد حيث استقبله حشد من الأعيان، ومنها انتقل في موكب من السيارات إلى عمان. وعلى الجانب الشرق أردني من الحدود تجمعت حشود كبيرة على امتداد الطريق التي كانت مزينة بأقواس النصر

والأعلام والسجاجيد. وقد جرى ذبح عدد من الجمال على الطريق كقرابين احتفالية.[88]

أما في المنطقة فقد قوبل وضع شرق الأردن الجديد بالترحيب الرسمي ولكن بالإدانة والشجب فيما وراء الكواليس. عبر الملك فاروق عن تأييده لمبدأ استقلال الأردن، ولكنه شعر أن بريطانيا تصرفت بتهور. أما ابن سعود فقد استهزأ بتخوف بريطانيا من احتمال معارضته لاستقلال شرق الأردن قائلاً: إن عبد الله «لم يكن... شخصاً جدياً يمكن أن يخشاه». ومع ذلك فإنه «أطلق فيضاً من اللغط والشتائم ضد الشرفاء الذين دأبوا دائماً على تدميره» ولفت النظر إلى حقه في المرور عبر شرق الأردن للوصول إلى سورية كما ذكر بمطالبته بكل من العقبة ومعان. أما الصحافة السورية فقد اعتبرت ملحق المعاهدة العسكري منافياً للاستقلال، غير أن الحكومة السورية كانت سعيدة في سرها، لأن الملحق واعتماد عبد الله المستمر على بريطانيا شكلا ضربة قاتلة موجهة إلى مطالبة عبد الله بعرش سورية. وبادر قادة صهاينة في كل من فلسطين وبريطانيا والولايات المتحدة إلى معارضة استقلال شرق الأردن الذي اعتبروه متناقضاً مع العقيدة الصهيونية الجامدة القائمة على أن شرق الأردن جزء من فلسطين. وقد ساهم هذا الضغط في تأخر الاعتراف الأمريكي بشرق الأردن.[89]

جرى استكمال استقلال عبد الله في الخامس والعشرين من أيار لدى قيامه بتتويج نفسه ملكاً. وقد حضر حفل التتويج مسؤولون كبار من بريطانيا وشرق الأردن والعراق، ووفد لبناني، وعدد من زعماء العشائر والقبائل السورية والعراقية، ومتطفل لم يكن مدعواً هو عبد الرحمن عزام، أمين عام الجامعة العربية، بينما وصل الوفد اليمني متأخراً يوماً ولم يحضر المراسم.[90] أما سورية فلم تُدع لإرسال وفد قد حاولت منع المواطنين من الحضور، كما منعت حافلة مليئة بالفواكه المرسلة إلى الغذاء الرسمي من عبور الحدود.[91] كان حضور طلال نجل عبد الله البكر، لافتاً للأنظار

بوضوح، لأنه كان قد نجح في كسب مودة أبيه ـ ومودة كيركبرايد ـ من جديد في السنوات الأخيرة من الحرب.

قيل: إن استبعاد طلال من ولاية العهد الذي دام خمس سنوات هو أحد الأسرار القليلة التي تمكن عبد الله، طوال حياته كلها، من الاحتفاظ بها. وقد تم تمزيق الإرادة الملكية القاضية بالاستبعاد قبيل ذهاب عبد الله إلى لندن للتفاوض بشأن المعاهدة، وقد أصبح طلال ولياً للعهد حين صار عبد الله ملكاً.[92] كان ثمة سببان أوردهما كيركبرايد خلال عام (1948 م) العصيب حين باتت بريطانيا شديدة الاهتمام بمستقبل شرق الأردن، يكمنان وراء إعادة طلال إلى وضعه السابق. كان طلال، أولاً، قد "أصلح سلوكه" بإقامته علاقات جيدة مع كيركبرايد نفسه، وبذل كل ما يستطيعه من جهد في سبيل تدعيم السياسة البريطانية في شرق الأردن. وكان الوريث الثاني للعرش، نايف، ثانياً، قد تورط في سلسلة من فضائح السوق السوداء والتهريب، مبرهناً على أنه «عنيد أحمق... بدا مفتقراً إلى ما يكفي من الذكاء ليضطلع بأي دور سياسي خيراً كان هذا الدور أم شراً». وبالتالي فقد تقرر أن طلال كان مؤهلاً لخلافة أبيه، وبادر كيركبرايد إلى إعلان أنه «لم يكن متشائماً» بشأن قدرة شرق الأردن على الاستمرار بعد وفاة عبد الله.[93]

على الرغم من أن طلالاً قام بتسوية أموره مع بريطانيا فإن علاقاته مع أبيه ظلت متسمة بسلسلة من الشجارات والمصالحات المتعاقبة. فعبد الله لم يكلف طلالاً إلا بعدد قليل المسؤوليات الرسمية وغير الرسمية؛ وقد قيل إن هذا التقليص كان نابعاً من غيرته ومن عزوفه الطبيعي عن مواجهة حقيقة الموت المحتم، وأن طلالاً كولي عهد كان يرمز إلى هذا الزوال في المستقبل. كذلك كانت غيرة عبد الله عنصراً من العناصر التي صعبت على طلال أمر الاحتفاظ بالصداقات، أو إنشاء التحالفات السياسية مع أولئك الذين كان من المحتمل أن يعاونوه في المستقبل. كان القصر يتلقى التقارير عن جميع

الزيارات التي كانت تستهدف منزل طلال، وكان من المعلوم أن من شأن الاتصال المنتظم معه أن يثير «استياء ملكياً».[94]

مع حلول عام (1946 م) كان عبد الله قد حصل على الاستقلال الرسمي لشرق الأردن. غير أنه كان، مثل منتقديه، مدركاً لطابع هذا الاستقلال المحدود. وبنظره، لم تكن بريطانيا هي العقبة على طريق الاستقلال الكامل ـ فبريطانيا كانت قد منحته ما كان متمتعاً به من استقلال ـ بل الدول العربية الأخرى. ومن وجهة نظر عبد الله فإن جيرانه هم الذين كانوا يحولون دون توسعه، ودون خلق مملكة قادرة على الاستمرار اقتصادياً وذات وزن سياسي. وبالتالي فقد أمضى سنوات حكمه الختامية في صراع حياتي متزايد الحدة باطّراد داخل المنطقة.

9) بين عبد الله وبريطانيا والعالم العربي (1945 ـ 1948 م)

كان عبد الله راضياً تماماً عن مستوى الاستقلال الذي نصت عليه المعاهدة الإنجليزية ـ الشرق أردنية، رغم الاعتراضات العربية والأمريكية والسوفيتية القائمة على أن ملحق المعاهدة الذي أعطى بريطانيا تسهيلات عسكرية واسعة، كان يشكل مساساً باستقلال شرق الأردن الحقيقي. وحين قامت الولايات المتحدة بتأجيل الاعتراف: «إلى أن تتاح لنا فرصة الإطلاع على كيفية تطبيق الترتيب الجديد بين بريطانيا العظمى وشرق الأردن»[1] وحال الاتحاد السوفيتي دون قبول شرق الأردن عضواً في الأمم المتحدة،[2] انصب غضب عبد الله على هذين البلدين، بدلاً من بريطانيا والمعاهدة. وحين دخل في مباحثات هادفة إلى تعديل المعاهدة في غضون أقل من عامين من نفاذها الأصلي، لم يكن يريد تغيير جوهرها، بل تمويهها بلغة أكثر تجريداً ودبلوماسية.[3] ففي تلك الأيام كان ما يتعذر تمويهه تمويهاً كافياً لجعله قابلاً للاستهلاك المحلّي يجري إخفاؤه في رسائل سرية. وقد مكنت إحدى هذه الرسائل كيركبرايد من الإشراف على إنفاق المساعدات المالية بصورة تكاد لا تكون مختلفة عن الطريقة التي كان يتبعها في ظل الانتداب.[4]

أدت علاقات شرق الأردن الوثيقة المستمرة مع بريطانيا إلى إبعاد عبد الله عن التوجه العام للقضايا العربية فيما بعد الحرب الذي بات خارج قبضة بريطانيا. فخلافاً لحال شرق الأردن أخفقت مصر والعراق في تصديق معاهدتين جديدتين مع بريطانيا، كان من شأنهما أن تضمنا نجاح السياسة البريطانية في الشرق الأوسط في الظروف المتبدلة لحقبة ما بعد الحرب.

وثمة سياسات وتوجهات أخرى لدى عبد الله ما لبثت أن زادت من إبعاده عن أشقائه العرب. فإصراره المستمر على التدخل في الشؤون السورية، بهدف خلق سورية الكبرى، أثار الغضب والشك في جل العواصم العربية، وساد الاعتقاد بأنه كان مؤيداً لتقسيم فلسطين، في تناقض صارخ مع تمنيات الفلسطينيين والمشاعر العربية بصورة عامة. وقد تم اعتبار السياستين كلتيهما في العالم العربي منبثقتين من الطموح الأناني، وذلك رأي جرى التعبير عنه: «بابتسامة فيها شيء من الإشفاق وحركة كتفين تنم عن الاحتقار» لدى ورود أي ذكر لاسم عبد الله في النقاشات الدائرة خارج عمان.[5]

إضافة إلى تناقض سياساته التي وصفها أحد المراقبين بأنها: «سبب أكبر المنغصات في العلاقات العربية ـ العربية»[6] اعتمد عبد الله أسلوباً شخصياً استفزازياً في تعامله مع أقرانه ونظرائه. فسحره الذي تحدث عنه العديد من البريطانيين لم يكن ظاهراً في علاقاته مع العرب. كانت علاقاته الشخصية مع أكثرية الساسة العرب، بمن فيهم أقرباؤه العراقيون، ضعيفة على الدوام، بل وحتى بدا تواقاً إلى إثارة سخطهم. ففي (1945 م) قام بنشر مذكراته مثيراً بذلك قدراً كبيراً من الاستياء وعدم الارتياح في العالم العربي، بتعليقاته الواخزة على العرب عموماً وعلى ابن سعود بصورة خاصة.[7] كما أن زيارته لتركيا في (1947 م)، مثلها مثل زيارته السابقة لذلك البلد قبل عشر سنوات، تمخضت أيضاً عن قدر غير ضروري من الاحتكاك. وحين غادر تركيا عائداً إلى بلده مستقلاً إحدى البواخر في ميناء اسكندرونة، هذه المدينة التي كانت تركيا قد ضمتها عام (1939 م)، عبر عن أسفه لرحيله عن "الأراضي التركية" وحيا العلم التركي، متعمداً تذكير الناس بإخفاق الحكومة السورية في الحفاظ على اللواء، وإثارة أقصى درجات السخط لدى الحكومة القائمة المؤلفة من الأشخاص أنفسهم.[8]

وحتى حلفاء عبد الله العرب الوحيدين، وهم أقرباؤه في العراق، استاؤوا

من سلوكه الاستفزازي بمدى يوازي انزعاج خصومه. فإصراره الشديد على المطالبة بسورية جعلهم يعزفون عن السعي إلى أية وحدة للهلال الخصيب، كما أدى عداؤه للجامعة العربية إلى مضاعفة صعوبات العراق معها. تمثلت إحدى نتائج الخوف من المبالغة في التماهي مع عبد الله من جانب أبناء عمومته في العراق بعدم تمخض الاتحاد العراقي ـ الشرق أردني الذي طال الكلام عنه، والذي تحقق في حزيران عام (1947 م)، عما هو أكثر من معاهدة صداقة بين الدولتين. وهذه المعاهدة التي «لم تأت بأي شيء لم يكن موجوداً على صعيد الممارسة العملية» تم إبقاؤها سراً لعدد من الأيام، فأثارت، ربما بصورة متعمدة، قدراً كبيراً من الاستياء في كل من دمشق والرياض.[9]

كان الهياج الذي أثاره عبد الله حول جل ما امتدت يده إليه خارج دائرة الاهتمامات الشرق ـ أردنية الخالصة، يؤدي حتى إلى التهديد بتوريط دبلوماسيين بريطانيين في الشرق الأوسط في نزاعات فيما بينهم، أو مع حكومات البلدان التي كانوا معتمدين فيها. وبسبب المعاهدة الإنجليزية ـ الشرق أردنية من جهة وقرب عبد الله التاريخي من بريطانيا من جهة ثانية، كان الجمهور يعتقد بأن نشاطاته لم تكن إلا من إفرازات السياسة البريطانية. فلدى إطلاقه للتصريحات الاستفزازية بصورة استثنائية ـ حول سورية التي شكلت إحدى النقاط الحساسة جداً بالنسبة له عادة ـ كانت دمشق والرياض وبيروت تسارع إلى دعوة لندن إلى لجمه. وهنا كانت بريطانيا تجد نفسها في مأزق. في محاولة منها للظهور بمظهر المتمسك بالتزامات استقلال شرق الأردن، لم تكن تستطيع أن تفعل علناً أكثر من تكرار حيادها، ونفي قدرتها على التحكم بتصرفات عاهل مستقل. فحقيقة أنها كانت ممسكة بزمام الأمور عن طريق كل من كيركبرايد، المقيم البريطاني الذي غدا وزيراً مفوضاً في عمان، وغلوب، القائد البريطاني للجيش العربي، كانت سراً يتعذر إفشاؤه، لأن مثل ذلك الإفشاء كان من شأنه أن

يعني اعترافاً صريحاً بأن استقلال عبد الله كان، في الحقيقة، ناقصاً.

أدى مثل هذا الوضع إلى جعل الحياة بالنسبة للسلك الدبلوماسي البريطاني في الشرق الأوسط أحياناً، صعبة جداً إلى درجة الاضطرار للاختيار بين متابعة العلاقات الوثيقة مع عبد الله، والحفاظ على صلات طيبة مع أنظمة عربية أخرى. ومع ذلك فإن كيركبرايد كان ضد أي توبيخ علني، لأن ذلك لم يكن ليتمخض إلا عن إغضاب عبد الله وجعله أكثر عناداً، على الرغم من أنه دأب على إسماعه المحاضرات الهادئة بصورة منتظمة عن دسائسه. وغلوب أيضاً كان واعياً بهدوء ولكن بعمق لضرورة منع عبد الله من استخدام الفيلق العربي بالارتباط مع مشروع سورية الكبرى.[10] غير أن هذا التحكم المقنع لم يفعل شيئاً ذا شأن على صعيد طمأنة الدبلوماسيين البريطانيين في العواصم العربية، حيث كانت تحركات عبد الله تثير سخط حكومات البلدان التي كانوا معتمدين لديها. فالسير ايلتد كلايتون الذي التقى، بوصفه مستشار الشؤون العربية لدى رئيس المكتب البريطاني للشرق الأوسط، مع العديد من الساسة العرب الممثلين لسائر وجهات النظر، شكا قائلاً:

> من النادر أن تجد أحداً في الدول العربية لا يعتقد بأننا وراء نشاطات عبد الله، وحين يتم التأكيد على أننا لا نفعل، فإنهم يواجهوننا بالتأكيد على أننا قادرون على وضع حد لها إذا أردنا. إنني أواجه هذا المرة بعد الأخرى، وقلما يقتنع محاوري بالقول بأننا عاجزون عن التدخل المناسب في تصرفات الملك عبد الله وهو العاهل المستقل المتمتع بالسيادة.[11]

فيما كان كيركبرايد قادراً على تبرير زلاّته، بوصفها أشكالاً من الخبث، وعزو أخطائه الكبرى إلى التقدم في السن،[12] فإن رسميين بريطانيين آخرين نظروا إليه بقدر قليل من التسامح. فكلايتون كان مؤمناً بأن من الواجب الإيعاز لعبد الله (المحتال الكبير والكذاب) بأن يبقى صامتاً.[13] وكان لورنس غرافتي - سميث الوزير البريطاني في جدّة متفقاً معه في الرأي إذ قال:

...تشكل عندي انطباع خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، بأن عبد الله ليس في نظر الجميع إلا دمية بيد السياسة البريطانية، ونكتة تكاد أن تكون سمجة. حتى في الحجاز، حين خدمت هنا مع أبيه... لم يبد الأمير عبد الله متمتعاً باحترام أحد. (حين كان يلعب الشطرنج في الوكالة البريطانية كان يمارس الغش) لم أسمع أحداً يذكر اسمه إلا بقدر من الاحتقار في كل من مصر والعربية السعودية بل وحتى في العراق.[14]

في خضم تيارات الرأي الخطرة والمتماوجة حول شخصية عبد الله، غامر قائد الأسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط بالدخول في غفلة منه. كان هذا الرجل قد اتفق مع كيركبرايد حول إمكانية دعوة عبد الله إلى رحلة بحرية في خليج العقبة،[15] وما لبث الأخير أن فاتح عبد الله بالموضوع فكانت موافقته فورية. غير أن موافقة وزارة الخارجية لم تكن للأسف، مأخوذة بصورة مسبقة، وما إن سمعت البعثات البريطانية في العواصم العربية الأخرى بالخطة حتى تعالت أصوات الاستنكار بصورة إجماعية: كان من شأن الإبحار من العقبة أن يلفت الأنظار إلى بقعة مختلف عليها بين شرق الأردن والعربية السعودية؛ كان من شأن الاهتمام غير العادي بعبد الله أن يؤكد صحة الاعتقاد بأنه (مدلل) خصوصاً لدى بريطانيا، وأن يعتبر دليلاً على دعم بريطانيا له في الصراع الدائر حول مشروع سورية الكبرى؛ وكان من شأن الرحلة البحرية في المياه الإقليمية المصرية والسعودية أن يؤدي إلى استفزاز كل من فاروق وابن سعود.[16] وفي ضوء رد الفعل السلبي الكاسح هذا، قررت وزارة الخارجية أن الرحلة البحرية لم تكن فكرة صحيحة، ووافق قائد الأسطول على سحب الدعوة متذرعاً باستحالة تأمين السفينة اللازمة، وهذه ذريعة ما لبثت أن أصبحت مستساغة لدى عبد الله جراء تسريب معلومة إضافية عن الحاجة إلى السفينة للقيام بأعمال الدورية على شواطىء فلسطين ضد الهجرة غير المشروعة.[17]

تضايق كيركبرايد من الدعوة الملغاة، واستاء من ردود أفعال زميله. كتب بغضب إلى وزارة الخارجية قائلاً: إن البرقيات المتبادلة بدت وكأنها تلمح إلى أن عبد الله كان «شخصاً شريراً استفزازياً لا يجوز أن يسمح له بأن يقترن اسمه بسفينة جلالة الملك» (ثمة ملاحظة بالقلم الرصاص، تمت إضافتها في وزارة الخارجية تقول: «يبدو أنه كذلك!»). وآملاً في تشويه الأمر، أتى على ذكر علاقات عبد الله السابقة السعيدة مع البحرية البريطانية، أكد على أن العقبة كانت تعتبر منطقة عائدة لشرق الأردن بنظر بريطانيا، ووصف قيام القاهرة بربط رحلة بحرية بمشكلة سورية الكبرى (جموحاً مثيراً للخيال)، ورفض (شجب) جدة (الكاسح) بعنف قائلاً إنه «لم يكن إلا متوقعاً من ذلك الطرف». واختتم كلامه بإيراد عبارة مفعمة بأسمى آيات الحكمة إذ قال: «لا أحد يعرف أكثر مني مدى افتقار الملك إلى الرؤية والتعقل، ونزوعه إلى الإقدام على الخطوات المتسرعة، وهما سمتان تصبحان أكثر وضوحاً مع تقدمه في السن، ولكنهما غير قابلتين للشفاء أو حتى للحجم عن طريق نوع من القمع الدبلوماسي الجماعي الذي يمارسه ممثلو جلالة الملك البريطاني في الشرق الأوسط». على الرغم من جهل كيركبرايد للأمر فإن شهادته الخطية لم تفد في تعزيز موقع عبد الله في لندن. تلقت وزارة الخارجية تقريره ببرود، وامتنعت عن نشره أو الرد عليه. وتحاشياً لإصدار ما يشي باللين والرفق، دفعت السير بيتر غاران إلى إطلاق الملاحظة التالية: «يا لها من فكرة مرعبة! إن عيوب الملك عبد الله ونواقصه المتمثلة بعدم التعقل والنزعة الاستفزازية ستصبح أكثر سوءاً مع تقدمه في السن!»[18]

ومهما يكن من أمر فإن عبد الله ما لبث أن نطق بالكلمة الأخيرة حين طلب من كيركبرايد أن ينقل إلى القائد العام «شكره الصادق»، مع كأس فضي نقش عليه اسم السفينة قائلاً: «أعتبر مجرد الدعوة تعبيراً عن شعور نبيل من جانب سلاح البحرية الملكي... أقدره... كما لو كانت الرحلة

البحرية قد تمت فعلاً...». وبشيء من الرضى عن النفس نفذ كيركبرايد ما طلب منه دون أي تعليق إضافي.[19]

صحيح أن عبد الله كان يستطيع، أن يربك بريطانيا ويزعجها في الشرق الأوسط، وقد فعل، غير أنه كان عاجزاً عن قولبة السياسة البريطانية بما يتناسب مع أغراضه. فالمصلحة البريطانية هي التي كانت بالأحرى تحدد نجاح سياسات عبد الله أو إخفاقها. ظلت أهدافه الأكثر ثباتاً وعناداً في فترة ما بعد الحرب متمثلة بإضافة فلسطين، أو أي جزء يتبقى منها للعرب، إلى شرق الأردن، وبتاج سورية الكبرى، كما على الدوام. وبالنسبة لعبد الله لم يكن الهدف الأول إلا الخطوة الأولى على الطريق الموصلة إلى الهدف الثاني، ولكن التاريخ فصل أحدهما عن الآخر بتمكين عبد الله في حياته من النجاح في بلوغ الأول، وبجعله يخفق في بلوغ الهدف الثاني. ومن المؤكد أن إحدى القوى الأهم التي شكلت ذلك التاريخ هي قوة المصلحة البريطانية.

من منظور اليوم يبرز وضع فلسطين المعلق بوصفه المشكلة المنفردة الأكثر أهمية في مواجهة الساسة البريطانيين والعرب فيما بعد الحرب. وقد كان كذلك حقاً. غير أنه شكل رمزاً لمشكلات أعم بكثير كانت تنتصب أمام بريطانيا والعرب في ذلك الوقت. فقد كان مأزق ما بعد الحرب الشامل بالنسبة لبريطانيا متمثلاً بكيفية إعادة تشكيل شبكة العلاقات الأنجلو ـ عربية في فترة لم تكن بريطانيا تملك فيها أية قيم مادية ذات شأن تقدمها للعرب، ولكنها كانت راغبة في الاحتفاظ بنفوذها في المنطقة، بجملة مرافقها على الصعيدين العسكري والاتصالات، وبامتيازاتها النفطية.[20] أما العرب فقد كانوا مهتمين ليس فقط بعلاقاتهم مع بريطانيا في حقبة الاستقلال، بل وبعلاقاتهم فيما بينهم في وقت باتت فيه الوحدة العربية أخيراً، نظرياً على الأقل، ممكنة التحقيق بعد فاصل الانتداب الذي طال أمده.

أما مسائل العلاقات المقبلة مع بريطانيا، بل ومع العالم عموماً فقد عالجها كل من البلدان العربية بصورة منفردة حيث تم التفاوض حول معاهدة مع بريطانيا، أو حول ترتيبات اقتصادية مع الولايات المتحدة. وتمت مقاربتها بصورة جماعية أيضاً في إطار المساعي المبذولة لإبقاء فلسطين عربية. كذلك تجلى النضال في سبيل الوحدة العربية، أو في سبيل تولي زعامة العالم العربي بتعبير أصح، في فلسطين. غير أن مفتاح مستقبل العالم العربي - على مختلف الأصعدة الجغرافية والاستراتيجية والاقتصادية - كان لا يزال، ربما نتيجة العادة، متمثلاً بسورية؛ والتنافس بين الدول العربية على القيادة الإقليمية كان يتم في جانب كبير منه في إطار ما بات يعرف باسم "الصراع على سورية".[21] وبعد الحرب مباشرة بادر عبد الله، وقد كان راضياً عن علاقته ببريطانيا، ولكنه غير راض عن وضعه في العالم العربي، إلى توجيه اهتمامه نحو سورية أولاً، بدلاً من التركيز على قضية مستقبل فلسطين الأكثر إلحاحاً.

كان طموح عبد الله إلى الجلوس على عرش ملكي في دمشق طموحاً قديماً. وعلى الرغم من أن إطار خطابه البلاغي تغير بما يتلاءم مع وقائع ما بعد الحرب، فإن مضمون طموحه وزخمه لم يشهدا أي تبدل جراء الحرب. فمع بريطانيا اعتمد لغة الحرب الباردة الناشئة، مقدماً نفسه حليفاً تكمن مصالحه، مثل مصالح بريطانيا، في التصدي لنزعة التوسع السوفيتية. وبرأي عبد الله كان من شأن "إعادة توحيد" سورية أن تسهم في خدمة القضية. وقد جاء على لسانه في معرض شرحه للمسألة على مسامع آتلي ما يلي:

> تعكف روسيا على اتباع سياسة توسعية في إيران وكردستان، سياسة قد تستهدف الوصول إلى الخليج الفارسي والبحر الأبيض المتوسط. ولمواجهة ذلك من المرغوب فيه أن يتم بناء جبهة دفاعية شاملة لكل من تركيا وإيران وأفغانستان مدعومة بـ "الهلال الخصيب" المتشكل من البلدان العربية... وسورية الآن تخضع لحكم عدد من الساسة المحليين، غير أننا، إذا تتبعنا تاريخها

من أيام الأمير فيصل... ندرك أن سورية بحاجة إلى حكام آخرين يستدون سياستهم إلى الصداقة مع بريطانيا العظمى. وإذا ما رحلت فرنسا عن سورية، فقد تتوفر لهذا البلد فرصة إعادة التوحيد، وأعتقد أن من شأن ذلك أن يكون في مصلحة حكومة جلالته.[22]

وجرياً على عادته التي ترسخت في أثناء الحرب، ظل عبد الله دائباً على إرسال وابل من الرسائل والمذكرات المتضمنة آراءه حول شؤون الشرق الأوسط إلى الحكومة البريطانية. وكانت هذه الرسائل والمذكرات كلها تؤكد التهديد الروسي، وتتضمن بعض النقد للنظام السوري القائم، مشيرة إلى أن من شأن التوحد مع شرق الأردن وتمكين قبضته الثابتة من الإمساك بالدفة أن يفضيا إلى التغلب على الضعف السوري. إلا أن لندن لم تكن متجاوبة. وبرأي وزارة الخارجية لم تضف الرسائل شيئاً إلى ما كانت هذه الوزارة تعرفه عن مشكلات الشرق الأوسط، كما لم تحسن فرص عبد الله في الحصول على دعم بريطانيا لطموحاته المتمثلة بمشروع سورية الكبرى. غير أن المراسلات ذات الاتجاه الواحد سمح لها بالاستمرار، لأن كيركبرايد كان يشعر بأنها كانت تزود "دماغ" عبد الله «النشيط وطموحاته بصمام أمان غير ضار».[23] من المؤكد أنها كانت تعني شيئاً بالنسبة لعبد الله الذي كتب في إحدى الرسائل عبارة تقول: «تنطوي رسائلي ومضامينها على أهمية بالغة، وبالتالي فإن استمرارها هو في صالح بلدينا كليهما».[24]

بادر عبد الله إلى اعتماد عيد جديد يخلد ذكرى الثامن من آذار (1920 م)، ذكرى اليوم الذي كان فيه المؤتمر السوري العام قد قام بانتخاب فيصل ملكاً لسورية، لإبراز فكرته في العالم العربي حيث كانت سائر أراضي سورية الكبرى عدا فلسطين قد باتت مستقلة. وأتاح له هذا العيد فرصة تأكيد إيمانه بأن مملكة فيصل السورية كانت قد مثلت الإرادة الحقيقية للشعب السوري (الراغب في نظام ملكي هاشمي)، والوضع

الطبيعي لذلك البلد الذي كان يضم شرق الأردن في ذلك الوقت. بنى عبد الله قضيته على ذلك الافتراض، قائلاً بضرورة استعادة النظام الملكي، بعد أن أصبحت سورية متحررة من السيطرة الأجنبية، وبأنه، بوصفه شقيق فيصل والهاشمي الأكبر سناً على قيد الحياة كونه الوريث المنطقي لعرش الدولة التي جُزِّئت. وقد حرص في طرحه على الالتفاف على كل من عبد الإله، وصي العرش العراقي، وفيصل الثاني، السليل الذكر المباشر الوحيد المتحدر من فيصل الأول.

على الرغم من الأوضاع الإقليمية والعالمية المتبدلة بعد الحرب، فإن فرص عبد الله في الوصول إلى عرش سورية لم تكن قد شهدت أي تغيير ذي شأن، مثلها مثل أساليبه التي ظلت قائمة على الجهود الدعائية، وتوزيع الأموال والرشاوى، والاتصال بالملكيين والساخطين السوريين. غير أنه كان يتمتع بهامش أوسع لمتابعة هذه النشاطات، بالمقارنة مع ما كان عليه الوضع في ظل الانتداب، على الرغم من أن كيركبرايد ظل يمارس تأثيراً محبطاً، كما بقي الفيلق العربي في قبضة غلوب الفولاذية.

أصبح المال، مثلاً، أكثر توفراً بالمقارنة مع حاله حين كانت الموازنة خاضعة للإشراف البريطاني الصارم. فما من رئيس وزراء شرق أردني كان يستطيع رفض طلبات عبد الله للحصول على الأموال بصورة مباشرة، ويأمل في البقاء طويلاً في منصبه. كما أن المال كان أكثر توفراً بقليل؛ فالخزائن العامة كانت قد انتعشت بفضل اتفاقيات عام (1946 م) مع شركة نفط العراق من جهة وشركة خط الأنابيب العابر للجزيرة العربية من جهة ثانية، التي جعلت كلاً من الشركتين تدفع ستين ألفاً من الجنيهات سنوياً مقابل ضخ النفط عبر شرق الأردن بصرف النظر عن كميات الضخ.[25] كذلك كانت موارد العائلة الملكية الخاصة تنمو أيضاً، عبر تورط أفرادها في تهريب المخدرات، عن طريق استغلال الامتيازات الخاصة الممنوحة للسيارات الملكية في نقاط العبور الحدودية. وبعد سنوات من انتشار شائعات حول

وجود روابط ملكية مع الاتجار بالمخدرات، تم في نيسان من عام (1947 م) إيقاف سيارة الملكة في مكان قريب من غزة، وعثر فيها على مئتي رطل إنجليزي من مادة الحشيش. وكان في السيارة مع السائق النظامي، نايف الأطرش، نجل الزعيم الدرزي سلطان الأطرش، مما قد يشير إلى أن على الأقل بعض حصائل التجارة الملكية كان مرتبطاً بالسياسة السورية، على الرغم من أن كيركبرايد أعلن عن اقتناعه بأن عبد الله لم يكن شخصياً على علم بما كان يجري.[26]

كذلك أصبح عبد الله بعد الاستقلال أكثر حرية في الاندماج مع الساخطين السوريين الذين كانوا يؤيدون مطالب عبد الله لأغراضهم الخاصة. وكان هؤلاء يمثلون بصورة عامة مصالح فئوية، وخاصة الأقليات بعيدة عن سياسة دمشق الحضرية، وبالتالي عاجزين، نتيجة مركزهم الهامشي، عن توفير الدعم الضروري اللازم لإجلاس عبد الله على عرش ملكي سوري. وكان من بين هذه العناصر الساخطة في فترة ما بعد الحرب متمردون علويون بزعامة سليمان المرشد، وشيوخ عشائريون بمعينون من الجزيرة، وقبيلة الأطرش الدرزية.[27] وإضافة إلى ذلك كانت ثمة إشاعات عن وجود جماعات معارضة جديدة ـ ضباط في الجيش، طموحون وغير راضين ـ ساعية إلى الحصول على دعم الفيلق العربي عن طريق استغلال أحلام عبد الله المهترئة.[28] وعلى الدوام كانت هناك نواة الملكيين الصادقين الذين كانوا قد أخلصوا لفيصل، ثم نقلوا ولاءهم إلى عبد الله بعد وفاته. أما الأبرز بين هؤلاء فقد كان حسن الحكيم، وهو رئيس وزراء سابق لسورية، وكان قد عمل لدى عبد الله لفترة قصيرة في عام (1931 م) مستشاراً مالياً. ألح الحكيم هذا على عبد الله طالباً منه توظيف أمواله في الانتخابات السورية المقررة في صيف (1947 م)، وترك أمر تحقيق المملكة السورية الكبرى للمسار "الديمقراطي". وبالفعل فإن عبد الله دفع بضعة آلاف من الجنيهات للمرشحين الملكيين، ولكن مساهماته في الحملة ظلت

شاحبة بالمقارنة مع المبالغ التي أنفقتها الأحزاب السياسية السورية، والحكومة السعودية لضمان استمرار النظام الجمهوري.[29]

ومع تحرره النسبي من المحاسبة البريطانية بات عبد الله أكثر قدرة على ممارسة ولعه الشديد بإصدار التصريحات حول سورية الكبرى، ونشرها بقدر أكبر من الحرية. فخطابه السنوي لدى افتتاح دورة عام (1946 م) البرلمانية، وهو خطابه الأول من هذا النوع منذ أن أصبح ملكاً، لم يخضع، كما هي العادة، لتدقيق كيركبرايد، وجاء متضمناً دعوة إلى الوحدة بين شرق الأردن وسورية.[30] وبعد ذلك كان يستغرق في الإفصاح عما يجول في خاطره حول الموضوع كلما لاحت أية فرصة عامة مهما كانت بسيطة (وقد أطلق أحد أكثر تصريحاته إثارة للجدل حول موضوع سورية الكبرى لدى تدشين إحدى المدارس الزراعية). كذلك كان مولعاً بمقابلة المراسلين ضارباً عرض الحائط بنصائح كيركبرايد الذي كان يوصيه بعدم إجراء المقابلات الصحفية.[31]

أدى افتتاح مقرات البعثات الشرق أردنية في البلدان المجاورة إلى توفير قناة طبيعية للدعاية. قامت القوات السورية باقتحام القنصلية الشرق أردنية في دمشق، وصادرت آلاف النسخ من المنشورات المتضمنة دعوة ملكية إلى الوحدة بين سورية وشرق الأردن، تم بعد ذلك إغلاق القنصلية وطرد موظفيها.[32] إلا أن أشهر محاولاته الدعائية كانت تلك المتمثلة بما عرف باسم كتاب شرق الأردن الأبيض، الذي كان كتاباً مؤلفاً من (294) صفحة، يضم مجموعة وثائق تغطي الفترة الممتدة منذ الحرب العالمية الأولى. وهذا الكتاب الأبيض الذي نشر في أيار عام (1947 م) عشية الانتخابات في كل من سورية ولبنان، كان يقدم أدلة داعمة لفكرته المتمثلة بإقامة مملكة سورية الكبرى. غير أن حصيلة تأثيره لم تكن عملية توثيق لقضية عادلة تعرضت للتخريب اللئيم، بل سجلاً حزيناً وبائساً لسلسلة من آيات أحلام اليقظة والإخفاقات.[33]

ولدى النظر إلى الوراء نرى أن التكرر الكثيف لمحاولات عبد الله، وإخفاقاتها المحتومة البادية أضفى مسحة من احتمال تحقيق سورية الكبرى، بل ألقى على الفكرة بشكل عام أبعاد السخرية والهزل. ومع ذلك فإن سورية الكبرى بقيت قضية حساسة في سورية، وفي العالم العربي عموماً. فحكومة الكتلة الوطنية بدمشق كانت بالغة الهشاشة إزاء طرح عبد الله القائل بأن البلاد العربية كانت قد قسمت وفقاً لمصالح إمبريالية، وبأن عليها الآن، بعد الاستقلال، أن تتوحد من جديد. وكان من شأن القبول بما هو أقل من إعادة التوحيد أن يعني الاستفادة من الإمبريالية وأن ينطوي، بالتالي، على قدر من التواطؤ مع هذه الإمبريالية. وقد كان الاتهام الأقوى والأكثر دواماً الذي تم توجيهه إلى عبد الله، الذي كان ضعيفاً ضعفاً استثنائياً أمامه، في محال الرد على ذلك الادعاء، هو أنه كان عميلاً بريطانياً، وأن مشروعه المتمثل بسورية الكبرى لم يكن إلا أداة من أدوات استبدال الهيمنة الفرنسية بنظيرتها البريطانية.(ثمة رسميون بريطانيون مختلفون أشاروا، بين الحين والآخر، إلى أن من شأن خلق سورية كبرى بقيادة عبد الله أن يكون مفيداً لبريطانيا، غير أن مثل هذه المقترحات كانت تُهزم باستمرار أمام رأي الأكثرية القائل بأن من شأن رعاية عبد الله في سورية الكبرى أن تصبح بريطانيا أقل، لا أكثر، أمناً واطمئناناً في الشرق الأوسط).(34)

كانت دمشق وبيروت بدرجة أقل متأثرتين تأثراً مباشراً بمساعي عبد الله الحثيثة الرامية إلى تحقيق طموحاته. كذلك لم تكن القاهرة وبغداد والرياض أقل معارضة لتوسع دائرة نفوذه وسلطته. والضجيج الصاخب للاتهامات المضادة الصادرة عن هذه العواصم الخمس دفعة واحدة كان يصم الآذان أحياناً؛ ففي آب عام (1947 م) بلغ هذا الضجيج مستوى من الارتفاع لا يمكن تصديقه حين بادر عبد الله إلى إصدار دعوة لعقد مؤتمر سوري شامل. لم تكن الفكرة جديدة؛ فقد سبق له أن حاول القيام بمبادرة مماثلة في أثناء الحرب، ولكن المفوض السامي كان قد منعه. ومع الاستقلال لم تعد

بريطانيا تمارس مثل تلك الرقابة على تصريحاته ذات العلاقة بالسياسة الخارجية، وانطلاقاً من الاقتناع بأن نتائج الانتخابات السورية ذلك الصيف ستكون مواتية، قام عبد الله بتجديد مساعيه.

صحيح أن الانتخابات لم تجلب انتصاراً لحكومة رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء جميل مردم، ولكنها لم تكن هزيمة لها في الوقت نفسه. وصحيح أن الحزب الوطني للقوتلي لم يفز إلا بأربعة وعشرين مقعداً في مجلس النواب الجديد، مقابل ثلاثة وخمسين مقعداً فاز بها التحالف الوطني المنافس،[35] إلا أن كلاً من القوتلي ومردم تمكنا من البقاء في منصبيهما. تشجع عبد الله من النكسة التي أصابت القوتلي،[36] على الرغم من أنها لم تكن في الحقيقة مكسباً له، لأن التحالف المنافس لم يكن أقل تمسكاً بالنظام الجمهوري من الحزب الوطني. ولعل ما كان لافتاً للنظر هو انتخاب حوالي خمسين من "المستقلين" (ملاك أراضي، رجال أعمال، زعماء عشائر وأقليات، وزعماء عائلات كبيرة ومتنفذة) دون أية انتماءات حزبية أو فكرية، ممن حافظوا على التوازن بين التحالفين الوطنيين، وأوجدوا سوقاً رائجة مفتوحة أمام صيادي الحظوظ السياسية في سورية من أمثال عبد الله.[37]

دعا عبد الله ـ مستغلاً اهتراء الدعم الذي كانت حكومة القوتلي متمتعة به ـ إلى عقد مؤتمر لسورية، كلها من أجل إيجاد حكومة لسورية الكبرى أولاً، والانتقال بعد ذلك إلى وحدة عربية شاملة لكل من سورية الكبرى والعراق. وفي هجوم شنه على كل من الحكومة السورية والجامعة العربية أعلن عبد الله ما يلي:

> ما زال أنصار الشقاق والانفصال والاستسلام يتابعون دعايتهم الاستفزازية ضد الدعوة إلى اعتماد ميثاق موحد. وما زالوا أيضاً يخلقون عن طريق ذلك الشكل [الجمهوري] من الحكم الذي تم تأسيسه في الجزء الشمالي من وطننا العزيز [سورية] حملة لا يستهان بها من العراقيل والعقبات التي يضعونها في

طريق تحقيق وحدة البلد أو اتحاده... إن نظاماً جمهورياً إقليمياً محرداً، لم يتأسس إلا نتيجة حدود رُسمت إرضاء لقوى الانتداب، وتم الحفاظ عليها بقوة السلاح، لن يستطيع قط أن يلغي صلاحية ميثاق وطني عتيد ومهيب [مؤتمر عام (1920 م) السوري الذي انتخب فيصل].. يتعرض الذكاء الوطني للإهانة على أيدي أولئك الذين يزعمون أن ميثاق الجامعة العربية ينص على إبقاء العالم العربي في وضعه الحالي الذي يعرقل التقدم العربي، عن طريق المحافظة على الحدود المفروضة من قبل الاستعمار...[38]

جاء رد الفعل على هذا التصريح مباشراً وحاداً. فالقوتلي وحليفه ابن سعود أصدرا احتجاجين شديدي اللهجة، وقاما وراء الكواليس بشجب تصرف عبد الله على مسامع الدبلوماسيين البريطانيين.[39] وبعد ذلك قام القوتلي بزيارة بيروت، وذهب جميل مردم إلى بغداد، كما توجه مبعوث سوري ثالث إلى القاهرة والرياض في سبيل اقتراح رد موحد على ما شكل هجوماً على منظومة الدول العربية ككل. أما العراق، الصديق الأقرب لعبد الله، فلم يصدر أي تصريح علني، ولكنه نأى بنفسه عن بيانه الأخير.[40] نشر لبنان بياناً مشتركاً مع سورية منبهاً إلى قيام عبد الله بانتهاك ميثاق الجامعة العربية.[41] وبادرت القاهرة إلى تأييد الاحتجاج السعودي. وكانت سائر الصحف في جميع العواصم العربية زاخرة بأشكال الاستنكار والشجب ـ بل إن واحدة في دمشق تحدثت عن حرب أهلية في شرق الأردن، وعن أعمال شغب في عمان، وعن هرب عبد الله، وحركة تمرد في الفيلق العربي، أعقبها هروب غلوب متخفياً، وعن احتجاز نائبه في القيادة عبد القادر الجندي، وعن اعتقال معظم أعيان شرق الأردن.[42] وعلى صعيد أكثر واقعية كان ثمة كلام عن انتقاد عبد الله في الجامعة العربية، أو حتى عن طرده منها.[43]

غير أن الجلبة ما لبثت أن توقفت جراء نشر تقرير لجنة فلسطين الخاصة التابعة للأمم المتحدة (الأنسكوب) في آخر شهر آب من عام (1947 م).

فتوصية الأكثرية بالتقسيم سرعان ما أعادت توجيه أنظار العرب إلى فلسطين (كانت ثمة تقرير أقلية اقترح حلاً اتحادياً). وفي محاولة لخلق جبهة موحدة ضد التقسيم، تم تخفيض موجة الغضب من تصريحات عبد الله المتعلقة بسورية الكبرى بأن يتلاشى. ففي أوائل تشرين الأول قام الأمين العام للجامعة العربية، عبد الرحمن عزام، بزيارة عمان لتسوية الأمور. وعلق قائلاً إن وحدة جميع البلدان العربية هي الهدف النهائي للجامعة العربية، فرد عبد الله مؤكداً على أن تحركاته الأخيرة لم تكن أنانية على الإطلاق، بل في مصلحة الأمة العربية ككل، مما أدى إلى وضع المسألة على الرف مؤقتاً.[44] وفي احتجاجات الجامعة العربية التي عقدت في بلدتي صوفر وعاليه اللبنانيتين لصياغة رد على تقرير لجنة الأمم المتحدة (الأنسكوب) التزم ممثل شرق الأردن سمير الرفاعي الهدوء وصوت بالانسجام مع باقي الأعضاء.

كانت اللجنة الدولية (الأنسكوب) هي الحلقة الأخيرة في سلسلة هيئات ما بعد الحرب، التي تم إيجادها لاستكشاف "مشكلة فلسطين". ضمنت السلسلة كلاً من لجنة تقصي الحقائق (التحقيق) الإنجليزية ـ الأمريكية، ومؤتمراً لليهود والعرب عقدته بريطانيا في لندن (حيث اجتمعت بريطانيا مع كل من الطرفين على حدة، كما حصل في مؤتمر عام (1939 م)، وإحالة المسألة أخيراً على الأمم المتحدة وتشكيل لجنة (الأنسكوب). ومن خلال هذه الهيئات كانت بريطانيا مشغولة بمهمة إعادة تشكيل أوضاع إدارتها في فلسطين. ولكن خطة (الأنسكوب) لتقسيم فلسطين لم تكن محبوبة وقد أدى تبنيها اللاحق من قبل الأمم المتحدة إلى انسحاب بريطانيا من فلسطين. لقد فضّلت بريطانيا ذلك بدلاً من أن تكون مسؤولة عن تطبيق سياسة اعتبرت كارثية بالنسبة لمكانة بريطانيا في المنطقة.[45]

كانت اللجنة الملكية برئاسة اللورد بيل قد اقترحت التقسيم للمرة الأولى في عام (1937 م). وكان عبد الله قد تلقف الاقتراح الذي تضمن احتمال

إلحاق الجزء العربي من فلسطين بشرق الأردن وأثار بذلك، غضب العالم العربي كله. وفيما بعد، رأت بريطانيا استحالة تنفيذ التقسيم، غير أن الفكرة، التي طرحت مرة، ظلت تبرز على السطح بصورة منتظمة. إلا أن عبد الله كان قد أصبح أكثر تكتماً منذ عام (1937 م). وخلافاً لحاله مع سورية الكبرى كان شديد الحذر بصورة مدهشة في تعامله مع فلسطين.

كانت وزارة المستعمرات في ظل أوليفر ستانلي قد أعادت إحياء فكرة التقسيم في أثناء الحرب، ولبعض الوقت عكفت الحكومة البريطانية على التعامل معها بجدية بالغة. وكان عبد الله، وقد بات أكثر تعقلاً، قد أعلن عن أنه كان سيكون العربي الأخير الذي يدلي بتصريح حول الموضوع في حال طرح التقسيم ثانية.(46) ولكن التقسيم لم يتم رفضه من قبله هو أو من قبل رئيس وزرائه آنذاك توفيق أبو الهدى، في أثناء النقاشات الجارية فيما وراء الكواليس والأحاديث الخاصة، على الرغم من تكتمه على الصعيد العام.(47)

استمر التباين بين موقف عبد الله العام والمعلن من جهة، وقناعاته الخاصة من الجهة المقابلة بعد الحرب. فحين راحت بريطانيا تبحث عن سياسة جديدة في فلسطين، وحاولت إشراك الولايات المتحدة بهذه السياسة الجديدة، عبر عبد الله بهدوء عن تأييده للتقسيم على مسامع الطرفين كليهما. صحيح أنه لم يجتمع باللجنة الإنجليزية ـ الأمريكية حين كانت في الشرق الأوسط، وكان هو في لندن يتفاوض بشأن المعاهدة الإنجليزية ـ الشرق أردنية، ولكنه طرح آراءه حول فلسطين بقوة أمام كل من وزير الخارجية إرنْشتْ بيفن ورئيس الوزراء كلمنت آتلي. وقد زعم أن كثيرين كانوا يفضلون التقسيم، ولكنهم لم يكونوا يجرؤون على الإفصاح عن مواقفهم. وبالتالي فقد نصح بريطانيا بأن تتخذ قراراً وتفرضه دون استشارة أحد.(48)

وبعد العودة إلى شرق الأردن كان عبد الله قد التحق بركب الإجماع العربي المعارض للتقرير الإنجليزي - الأمريكي المتضمن استمرار الانتداب، إلى حين توفر إمكانية ترتيب آلية وصاية تابعة للأمم المتحدة. حضر عبد الله القمة العربية التي عقدها الملك فاروق في إنشاص المصرية نهاية عام (1946 م) وشارك في عملية الشجب الإجماعي للتقرير. لا شك أن عبد الله كان يشاطر الآخرين الاستياء العام من خطة اللجنة، وخصوصاً توصيتها القاضية بمنح مئة ألف تصريح هجرة إضافي، ولكنه كما أسرّ لكيركبرايد فيما بعد كان يعارض أي حل قائم على تصور بقاء دولة موحدة في فلسطين.[49] وبعد أسبوع واحد تولى رئيس وزراء شرق الأردن إبراهيم هاشم رئاسة دورة استثنائية لمجلس الجامعة العربية في بلودان السورية، تم فيها اتخاذ قرارات سرية ضد بريطانيا والولايات المتحدة يتم تنفيذها في حال تطبيق التقرير الإنجليزي - الأمريكي. وعلى الرغم من أن جهوداً بذلت لإعادة شرق الأردن إلى الصف العربي فيما يخص فلسطين، ولكن لم يكن هناك أية إشارة إلى علاقة خاصة بين شرق الأردن وفلسطين. بل وقد تمخض مؤتمر بلودان في الحقيقة عن تشكيل هيئة عربية عليا جديدة لتمثيل الفلسطينيين برئاسة الحاج أمين الحسيني في غيابه.

وحين تم في وقت لاحق من ذلك الصيف طرح خطة اتحادية لتطبيق التقرير الإنجليزي - الأمريكي، سارع عبد الله، كما فعل من قبل، إلى ضم صوته إلى أصوات العرب المجتمعين على رفض الفكرة. غير أنه بادر في الوقت نفسه إلى إبلاغ البريطانيين والصهاينة بأنه لم يعارض الاتحاد إلا خدمة لفكرة التقسيم،[50] في حين كانت المعارضة العربية للاتحاد نابعة من رؤية فلسطين دولة دستورية موحدة.

وفّر مؤتمر لندن في خريف عام (1946 م) فرصة أخرى لعبد الله كي يطرح آراءه حول التقسيم. كانت توجيهات سمير الرفاعي، رئيس وزراء شرق الأردن ومندوبه إلى المؤتمر، تقضي بألا يخالف زملاءه العرب، غير أنه

كان مزوداً برسالة من عبد الله إلى بيفن تطلب من وزير الخارجية أن يرتب معه لقاءاً سرياً خاصاً. وكان عبد الله قد أرسل أيضاً برقية إلى وزير الدولة لشؤون المستعمرات آرثر غريتش ـ جونز طالباً فيها أيضاً اجتماعاً سرياً مع الرفاعي. من الواضح أن أياً منهما لم يلب الطلب، غير أن مما ليس فيه شك أن الرفاعي، لو أتيحت له فرصة اللقاء، كان سيطرح على الوزيرين خطة تقسيم كان هو وعبد الله قد ناقشاها مع كيركبرايد قبيل المؤتمر.[51]

فهمت واشنطن، هي الأخرى، موقف عبد الله من التقسيم؛ كان «سيتظاهر بالمعارضة ويزعق بأعلى صوته» غير أنه سيكون مؤيداً للتقسيم، معتبراً إياه فرصة مواتية لتوسيع مملكته.[52] فحديثه مع جورج وُدزوورث، السفير الأمريكي في العراق، قبل أسبوع من وصول (الأونسكوب) إلى الشرق الأوسط، أكد صحة التصورات الأمريكية. كان عبد الله قد أبلغ وُدزوورث ما سبق له أن أوصله إلى كل من بيفن وآتلي قبل أكثر من عام، ألا وهو أن أكثرية العرب الفلسطينيين كانت مستعدة للقبول بالتقسيم شرط ألا تتم استشارتهم بصورة مسبقة. ونبه إلى أن على (الأنسكوب) ألا تطرح مسألة التقسيم إلا عليه هو مع عدد قليل من الآخرين «ممن كانت وطنيتهم كفيلة بجعلهم يتحلون بالشجاعة اللازمة لتقديم الأجوبة». أما الباقي «من الزعماء الذين يدعون الوطنية والذين كانوا سيدلون بشهادات مناقضة» فكان لا بد من طرح السؤال عليهم بصورة غير مباشرة. وحذر وُدزوورث أيضاً من أنه كان سيضطر إلى إعادة توجيه سياسته إذا ما أجمع الحكام العرب كلهم على رفض أي شكل من أشكال التقسيم. إن تقريراً عن هذا الحديث وجد طريقه إلى الوكالة اليهودية، مما يؤكد على أن عبد الله كان يشاطرها الاهتمام بالتقسيم.[53]

وحين وصلت لجنة (الأنسكوب) فعلاً إلى الشرق الأوسط ساهمت المقاطعة الفلسطينية لها في تمكين عبد الله من تقييد فرص إطلاعها على مختلف ألوان فكر الرأي العام. غير أن الدول العربية وافقت على إرسال

ممثلين لمقابلة اللجنة في بيروت، حيث عبرت مرة أخرى عن معارضتها الإجماعية لفكرة التقسيم. أما عبد الله فكان قد ضمن لنفسه جلسة سرية أو خاصة إلى هذا الحد أو ذاك برفضه إرسال أي وفد، استناداً إلى الذريعة الخادعة المتمثلة بعدم قدرته على إيفاد ممثل لمقابلة لجنة منبثقة عن الأمم المتحدة إلى خارج شرق الأردن، نظراً لأن الأخير لم يكن عضواً في هذه المنظمة. وقام، بدلاً من ذلك، بدعوة اللجنة إلى عمان. غير أنه، في أعقاب الرفض العربي الموحد للتقسيم في بيروت، لم يجرؤ على إعلان تأييده للتقسيم (تماماً كما كان قد نبه وُدزورث قبل شهر). وبالتالي فقد خيب أمل أعضاء اللجنة بـ "حذره المفرط" و«أخفق في إعطائهم أي طرف خيط من شأنه أن يفضي إلى معرفة آرائه الحقيقية» وإن بادر رئيس اللجنة، ربما أملاً في إخراج عبد الله عن صمته، إلى سؤال بعض ضباط الفيلق العربي البريطانيين عن إمكانية التعويل على قدرة هذا الجيش على احتلال الأجزاء العربية من فلسطين إذا ما تم إقرار التقسيم.(54)

بعد رحيل اللجنة أرسل عبد الله خطاباً إلى بيفن قال فيه: إنه كان، لأسباب سياسية وتكتيكية، قد أضطر رسمياً إلى رفض التقسيم، والدعوة إلى إقامة دولة موحدة مستقلة، موضحاً أن شرق الأردن لم يكن، بوصفه الدولة العربية الوحيدة المرشحة للإفادة بشكل ملموس من التقسيم، قادراً على أن يكون الدولة الوحيدة المؤيدة لذلك المسار، على النقيض من وجهة النظر الرسمية للعالم العربي كله. وطمأن بيفن إلى أنه كان يرى التقسيم بوصفه الحل الوحيد الممكن، ويشعر بأنه سيكون قادراً على قبوله علناً إذا أوصت الأمم المتحدة بأن يفعل. كما أن رئيس وزرائه سمير الرفاعي عبر عن اتفاقه مع عبد الله حول موضوع التقسيم، وكرر القول بأن تصريحه أمام اللجنة كان ذا طابع تكتيكي.(55)

وهكذا فإن عبد الله لم يتخل عن اهتمامه بالتقسيم، على الرغم من محاولة عزام باشا الرامية إلى إعادته إلى الحظيرة العربية. وبالفعل فإن تقرير

(الأنسكوب) بالنسبة إليه، كان خطوة في الاتجاه الصحيح. غير أن ذلك لم يكن ليمثل أقصى طموحاته، لعدم ورود أي ذكر لإلحاق الجزء المخصص للعرب من فلسطين بشرق الأردن ـ وكان ما يزال يتعين عليه أن يقطع شوطاً معيناً ليبلغ ذلك الهدف. ففي طموحه الفلسطيني، تماماً كما في طموحه إلى حكم سورية الكبرى، كان يسبح عكس تيار الرأي العام العربي، غير أن الظروف التاريخية في فلسطين كانت في صالحه، ولعل الأول بين تلك الظروف هو أن مصالحه في فلسطين كانت ـ إذا ما قامت الأمم المتحدة بتمرير اقتراح التقسيم ـ متناغمة مع مصالح بريطانيا.

ولدى قيام لجنة (الأنسكوب) بتقديم مشروع التقسيم إلى بريطانيا، بادرت الأخيرة إلى بذل كل ما استطاعته من جهد في سبيل إبقاء الضرر اللاحق بمركزها في المنطقة في حدوده الدنيا. فرغم تأييد وزارة المستعمرات للتقسيم بوصفه الحل الأسهل، رفضت وزارة الخارجية، انطلاقاً من وعيها لعلاقات بريطانيا مع الشرق الأوسط ككل، أن تكون طرفاً في إيجاد دولة يهودية.(56) وموقف وزارة الخارجية المعارض للتقسيم هو الذي انتصر في النهاية. فحين تم نشر تقرير (الأنسكوب) بادرت بريطانيا إلى الإعلان عن اعتزامها الانسحاب من فلسطين، بدلاً من تولي مهمة الإشراف على تقسيمها. وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام (1947 م)، أي بعد ثلاثة أشهر، أقرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة، بأكثرية ضئيلة وبعد استخدام ضغوط أمريكية كبيرة، قراراً قضى بتقسيم فلسطين على أساس تقرير (الأنسكوب). امتنعت بريطانيا عن التصويت. وبعد صدور قرار التقسيم، أعلنت قرارها النهائي القاضي بالجلاء عن فلسطين، وبإنهاء إدارتها المدنية مع حلول تاريخ الخامس عشر من أيار عام (1948 م).

حافظت بريطانيا بامتناعها عن التصويت على قرار التقسيم، ورفضها الإشراف على تطبيقه، على مكانة قوية قوة مدهشة في العالم العربي، خصوصاً على النقيض من مكانة الأمريكيين الذين اعتبروا، جراء تحركهم

النشط في اللحظة الأخيرة لحشد التأييد للقرار، مهندسي عملية التقسيم.[57] حتى في مدينة لم تكن معروفة بأنها من الأماكن التي يجري فيها التعبير عن العواطف السياسية القوية مثل عمان، تعرضت مكاتب شركة (التابكو) الأمريكية للنهب والحرق من قبل جمهور غاضب.[58] ومع ذلك فإن بريطانيا كان ما يزال يتعين عليها أن تفعل الشيء الكثير لإنقاذ مركزها في الشرق الأوسط؛ تعين عليها، أولاً، أن تخرج من فلسطين آمنة دون أن تترك المنطقة الخاضعة سابقاً لانتدابها في حالة فوضى شاملة يوم 15 أيار. ولهذه الغاية بات طموح عبد الله إلى احتلال الجزء المخصص للعرب من فلسطين يعتبر الفرصة المثلى لاختزال القتال إلى الحد الأدنى، والطريقة الأسرع لإعادة فرض النظام، بل وحتى كوسيلة يمكن أن تفضي، نظراً لوجود المعاهدة الإنجليزية ـ الشرق أردنية، إلى إعادة نشر قوات بريطانية في المنطقة.[59] وبالتالي فإن عبد الله الذي كانت لندن، في زحمة متاهة سورية الكبرى،[60] قد اعتبرته «مهووساً كلياً... إلى حد قريب من الجنون الأحادي»[61] صار فجأة محط الاعتبار في السياق الفلسطيني، حيث باتت آراؤه يرحب بها، بشيء من الاضطراب، يجري وصفها «تَفَسَ عقل وسليم جدير بالترحيب».[62]

راحت بريطانيا تتلمس طريقها في فلسطين بحذر وهدوء. ومع أنها كانت قد نفضت يدها من التقسيم، فإنها كانت ما تزال تأمل في توجيهه إلى قنوات هي الأقل ضرراً بالنسبة لمكانتها الاقليمية، وبالتالي فقد توصلت لندن إلى استنتاج يقول: إن الفيلق العربي «إذا استخدمه عبد الله بذكاء في ذلك الجزء المخصص للدول العربية من فلسطين من قبل الأمم المتحدة... يستطيع أن يفعل الشيء الكثير على صعيد الحيلولة دون انتشار الفوضى والإسهام في إعادة إشاعة الأمن».[63] غير أنها حرصت على تمويه مدى تطابق مصالحها مع مصالح عبد الله الآن، خوفاً من (عجز) الأخير «المعروف عن التكتم على أي سر».[64]

كانت ثمة صعوبات هامة أخرى أمام استخدام الفيلق العربي بهذه

الطريقة. كان من شأن ذلك أن يعرض بريطانيا لتهمة التواطؤ في عملية التقسيم بالذات التي كانت قد رفضت تأييدها في الأمم المتحدة، هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية كان يضفي معنى اتهام عبد الله بالعمالة لبريطانيا. وكانت بريطانيا تدرك جيداً أنها كانت ستغدو، إذا ما تجاوز الفيلق العربي حدود فلسطين كما حددتها الأمم المتحدة، هدفاً لانتقاد الأخيرة، وسيجبرها الرأي العام الدولي على سحب ضباطها وتمويلها بما يؤدي إلى حرمان بريطانيا نهائياً من حليف ثمين في الشرق الأوسط. ومع ذلك فإن توقف الفيلق العربي عند تلك الحدود كان من شأنه أن يؤدي إلى تصوير عبد الله على أنه خائن للقضية العربية، ونسف جدواه كحليف، بل وحتى إلى تعرض عرشه للخطر.(65)

للهروب من هذا المأزق اقترح كيركبرايد أسلوب النفاق والمراءاة؛ كان بالإمكان تجنب الصدام بين الفيلق العربي والقوات اليهودية، غير أن «إنقاذ العرب... كان يجب أن يشكل هدف تدخل شرق الأردن لأغراض الدعاية [والتسويغ]».(66) وكانت لدى وزارة الخارجية فكرة حتى أفضل من تلك: كان بوسع عبد الله تجنب عاقبتي التدخل كلتيهما إذا التحق الفيلق العربي بالجبهة العربية في فلسطين، متعاوناً مع القوات العربية الناشطة في المناطق اليهودية، ولكن دون أن يقوم هو نفسه بانتهاك الحدود اليهودية.(67) (هذا هو ما حصل فعلاً، على الرغم من أن عبد الله البائس عانى من سحب الضباط البريطانيين والتمويل البريطاني لفترة قصيرة من جهة، ومن شتائم العالم العربي من جهة ثانية.)

أما الفيلق العربي الذي كان يشكل أساس نجاح الفكرة فقد جرى تحويله في أثناء الحرب من قوة درك إلى قوة قتالية فعالة. فمع حلول عام (1947 م) كان جناحه العسكري المتميز عن قوته الأمنية الأصغر بكثير يضم (191) ضابطاً و(7200) عنصر من مختلف المراتب، موزعين على ثلاثة أفواج آلية وست عشرة سرية مشاة.(68) وعلى الرغم من أنه لم يكن أكبر الجيوش

العربية ـ فجيشا مصر والعراق كانا أكبر حجماً ـ فقد كان أفضل بكثير من تلك الجيوش على صعيدي التدريب والتجهيز. أضف إلى ذلك أن بريطانيا كانت تستطيع أن تأمل، من خلال الضباط البريطانيين الواحد والأربعين في الفيلق العربي، في توجيهه.[69] ومن هذه الناحية كان قائد الفيلق العربي غلوب عنصراً أساسياً. فقد وافق على إيصال المعلومات إلى لندن عبر «القنوات السرية»،[70] بل واستمر يخدم بريطانيا حسب رأيه حتى بعد انتهاء ارتباطه الرسمي بجهاز الخدمة المدنية الفلسطينية بصورة آلية في الخامس عشر من أيار.

> نظرياً لست إلا مغامراً التحق بالخدمة كمرتزق في بلد أجنبي... أما عملياً... فإن الفيلق العربي يضطلع بدور محدد في الاستراتيجية البريطانية، وتنفق الحكومة البريطانية ملايين عديدة [من الجنيهات] على الجيش سنوياً. لذا فإنني أعتبر نفسي أنني أخدم الحكومة البريطانية في منصبي الحالي. ولو لم أكن مؤمناً بذلك، لما كنت بقيت هنا.[71]

وقد كان الهدوء الشامل لشرق الأردن منطوياً على أهمية موازية على صعيد الاستخدام الناجح للفيلق العربي في فلسطين. ففي حين كانت في هذه الأيام مصر والعراق وسورية مشغولة بالاضطرابات الداخلية، وغير مؤهلة لإرسال أفضل قطعاتها العسكرية، أو حتى أعداد كبيرة من القوات على الإطلاق، إلى فلسطين، كان شرق الأردن خاضعاً لسيطرة محكمة، وقادراً بالتالي على نشر الجزء الأكبر من الفيلق العربي في فلسطين، دون الخوف من أية صعوبات داخلية. فبعد الاستقلال، كما قبله، كان شرق الأردن خاضعاً لحكم ثلاثي، الملك ورئيس الوزراء والوزير البريطاني. وفي عام (1947 م) تمت إعادة تنظيم السلطة التشريعية، دون تحقيق أية زيادة لاستقلاليتها السياسية، بما جعلها متمثلة بمجلس مؤلف من عشرين عضواً منتخباً، وعشرة أعضاء من الأعيان المعينين. تمت زيادة عدد المناطق الانتخابية من أربع إلى تسع دوائر للإيحاء بأنه نظام تمثيلي أكثر دقة، غير أنه

لم يكن في الحقيقة إلا محاولة لإبعاد الوزن الوزن الانتخابي عن المدن المتنامية سكانياً بسرعة والمتزايدة تعقيداً سياسياً، باتجاه الريف، حيث كانت قاعدة عبد الله الأكثر ولاءً والأقل تسييساً. وقد كان مجلس الممثلين الأول المنتخب بعد إعادة توزيع الدوائر مؤلفاً بأكثريته الساحقة من الإقطاعيين والتجار. ولم يكن فيه سوى اثنين من أصحاب المهن الحرة؛ ولم يكن فيه سوى محام واحد وصحفي واحد.[72]

لم يكن مثل هذا التغيير دونما سبب كلياً. فأنماط التموين الشرق أوسطية في أثناء الحرب العالمية الثانية كانت قد أدت في شرق الأردن إلى إيجاد مجموعة من الإقطاعيين التجار الأغنياء، متميزة بوضوح عن باقي السكان للمرة الأولى. فمرابح الحرب والتضخم أدخل طبقة من التجار مقرضي الأموال [المرابين] إلى قرى شرق الأردن، حيث كان حل مسألة التمليك قد وفر في الوقت انفسه إمكانية رهن الأرض. وكذلك أصبحت الأرض أكثر قيمة، كما جرى توسيع الزراعة بفضل أسعار الحبوب المرتفعة أيام الحرب.[73] غير أن الهوة بين حفنة صغيرة من المواطنين الأغنياء وبين الأكثرية الساحقة من ذوي المداخيل المتواضعة ومن هم أسوأ، لم تكن شبيهة في شيء بنظيرتيها في كل من سورية والعراق.

كذلك كان جيل جديد من الشباب النشيطين سياسياً قد نضج في مدن شرق الأردن وبلداته خلال فترة الحرب. وما لبث هؤلاء أن راحوا فيما بعد يتحدون أساليب عبد الله الأبوية وتعويله المستمر على بريطانيا العظمى. وقد تميزت عملية تسييس هذا الجيل الأكثر شباباً بتطور تيارين متنافسين. كان أولهما، وهو الذي صاغه الحزب الفيصلي أو حزب الشباب بقيادة سليمان النابلسي، تياراً علمانياً وحدوياً [داعياً إلى الوحدة العربية]. وكان هؤلاء الشباب يعتبرون إدارة عبد الله «نظاماً استبدادياً بعيداً عن العدل». كانوا مستائين إزاء الحدود الضيقة المفروضة في عمان على التعبير السياسي، والحوار الاجتماعي والثقافي، حيث كان المرء معرضاً لدفع غرامة تصل إلى

مئة جنيه إذا ما تم ضبطه وهو يصغي إلى برامج الإذاعة السورية.[74] أما التيار الثاني فقد نشأ عن نمو فرع شرق أردني للإخوان المسلمين. وقد كان عبد الله متعاطفاً مع هذه الحركة لأنها «كانت تذكّر الجيل الصاعد بواجباته الدينية، مما جعلها، بالتالي، ذات قيمة في كبح انتشار الشيوعية في شرق الأردن».[75] وكانت الشيوعية صفة أطلقها عبد الله دونما تحديد على أية حركة معارضة ذات ميول علمانية تقدمية، مبدياً تسامحاً بل وحتى مشجعاً لحركة الإخوان المسلمين، بوصفها قادرة على تعديل كفة الميزان لغير صالح الحركات الشبيهة بتلك التي قادها سليمان النابلسي. ومع ذلك فإن حركة الإخوان المسلمين كانت، فيما يخص فلسطين، معارضة لسياسة عبد الله معارضة لا تقل قوة عن معارضة النابلسي وأمثاله؛ وبالتالي فإن عبد الله لم يستفد، آخر المطاف، من تشجيعه للتيار الثاني ضد التيار الأول. وعلى الرغم من التسييس المتنامي لشبيبة شرق الأردن، فإن كيركبرايد ظل قادراً على وصف البلاد عشية جلاء بريطانيا عن فلسطين بأنها "سليمة" سياسياً ومتحررة من «المشكلة القومية».[76]

أتاحت بنية شرق الأردن لعبد الله فرصة السير في طريق تحقيق أغراضه في فلسطين، بما في ذلك الإبقاء على الصلة مع الوكالة اليهودية، بقدر لم يأخذ الرأي العام الشعبي بنفس الحسبان مقارنة مع الزعماء العرب الآخرين. فقبيل التصويت في الأمم المتحدة على قرار التقسيم في تشرين الثاني من عام (1947 م) اجتمع بغولدا مائير.[77] كانت المصلحة المشتركة قد جعلت الطرفين يقفان في صف التقسيم.

لم يكن الرأي العام الشعبي العربي سهل الانقياد مثل نظيره في شرق الأردن. كان من البديهي أن أية حكومة عربية في العالم العربي لم تكن، فيما يخص فلسطين، قادرة على اتخاذ موقف يمكن تفسيره على أنه خيانة للقضية العربية دون أن تتعرض للإطاحة بها. كان عبد الله يدرك هذه الحقيقة؛ وقد كان ذلك هو السبب الكامن وراء الهوة الفاصلة بين

تصريحاته العلنية العامة من جهة ونظيرتها السرية الخاصة حول فلسطين منذ عام (1937 م). وكان عبد الله يدرك أيضاً أنه كان خاضعاً لقدر خاص من المراقبة أو التمحيص، لأنه لم يتمكن قط من استئصال الاعتقاد السائد لدى أكثرية العرب منذ عام (1937 م) بأنه كان يؤيد التقسيم لأنه سيكسب منه.

وبالتالي فقد تعين عليه أن يسند موقفه الفلسطيني، أمام العالم العربي، إلى ضرورات حالة اليأس وقدرته الفريدة، بفضل وجود الفيلق العربي، على معالجة تلك الحالة. تعين عليه أن ينتظر مطالبته بالتدخل من قبل الفلسطينيين، كما تعين عليه أن ينتظر إلى أن تبادر الأنظمة العربية ـ الخائفة من عواقب وتبعات فقدان فلسطين بالنسبة لمراكزها ـ إلى الإذعان لقوة جيشه المتفوقة ولقدرته على استخدامه.[78] وحرصاً منه على تجنب التدابير المتسرعة التي كانت قد أخفقت إخفاقاً فاضحاً في سورية، بقي عبد الله وممثلوه في خلف الواجهة خلال السلسلة الطويلة من الاجتماعات العربية التي عقدت في خريف وشتاء عامي (1947 و1948 م) في سبيل وضع استراتيجية موحدة ومتناغمة لمواجهة حالة الطوارئ الخطيرة الناشئة في فلسطين.[79]

كان الانتظار أحد أصعب الأشياء بالنسبة لعبد الله. لم يكن التقدم في السن قد أدى إلى إنضاج مزاجه المتسرع الذي كان قد أكسبه لقب "عجلان" في سني شبابه.[80] غير أن استراتيجيته أعطت ثمارها. فمع حلول شهر كانون الثاني اتفق البريطانيون والأمريكان على أنه كان في وضع جيد جداً؛ كانت ثمة فرصة لأن يقوم عرب فلسطين بدعوته إلى التدخل، وعلى أن من شأن وجود الفيلق العربي أن يشجعه على مثل هذا التدخل.[81]

وفي الوقت نفسه تقريباً قام كل من رئيس وزراء شرق الأردن توفيق أبو الهدى وغلوب بزيارة لندن لمناقشة نوايا شرق الأردن في فلسطين، تحت

ستار العمل على إدخال بعض التعديلات على المعاهدة. قام توفيق باشا بإبلاغ بيفن أن عبد الله اقترح إرسال الفيلق العربي عبر نهر الأردن فور انتهاء الانتداب لاحتلال الجزء المخصص للعرب من فلسطين. ونظراً لأن وزارة الخارجية كانت قد قررت أن تدعم فكرة قيام شرق أردن أكبر، بدلاً من ظهور دولة فلسطينية مستقلة، فإن رد بيفن كان إيجابياً، على الرغم من تحذيره من عبور حدود الأمم المتحدة إلى داخل المناطق المخصصة لليهود.[82]

10) (1948 م)

عاد مبعوثو عبد الله من لندن عودة ظافرة دونما ضجيج. فالمعاهدة الإنجليزية - الشرق الأردنية كانت قد عُدلت بطريقة جعلتها تبدو أخف وطأة في نظر المستخفين الخارجيين بشرق الأردن ومنتقدي عبد الله الداخليين، وإن أبقت على ارتباط بريطانيا الحميم بالدولة وهو الأمر الذي شكل، رغم انتهاكه لأهداف القومية العربية فيما بعد الحرب، حماية لشرق أردن عبد الله في زحمة الأمواج غير المضمونة المرشحة حتماً لأن تتصاعد لحظة انسحاب بريطانيا من فلسطين. والأهم من ذلك هو أن أبا الهدى كان قد تم إفهامه بوضوح أن بريطانيا كانت موافقة على قيام الفيلق العربي باحتلال الجزء المخصص للعرب من فلسطين، في خطة التقسيم الصادرة عن الأمم المتحدة بعد انسحاب بريطانيا.

بين شباط وأيار شهد ميزان القوة بين القوات العربية واليهودية في فلسطين تغييراً دراميًا مثيراً، في صالح القوى اليهودية. وأدى هذا التحول إلى تعريض للخطر قدرة عبد الله على الالتزام بتفاهمه مع بريطانيا بأنه ذو تدخل محدود في الصراع. فمنذ آذار كانت القوات اليهودية قد بادرت إلى الهجوم، معززة قبضتها داخل حدود الأمم المتحدة لفلسطين اليهودية ومحتلة مواقع استراتيجية خارجها.[1] ففي نيسان قامت [عصابة] الإرغون اليهودية السرية بذبح (154) قروياً أعزل من الرجال والنساء والأطفال في دير ياسين الواقعة على الطريق إلى الغرب من القدس. وخلال الأيام التالية تعرضت الروح المعنوية لدى العرب في فلسطين للانهيار. بدأ المدنيون المذعورون يتدفقون باتجاه عمان طالبين الملجأ والمساعدة لإنقاذ بيوتهم وبلدهم. اقتناعاً

بالوضع الحرج طلب جيش التحرير العربي [الإنقاذ]، وهو قوة غير نظامية خاضعة لرعاية الجامعة العربية، المزيد من الرجال والأسلحة من الدول العربية. وبات الشعور الشعبي يستدعي تدخلاً فورياً ومباشراً.

أدت مذبحة دير ياسين إلى زرع الرعب في قلب عبد الله. وعلى الرغم من أن الوكالة اليهودية أرسلت إليه على الفور برقية أنكرت فيها مسؤوليتها، فإن عبد الله رفض هذا الإنكار والتملص.[2] وقد كان تأثير المذبحة على اعتزامه احتلال فلسطين العربية ذا شقين؛ فمن جهة تمخضت المذبحة عن إطلاق طوفان من الفلسطينيين المندفعين باتجاه عمان طلباً لمساعدته وحمايته بما يضفي الشرعية على نواياه؛ في حين أدت، من الجهة الأخرى، إلى زيادة وتكثيف مشاعر الغضب والعداء والمرارة في سائر أرجاء العالم العربي إلى مستويات بدأت معها الدول العربية ـ التي لم تعد قادرة على إخفاء عجزها خلف قناع جيش التحرير [الإنقاذ] العربي العاجز ـ التحرك باتجاه المشاركة المباشرة. وكانت مثل هذه المشاركة منطوية على خطر إزاحة عبد الله عن الطريق.

وكي لا يفلت زمام المبادرة في فلسطين من يده، تحرك عبد الله بحزم للاضطلاع بمهمة تنفيذ المخططات العربية الهادفة إلى التدخل. ولكن تحركه هذا وفر له فرصة تجاوز حدود تفاهمه مع بريطانيا. أرسل إلى الجامعة خطاباً عرض فيه إنقاذ فلسطين، وتم قبول ما جاء في الخطاب رغم احتجاجات الحاج أمين الحسيني ورئيس الوزراء السوري جميل مردم، بشرط أن يبادر شرق الأردن إلى رفض التقسيم والاستيلاء على فلسطين كلها.[3] ألحت الدول العربية على المبادرة فوراً إلى نشر وحدات الفيلق العربي لحماية القرى الفلسطينية من هجمات شبيهة بالهجوم الذي تعرضت له دير ياسين. وعلى الرغم من أن قطعات من الفيلق العربي كانت في فلسطين في ذلك الوقت ـ تحت القيادة البريطانية مضطلعة بمهمة حراسة خطوط التموين البريطانية لدى انسحاب بريطانيا ـ فإن البريطانيين حالوا دون استخدامها لأي غرض

آخر. وبالفعل كانت جميع وحدات الفيلق العربي قد سحبت إلى ما وراء النهر باستثناء سرية مشاة واحدة تم عزلها في الخليل، حين قامت قوات يهودية بقطع طريق القدس،[4] مع حلول الرابع عشر من أيار.

مع اقتراب الخامس عشر من أيار تشبثت الجامعة العربية بشروط عبد الله للتدخل. كان الصراع دائراً حول مسألة ما إذا كان الفيلق العربي سيخضع لقيادة الجامعة، أم أن عبد الله كان سيتولى قيادة قوات الجامعة إضافة إلى الفيلق العربي. وخلال هذه الفترة تحولت عمان إلى محج لرؤساء الوزراء، ووزراء الخارجية، ورؤساء الأركان العرب. وحين قامت القوات اليهودية بالهجوم على الأجزاء الجنوبية من القدس في نهاية شهر نيسان، اضطر حتى رئيس الوزراء السوري أن يحضر إلى عمان. ومع سقوط مدن طبريا وحيفا وصفد ويافا العربية، تدفقت أعداد متزايدة من الفلسطينيين على عمان متضرعين إليه [إلى عبد الله] طالبين منه إنقاذ مدنهم.[5] وجاء في تقرير كيركبرايد أن عمان كانت قد أصبحت «مستشفى للمجانين».[6]

ثم زاد التوتر. وحسب كلام كيركبرايد فإن عبد الله كان «يمضي أكثر أيامه، وبعض لياليه غارقاً في موجات متناوبة من الوضوح والاستبصار من ناحية، ومن حالة تكاد تصل إلى مستوى الانهيار العصبي الكامل من ناحية أخرى».[7] كانت الدول العربية تطالبه بقدر من الالتزام، وكان ذلك أكبر مما تسمح به بريطانيا. كما أنه كان قد بات غير واثق من النوايا اليهودية لأن العدوان اليهودي داخل الأجزاء التي عينتها الأمم المتحدة للعرب جاء تكذيباً لمصداقية تفاهمه مع غولدامائير في شهر تشرين الثاني. تحدثت التقارير عن أنه كان يفقد السيطرة على أعصابه، وكان يخشى من احتمال تدمير الفيلق العربي في الصراع المقبل.[8] ولم يكن اجتماعه الأخير مع غولدا مائير ليلة 11 أيار مرضياً. وفي حالة من «القلق» و«الضيق الشديدين» والتوق إلى إلغاء العمل العربي المشترك الذي قد يعجز عن التحكم به، ألح عليها [على غولدا مائير] طالباً إرجاء الإعلان عن قيام دولة يهودية مستقلة.[9] لم يتم التوصل

إلى اتفاق، وكان عليه مواجهة أفق البقاء محصوراً بين مطرقة مشاعر الغضب العربية المندفعة من جهة، وسندان القدرات العسكرية اليهودية من الجهة المقابلة. وكذلك فإن المفاوضات بين العقيد غولدي، مساعد غلوب، والهاغانا حول اقتراح خطط تنسيقية هادفة إلى: «تجنب الصدام دون الظهور بمظهر من خان القضية العربية»[10] كانت هي الأخرى غير ناجحة.

ثمة محاولات رسمية أمريكية وبريطانية رامية إلى تحاشي القتال أخفقت أيضاً. فالرسميون الأمريكان الذين دأبوا منذ آذار على ترتيب هدنة ووصاية أمم متحدة لفلسطين، لم يوافقوا على مساعي عبد الله، إذ اعتقدوا أن احتمال عقد صفقة مع عبد الله (وراء الكواليس) [في الخفاء] كان قد أدى إلى تصليب موقف الوكالة اليهودية، وإلى إقناع الزعماء اليهود بقدرتهم على إعلان دولتهم دون التوصل إلى اتفاق مع عرب فلسطين.[11] وما لبثت أن فشلت محاولة في اللحظة الأخيرة من قبل بريطانيا لترتيب وقف إطلاق النار في القدس لتحييد هذه المنطقة التي كانت مرشحة، حسب أقوى الاحتمالات، لأن تشهد اشتباكاً بين الفيلق العربي والقوات اليهودية إذ كانت وحدات يهودية قد تقدمت لاحتلال المواقع التي تخلى عنها الجيش البريطاني في الرابع عشر من أيار.

قبل يومين من انتهاء الانتداب عقدت اللجنة السياسية للجامعة العربية اجتماعاً في عمان، أكدت فيه أن كلاً من لبنان وسورية والعراق ومصر كانت سترسل قوات إلى فلسطين، إضافة إلى الفيلق العربي. وقطع الأمين العام للجامعة، عزام باشا، وعداً بتقديم ثلاثة ملايين جنيه إلى الفيلق العربي، وأعطى غلوب مبلغ (250000) جنيه نقداً مباشرة في الاجتماع. أما عبد الله فقد حقق انتصاراً هائلاً إذ تمت تسميته قائداً للقوات العربية، ولكن تلك لم تكن إلا تسمية دون أية وظيفة، لأن سائر الجيوش العربية ظلت تأتمر بأوامر قادتها ولم يكن ثمة أي تنسيق فيما بينها.[12]

كان الهجوم اليهودي في فلسطين منذ آذار قد أدى إلى تصعيد مشاعر الغضب العربية، وبالتالي إلى دفع العرب نحو الالتزام بالحرب. في البداية تمخض احتمال التدخل المباشر لجيوش عربية أخرى في فلسطين عن إثارة استياء عبد الله، لأنه ذلك ألقى ظلالاً من الشك على مطالبه الخاصة كان سيعرض للخطر استراتيجيته الهادفة إلى البقاء داخل المناطق العربية المحددة في خطة تقسيم الأمم المتحدة للخطر. غير أنه ما لبث، لاحقاً، جراء الانتصارات اليهودية، وخصوصاً تلك التي تمت داخل المناطق العربية، أن أصبح يخشى القوة العسكرية والنوايا اليهودية على حد سواء. بات مذعوراً من احتمال تعرض الفيلق العربي للهزيمة إذا ما دخل الحرب وحيداً.(13) وبالتالي فقد شعر آخر المطاف بالارتياح حين رأى أن الفيلق العربي لم يكن، في ظل ظروف نيسان ـ أيار (1948 م) المتبدلة مرشحاً لأن يبقى الحامي الوحيد لفلسطين. وعشية الانسحاب البريطاني النهائي من فلسطين كان التناسب بين القوتين العربية واليهودية المستنفرتين للعمل يقدر بمعدل التناسب بين رقمي (19200 و74000) على التوالي.(14)

حين أبحر المندوب السامي الأخير لفلسطين من حيفا ليلة 14 أيار عام (1948 م) تم رحيله دونما ضجيج. جاء انتهاء الانتداب بقدر ضئيل من الألعاب النارية مع هتافات (اللهم احفظ الملك!) الرسمية وتحية صامتة. لم يكن ثمة أي تسليم احتفالي حقيقي للسلطة لأن بريطانيا كانت قد أخفقت في أداء واجباتها الانتدابية. كانت قد أخفقت في خلق مؤسسات حكم ذاتي تمثل فلسطين كلها ولم يكن ثمة من يتم تسليمه السلطة.

دخلت الجاليتان العربية واليهودية المتروكتان في البلد مرحلة جديدة من صراعهما المستمر منذ ثلاثين عاماً. واليهود الذين كانوا قد حرصوا على الإعداد بعناية لهذا اليوم أعلنوا عن قيام دولة يهودية. أما عرب فلسطين فلم يبادروا، رغم تفوقهم العددي بمعدل الضعف، إلى إصدار إعلان منافس، بل تركوا مستقبلهم، جراء عجزهم الناجم عن سنوات التشرذم والتمزق

السياسيين في مواجهة السياسة البريطانية، رهينة تحت رحمة الرعاية المترددة والمشبوهة للدول العربية المجاورة.

بين سائر رؤساء الدول العربية كان عبد الله ممتلكاً للفكرة الأكثر وضوحاً عما كان يريده من فلسطين، وعن جملة الاعتبارات السياسية المقيدة لأهدافه. فرغبته الثابتة منذ أيامه الأولى في عمان تمثلت بتوسيع دائرة حكمه وتعزيز مكانته في المنطقة. أما تركز رغبته مع حلول عام (1948 م) على فلسطين فلم يكن إلا نتاج التاريخ الفريد لذلك البلد المضطرب. أما قيود تحركاته السياسية، حسب تصوره، صبيحة الخامس عشر من أيار فلم تكن إلا تلك التي فرضها واقع اعتماده العسكري والاقتصادي على بريطانيا. ولضمان عدم نسيانه لتلك القيود بادر كيركبرايد إلى تذكير توفيق أبو الهدى بأن «حكومة جلالته كانت ستضطر، بصورة مؤكدة إلى إعادة النظر بمسألة التمويل وعملية الإعارة الخاصة بالضباط البريطانيين، إذا ما أقدم شرق الأردن على تجاوز الخطة فيما يتعلق بالمناطق العربية من فلسطين».[15] وفي الحقيقة فإن الضباط البريطانيين الذين كانوا رهن التجديد كانوا مزودين بأوامر دائمة تقضي بالانسحاب من القتال، في حال قيام الفيلق العربي بدخول المناطق التي حددتها الأمم المتحدة على أنها مناطق يهودية من فلسطين.[16]

وعلى أية حال كانت ثمة قيود أخرى على تحركات عبد الله في فلسطين، قيود أكثر تعقيداً وأقل قابلية للفهم من قبله. ففي هذا الصراع الذي لامس سائر العرب إلى حد ما زجد عبد الله نفسه كان، مثلاً، مسؤولاً أمام الرأي العام العربي بطريقة لم يعهدها قط في حياته من قبل. لم يكن ينظر إلى البلدان العربية الأخرى إلا من منظوره الشخصي. فمصر، مثلاً، كانت فاروق بنظره، مثلما كانت ألمانيا هي "ويلي" (غليوم الثاني) بنظر الملكة فكتوريا تماماً. وبالتالي فقد ظل ميالاً إلى اعتبار أوجه الاختلاف السياسي حول فلسطين انعكاسات لخلافات شخصية بينه وبين الزعماء

العرب الآخرين، بدلاً من اعتبارها ناجمة عن أشياء أكثر عمقاً.[17]

وبشكل خاص بات عبد الله مسؤولاً أمام الفلسطينيين حين أصبح تدريجياً، نتيجة غياب البديل والقصد على حد سواء، مضطلعاً بالمسؤولية عن مستقبلهم. لم تكن حدود مسؤوليته مرسومة بوضوح لأن ذلك كان متعذراً؛ فالرأي العام الذي شكلها كان هو نفسه ضبابياً غامضاً ومتقلباً، فضلاً عن سهولة إساءة فهم رسالته سهولة مفرطة. لقد كان عبد الله قد اعتاد وهو محمي في قوقعة شرق الأردن على تجاهل الرأي العام والتصرف كما يحلو له في جميع الأحوال. كان مفتقراً إلى الإحساس بالمشاعر العامة، وخصوصاً حين تكون تلك متناقضة مع تطلعاته وطموحاته، كما تجلى في حملته السورية التي أخذت منه عمره وكانت بدون جدوى. لم تكن نتائج تصوراته السورية الخاطئة خطيرة،لم يتجاوز الأمر إنفاق الأموال وتبديد السمعة على مشروع غير قابل للتحقيق في أسوأ الأحوال. أما في فلسطين فإن انتهاكاته المتراكمة للمشاعر العامة، وإساءاته المستمرة لتطلعات عامة الناس تمخضت في النهاية عن زواله من الوجود.

لدى قيام عبد الله بتقديم نصائحه الأخيرة إلى قواته فجر يوم 14 أيار، كانت مهمته المباشرة واضحة أمامه؛ كانت المهمة متمثلة بتحقيق تواجد عسكري في فلسطين يضفي الصفة الشرعية على طموحاته الشخصية هناك. ونتيجة التخطيط المسبق كان الفيلق العربي هو الفيلق العربي الوحيد الذي دخل فلسطين عبر المناطق المخصصة للعرب فقط. تم عبور جسر اللنبي في الفجر، ومتابعة التقدم من وادي الأردن دون أية مقاومة إلى مرتفعات نابلس ورام الله الواقعتين في قلب المنطقة العربية. إن طريقاً ترابية، تم توسيعها حديثاً تنفيذاً لأوامر غلوب، أتاحت للقوات فرصة تجنب الطريق الرئيسية العابرة لمدينة القدس المزدحمة بضجيج أعمال الاستعداد للقتال. تم فرز سريتي مشاة من الجسم الرئيسي للفيلق العربي، ونشرهما على جبل الزيتون في السادس عشر من الشهر، ولكنهما لم تدخلا القدس. كان

القتال قد نشب هناك قبل يوم لدى انسحاب الوحدات البريطانية الأخيرة وقيام القوات اليهودية، التي كانت قد علمت مسبقاً بحقيقة الانسحاب، باقتحام الأحياء العربية في محاولة منها للاستيلاء على المدينة القديمة.[18]

كان غلوب يأمل في تجنب القتال في القدس. فقد كانت هناك مساحات شاسعة من الأراضي التي تعين على الفيلق العربي أن يغطيها في الأماكن الأخرى، كما أن خبرة هذا الجيش ومواده التموينية كانت محدودة، فضلاً عن أنه لم يكن مدرباً على فنون القتال في المدن. والأهم من كل ذلك هو أنه هو وعبد الله لم يكونا واثقين من عواقب التورط، لأن القدس، حسب خطة التقسيم الصادرة عن الأمم المتحدة، كانت مرشحة لتبقى منطقة دولية.

لأسباب سياسية وأخرى عسكرية لم يكن عبد الله قادراً على تجاهل أهمية المعركة من أجل القدس. كانت الرسائل قد بدأت تتدفق على عمان قبل الخامس عشر من أيار راجية منه إنقاذ المدينة. ومع تصاعد حدة القتال لاحقاً ما لبث أن أصبح نافذ الصبر شديد الاضطراب بصورة متزايدة. ففي السابع عشر أمر غلوب بالتدخل على رأس الفيلق العربي انطلاقاً من رام الله، ولكن الأخير ظل يماطل أملاً في فرض وقف لإطلاق النار. وفي الثامن عشر قام غلوب بتسيير إحدى سريتي المشاة من جبل الزيتون، حوالي مئة عنصر، لتولي حراسة أسوار المدينة القديمة. ولكن لدى شعوره بموجة الانتقاد العام الصاعدة وبالاضطراب المتنامي داخل صفوف الفيلق العربي بالذات، لم يعد باستطاعة غلوب أن يستمر في تجاهل أوامر عبد الله المتكررة. وعند ذلك بادر غلوب في التاسع عشر من الشهر إلى التدخل بالقوة.[19] وقد جاء في رسالة بعث بها كيركبرايد إلى لندن ما يلي:

> تعين على غلوب أن يختار بين التوجه إلى الخارج، والقيام بعمليات تقوده في النهاية إلى منطقة يهودية من جهة، وبين التوجه إلى الداخل لرفع الضغط عن المناطق العربية من القدس من جهة ثانية. وقع اختياره على الاحتمال الثاني،

وكان حكيماً في اختياره باعتقادي. فإنقاذ الأماكن المقدسة في القدس كان من شأنه أن يكسب شرق الأردن ميزة عظيمة في العالم العربي، مع توفير إمكانية إعطاء الجنود فرصة خوض المعركة التي رفعوا أصواتهم مطالبين بخوضها، دون التعرض لخطر التورط فيما كان يمكن وصفه بأنه عمل عدواني ضد الدولة اليهودية.[20]

دامت الجولة الأولى من الحرب شهراً واحداً. وفي أثناء تلك الفترة قاتل الفيلق العربي، بالدرجة الأولى في القدس واللطرون، على الطريق الرئيسية الممتدة من تل أبيب إلى القدس. وبالفعل فإن نظرة مدققة إلى نمط الاشتباك بين الفيلق العربي والقوات اليهودية تبين أن الأول حصر اهتمامه بالدفاع عن القدس، سواء أكان ذلك يعني القتال داخل المدينة أم حماية ضواحيها الاستراتيجية. ويشير هذا النمط ليس فقط بأن خطة قتالية تمكن الفيلق العربي من البقاء في فلسطين العربية كانت قد انبثقت فعلاً من اجتماع بيفن بأبي الهدى في شباط، بل وبأن عبد الله تمسك بالخطة بمقدار ما كانت الظروف الغامضة آنذاك في القدس تسمح به. فمنذ أوائل أيار كان كيركبرايد قد نبه إلى أن من شأن الإخفاق في التوصل إلى هدنة في القدس أن يؤدي إلى تعطيل «الخطة الأصلية المعقولة لحملة بدأ شرق الأردن بها».[21] وفيما بعد، في زحمة القتال، قام السفير الأمريكي في لندن بتأكيد صحة تحليل كيركبرايد قائلاً:

ندرك أن اليهود كانوا يعلمون أن الفيلق العربي كان سيدخل المناطق العربية، وأن هذا لم يكن غير مرحب به من قبلهم. لم يدخل الفيلق العربي إلى الدولة اليهودية كما حددتها الأمم المتحدة. أما الهجوم على أجزاء من القدس فلم يكن إلا نتيجة خرق اليهود لوقف إطلاق النار. إننا واثقون من أن الهجوم ما كان ليحصل لو أن اليهود قبلوا بالهدنة في القدس.[22]

فيما نفذ شرق الأردن خطته التي تعقدت جراء الانشغال في القدس، حرصت كل من الدول العربية على اتباع استراتيجيتها الخاصة، في غياب

شبه كامل لما يشير إلى وجود أي إحساس بقضية مشتركة فيما بينها. باستثناء العراق الذي تعاون مع شرق الأردن، إذ أرسل قوات إلى داخل نابلس في سبيل تمكين قوات الفيلق العربي من القتال في القدس، اكتفت الدول العربية الأخرى بعبور حدودها المباشرة والوصول إلى الأجزاء الأقرب إليها من فلسطين. تركز هدف الدول العربية على التمسك بما تيسر لها من أرض بصرف النظر عن تقسيم الأمم المتحدة. لم تحقق سورية ولبنان إلا تقدماً بسيطاً في الشمال، كما أن اجتماعاً نادراً بين عبد الله ورئيس جمهورية سورية شكري القوتلي بدرعا في العشرين من أيار لم يتمخض عن أية خطة منسقة. أما مصر فقد تقدمت على امتداد الساحل حتى أشدود، كما أرسلت طابوراً آخر إلى الداخل، إلى كل من الخليل وبيت لحم حيث أثارت فزع عبد الله إذ تحدت صلاحيته في تسميته حاكماً عسكرياً. وقد تحدثت الشائعات عن أن عبد الله وفاروق كانا يتسابقان على أداء صلاة الجمعة في القدس المحررة أولاً.[23] من المؤكد أن عبد الله لم يضيع وقتاً ولم يتأخر في القيام بالرحلة. ففي السابع والعشرين من أيار، لدى التوصل إلى تحقيق نوع من الجمود بين القوات العربية واليهودية التي قسمت المدينة إلى نصفين، سارع عبد الله إلى زيارة قطاعات المدينة الشرقية، بما فيها المدينة القديمة وحوزاتها الدينية التي كانت خاضعة لسيطرة الفيلق العربي.

ومع حلول نهاية أيار كانت محاولة جدية لترتيب وقف لإطلاق النار يجري بذلها. كان وسيط دولي من الأمم المتحدة هو الكونت فولكه بيرنادوت قد تم تعيينه وإيفاده إلى الشرق الأوسط. ولتسهيل مرور قرارها الخاص بوقف إطلاق النار في الأمم المتحدة فرضت بريطانيا، بصورة منفردة، حظراً على شحنات الأسلحة الخفيفة وهي شحنات نصت عليها معاهداتها مع كل من شرق الأردن ومصر والعراق، ولم تكن داخلة في الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة.) وأعلنت عن اعتزامها سحب ضباطها المفروزين من

الخدمة الفعلية في صفوف الفيلق العربي بفلسطين، وإعادة النظر في القسط الربعي المخصص لتمويل شرق الأردن المستحق في الثاني عشر من تموز.[24] ما لبث القرار البريطاني المتضمن هدنة لمدة أربعة أسابيع أن مر، ولكن الأيام العشرة التي سبقت وضعه موضع التطبيق الفعلي كانت أياماً مشحونة بالقلق في عمان، حيث كان كل من كيركبرايد وغلوب يخشيان من احتمال اضطرار الفيلق العربي المحروم من المؤن إلى ترك اللطرون، وإطلاق سلسلة من الانسحابات العربية التي «كان من شأنها أن تعيد القوات العربية إلى بلدانها الأصلية»[25] وإلى تدمير مكانة بريطانيا في الشرق الأوسط أيضاً.

ثار غضب عبد الله إزاء القيود البريطانية. وقد اعتبرها انتهاكاً لتفاهم سابق بينه وبين بريطانيا، وعلق بمرارة قائلاً لكيركبرايد: إن «الحلفاء الذين يورطوننا في حرب، ثم يقطعون إمداداتنا الأساسية ليسوا أصدقاء مرغوبا بهم».[26] ولبعض الوقت بعد ذلك تم استبعاد كيركبرايد من دائرة ثقته الكاملة. ومع ذلك فإن الفيلق العربي كان ما يزال في مواقعه عندما تم أخيراً تنفيذ وقف إطلاق النار في الحادي عشر من حزيران؛ أضف إلى ذلك أنه كان قد حقق ما كان كيركبرايد قد تنبأ به من قبل، إذ كان قد تمكن من تبرير مسار تحركه عن طريق إنقاذ الأماكن المقدسة دون عبور حدود التقسيم إلى المنطقة اليهودية.

بفضل دفاع الفيلق العربي عن القدس، خرج عبد الله من الشهر الأول للحرب متمتعاً بمكانة لا بأس بها بل حتى مدهشة. لا شك أن أهدافه في فلسطين كانت لا تزال تثير مشاعر الريبة وعدم الثقة، هذه المشاعر التي أججتها تصريحات وايزمن في مؤتمر صحفي عقده بباريس مع بداية وقف إطلاق النار، عن اجتماعات عبد الله بغولدا مائير قبل الحرب. غير أن هدفه المباشر المتمثل بتحقيق وجود مقنع في فلسطين كان قد شبع تحققاً، بفضل اضطلاع الفيلق العربي بمهمة الدفاع عن القدس.[27]

خلال هدنة الأسابيع الأربعة التالية انصب نشاط عبد الله على جبهة أخرى، جبهة سياسية بعيدة عن فلسطين، أراد منها تبديد المخاوف العربية من أهدافه. وقد أبدى حرصاً وقدراً غير قليل من الشجاعة في اختيار أرض المعركة، إذ سافر إلى كل من مصر والعربية السعودية والعراق.

كانت مصر القوة القيادية في الجامعة العربية والبلد العربي الوحيد، إضافة إلى شرق الأردن، الذي كان جيشه يحتل أجزاء ذات شأن من فلسطين. تمت استضافة عبد الله بسخاء في القاهرة من قبل الملك فاروق الذي أقام له، مقلداً هوليود، احتفالاً حضره نجوم المسرح والسينما المصريين بمن فيهم أم كلثوم، إحدى أعظم نجوم الغناء في هذا العصر. وفي أثناء إقامته التقى عبد الله سراً بالحاج أمين الحسيني، على الرغم من أن ما دار بينهما بدقة ليس معروفاً. ترك عبد الله المباحثات الرسمية مع الحكومة المصرية لكل من وزير خارجيته فوزي الملقي وصاحب أعلى رتبة من العرب في الفيلق العربي، عبد القادر الجندي. وقد ناقشا أمر تمديد فترة وقف إطلاق النار وحاولا، دون نجاح، إقناع مصر بالإفراج عن شحنة باخرة من الذخائر والأسلحة البريطانية المرسلة إلى شرق الأردن، كانت قد سرقت قبيل الحرب.[28]

ومن القاهرة توجه عبد الله إلى الرياض حيث ابتلع كبرياءه الملكي، وأقدم أخيراً على مواجهة خصمه اللدود خلال حياته كلها ابن سعود. اصطحب معه حاشية كبيرة جداً جلها مؤلف من الزعماء القبليين والعشائريين، وكان هدفه منها إقامة علاقات أفضل بصورة عامة أكثر من مناقشة تقنيات الحرب وسياساتها. وعلى الطريق سُمع وهو يغمغم متذمراً من أن من شأن شراء هدايا لأفراد العائلة الملكية السعودية، الكثر «أن يكلفه مبلغاً لا يستهان به». غير أنه ما لبث لدى رحيله أن تم إغراقه بفيض من الهدايا الثمينة، بما فيها مئة ألف ليرة ذهبية رداً على تعليقه الذي وصل إلى أسماع السعوديين والذي قال فيه: «إن من المؤسف أن العربية السعودية لم

تكن سوى حفنة من الرمال».[29] وعلى الرغم من أن الرحلة شكلت منعطفاً في العلاقات بين شرق الأردن والسعودية، فإن عبد الله لم يستطع لاحقاً مقاومة إغراء انتقاد مدى اتساع المرافق الأمريكية في الظهران، في تلميح منه إلى أن ابن سعود كان قد قطع شوطاً كبيراً على الطريق المؤدية إلى أن يصبح دمية أمريكية.[30]

كانت بغداد محطة عبد الله الأخيرة حيث توفرت له أفضل فرص العثور على آذان متعاطفة. ومع ذلك فإنها كانت المحطة الأصعب من بعض النواحي لأن الشجار داخل العائلات أكثر حدة وأشد قسوة من المناورات الحذرة فيما بين الغرماء والمتنافسين. كان النظام العراقي يواجه أزمة داخلية جعلت مصالحه تتناقض مع مصالح عبد الله. فأبناء عمومته كانوا بحاجة إلى استئناف القتال لدفع تهم الافتقار إلى الشعور القومي العربي عن أنفسهم؛ في حين كان هو بحاجة إلى استمرار وقف إطلاق النار، لأن الفيلق العربي لم يكن يملك الذخائر اللازمة لمتابعة القتال. تبادل عبارات حادة مع رئيس الوزراء العراقي الذي بادر لاحقاً، في اجتماع الجامعة العربية الذي عقد في القاهرة لبحث موضوع تمديد فترة وقف إطلاق النار، إلى الدفاع عن فكرة استئناف القتال. ومهما يكن فإن عبد الله تمكن من تحقيق انتصار وجيز واحد. فحين عبر القائم بالأعمال الأمريكي في بغداد عن استعداده إيصال أية رسائل يريد إيصالها إلى واشنطن، سارع إلى التعبير عن عدم موافقته على السياسة الأمريكية حين رد قائلاً: إن الحياد الحقيقي هو كل ما كان يريده من الولايات المتحدة.[31]

أخفق عبد الله مع الحكام العرب في كسب ما أراده من تأييد مضمر لأهدافه في فلسطين. وأحد الأمور التي ألحقت الضرر بمحاولاته هو اقتراح برنادوت القاضي بانشاء كيانين من فلسطين وشرق الأردن، كيان عربي وآخر يهودي. وعلى الرغم من أن برنادوت أبقى مسألة الحدود مفتوحة للمناقشة، فإن الكيان العربي كان من شأنه أن يتألف من شرق الأردن كله،

ومن شأن الكيان اليهودي أن يقوم على باقي فلسطين حيث كان السكان اليهود أكثر تركزاً، وبالتالي كانت الأكثرية العربية أقل طغياناً. وكان الكيانان سيقومان بالتعاون في مجالات محددة ذات مصلحة مشتركة، ولا سيما على صعيد العمل الاقتصادي. راقت الفكرة لعبد الله الذي اعتبرها فرصة لتوسيع دائرة حكمه تحت مظلة الأمم المتحدة. غير أنها قوبلت بالرفض والعداء في سائر الأماكن الأخرى. أدت الفكرة إلى تنبيه الدول العربية وتحذيرها من طموحاته، في الوقت الذي كان يسعى فيه إلى تجريدها من السلاح.[32] وبعيد عودته إلى عمان، بادرت الجامعة العربية إلى إيجاد مجلس إداري فلسطيني يتولى السلطة المدنية في فلسطين، في تحد مباشر لتطلعاته.[33]

وما كان أكثر إلحاقاً للضرر بتطلعات عبد الله من قيام الجامعة بتشكيل مجلس إداري فلسطيني هو رفضها لتمديد هدنة الشهر. فالجامعة التي اجتمعت في القاهرة أوائل شهر تموز صوتت بالموافقة على استئناف القتال لدى انقضاء فترة وقف إطلاق النار في التاسع من تموز. وكانت الدول الأقل تورطاً في المعارك القتالية وهي لبنان وسورية والعراق الأكثر جنوحاً إلى الحرب. أما دولتا مصر وشرق الأردن، وقد كانتا أعمق تورطاً وأكثر تعرضاً لاحتمال الخسارة، فكانتا راغبتين في الحصول على هدنة. غير أن مصر الخائفة من الانعكاسات الداخلية ترددت ونأت بنفسها عن اتخاذ موقف قوي يكون مؤيداً لما بدا قبولاً بإسرائيل، ولم يستطع شرق الأردن وحده أن يفعل شيئاً. لم يبد شرق الأردن نشاطاً ملحوظاً في مناقشات الجامعة، كي لا يظهر شديد التوق لاستصدار اقتراح هدنة وتسوية لا يفيد غيره. وما إن باتت العواطف مائلة بوضوح لصالح الحرب، حتى أدلى شرق الأردن بصوته مع الأكثرية انسجاماً مع سياسة رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى القائمة على تجنب أية قطيعة مع الجامعة مهما كانت التكاليف.

قبل انتهاء وقف إطلاق النار بست وثلاثين ساعة، علم عبد الله أنه كان

في مواجهة احتمال نشوب أعمال قتالية جديدة. وقد راوده الشك بأن قرار استئناف القتال كان قد تم اتخاذه في ضوء معرفة افتقار الفيلق العربي للذخيرة وبهدف إحباط طموحاته، وخاف من إقحام الفيلق العربي في معركة يحتمل أن تكون كارثية، لأن هذا الجيش كان يشكل العمود الفقري بالنسبة لنظامه، ومصدر أهميته الإقليمية. وفي حالة من الذعر دعا برنادوت إلى عمان لإبلاغه بأنه كان مستعداً لقبول اقتراحه مع تعديلات معينة، وليطلب منه إجبار الدول العربية على التراجع عبر استخدام جميع أشكال النفوذ التي تتمتع بها الأمم المتحدة بما فيها التدخل المسلح. وقد أبلغ كيركبرايد أيضاً بأنه كان مستعداً لإعلان هدنة من طرف واحد.(34) ومع ذلك فإن الفيلق العربي بادر، لدى انتهاء أسابيع وقف إطلاق النار الأربعة، إلى المشاركة في القتال، لعجزه عن البقاء على الحياد بعد قيام الدول العربية الأخرى باستئناف القتال.

كان الطرفان كلاهما قد انتهكا شرط الحفاظ على الأمر الواقع خلال فترة وقف إطلاق النار. صحيح أن كلاً من مصر والعراق وشرق الأردن قامت بحشد المزيد من الجنود، ولكن إضافة أعداد جديدة من الرجال لم تحدث تأثيراً ذا شأن في غياب الأسلحة والذخائر الآتية من بريطانيا، الممونة الوحيدة لهذه الدول، التي حرصت على التحلي بالتشدد في مراعاة الحظر المفروض على الأسلحة من جانب الأمم المتحدة. كذلك قامت إسرائيل بزيادة حجم قوتها البشرية المسلحة. والأهم من ذلك هو أنها استطاعت، عبر صلاتها المتنوعة في أوروبا وخصوصاً في تشيكوسلوفاكيا، تعويض بل وزيادة أسلحتها ومعداتها العسكرية محدثة اختلالاً مثيراً في ميزان القوة العسكري لصالحها. ذلك هو السبب الذي جعل الجولة الثانية قصيرة، ولكنها مرة المذاق بالنسبة للعرب الذين خسروا أرضاً على جميع الجبهات. فالفيلق العربي المفتقر إلى ما يكفي من الذخيرة والمحروم من العناصر الاحتياطية تلقى أمراً يقضي بعدم إطلاق النار إلا في حالة الدفاع. وقد

تخلى هذا الجيش عن مواقعه المتقدمة في اللد والرملة الملائمة للدفاع عن اللطرون وطريق القدس. وفي غضون أيام قليلة ما لبثت اللد والرملة أن سقطتا.

شكل سقوط المدينتين وطرد سكانهما الذي كان تعدادهم يتراوح بين خمسين وسبعين ألف نسمة، دون أن يبقى منهم فيهما سوى ألف نسمة فقط، سبباً لتدهور مكانة عبد الله وسقوطها من الذروة التي كانت قد بلغتها جراء اضطلاع الفيلق العربي بمهمة الدفاع عن مدينة القدس في أيار. وكان قرار إسرائيل القاضي بطرد السكان قد استهدف، في جانب منه، عرقلة تحرك القوات وإضعاف الطاقة الحربية لشرق الأردن. فالطرق المزدحمة باللاجئين كانت ستحول دون أي هجوم معاكس من جانب الفيلق العربي (لم يكن الإسرائيليون مطلعين على قرار غلوب القاضي بترك المدينتين)، كما كان شرق أردن مثقل بعبء الاهتمام باللاجئين البائسين ورعايتهم سيبقى مع قدر أقل من الموارد المخصصة للإنفاق على الجيش.[35] وعلى أية حال فإن المضاعفات الهامة كانت داخلية؛ ما لبثت سلسلة من الإضرابات والمظاهرات أن تفجرت في بلدات شرق الأردن وفلسطين الشرقية، وتعرضت سيارة غلوب للرشق بالحجارة، كما أن بريطانيين تعرضا للضرب المبرح في شوارع عمان. انصب غضب شرق الأردن على بريطانيا بالدرجة الأولى، وخصوصاً على غلوب الذي تم تفسير قراره القاضي بعدم الدفاع عن المدينتين على أنه عمل تخريبي متعمد من أجل فرض هدنة جديدة. ثم جاء الإعلان البريطاني عن وقف الأقساط المبرمجة لتمويل شرق الأردن والمحدد تاريخ دفعها في الثاني عشر من تموز ليبدو كما لو كان تأكيداً لتواطؤ واضح. وما لبثت سمعة بريطانيا الملطخة أن مارست تأثيرها السلبي على وضع عبد الله أيضاً. صارت همسات صادرة عن بيروت تتحدث عن وجود مؤامرات تستهدف اغتياله.[36]

ساهمت عملية إرسال كتيبة من الفيلق العربي مع وحدات عسكرية

عراقية عبر شوارع عمان باتجاه الحدود في تخفيف بعض مظاهر الاستياء الخارجية. وأثبت عبد الله أنه قادر على حماية سمعته الخاصة. تمكن من كسر مظاهرة كانت جارية أمام القصر عن طريق صفع أحد قادتها. وفي لحظات الصمت الناجم عن الصدمة التي أعقبت حادثة الصفع قام عبد الله بتوجيه الانتقادات والتوبيخات العنيفة إلى المتظاهرين، طالباً منهم الانخراط في صفوف الفيلق العربي إذا أرادوا إنقاذ فلسطين، وبدأ يسجل أسماء المتطوعين.[37] وكذلك قام بتوفير فرصة تحميل غلوب الجزء الأكبر من المسؤولية، داعياً إياه إلى تقديم حساب ضياع اللد والرملة أمام وزرائه.

أصيب غلوب بحرج عميق جراء اتهامات عبد الله بأنه كان قد تعمد حجب الذخيرة عن الفيلق العربي، ومهد بالتالي لسقوط اللد والرملة. غير أن الطابع شبه العلني للعرض المسرحي يشير إلى أن المسألة لم تكن إلا مسألة تمثيلية من صنع عبدالله. ساهمت الإشاعات الدائرة حول تعنيف غلوب، والتي تناقلها أولئك الذي حضروا، في حرف اتجاه الانتقادات عن عبد الله نفسه. وبعد شهر واحد تم عرض مسرحية أخرى ذات علاقة. ففي منتصف آب جرى إبعاد غلوب إلى لندن. رسمياً قيل إنه كان في إجازة، غير أن الانطباع السائد كان يقول بأنه كان قد أصبح شخصاً غير مرغوب فيه وقد لا يعود ثانية إلى عمان. أما الحقيقة الكامنة وراء الرواية الرسمية والاعتقاد العام على حد سواء فقد كانت أنه قد تم إرساله إلى لندن من قبل عبد الله، مزوداً برسالة شخصية موجهة إلى بيفن ومكلفاً بعرض صورة المعاناة المالية للفيلق العربي على وزارة الحرب.[38] صحيح أن الأزمة كانت قد هدأت في الأوساط الحكومية حين عاد غلوب إلى عمان في أيلول؛ غير أن سمعته لم تتم استعادتها قط على المستوى الشعبي، وخصوصاً بين صفوف الفلسطينيين.

كانت الجولة الثانية من القتال كارثية بالنسبة للقوات العربية. ففي غضون عشرة أيام خسرت هذه القوات أرضاً على جميع الجبهات، وبشكل

خاص خسرت الجليل كلها.وبالتالي فإن مزاج الشارع العربي تغير نحو الأسوأ أيضاً؛ فالجمهور الذي كان موعوداً بالنصر لم يحصل إلا على هزيمة ساحقة مفعمة بالذل والمهانة.[39]

حين عقدت الجامعة العربية اجتماعاً في عاليه للنظر في اقتراح وقف إطلاق النار الجديد الصادر عن الأمم المتحدة، ظلت مبتلية بسلسلة متصلة، ساعة بعد أخرى، من المخابرات الهاتفية من عبدالله الله الذي كان يخشى ضياع فرصة الهدنة هذه مثل سابقتها. ولكن الجامعة أقدمت هذه المرة على قبول المشروع، وأصبح قرار وقف إطلاق نار جديد نافذاً في الثامن عشر من تموز. تم الأمر في الوقت المناسب تماماً بالنسبة لعبد الله. فالفيلق العربي لم يكن متعرضاً لضغط شديد في اللطرون فقط، بل وقد كان مطلوباً في عمان للسيطرة على موجة الاستياء المتصاعدة.[40]

ما إن توقف القتال حتى باتت التقارير تتحدث عن أن عبد الله كان، رغم الخسائر العربية، «في مزاج جيد جداً... مستمتعاً بحلم المملكة الكبرى المؤاتي».[41] وبالفعل فإن الحرب كانت قد جعلته أقرب إلى هدفه؛ كانت قد نسفت وحدة فلسطين الإقليمية، وأتاحت للفيلق العربي فرصة احتلال جزء منها. غير أنه كان قد حقق كل ما كان قادراً على أن يأمل في تحقيقه على أرض المعركة. فالقوات اليهودية كانت قد أمسكت بزمام المبادرة، وكان فقدان اللد والرملة قد خفض سقف أسهمه، وجعله أدنى بكثير من مستواه العالي السابق. ومن الآن فصاعداً تعين على معركته الهادفة إلى ضم فلسطين العربية إلى شرق الأردن أن تخاض في الميدان السياسي. وهناك كان عبد الله يواجه عدداً متبايناً من الأعداء المتمثلين بالدول العربية المعادية، وبإسرائيل الهجومية في دفاعها، وبالفلسطينيين المرتبكين والساخطين. أما في جبهة المؤيدين له فقد كان يستطيع التعويل على بريطانيا، وعلى الولايات المتحدة ولو بصورة أبعد.

لأسباب ذات علاقة بالمبادئ أو الكبرياء، بالعداء التاريخي لعبد الله أو

الخوف من الرأي العام والقلق بشأن الاستقرار الداخلي، لم تكن الدول العربية قادرة على الإذعان علناً لتقسيم فلسطين، أو للمكسب الذي كان عبد الله سيحققه من مثل هذا التقسيم. فمصر التي كانت قد بالغت في المراهنة على شعار القومية العربية في سبيل الهيمنة على الجامعة العربية، خشيت من تدهور قيمة ذلك الشعار، فضلاً عن أنها كانت المنافسة الوحيدة لشرق الأردن على صعيد حيازة أراضٍ فلسطينية. أما النظامان السوري والعراقي اللذان كانا يواجهان اضطرابات داخلية فقد كانا مضطرين للظهور بمظهر المؤيد لاستمرار النضال، أملاً في اللحاق بطوفان الاستياء المتفجر في بلديهما وتطويعه. وكذلك فإن سورية، مثلها مثل لبنان، كانت أيضاً مستاءة من أحلام عبد الله الخاصة بسورية الكبرى التي لم يكن تمزيق فلسطين إلا خطوتها الأولى. وعلى الرغم من المصالحة الظاهرية بين ابن سعود وعبد الله، فإن الأول كان ما يزال غير مطمئن إلى طموحات الثاني ومطامعه المتمثلة بالتوسع الإقليمي، ويعتبر قيامه باحتلال فلسطين العربية تهديداً محتملاً للحجاز.

وهكذا فإن جميع الدول العربية كانت، بدرجات مختلفة ودوافع متباينة، معارضة لفكرة تمكين عبد الله من كسب الأرض في فلسطين. كانت شديدة القلق بشكل خاص إزاء ما انطوت عليه سياسته الرامية إلى تحقيق اتفاق مبكر مع إسرائيل. وقد تم التعبير عن هذه المواقف خطابياً ولكن بقوة، على الرغم من أن شيئاً ذا طابع ملموس كان يتعذر فعله إزاء وجود إسرائيل، أو على صعيد تمكين الفلسطينيين من إيجاد بديل للحكم الهاشمي على حد سواء.

بدت إسرائيل شبه مؤيدة لفكرة قيام دولة عربية مستقلة في فلسطين، لأنها رأت أن من شأن مثل هذه الدولة أن تكون كياناً ضعيفاً على الصعيدين الاقتصادي والسياسي يسهل إخضاعها لسيطرتها،[42] في الوقت نفسه كانت فكرة هيمنة أو استيعاب شرق الأردن لفلسطين جذابة بالنسبة

إلى إسرائيل إذ كانت هذه الرؤية تنطوي على ميزة إزالة اسم فلسطين من خارطة القانون الدولي. وقد كان البعض يفضلون إخضاع فلسطين العربية لحكم شرق الأردن، لأنهم كانوا يعتبرون العبء الاقتصادي كبيراً إلى درجة تجعل شرق الأردن، مع مرور الزمن، دولة تابعة لإسرائيل على الصعيدين الاقتصادي والسياسي.[43] إلا أن السياسة الإسرائيلية لم تجعل وضع عبد الله سهلاً. بل وما لبث أن اتضح تدريجياً أن إسرائيل لم تكن مستعدة لمقايضة الأرض مقابل تسوية. ولذلك باتت فكرة عبد الله أن يستخدم معاهدة حول الأراضي المحتلة كي يبرر سياسته أمام الفلسطينيين والدول العربية باتت غير واردة للبحث.

كان الفلسطينيون المنقسمون والمشتتون قبل الحرب، أشد انقساماً وتمزقاً بعدها بسبب مصائرهم المتباينة. بقي بعضهم أقلية مهددة في إسرائيل. وأصبح آخرون، وهم الأكثر عدداً، لاجئين تم سوقهم إلى الأجزاء الفلسطينية التي لم تتعرض للاجتياح والاحتلال الإسرائيليين، أو إلى الدول العربية المجاورة التي هي شرق الأردن ومصر وسورية ولبنان. وثمة فئة ثالثة بقيت في منازلها في فلسطين غير المحتلة، ولكنها لم تسلم من الأذى لأن سيول اللاجئين تدفقت على مناطقها، ولأن جداراً حدودياً معادياً ما لبث أن انتصب بينها وبين الحقول والأسواق، بينها وبين الموانئ والمراكز الحضرية التي كانت تشكل نسيج اقتصادها ومجتمعها.

شكلت الفئة الأولى المؤلفة من حوالي مئة وستين ألفاً من الفلسطينيين الباقين في إسرائيل،[44] بمجرد وجودها بالذات، تهديداً لفكرة الدولة اليهودية. وحياة العرب الذين وجدوا أنفسهم فجأة تحت الحكم الإسرائيلي ومعيشتهم كانتا مقيدتين وبالغتي الهشاشة نظراً لأن تدابير، خفية ومعلنة، اتخذت لدفعهم إلى الرحيل.[45] أضف إلى ذلك أن السياسة الإسرائيلية حرصت، منذ البداية، على تفضيل مجموعتين، هما مجموعتا البدو والدروز، لتفريق الفلسطينيين في إسرائيل ولجعل حكمهم أسهل.

كانت الفئة الثانية المؤلفة ممن هربوا من بيوتهم بأعداد وصلت إلى حوالي سبعمئة ألف[46] متمايزة بالثروة من جهة، وبالجغرافيا وفقاً للبلد الذي انتهوا إليه بعد الحرب من جهة ثانية. فمن لا يملكون شيئاً أو لا يملكون إلا القليل أصبحوا يعيشون في المخيمات؛ أما من كان معه شيء من رأس المال أو كانت لهم روابط عائلية خارج فلسطين فقد كانوا أقدر على الاندماج مع أماكن النفي. وقد كان الجميع ممزقين بين الرغبة في العودة إلى البيوت والممتلكات وبين الحاجة إلى بدء حياة جديدة. وأولئك الذين كانوا يملكون أموالاً انقسموا فيما بينهم حول مسألة التعويض. ثمة أقلية ألحت، أملاً في تقليص خسائرها، على المطالبة بتسوية عاجلة مع إسرائيل تكون متضمنة حق تصفية ممتلكاتها. أما الأكثرية فرفضت التنازل عن حقوقها في العودة مقابل تعويضات تافهة. كان الجميع في وضع غير آمن - لم يكونوا مطمئنين إلى أنهم كانوا سيلقون الترحيب في الدول المجاورة، وكانوا خائفين من التعرض للمزيد من الأعمال العدوانية الإسرائيلية، كما كانوا مفتقرين إلى أسباب العيش المضمونة.

أما الفئة الثالثة المؤلفة من أربعمئة وستين ألفاً من سكان فلسطين غير المحتلة فقد اكتسحها فيض من اللاجئين. فالكتلة السكانية لما صار يعرف باسم الضفة الغربية، مثلاً، ما لبثت أن تضاعفت بين عشية وضحاها. واحتشد ما يقرب من مئتين وخمسين ألفاً من اللاجئين في قطاع غزة التي راحوا يتقاسمونها مع سكانها الأصليين البالغ عددهم ستين ألفاً.[47] وعلى الرغم من أن اللاجئين كانوا عموماً يلقون تعاطفاً، فإن توترات نشأت بصورة طبيعية مع تنامي التنافس على أماكن الإقامة النادرة والموارد الأكثر ندرة. وكان ثمة مصدر أكبر للتوتر ألا وهو الخوف من أن تفضي محاولات اللاجئين الرامية إلى استعادة بيوتهم وممتلكاتهم إلى المزيد من الاعتداءات الإسرائيلية. بات السكان الأصليون في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة ممزقين بين الرغبة في استعادة باقي فلسطين في سبيل استرجاع

النسيج الاجتماعي والاقتصادي للبلاد من جهة، وبين الحاجة إلى التسوية مع إسرائيل للحيلولة دون خسارة المزيد من الأرض ودون إمكانية طردهم من وطنهم من جهة ثانية.

لم يكن الفلسطينيون الضائعون والممزقون، الخائفون من العدوان الإسرائيلي المستمر، والمفتقرون، في حالات كثيرة، إلى متطلبات الحياة الأساسية، قادرين على إيصال أي صوت موحد إلى الساحة الدولية حيث كان يتم تقرير مستقبلهم. وفي تلك الساحة لم تكن مسألة إعادة جميع أراضيهم إليهم مطروحة بالطبع، على الرغم من أن كلاً من بريطانيا والولايات المتحدة كانتا تريدان رؤية إسرائيل مستعدة لتقديم بعض التنازلات الإقليمية؛ بغية توفير إمكانية التوصل إلى سلام دائم. كانت القضية المطروحة متمثلة بمسألة مصير الأرض التي بقيت فلسطينية. بدا الفلسطينيون أنفسهم ميالين إلى تفضيل حكومة مستقلة، ولكن هذه الرغبة ما لبثت أن تعدلت جراء الخوف من النزعة التوسعية الإسرائيلية والحاجة، بالتالي، إلى ضمانة حماية بلد مجاور يملك جيشاً وتحالفاً دفاعياً مع بريطانيا، حماية إما شرق الأردن أو مصر تحديداً. إن حالة التشتت في صفوف الفلسطينيين، مقرونة بخوفهم من إسرائيل، مكنت بريطانيا من تجاهل الأصوات الفلسطينية التي عارضت الرغبة البريطانية في ضم الأجزاء العربية من فلسطين إلى شرق الأردن.

عارضت بريطانيا قيام حكومة فلسطينية مستقلة لأن من شأن مثل هذه الحكومة أن تتحول بالتأكيد، حسب رأيها، إلى «بؤرة تعصب عربي غير فعال، لن تلبث، بعد التسبب بقدر كبير من الاضطراب والتشوش في علاقاتنا مع العرب، أن تتعرض، آخر المطاف،لعملية الاستيعاب والإذابة في بوتقة الدولة اليهودية، مما يزيد من مساحة دائرة النفوذ الروسي المحتمل، ويلغي إمكانية حصولنا على أية متطلبات إستراتيجية في أي من أجزاء فلسطين».[48] وجنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة، ربما مارست بريطانيا

تأثيراً على برنادوت على صعيد إقناعه بإيراد مثل هذه التوصية في التقرير الأولي. وقد كان تقرير برنادوت الذي قدم في السادس عشر من أيلول، قبل قيام متطرفين يهود باغتياله في القدس بيوم واحد يتضمن التوصية التالية:

يجب ترك مسألة التصرف بالأراضي الفلسطينية غير المشمولة بحدود الدولة اليهودية لحكومات الدول العربية، بالتشاور الكامل مع سكان فلسطين العرب، والإشارة، مع ذلك، إلى وجود أسباب موجبة لدمج المنطقة العربية من فلسطين بأراضي شرق الأردن...[49] نظراً للترابط التاريخي والمصلحة المشتركة بين كل من شرق الأردن وفلسطين».

وبالتالي فإن عبد الله كان يستطيع أن يتوقع، رغم كثرة غرمائه، أن يحصل على فلسطين العربية بالاستناد إلى المساعدة البريطانية، وفي غياب أي بديل آخر يجري الإعداد له بنشاط.

غير أن خلق الإدارة الفلسطينية الشاملة تحت رعاية الجامعة العربية ما لبث، وقد تم اختيار غزة مركزاً لها بما جعلها رهينة بيد مصر، أن لجم توقعات عبد الله. والفلسطينيون الذي أوجدوا هذه الحكومة استهدفوا «تمكين عرب فلسطين من امتلاك وضع شرعي قانوني.. وتقديم الدليل على اعتزامهم متابعة القتال...». أما القادة العرب الآخرون فقد أيدوها، كما قال وزير الخارجية اللبناني حميد فرنجية «تعبيراً عن معارضتهم لعبد الله... من أجل إحباط طموحاته الرامية إلى إلحاق الأجزاء العربية بشرق الأردن في كيان اتحادي والاعتراف بإسرائيل بالتالي».[50]

اعتبرت عمان الإدارة الفلسطينية الشاملة نتيجة المؤامرات التي حاكها في القاهرة الحاج أمين الحسيني، «ذلك الشيطان الخارج من قلب الجحيم» بنظر عبد الله[51] الذي رفض الاعتراف بها لأسباب واضحة، ولكنه لم يكن قادراً على تجاهلها باطمئنان، لأن مصر بدأت تسلح وتنظم وحدات غير نظامية في فلسطين الخاضعة لاحتلال شرق الأردن. ففي قرى حول رام الله راحت تلك

القوات غير النظامية تشكل المحاكم وتجبي الضرائب، بطريقة تذكر بما حصل في أثناء الثورة الفلسطينية من عام (1936 - 1939 م).[52] أطلق عبد الله تصريحات هوجاء حول مقاتلة مصر، وراح رئيس وزرائه توفيق أبو الهدى، بأسلوب لم يكن اكثر اتزاناً، "فيما يخص تحقيق طموحات عبد الله على الأقل" يتلاعب بفكرة سحب الفيلق العربي كلياً، وإغلاق ملف "المغامرة الفلسطينية".[53] وعلى مستوى أكثر اتصافاً بالواقعية قام عبد الله بتنظيم مؤتمر فلسطيني في عمان ما لبث أن شجب حكومة غزة، ودعا إلى توحيد فلسطين العربية مع شرق الأردن. غير أن مؤتمر عمان كان صغيراً، إذ لم يحضره سوى المعروفين بولائهم للأسرة الهاشمية، كما لم يشكل تعبيراً مقنعاً جداً عن تمتع عبد الله بالتأييد بين صفوف الفلسطينيين.

ومما ألحق مزيداً من الضرر بمساعي عبد الله أن سجل إدارته لفلسطين حتى ذلك الوقت كان ضعيفاً. ففلسطين الخاضعة لاحتلال شرق الأردن كانت، حسب تقارير المراقبين البريطانيين، تدار بشكل أقل جودة من القطاعين المصري والعراقي كليهما. كانت ثمة كثرة من الشكاوى، مثلاً، حول أن شرق الأردن كان يعرقل جهود الإغاثة، ويعوق الفعاليات التجارية والمهنية في فلسطين أملاً في اجتذاب الرساميل والأعمال إلى عمان. وقد ساهم عبد الله في زيادة حدة هذه الشكاوى بأساليبه الفوقية الاستبدادية في تعامله مع الفلسطينيين الساعين إلى التصالح معه. فبدلاً من الترحيب بهؤلاء، كال لهم الشتائم المهينة جراء اعترافهم الذي جاء متأخراً، ومن منطلق نفعي خالص (وإن لم يقلل ذلك من فائدته بالنسبة له)، بأهميته الجديدة في الشؤون الفلسطينية.[54]

فعلت بريطانيا ما استطاعت لدعم مطالبه، والتأثير على الحكومات العربية لمنعها من الاعتراف بحكومة غزة. غير أن نقطة القوة البريطانية الوحيدة المتمثلة بأن أية فلسطين عربية مستقلة لن تتم تغطيتها بمعاهدة دفاعية لم تترك أثراً ذا شأن على الدول العربية. ولم يبق أمام عبد الله

وبريطانيا سوى الانتظار، أملاً في احتمال تحطم الإدارة الفلسطينية الشاملة على صخرة التنافس العربي، وغرقها تحت وطأة عجزها الخاص.

جاء الخلاص من جهة غير متوقعة. في الخامس عشر من تشرين الأول هاجمت قوات يهودية مواقع مصرية في النقب، وفي غضون أسبوع من القتال تمكنت من طرد المصريين من الجزء الشمالي من النقب ومن الشريط الساحلي إلى أماكن قريبة من غزة. ما من جيش عربي هب إلى مساعدة المصريين، ولدى فرض وقف لإطلاق النار في الثاني والعشرين من تشرين الأول كان المصريون قد خسروا مساحات ذات شأن من الأرض. كان جزء من الجيش المصري قد بات مقطوعاً في الخليل وبيت لحم. سارع غلوب إلى استغلال الوضع وأرسل قوة من (350) عنصراً من عناصر الفيلق العربي بذريعة إنقاذ الجيش المصري، ولكن بهدف أكثر أهمية من ذلك هو تحقيق نوع من الوجود السياسي هناك.[55] ما لبثت الإدارة الفلسطينية الشاملة في غزة أن انسحبت إلى القاهرة الآمنة. ونتيجة لإخفاق الدول العربية في تقديم الدعم المستمر لها، ولحرص السياسة البريطانية على استبعادها من المنابر الدولية، راحت تلك الإدارة تتدهور بعد ذلك حتى توقفت شيئاً فشيئاً عن أن تكون تحدياً جدياً لمطالب عبد الله أو لمصالح بريطانيا.

على الرغم من أن عبد الله كان يخشى من أن يكون الهدف التالي للعدوان الإسرائيلي، فقد كان في الوقت نفسه قد جنى فوائد كبيرة من الصراع العربي ـ العربي، ومن النكسة التي أصابت مصر. وما لبثت مكاسبه أن تضاعفت حين قامت إسرائيل بتركيز جهودها على جيش التحرير [الإنقاذ] العربي في الجليل الشمالي، دافعة إياه مع القوات اللبنانية والسورية إلى ما وراء الحدود الشمالية، مع حلول نهاية شهر تشرين الأول من عام (1948 م). ومع تلاشي احتمال قيام أية دولة فلسطينية مستقلة وتزايد احتمالات الإلحاق بشرق الأردن، حدث تحول ملحوظ في الرأي لصالحه. غير أنه أثبت مرة أخرى أنه كان هو نفسه أسوأ أعدائه. فبدلاً من مغازلة

الفلسطينيين وخطب ودهم، أذاع خطاباً قال فيه: إنه لم يكن قادراً على منحهم مزيداً من المعونة الاقتصادية. أضف إلى ذلك أنه استمر في جرح كرامة زائريه الفلسطينيين، إذ ظل يكرر على مسامعهم أنه كان ميالاً إلى عدم تصديق أشكال تعبيرهم الحالي عن الولاء في ضوء "تقلبهم" السابق.(56)

بموجب اتفاق مسبق في الجامعة العربية كانت الجيوش العربية المنفردة في فلسطين مسؤولة عن المناطق التي نجح كل منها في حمايتها من الاحتلال الإسرائيلي، طوال مدة بقاء الاشتباكات مستمرة. وبالتالي فإن عبد الله كان، منذ الخامس عشر من أيار، مع دخول الفيلق العربي إلى رام الله ونابلس، القدس الشرقية، بيت لحم، وتقدمه جنوباً إلى الخليل، قد اتخذ قرارات آنية حول إدارة الأراضي والأهالي التي تصبح خاضعة لسلطته. كان حريصاً على تحويل إدارته من إدارة احتلال عسكري إلى إدارة متمتعة بالتأييد الشعبي تمهيداً للضم الرسمي. وبتحريض منه تم عقد مؤتمر فلسطيني في الأول من كانون الأول في مدينة أريحا، وفي ظل ظروف كانون الأول المتبدلة كان مؤتمر أريحا ـ وقد قدر عدد من حضروه بحوالي ثلاثة آلاف ـ حدثاً أكبر بما لا يقاس من مؤتمر عمان قبل شهرين.

كان الهدف من اختيار أريحا متمثلاً بإضفاء الصفة القاعدية الشعبية على التحرك باتجاه الاتحاد مع شرق الأردن بين صفوف الفلسطينيين أنفسهم، غير أن الدافع إلى المؤتمر جاء من عبد الله. كان عقد المؤتمر من بنات فكره هو، ساهم بجزء صغير من نفقاته، وتولت إذاعة رام الله الخاضعة للفيلق العربي مهمة الدعاية للمؤتمر، كما إن عمر باشا مطر، الحاكم العسكري لفلسطين الخاضعة لاحتلال شرق الأردن، كان قد تلقى أمراً قضى بضمان حضور أكبر عدد ممكن من الموظفين الحكوميين وغير الرسميين والضباط والأعيان، ولو كلف ذلك القوة. انطلق أنصار عبد الله من الأصدقاء والحلفاء إلى القرى والمخيمات لإقناع ذوي الرأي

من الزعماء المحليين والمتنفذين بأن الحضور كان في صالحهم. وفي اليوم الذي سبق يوم عقد المؤتمر توصل شرق الأردن وإسرائيل إلى عقد اتفاقية هدنة مصممة لتعزيز الهدنة المفروضة من الأمم المتحدة، مما مكن عبد الله من التمتع بفترة راحة مؤقتة على الأقل من كابوس هواجسه حول نوايا إسرائيل في الضفة الغربية.[57] وعشية المؤتمر اجتمع به مؤيده منذ زمن طويل ورئيس بلدية الخليل الشيخ محمد علي الجعبري في الشونة لوضع قائمة مقررات.[58]

وفي اليوم التالي سار المؤتمر وفق ما هو مرسوم له، إذ تم انتخاب الجعبري رئيساً، كما جرت الموافقة على جملة القرارات الداعية إلى التوحيد. وكما اتضح فيما بعد أن هذه القرارات لم تكن قد طبخت مسبقاً فقط، بل وقد جرت إعادة تسخينها فيما بعد أيضاً. كانت سلسلة طويلة من النسخ المتباينة المنصبة جميعاً على تطوير موضوع التوحيد قد نُشرت. فإحدى النسخ أوردت عبارة إضافية تذكر بحقيقة أن فلسطين كانت جزءاً من سورية الطبيعية، عبارة أحدثت قدراً كبيراً من الاستياء لدى كيركبرايد، الذي كان آملاً في أن تتمكن فلسطين من صرف عبد الله عن حلمه السوري السرابي إلى الأبد. ونسخة أخرى رحبت بعبد الله بوصفه حاكم فلسطين كلها، ودعته إلى متابعة جهوده الرامية إلى تحرير الأجزاء الباقية من البلاد.[59] وسارعت بريطانيا، ملتقطة ما جاء في الثانية، إلى تذكيره بأن من شأنه أن يفقد التأييد البريطاني ما لم يحصر تطلعاته بحدود فلسطين العربية، كما تم تحديدها بقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في عام (1947 م).

عبر الإيحاء بوجود نوع من التأييد الشعبي، كان المؤتمر يستهدف إضفاء صفة المشروعية على مطامع عبد الله في فلسطين. من المؤكد أنه كان يتوقع حدوث التوحيد الرسمي سريعاً ـ غير أن ذلك لم يكن ليتم بسبب المعارضة العربية من ناحية، والتعقل البريطاني والأمريكي من ناحية أخرى.

وما ليس مفاجئاً هو أن مؤتمر أريحا أطلق جولة جديدة من حملات الشتائم في العالم العربي كانت بقيادة مصر. بادر الملك فاروق إلى إلقاء خطاب علني ضمنه توبيخاً لعبد الله، الذي اقترح الانتقام عن طريق إذاعة سلسلة فضائح عن السلوك الجنسي للعائلة المالكة المصرية التي كانت حياتها شبه المكشوفة على ألسنة الناس في العالم العربي،[60] ولكن اقتراحه قوبل بالرفض. غير أنه ما لبث أن اهتدى إلى أسلوب ماكر لوخز مصر، حين أرسل برقية تهنئة إلى عبد الرحمن المهدي، حامل لواء حزب الأمة السوداني الذي كان يدعو إلى الاستقلال الكامل عن مصر، لدى فوزه في الانتخابات السودانية. وصلت العلاقات إلى الحضيض حين قامت طائرة مجهولة الهوية بإسقاط ست قنابل فوق مكان قريب من الشونة. كانت شظايا من القنابل تحمل كتابة عربية تقول (من الملك فاروق إلى م. شرتوك)، إشارة إلى موشي شرتوك، الرئيس السابق للقسم السياسي في الوكالة اليهودية، ووزير الخارجية الإسرائيلي الأول. ومفترضاً أن مصر هي التي قامت بالعمل أحس عبد الله بقدر كبير من الإهانة إزاء محاولة زرع الرعب في قلبه. رأى المراقبون البريطانيون والأمريكان أن الحادث ربما كان خداعاً إسرائيلياً استهدف تعميق الانقسامات المفيدة لإسرائيل في العالم العربي، ولكن برهاناً قاطعاً يثبت أياً من الاحتمالين لم يحصل.[61]

ولكن ما أحبط مخططات عبد الله لم يكن متمثلاً بمعارضة العرب الصاخبة لعملية الدمج أو بهذه المعارضة وحدها. فقد تم، بالأحرى، تأجيل مخططاته لأن كلاً من بريطانيا والولايات المتحدة، لجملة من الأسباب المختلفة، كانت تعتقد بأن عليه أن يتقدم متحلياً بقدر أكبر من الحيطة والحذر. بادرت لندن، وعينها على علاقاتها مع باقي أجزاء العالم العربي، وخصوصاً مع مصر، إلى التراجع في مواجهة الجدل الدائر حول المؤتمر في العالم العربي. ونتيجة لهذا الجدل ما لبث الدعم البريطاني لعبد الله أن

أصبح موضع اهتمام ونقاش حاد بين البعثات البريطانية في الشرق الأوسط. وكان هذا النقاش يعكس نظيره الدائر في العالم العربي ولا يقل عنه بشاعة. فكل من كيركبرايد في عمان والسير هيو داو في القدس دأبا على الدفاع عن عبد الله، موجهين سهام نقدهما إلى زعماء عرب آخرين، في حين أبدى دبلوماسيون في القاهرة معارضة شديدة لقيام كيركبرايد بالحط من قدر الجامعة العربية، ولمبالغة داو في تقويم شرق الأردن الذي اعتبره «الحليف الوحيد الثابت والقيم عسكرياً في الشرق الأوسط» بالنسبة لبريطانيا. أما رئيس المكتب البريطاني في القاهرة السير جون تروتبك فقد اعتبر مشاعر العرب تجاه عبد الله كرهاً "لمن اغتصب أرضاً" وضرب عرض الحائط بمبادئ الصراع. وقد كان الرجل بليغاً بلاغة استثنائية في دفاعه عن الجامعة العربية:

> ... إنني شديد الاقتناع بأن الأسلوب الذي تم اتباعه في طردهم من موقع محصن إلى آخر ـ أخلاقياً ـ انعكاسٌ بالغ الجدية والخطورة لحضارتنا الغربية. وأعتقد أن السبب الكامن وراء تعاطفي مع الجامعة العربية الوليدة الكسيحة (مقتبساً عبارات كيركبرايد)[62] هو أن عزام، رغم كل أشكال جموحه، يمتلك النوع نفسه من الشعور تجاه المسألة، في حين أن عبد الله ليس لديه مثل هذا الشعور.

تركز المحور الرئيسي للحوار على أن كيركبرايد كان يريد من بريطانيا أن تقدم قدراً أكبر من الدعم لعبد الله، في حين كان الدبلوماسيون البريطانيون في القاهرة يشعرون بضرورة الحفاظ على توازن أكثر دقة؛ صحيح أن بريطانيا كان عليها أن تدعمه، ولكن ليس إلى حدود تجعله متغطرساً وغير مبال بعلاقاته مع الدول العربية الأخرى. وكما حدث في أثناء مغامرات عبد الله السورية، فإن أساس المشكلة كان كامناً في اعتبار كل ما يفعله تعبيراً عن سياسة بريطانية بنظر العرب الآخرين، مما أدى إلى إلحاق الضرر بمصالح بريطانيا ومصداقيتها في المنطقة. وبوصفها متجذرة في علاقته

بريطانيا فإن المشكلة لم تجد لها حلاً. حاولت بريطانيا تشجيعه على التقارب مع مصر قبل الإقدام على اتخاذ أية خطوات في الضفة الغربية غير أنها أخفقت؛ وبدلاً من ذلك فإن التنافس المصري ـ الشرق أردني في فلسطين ما لبث آخر المطاف أن ساعد إسرائيل في فرض السيطرة على النقب.

وإضافة إلى الخلاف المرتبط بكل ما لامسه عبد الله خارج بلده هو، كانت ثمة اعتبارات هامة أخرى تملي تفضيل بريطانيا لضبط النفس. وكانت لجملة هذه الاعتبارات علاقة بتقويم بريطانيا لاحتمال هجوم إسرائيلي على الفيلق العربي في الضفة الغربية إذا ما بادر عبد الله إلى ضمها، ووبالتالي إلى قدرة هذا الجيش على الدفاع عن نفسه، وقدرة بريطانيا على مد يد المساعدة لشرق الأردن في حال تم الإشارة إلى المعاهدة الإنجليزية ـ الشرق أردنية. ففي أثناء مؤتمر أريحا وخلال بضعة أشهر بعده، ظلت بريطانيا شاعرة بأن احتمالات حدوث هجوم إسرائيلي كانت قوية، وقدرة الفيلق العربي على حماية نفسه ضعيفة (بسبب الذخيرة التي كانت ما تزال محظورة)، فضلاً عن أن قدرتها هي نفسها، وهو ما يثير الاستغراب، على مساعدة الفيلق العربي في فلسطين كانت أيضاً ضعيفة، حتى وإن تم إرسال قوات برية بريطانية إلى العقبة أوائل كانون الثاني لحماية تلك المدينة من خطر هجوم إسرائيلي وشيك مع تحرك القوات اليهودية جنوباً لاحتلال النقب.[63] ومن منظور الانتخابات الإسرائيلية الوشيكة، كانت بريطانيا قلقة أيضاً إزاء أن يتمخض ضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن في هذا الوقت، عن احتمال تحول الناخبين الإسرائيليين نحو تأييد مناحيم بيغن، الذي كان من شأن إيمانه الدوغمائي الجامد بحق إسرائيل الظاهر في كل فلسطين وشرق الأردن أن يبدد أي أمل في التوصل إلى التسوية التفاوضية في المنطقة.[64] وكانت بريطانيا والولايات المتحدة، كلتاهما، أخيراً، تفضلان حصول عبد الله على معظم

أو كل ما بقي للعرب من فلسطين، كجزء من تسوية شاملة ستكون متضمنة تعويضاً، إقليمياً أو غيره، للفلسطينيين. وكانتا تخشيان من أن يؤدي تحركه المستقل عن مثل هذه التسوية إلى إلغاء حصول مثل ذلك التعويض.(65)

تلك هي الأسباب التي دعت إلى تشجيع عبد الله على تأجيل عملية الضم الرسمية، وهي أسباب لم يتم كشفها جميعاً أمامه. ولحسن حظ كيركبرايد لم يتطلب الأمر قدراً كبيراً من الضغط لأن توفيق أبو الهدى، كان متشدداً في التمسك بمبدئه المتمثل بتجنب القطيعة الكاملة مع الجامعة العربية، رفض اعتماد التشريع الضروري بصورة مباشرة على أية حال؛ غير أن مجلس الوزراء، حرصاً منه على تجنب حصول قطيعة كاملة مع عبد الله، قام فعلاً باتخاذ قرار عام يرحب بمقررات مؤتمر أريحا.

لم تتوافر لعبد الله فرصة التذمر الطويل من إخفاق مؤتمر أريحا في تحقيق الوحدة الفورية، لأن قضايا هامة أخرى كانت تشغله وتضغط عليه بإلحاح. فمع حلول شهر كانون الأول من عام (1948 م) كانت الأمم المتحدة وبريطانيا والولايات المتحدة تدفع الدول العربية وإسرائيل بقوة نحو طاولة الهدنة. وإذا كان مؤتمر أريحا قد خذله، فقد كانت ثمة طرق أخرى لجعل قبضته على الضفة الغربية أقوى، منها السعي إلى نوع من التفاهم مع إسرائيل. وبالتالي فإن شرق الأردن كان مستعداً تماماً ليكون الأول في مباحثات الهدنة. غير أن بريطانيا كانت تخشى من احتمال أن يؤدي مثل هذا التحرك إلى إقحام شرق الأردن في وضع بالغ الهشاشة، وتفضل بدلاً منه، إما أن تسعى الدول العربية مجتمعة إلى الهدنة أو أن تقوم مصر التي هي أكبرها وأوسعها نفوذاً بالسير في المقدمة.

ثمة مباحثات غير رسمية بين شرق الأردن وإسرائيل جرت فعلاً خلال شهر كانون الأول من عام (1948 م)، على الرغم من عدم موافقة بريطانيا.

وفي الوقت نفسه كانت مصر هي الأخرى تعقد اجتماعات سرية مع الإسرائيليين.[66] ولكن قتالاً ما لبث أن اندلع ثانية بين مصر وإسرائيل في الثاني والعشرين من كانون الأول. كانت عملية إسرائيلية على الحدود المصرية وعبرها قد حاصرت الجيش المصري وقطعته عن مصر، وفي السابع من كانون الثاني وافقت مصر على الدخول في مفاوضات هدنة.

كانت الضربات الإسرائيلية في العمق المصري قد أرعبت بريطانيا التي هددت بالمبادرة إلى الدفاع عن مصر بموجب بنود معاهدة (1936 م) الإنجليزية ـ المصرية. وفي الوقت نفسه ما لبث وضع خطير مماثل أن نشأ بين إسرائيل وشرق الأردن. توغلت قوات إسرائيلية في النقب الجنوبي، مناوشة الفيلق العربي عبر حدود شرق الأردن في وادي عربة ومتقدمة باتجاه العقبة. وفي الوقت نفسه اعتمدت إسرائيل لهجة مفعمة بالتهديد في المباحثات الجارية مع شرق الأردن. وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تكن قد أعلنت حالة الاستنفار من أجل مصر، جراء التدخل الأمريكي الذي أقنع الإسرائيليين بالانسحاب من الأراضي المصرية، فإنها بادرت الآن إلى اتخاذ خطوات «باتجاه الوفاء بالتزاماتها الواردة في المعاهدة الإنجليزية ـ الشرق أردنية الموقعة في الخامس عشر من آذار عام (1948 م) في حال حدوث المزيد من العدوان اليهودي المهدد لوحدة شرق الأردن». وقد اشتملت هذه الخطوات على نقل المزيد من المعدات إلى عمان، لتكون تحت تصرف القوات البريطانية هناك، وكذلك لصالح الفيلق العربي، رغم أنها لم تسلمها للأخير انسجاماً مع حظر الأمم المتحدة توريد الأسلحة، وشملت هذه الخطوات أيضاً وضع وحدة من القوات البرية البريطانية في حالة الاستعداد، تحسباً لاحتمال قيام حكومة شرق الأردن بطلب الحماية وفقاً للمعاهدة.[67] وفي الثاني من كانون الثاني قام شرق الأردن فعلاً بطرق باب المعاهدة فتم إرسال كتيبة بريطانية إلى العقبة.[68]

كان عام (1948 م) قد بدأ مشرقاً بالنسبة لعبد الله، مع إذعان بريطانيا

لخطة شرق الأردن القاضية بإرسال الفيلق العربي إلى داخل فلسطين انسجاماً مع مشروع تقسيم الأمم المتحدة، وأملاً في إمكانية تنفيذ الأمر بأدنى حد من الأعمال القتالية. وانتهى ذلك اللقاء ببقاء جيش شرق الأردن القوة العربية الوحيدة الفاعلة فيما بقي من فلسطين العربية. غير أن مكانة شرق الأردن هذه لم تكن قد تحققت إلا مقابل ثمن باهظ. بعد أشهر من الأعمال القتالية المتقطعة، تمخضت الحرب عن تمكين إسرائيل من حيازة جميع الأراضي المشمولة بحدود الأمم المتحدة، إضافة إلى مساحات خارج تلك الحدود، في حين أن شرق الأردن كان، من جانبه، قد تعرض للضعف جراء الافتقار إلى السلاح، بسبب عزلته السياسية في العالم العربي، ونتيجة الإحساس بالإخفاق والهزيمة الذي كان لا بد في سائر الأحوال من أن يتقاسمه مع العالم العربي، رغم النجاح النسبي للجيش العربي. وهذا التباين في الوزن بين إسرائيل وشرق الأردن كان يتجاوز مجرد اختلال التوازن في قوتهما العسكرية إلى ميادين أخرى كثيرة. فإسرائيل كانت قد حصلت على اعتراف كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي؛ أما شرق الأردن فلم يكن أي من الطرفين قد اعترف به، تحت ذريعة بقائه مبالغاً في الغرق بين أحضان بريطانيا. [ومع أن الولايات المتحدة اعترفت بشرق الأردن بعد شهر واحد، فإن الاتحاد السوفيتي لم يفعل ذلك حتى عام (1955 م) ممكناً شرق الأردن، أخيراً، من دخول الأمم المتحدة]. وعندما وصلت القوات البريطانية إلى العقبة واتكال شرق الأردن على حمايتها عاد التصور إلى الذاكرة من الماضي (في العشرينيات) بتبعية شرق الأردن لبريطانيا. غير أن مدى التهديد العسكري الإسرائيلي المحتمل الآن أصبح أكبر وأوسع بكثير من خطر الغارات الوهابية في تلك الحقبة.

كان شرق الأردن بحاجة ماسة إلى الاتفاق مع إسرائيل لحماية موقعه في فلسطين، بل وحتى وحدته الإقليمية بالذات، كما أشارت المخاوف، ولكنه لم يكن متمتعاً بتفوق يمكنه من تحقيق ذلك النوع من الاتفاق القادر على

حماية مكانته الإقليمية على المدى الطويل. وبصورة خاصة بقي مصير القدس الذي طالما كان نقطة خلاف إقليمية دائمة قضية معلقة ومثار نزاع. وقد كان المستقبل محفوفاً بقدر كبير ومتزايد من الأخطار من وجهة نظر عبد الله.

11) وانطفأ الطموح

تقدم شرق الأردن حاذياً حذو مصر نحو طاولة الهدنة في آذار عام (1949 م). غير أن الاجتماعات لم تكن إلا شكلية، لأن معظم المفاوضات تمت سراً في الشونة بين عبد الله والإسرائيليين بصورة مباشرة.[1] وتلك اللقاءات التي تمت خارج إطار المراقبة شبه العلنية والإشراف الدولي كانت باهظة التكاليف. كذلك نال التنافس الشرق أردني ـ المصري قسطه المشؤوم من الأرض الفلسطينية.

كان حسم مسألة النقب أحد القضايا الرئيسية المطروحة على مفاوضات الهدنة. فقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في عام (1947 م) كان قد جعل النقب جزءاً من القسم اليهودي من فلسطين. غير أن استراتيجيين بريطانيين ما لبثوا، بعد أن كانت قوات إسرائيلية قد احتلت الجليل الغربي متحدية قرار التقسيم، أن دعوا إلى صفقة يمكنها أن تشكل الأساس المناسب لتسوية تفاوضية يتم من خلالها تمكين إسرائيل من الاحتفاظ بالجليل الغربي مقابل تخليها عن النقب جزئياً أو كلياً. وحتى شهر تشرين الأول من عام (1948 م) لم تكن القوات الإسرائيلية قد رسخت أي وجود لها إلى الجنوب من بئر السبع مما جعل مثل هذه الصفقة قابلة للتنفيذ.

وهذا النوع من التسوية كان متسماً بفضيلة إزالة التداخل بين القسمين اليهودي والعربي من فلسطين «المتضافرين في عناق عدائي مثل ثعبانين متصارعين»[2] عن طريق جعلهما، كليهما، أكثر تماسكاً. وكان من شأن ذلك أن يلبي حاجات بريطانيا الإستراتيجية عن طريق تمكين القوات

والمرافق البريطانية في منطقة القناة من الارتباط براً مع شرق الأردن. غير أن العمليات العسكرية الإسرائيلية ضد مصر في شهري تشرين الأول وكانون الأول، وعملية الزحف باتجاه العقبة في كانون الأول من عام (1948 م) كانت قد أدخلت الوحدات الإسرائيلية إلى المنطقة. لم تكن مصر، بسبب ضعفها العسكري، ولا شرق الأردن، بسبب سياسته الملتزمة بعدم القتال داخل الأجزاء اليهودية من فلسطين، حسب قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، قادرة على الدفاع عن النقب، كما لم تكن بريطانيا قادرة على التدخل عسكرياً إلى ما بعد حماية الأراضي الشرق أردنية في العقبة.

وبسبب عجز بريطانيا عن التحرك بصورة مباشرة، قامت بتشجيع حليفتيها مصر وشرق الأردن باعتماد موقف تفاوضي موحد في رودس فيما يخص النقب، ولكن العلاقات المتدهورة بين البلدين حالت دون العمل المنسق. وكان عداء مصر لعبد الله قد تنامى جراء اتهامات بأن الأخير كان قد تواطأ مع إسرائيل في هجماتها ضد القوات المصرية في النقب خلال شهري تشرين الأول وكانون الأول.[3] كما أن مصر لم تكن تريد رؤية تعاظم مكانة عبد الله، فضلاً عن أنها كانت تشعر بأن الرجل كان شديد "التقلب" وغير جدير، بالتالي، بالثقة كشريك تفاوضي. أما بالنسبة لعبد الله فقد رفض التعامل مع المصريين الذين كانوا، باعتقاده، يؤيدون الحاج أمين الحسيني ويدعمونه. وفيما كانت مصر تفاوض بشأن هدنتها مع إسرائيل ألح عبد الله، حسب ما جاء في التقارير، على الإسرائيليين طالباً منهم إعطاءه غزة بدلاً من تقديمها لمصر.[4]

مع وصول شرق الأردن إلى رودس في آذار، كانت إسرائيل قد ضمنت الحصول على الجزء الغربي من النقب من مصر، وأصبحت بالتالي في موقف أقوى إزاء شرق الأردن. وبالفعل فإن إسرائيل أرجأت عملية توقيع أية اتفاقية وقف إطلاق نار؛ كان من شأنها أن تحكم موقفي الدوليتين خلال مباحثات الهدنة، إلى حين استكمال احتلالها للنقب. ورداً على ذلك

بادرت بريطانيا إلى إرسال التعزيزات إلى العقبة لحماية منفذ شرق الأردن الوحيد على البحر.[5] وبترسيخ وجودها في النقب قامت إسرائيل عملياً بإخراج تلك البقعة من دائرة مفاوضات الهدنة، التي لم تكن مهتمة إلا بتأمين الحدود كما كانت لدى توقف القتال. وبالتالي فقد تم إرجاء بحث رغبة عبد الله في الحصول على ممر إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر النقب إلى حين التوصل إلى تسوية سلمية في المستقبل. وقد ساعدت رغبته الجامحة في الحصول على مثل هذا التعديل على دفعه إلى ما بعد مباحثات الهدنة باتجاه مفاوضات سلمية قائمة على مقايضات إقليمية.

لم يكن النقب المكان الوحيد الذي تم فيه الالتفاف على عبد الله في مفاوضات الهدنة. ففي الشمال حشدت إسرائيل قواتها على الجبهة العراقية بين جنين وطولكرم، حيث كانت وحدة من الفيلق العربي قوامها ألفان موشكة على أن تحل محل القوات العراقية المؤلفة من عشرين ألفاً. (لأسباب ذات علاقة بالاستقرار الداخلي، كان النظام العراقي قد رفض توقيع أية هدنة مع إسرائيل. وقد فضل الانسحاب من فلسطين محافظاً على حالة حرب رسمية وإن بلا معنى، على الاعتراف بالهزيمة). وفي مباحثات سرية بالشونة أبلغ الإسرائيليون عبد الله أنهم كانوا يعتبرون إبدال القوات العراقية بقوات عائدة لشرق الأردن انتهاكاً لوقف إطلاق النار، وكانوا سيردون عليه بالقوة ما لم يوافق عبد الله على التنازل عن شريط بعمق عشرة أميال على امتداد الجبهة. صحيح أن غلوب دعا عبد الله إلى (اتهام إسرائيل بالخديعة) وقام كيركبرايد بعقد المقارنات بين أفعال إسرائيل وتحركات هتلر في تشيكوسلوفاكيا، غير أن بريطانيا لم تستطع أن تتدخل، والولايات المتحدة لم تكن مستعدة للقيام بمثل هذا التدخل. وبالفعل فإن الممثل الأمريكي بعمان الذي كان قد كتب إلى وزارة الخارجية شاجباً الاستراتيجية الإسرائيلية بقوة، كان قد تم تذكيره، في الرسالة الجوابية، بمرتبته الدنيا وبلغة بالغة الحدة. وأخيراً وافق عبد الله الخائف على مصير الفيلق العربي الذي

كان ما يزال شديد الافتقار إلى الذخيرة، على التنازل عن شريط بعمق ثلاثة أميال وبطول أربعين ميلاً في الساعة الثالثة من فجر اليوم الرابع والعشرين من آذار لحظة انتهاء مدة الإنذار الإسرائيلي. وكنوع من المعاملة بالمثل تمت الموافقة على تسوية المشكلات الحدودية في منطقة الخليل بما كان من شأنه أن يفضي إلى تمكين شرق الأردن من تحقيق مكسب صغير على صعيد الأرض، ولكن هذا لم يؤد بأي شكل من الأشكال إلى التعويض عن فقدان منطقة طولكرم ـ جنين الذي أثر سلباً على ست عشرة قرية وخمس وثلاثين ألفاً من السكان.(6)

ما إن تم إعلان شروط الهدنة حتى تفجرت التظاهرات في الضفة الغربية، وقد أحس القرويون والفلاحون الذين بقيت أراضيهم فجأة في الجانب الإسرائيلي من الحدود بمرارة استثنائية خاصة. أنكروا على عبد الله حق التفاوض بشأن أرض ليست له، وهي الأرض التي حرصوا على حمايتها خلال الحرب، وقد حاولوا، عبثاً إعادة النظر في الهدنة. وما لبثوا أن توصلوا إلى استنتاج يقول بأن عبد الله كان أكثر حرصاً على الاتفاق مع إسرائيل منه على رخائهم هم، واتهموا وفد شرق الأردن في مباحثات الهدنة بعدم الكفاءة في تقنيات قراءة الخرائط. وكانت وجهات نظر المراقبين البريطانيين والأمريكيين متفقة. فقد علق جو براون، نيابة عن القنصل العام البريطاني في القدس، متحدثاً عن (انطباع الغباء والاستهتار العام) الذي تركه الشرق أردنيون، كما قال مارك إيثريدج، العضو الأمريكي في هيئة المصالحة الفلسطينية، إن مهمته الصعبة أساساً أصبحت أكثر صعوبة جراء (قيام عبد الله ببيع كل شيء في الحوزة).(7)

تمثلت الحصيلة الصافية للهدنة بخسارة المزيد من الأرض، والتسبب في أعداد أكبر من اللاجئين. وكذلك فإن الهدنة ألزمت شرق الأردن بحراسة الحدود بين إسرائيل والضفة الغربية التي كان بعض أهلها الجدد يجهدون لعبورها في سبيل استعادة ممتلكاتهم المهجورة وزراعة أراضيهم، فيما كان

بعضهم الآخر يأملون في متابعة النضال ضد إسرائيل. وهكذا فقد بدا عبد اللهُ وحكومة شرق الأردن ضد مصالح الفلسطينيين المتروكين تحت رعايتهما.

شكلت الهدنة ضربة قاسية لعملية تعزيز مكانة عبد الله في فلسطين. غير أن الأنظار تحولت عنه بعض الشيء جراء الانقلاب العسكري الذي تم في سورية في الحادي والثلاثين من آذار عام (1949 م) والذي أزاح عن الحكم خصمه اللدود في دمشق منذ أمد طويل شكري القوتلي، لصالح نظام عسكري بقيادة العقيد حسني الزعيم. وعلى الرغم من أن هذا الحدث الدال على عدم الاستقرار الداخلي[8] أعاد إيقاظ اهتمامه بسورية، فإن الانقلاب أدى إلى إبراز الأخطار المتوقعة في المستقبل بوضوح شديد. ساهم، مثلاً، في إشاعة الفكرة القائلة بأن العسكريين قد يكونون على صعيد الحكم أفضل من المدنيين الذين كانوا قد اضطلعوا بمهمة رئاسة عملية ضياع فلسطين. وقد قيل إن مثل هذا الكلام انتشر بين صفوف الفيلق العربي عن طريق الوحدات العسكرية العراقية وفلسطينيين ساخطين. وفي غضون شهر واحد بعد انقلاب الزعيم الناجح طغت إشاعات عن انقلاب وشيك ضد عبد الله يجري تدبيره من قبل عرب الضفة الغربية، بالتواطؤ مع بعض عناصر الفيلق العربي طاغية. وقد تم وزن وتقويم هذه الشائعات بكثير من الحرص والعناية في كل من عمان ولندن، وجرى اتخاذ تدابير عسكرية وقائية، عن طريق نشر الكتائب البدوية الخاضعة لقيادات بريطانية من الفيلق العربي التي كانت تعتبر موالية في المواقع المناسبة.[9]

ونظراً لأنه كان قد مُنع من ضم فلسطين العربية بصورة مباشرة خلال مؤتمر أريحا؛ فإن عبد الله بادر إلى اعتماد ما بات يعرف منذ ذلك الوقت باسم سياسة «الضم الزاحف»[10] التي كانت قائمة على عملية تغيير سياسي واقتصادي تؤدي إلى توسيع دائرة إدارته ونفوذه، عبر سائر أرجاء فلسطين الخاضعة لاحتلال شرق الأردن، عن طريق تعيين مؤيديه وأنصاره في

المناصب الحساسة وخنق الأصوات والتنظيمات السياسية المستقلة. وقد دأب عبد الله على استخدام الصلاحيات التي كان يتمتع بها في فلسطين لمكافأة الأصدقاء القدامى بدلاً من كسب أصدقاء جدد. وبما أن مؤيديه في فلسطين لم يكونوا على الدوام سوى حفنة أقلية صغيرة، فإن جهازه الإداري كان هزيلاً وضيقاً من البداية، وهذا الجهاز تم إيجاده لفرض إرادته على فلسطين، لا من أجل تطوير واستحداث قواعد تأييد جيدة في إطار الظروف المتغيرة للسياسة الفلسطينية.

ونتيجة لجملة هذه التدابير، بالإضافة إلى غياب البدائل، والفوضى الملازمة للحرب وما ترتب عليها من اقتلاع للسكان، زاد إدراك الفلسطينيين لحتمية الخضوع لحكم عبد الله. غير أن الحتمية لم تجعل الفكرة أكثر جاذبية. فالفلسطينيون وهم أكثر تعليماً وتطوراً من أكثرية أهالي شرق الأردن بصورة عامة، كانوا ينظرون إلى عبد الله ووزرائه "رعاة الماعز" نظرة احتقار وازدراء. ومثلهم مثل بعض الأردنيين كانوا عموماً يعتبرونه مستبداً، ويرون حكمه حكماً فردياً متطرفاً. وقد أدى الاستبعاد المنهجي من الأجهزة لمؤيدي الحاج أمين الحسيني السابقين إلى تأكيد مخاوفهم، وتأييد الانقسامات العميقة بين صفوفهم. وفي غياب حرية الاختيار فيما يخص مستقبلهم اضطر الفلسطينيون للانحناء أمام ما هو محتوم باستياء ونفور لم يكونا خافيين على أحد.

كان عبد الله آملاً في تحقيق المحتوم بسرعة، بمعنى رمزي، عن طرق التشريع لنوع من التوحيد اللغوي للهوية. بات استخدام الأردن بدلاً من شرق الأردن، وكان قد ظهر للمرة الأولى في دستور (1947 م) معتمداً في الوثائق البريطانية بعد الهدنة. أما عبارتا فلسطيني وشرق أردني تم التشجيع على نبذهما، حتى جرى أخيراً حظرهما في المعاملات الرسمية قبيل انتخابات (1950 م) في مسعى كان يهدف إلى صياغة هوية أردنية واحدة. وتقرر الحديث، من ذلك التاريخ وصاعداً، عن جزأي المملكة بوصفهما

الضفة الشرقية والضفة الغربية.[11] لقد كان ذلك تغييراً في الأسماء لم يكتب له أي نجاح. صحيح أن الأردن حل بسهولة محل شرق الأردن الثقيل على اللسان والأذن، ولكن الفلسطينيين ظلوا يُعتَبَرون ويعتبرون أنفسهم فلسطينيين. ما لبثت عبارة الضفة الغربية أن أصبحت عبارة للتمييز، في حين بقيت عبارة الضفة الشرقية، رغم استخدامها في الدوائر الرسمية، عاجزة عن التوغل الفعلي في القاموس الشعبي. وبالفعل فإن الجمهور لم يكن يتحدث إلا عن "الضفة" بمعنى الضفة الغربية باعتبار تحديد الجهة أمراً زائداً وغير ضروري. (ومن الآن يتم استخدام عبارة شرق الأردن للدلالة حصراً على المنطقة الأردنية الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن.)

ربما كان الخضوع لحكم الأردن أمراً محتوماً، ولكن التخلي عن الهوية لم يكن سهلاً. فقد استمر الفلسطينيون يرون أنفسهم فلسطينيين، ومن المفارقات الساخرة أن سياسات عبد الله الاقتصادية القائمة على التمييز، فضلاً عن ضرورة تنظيم إغاثة الأكثرية التي باتت الآن بائسة كانت هي الأخرى تقضي بالنظر إليهم بوصفهم فلسطينيين.

استمرت عمليات طرد الفلسطينيين من إسرائيل خلال عام (1949 م)[12] ولكن التحرك الجماهيري الكثيف للاجئين كان، مع الهدنة، قد تباطأ فبات تقويم أعدادهم وحاجاتهم بقدر أكبر من الدقة أمراً ممكناً. ففي أيار من عام (1949 م) قدر صندوق طوارئ الأطفال التابع للأمم المتحدة العدد الإجمالي للاجئين الحاصلين على الإغاثة في كل من شرق الأردن وفلسطين العربية بـ (518488) نسمة. وكان حوالي مئة ألف من هؤلاء في شرق الأردن بالذات، في حين كان الباقون في الضفة الغربية.[13] (تباينت الأعداد في الأشهر اللاحقة بمقدار عشرين ألفاً جراء التنقلات المستمرة للسكان، ونتيجة نجاح البعض في العثور على أسباب معيشة مكنتهم من شطب أسمائهم من سجلات الإغاثة).[14] استقر اللاجئون بين (433000) نسمة من سكان الضفة الغربية الأصليين و(476000) نسمة من أهالي شرق الأردن. كانوا

مبعثرين في مختلف أرجاء الضفة الغربية وكانت أكبر تجمعاتهم في بلدات الخليل ورام الله ونابلس وحولها أو قريباً منها، في حين كانت الأعداد الأكبر في شرق الأردن متركزة في إربد في الشمال، وفي عمان التي تضخم حجم سكانها ليصبح (120000م) مع حلول تشرين الأول من عام (1950 م) بعد أن كان (50000) بداية عام (1948 م) وفي وادي الأردن في مكان قريب من مقر إقامة عبد الله الشتوي في الشونة.[15]

كان شرق الأردن من البداية قد وفر الخبز للمعوزين، منفقاً مبلغاً من المال ما يصل إلى حوالي ثمانية آلاف جنيه في اليوم.[16] وما لبث هذا المبلغ، وقد كان عبئاً ثقيلاً على ميزانية شرق الأردن المتواضعة، أن ارتفع مع قيام شرق الأردن بتوسيع وجوده في فلسطين، جراء ضمه لمناطق كانت من قبل تدار من قبل العراق ومصر، ومع تزايد أعداد اللاجئين. فمع حلول خريف عام (1948 م) قدر كيركبرايد أن شرق الأردن كان ينفق مبلغ أربعين ألفاً من الجنيهات في الشهر.[17] ولكن هذا المبلغ، رغم تشكيله عبئاً ثقيلاً جداً على الموازنة الشرق أردنية، كان هزيلاً بالمقارنة مع حاجات اللاجئين الذين «ما لبثت بطالتهم القسرية وآفاق استخدامهم المسدودة المصحوبة بالقلق والخوف من المستقبل، ومن إمكانية استمرار المساعدات المحلية أن تمخضت عن قدر متزايد من الاضطراب، وعدم الارتياح وعن تنامي السخط والاستياء».[18] وقد جرى التخفيف من وطأة الوضع بعض الشيء حين أقدم صندوق إغاثة ضحايا الكوارث التابع للأمم المتحدة على الاضطلاع بالمهمة في تشرين الثاني من عام (1948 م)، وراح يقدم معونة بسيطة إلى أن أصبحت وكالة الغوث والتشغيل الدولية التي تم إيجادها حديثاً قادرة على الاضطلاع بمهمة الإغاثة والتوطين في أيار من عام (1950 م).

على الرغم من مساعدة الأمم المتحدة لم تكن الآفاق الاقتصادية بالنسبة لشرق الأردن والضفة الغربية مشجعة، نتيجة الكثافة السكانية العالية في

الضفة الغربية، ومحدودية الأرض الزراعية، وندرة المياه في كل مكان. وقد شكل فقدان الساحل الفلسطيني بوصفه سوقاً للمنتجات الزراعية والمنفذ الأقرب على البحر الأبيض المتوسط سبباً إضافياً للتشاؤم. ولكن بعثة المسح الاقتصادي الدولية (بعثة كلاب) التي كانت أواخر عام (1949 م) شعرت بأن آفاق التنمية الاقتصادية بالنسبة لشرق الأردن والضفة الغربية لم تكن بالغة السوء على المدى الطويل، شرط قيام الأردن وإسرائيل بصورة مشتركة بتطوير حوض الأردن واستغلاله،[19] ولكن أساساً ذا شأن لأي تفاؤل لم يبد موجوداً في غياب مثل هذا المشروع الذي لم يتحقق قط على أرض الواقع. (ومع ذلك فإن كيركبرايد ظل مفعماً بالأمل نتيجة إيمانه بأن «الأمر لم يكن مستحيلاً بالنسبة لبلد شرقي...» على الرغم من «أن الوضع الاقتصادي وخصوصاً ميزان المدفوعات في الأردن لم يكن ينطوي على أي معنى بالمعايير الغربية الاعتيادية...».[20]

حقق بعض أهالي شرق الأردن ازدهاراً في ظروف الأزمة. فقد ارتفعت أسعار الأرض ارتفاعاً جنونياً، وخصوصاً في العقارات الحضرية. وقد أبدت زوج عبد الله الثالثة، ناهدة، التي كانت تملك أسهماً في شركة النقل الشرق أردنية - العراقية استعداداً للمساعدة في تسهيل مرور اليهود العراقيين المتوجهين إلى إسرائيل عبر شرق الأردن مقابل ثمن.[21] أما أكثرية الفلسطينيين، بصرف النظر عن أوضاعهم السابقة، فقد كانت الآن بالمقابل، في حالة من البؤس والعوز.

ليس ثمة أي مسح عام لأسباب المعيشة أو المهن السابقة للفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم تحت رحمة الرعاية الأردنية. كان البعض ميسورون ولذا لم يبادروا إلى تسجيل أسماءهم في قوائم الإغاثة التي شكلت أساس تدوين عدد اللاجئين؛ فالرساميل المحمولة من البنوك الفلسطينية إلى شرق الأردن قاربت مبلغ عشرة ملايين جنيه، فيما بات الآن يعرف باسم إسرائيل حتى عام (1956 م) أو بعده. غير أن ثلثي ممتلكات اللاجئين الفلسطينيين

كانت أرضاً وممتلكات غير قابلة للنقل، وبالتالي فقد فقدت إلى غير رجعة، على الرغم من أن بعض الفلسطينيين ظلوا لبعض الوقت يأملون بالتعويض.[22]

يبدي كشف مخيمات اللاجئين في الزرقاء الموجود لدى الآنسة كوتس (منظمة المخيمات) صورة عن مهن معيلي أسر اللاجئين على النحو التالي:[23] «وهي نتاج حديث مع النساء خاصة لأن معظم الرجال، إما قتلوا في الحرب، أو كانوا أسرى أو هائمين على وجوههم بحثاً عن العمل في أماكن أخرى»

المهنة	العدد	النسبة المئوية
الزراعة	259	285
الوظائف الحكومية والتجارة	115	12.6
البناء	100	110
الخدمات العامة	90	9.9
بيع المواد الغذائية	84	92
باعة متجولون	82	90
تجارة الآليات	72	79
حرفيون	66	73
آخرون	41	4.6

يظهر الجدول أن المهنة الوحيدة الأوسع انتشاراً كانت الزراعة. وكان ذلك حتى بين اللاجئين القادمين من المدن ـ فأسر مخيم الزرقاء جاءت من يافا والرملة واللد وما حولها من قرى. لقد كان نمط العمل الزراعي بالإضافة إلى مجموعة ثانية من المهن وهي الوظائف الحكومية والتجارة من المجالات

التي كان يستحيل مزاولتها مجدداً وذلك لأن الزراعة صارت تعاني الآن من نقص في الأرض والماء، ولأن حكومة عمان كانت في السنوات التي أعقبت عام (1948 م) تفضل أهالي شرق الأردن على الفلسطينيين في ميدان الاستخدام في الوظائف الحكومية.

ما لبثت خيبة الفلسطينيين الاقتصادية في شرق الأردن والضفة الغربية أن عمقت استياءهم السياسي، الذي بات ميالاً بالمثل إلى التركيز على شخص عبد الله، الذي أدت سياساته الاقتصادية إلى مضاعفة حدة مشاعر الضياع والانسلاخ عن الأرض والغربة بين صفوف الفلسطينيين، على الرغم من أنه لم يكن مسؤولاً عن الموارد الاقتصادية المحدودة لكل من شرق الأردن والضفة الغربية كما لم يكن قادراً على أن يفعل شيئاً بشأنها. كانت خطط التنمية وإمكانيات توفير القروض تفضل شرق الأردن وأهله؛ فالبلدات الشرق أردنية الصغيرة وذات الكثافة السكانية المتدنية حصلت على ميزانيات بلدية مساوية لنظيرتها ذوات الكثافة السكانية العالية في الضفة الغربية.[24] وبصورة عامة لم يكن التجار الفلسطينيون يستطيعون الحصول على إجازات الاستيراد، على الرغم من مبلغ الملايين العشرة من الجنيهات الذي جلبه الفلسطينيون، فضاعفوا به حجم كتلة الأموال المتوافرة في شرق الأردن.

وفي ترقب منها لعملية الدمج اللاحقة بين شرق الأردن وفلسطين العربية مع إحساسها الحاد بـ «ضرورة تغليف حبة الدواء الشرق أردنية بطبقة من السكر»[25] قررت بريطانيا، بهدف تحسين الأوضاع الاقتصادية، إقراض الأردن مبلغ مليون من الجنيهات، كمساعدة تنموية لتوطين اللاجئين على أساس أكثر دواماً من برامج الإغاثة المعتمدة حتى ذلك الوقت. كان الأمل معقوداً على أن من شأن التنمية الاقتصادية، إذا ما تم استخدام القرض كأساس، أن تجلب معها فوائد سياسية. غير أن القرض ما لبث أن تمخض عن نتائج مناقضة للنوايا البريطانية، لأن إنفاقه استهدف شرق الأردن بصورة

شبه كاملة، لافتاً الأنظار إلى إهمال الأردن للضفة الغربية. فبعد عامين من الموافقة على خطط إنفاقه اعترف أحد التقارير بأن «القرض البريطاني.. الممنوح أساساً لإعادة توطين اللاجئين لم يقم بعد بتوطين أي لاجئ بصورة مباشرة من حيث السكن أو الاستخدام».[26] وبدلاً من ذلك فإن المال كان قد تم إنفاقه في المقام الأول على شق الطرق في شرق الأردن، الذي وفر عملاً مؤقتاً لحوالي ثلاثة آلاف عامل في أحسن الأحوال. والأسوأ من ذلك هو أن الطرق التي شقت كانت قد أدت إلى تبديد أموال كان من الممكن إنفاقها بشكل أفضل في مجالات أخرى؛ وقد اعتبرها مدير الأراضي والمساحة جورج والبول ذات تكاليف فاقت حدودها بعشرات الآلاف من الجنيهات.[27] وعلق أحد الفلسطينيين على ندرة الخطط والأموال المكرسة لتنمية الضفة الغربية بكثير من المرارة قائلاً: «إن الشيء الوحيد الذي سمحوا بتطويره هو النشاط السياحي لأنهم لم يستطيعوا نقل القدس».[28]

كذلك فإن السياسات التجارية الأردنية، لم تبدأ بتخفيف قيود الجغرافية السياسية الصارمة، التي باتت تضع القدس والضفة الغربية في نهاية الخط التمويني البادئ ببيروت والملتف دائرياً عبر عمان. وكانت السياسات التجارية الصادرة عن عمان في صالح عصابة من تجار عمان، وتعمل ضد التجار والمستهلكين في مدن وبلدات الضفة الغربية. لم يكن لدى شرق الأردن، وهو صاحب اقتصاد أصغر كثيراً من اقتصاد فلسطين ما قبل الحرب، إلا موارد محدودة من العملة الصعبة؛ وبالتالي فإن الاستيراد تم إخضاعه لنظام إصدار الإجازات الذي يعمل لصالح عمان. وقد أدى هذا إلى إجبار التجار في الضفة الغربية على العمل من خلال مستوردين في عمان، مما رفع أسعار السلع المستوردة في الضفة الغربية بنسبة (25٪) بالمقارنة مع نظيراتها في عمان. وفي الوقت نفسه تعرضت أسعار البضائع الفلسطينية، وهي منتجات زراعية قابلة للتلف بشكل رئيسي مثل: زيت الزيتون والصابون للانخفاض. فالاتجار بهذه البضائع بات يرواح بين الركود

والجمود الكامل، بعد انعزال التجار عن الأسواق العادية التي صارت داخل إسرائيل، وعن الأسواق البعيدة عبر موانئ البحر الأبيض المتوسط القريبة. أما تجار عمان فقد حققوا ازدهاراً كبيراً في الاتجاهين، إذ عملوا وسطاءاً لدى مستوردي الضفة من جهة وبين المنتجين الفلسطينيين والأسواق العربية من جهة ثانية.

غير أن التجار الفلسطينيين استطاعوا أن ينظموا أنفسهم في إطار رابطة غرف التجارة الفلسطينية العربية، وفازوا في عام (1950 م) بنصف مجموع الأموال المتوافرة. ومع ذلك فإن انتشار إجازات الاستيراد لم يعن آخر المطاف أي توسيع أو تنويع للتجارة في الضفة الغربية؛ فإجازات الاستيراد هذه ما لبثت، هي ذاتها، أن أصبحت سلع يبيعها صغار التجار إلى كبارهم مقابل ربح يبلغ عشرة بالمئة.[29] وهكذا فإن مدن الضفة الغربية تدهورت نتيجة الخلافات السياسية المستعصية مع إسرائيل، وهو الأمر الذي أدى إلى التشدد في حماية الحدود، والخوف من النزعة التوسعية الإسرائيلية. لذا ما لبثت هذه المدن أن أصبحت مدناً هامشية معزولة بالمقارنة مع عمان المزدهرة. وقام الفلسطينيون، لأسباب مالية وإن لم يكن بدوافع سياسية، بتوظيف رساميلهم في ميادين الأعمال والبناء فيما وراء النهر في شرق الأردن بدلاً من توظيفها في الضفة الغربية.

أثر الحرمان الاقتصادي على الحياة السياسية في اتجاهين متناقضين. أدى، أولاً، دون أدنى شك، إلى تعميق وتعزيز المعارضة والاستياء السياسيين تجاه عبد الله؛ غير أنه تمخض ثانياً، عن فرض قدر من الإذعان السياسي على أولئك الذين كانت حياتهم اليومية وأسباب معيشتهم قد تعرضت للانهيار الكامل بين عشية وضحاها، والذين أصبحوا، بالتالي، معتمدين في حياتهم على ما تجود به الحكومة عليهم. وحكومة عبد الله لم تهمل تقديم مكافآت معينة للفلسطينيين الذين كانوا يؤيدونها؛ فمثلاً ثمة برنامج رهن زراعي تم إطلاقه في عام (1950 م)، كان مع حلول عام (1954 م) قد منح قروضاً

زادت عن ثلاثة ملايين من الدنانير، ذهبت بأكثريتها إلى ملاك الأراضي الموالين للأسرة الهاشمية في الضفة الغربية.[30] فهذا التدبير مع تدابير أخرى مشابهة ساعدت عبد الله على تعزيز مواقع مجموعة ملاك الأراضي والأعيان التي شكلت نواة الجبهة المؤيدة للهاشميين في الضفة الغربية.

على الرغم من أن تدابير عبد الله على الصعيدين اللغوي والاقتصادي لم تحقق إلا قدراً ملتبساً من النجاح، بل وكانت، أحياناً، تتعامل مع أهداف متنافرة، فإن عملية "الضم الزاحف"، على الصعيد القانوني، حافظت على سرعتها. وقد كانت المعالم الرئيسية على هذا الطريق تتمثل بخطوات هي: منح الجنسية الأردنية لجميع الفلسطينيين العرب في شباط من عام (1949 م)، استبدال الحكم العسكري في آذار بحكم مدني مسؤول أمام الوزارات ذات العلاقة في عمان، بتعيين ثلاثة وزراء فلسطينيين في الحكومة في أيار، وبالمبادرة أخيراً، في كانون الأول من عام (1949 م) بعد مؤتمر أريحا بعام واحد، إلى إصدار قانون تولى عبد الله بموجبه جميع الصلاحيات والسلطات التي كانت سلطة الانتداب في فلسطين تتمتع بها من قبل. وعلى الصعيد العملي فإن هذا القانون كان يعني أن عبد الله كان قد اضطلع بجميع مسؤوليات الحكم في الضفة الغربية. ومع ذلك فقد تقرر عدم إصدار بيان رسمي إلى أن تتوفر إمكانية عقد انتخابات برلمانية في الضفتين الشرقية والغربية كلتيهما. كانت الفكرة تقول بأن من شأن الانتخابات أن تضفي نوعاً من التفويض الشعبي على عملية الضم وبأن الفلسطينيين، بعد مشاركتهم في اقتراح ترتيبات حكم جديدة، سيكونون أقل نزوعاً إلى الرغبة في رؤية تلك الترتيبات وهي تخفق. تقرر إجراء الانتخابات في آذار من عام (1950 م). وتمهيداً لها تم اعتبار جميع الفلسطينيين الخاضعين للحكم الأردني مواطنين أردنيين بصورة آلية، نظراً لأن المنح السابق للجنسية الأردنية لم يكن، في معظم الأحوال، قد قوبل بأي رد إيجابي.

كان الفلسطينيون في الضفتين قد بدؤوا، في تلك الأثناء، يتآلفون مع فكرة الخضوع لحكم عبد الله، للسبب البسيط الكامن في عدم وجود أي خيار آخر قابل للتنفيذ. فالعديد من صفوف النخبة الحاكمة من أعيان المدن وملاك الأراضي كانوا قد نقلوا ولاءهم إلى عبد الله بعد مؤتمر أريحا وهزيمة مصر. أما أولئك الذين استمروا في تأييد قيام دولة فلسطينية مستقلة أو في دعم الحاج أمين الحسيني من بين أعضاء النخبة فقد تم منعهم، بأكثريتهم، من دخول المناطق الخاضعة للسيطرة الأردنية.

ورغم التحول إلى الحكم المدني، استمر الفيلق العربي في احتلاله للضفة الغربية وكان، بالتالي، قادراً على لجم المعارضة قبل الانتخابات وخلالها. ولدى حلول موعد الانتخابات كان الحزب السياسي الوحيد في الساحة هو الحزب (الليبرالي) المؤيد لعبد الله (حزب الأحرار)، الذي اتحد مع حزب النهضة الشرق أردني انسجاماً مع سياسة عبد الله العامة القائمة على دمج الكتلتين السكانيتين، وعلى عدم التشجيع على التنظيم السياسي حول قضايا فلسطينية (أو شرق أردنية) بصورة دقيقة ومحددة.

كانت نظرة أكثرية الفلسطينيين إلى عبد الله قائمة على نوع من الريبة المشؤومة. وقد علق كيركبرايد قائلاً: إنهم كانوا بأكثريتهم سيردون بـ (لا) لو سئلوا عما إذا كانوا يريدون أن يكونوا مستقلين، أو أن يصبحوا رعايا خاضعين لحكم الملك عبد الله، أو أن يقبلوا بحكم إسرائيل.[31] وفي غياب أي أخبار في المسألة، أذعنوا لحكم عبد الله، ولكنهم لم يفعلوا ذلك مجاملة أو انطلاقاً من أية نوايا طيبة بالضرورة. وفي حين أنهم بدوا متجاوبين مع زيارات عبد الله التي زاد تكرارها، فإن عداءً مقيماً وراسخاً كان يكمن تحت قشرة المظاهر. وكما بين أحد الفلسطينيين للقنصل الأمريكي في القدس فإن «الموظفين والأعيان والناس يتسابقون على تقبيل يد جلالته، في حين أن العديد منهم يفضلون كسرها».[32] وثمة مراقب بريطاني وصف باشمئزاز، واقفاً فوق أعالي قمم الاستقامة الأخلاقية والتفوق العنصري،

كيفية قيام الفلسطينيين من سائر الطبقات «بحملة بشعة باعثة على الاشمئزاز للقائه، ورؤيته، والتهليل والتصفيق له، ولإغراقه بالمدائح والاطراءات الزاهية، لا لشيء إلا ليعبروا عن كرههم الشديد له فور عودتهم إلى منازلهم. من المؤكد أن هؤلاء الناس يعرفون من أين تؤكل الكتف».[33]

لم تتأثر أكثرية الحسابات البريطانية بجملة هذه التيارات التحتية من العداء الذي درج كيركبرايد، رغم إدراكه لمدى معارضة الفلسطينيين لعبد الله، على الاستخفاف بها عازياً إياها إلى محرضين خارجيين، أو إلى شخصية العربي الفلسطيني «المعروف بإدمانه على عادة التذمر الصارخ».[34] فبرأيه لم يكن المطلوب لعلاج الاستياء الفلسطيني إلا المزيد من النظام والضبط؛ وكلما بدا الفلسطينيون أكثر تمرداً وعناداً زاد كيركبرايد من إصراره على الوحدة مع شرق الأردن سبيلاً لحسم الجدل الداخلي حول مستقبل فلسطين مرة وإلى الأبد.

أما في لندن فقد تركزت المخاوف الرئيسية على علاقات عبد الله مع غيره من القادة العرب وعلى وضع الأردن في العالم العربي. وقد كانت هذه المخاوف هي النتاج الطبيعي لرغبة بريطانيا في الحفاظ على مكانتها هي في المنطقة، مع بقاء تطلعات الفلسطينيين ذات أهمية ثانوية.وحين قام عبد الله بزيارة لندن في آب من عام (1949 م) طمأنته وزارة الخارجية حول تأييد بريطانيا لعملية إدماج فلسطين العربية بشرق الأردن. وقد كانت الحسابات البريطانية، منذ مؤتمر أريحا في كانون الأول السابق، قد تغيرت تغيراً جذرياً لصالح عبد الله. فقد باتت بريطانيا تشعر أن من شأن التوحيد أن يجعل احتمال أي هجوم إسرائيلي أقل، لا أكثر، نسبة أن يحصل وأن التوحيد سيضع حداً للاتجاهات الراهنة المطالبة بالاستقلال بين الفلسطينيين، وأن يوفر منطلقاً ثابتاً وصلباً للحل النهائي للنزاع الفلسطيني، بدلاً من أن يكون هو نفسه معتمداً على تسوية شاملة. وكذلك فإن رفع الحظر الدولي عن توريد الأسلحة واستئناف شحنات الأسلحة في آب من عام (1949 م) أدى

إلى توافر إمكانية زيادة الثقة بقدرة الفيلق العربي على حماية نفسه والأراضي الخاضعة لسيطرته. غير أن الأمريكيين ظلوا معلقين أهمية على مبدأ التعويض الإقليمي، واستمروا يعتقدون بأن إسرائيل قد تتنازل حول هذه النقطة. وبالتالي فقد تم تقديم النصيحة لعبد الله بأن ينأى بنفسه لفترة إضافية.(35)

ما لبثت الآمال الأمريكية المعلقة على التسويات الإقليمية أن تبددت خلال خريف عام (1949 م) في ضوء التشدد الإسرائيلي المطّرد. ومع حلول شهر كانون الأول باتت الولايات المتحدة وبريطانيا، كلتاهما، مستعدتين للموافقة على عملية الدمج، وتم إطلاق عمليات التمهيد للانتخابات التي كانت ستفتح الطريق أمام الإعلان النهائي والرسمي للتوحيد. جرى إعداد قوائم المقترعين الذكور ممن بلغوا الثامنة عشرة في شهر كانون الثاني. وكانت الضفتان الغربية والشرقية متساويتين من حيث عدد المسجلين في القوائم الانتخابية، على الرغم من أن سكان الضفة الغربية كانوا ضعف سكان الضفة الشرقية.(36)

ساد عمان نوع من الخوف من أن الفلسطينيين كانوا سيقاطعون الانتخابات. ولتشجيعهم على المشاركة أقدم عبد الله على الخطوة غير المسبوقة المتمثلة بالإعلان عن أن الدستور كان، بعد اجتماع البرلمان الجديد، سيتم تعديله بما يجعل مجلس الوزراء مسؤولاً أمام البرلمان، بدلاً من أن يبقى على حاله مسؤولاً أمامه هو. وقد كان ذلك تدبيراً دأب أهالي شرق الأردن على الإلحاح في المطالبة به منذ الانتخابات الأولى في شرق الأردن في عام (1982 م). وشكل ظهوره بمظهر المستعد لأن يخطو هذه الخطوة حدثاً يبشر بتغييرات قادمة على الطريق. أما الحصيلة غير السارة، بالنسبة لعبد الله، لهذه الدائرة الموسعة فقد تمثلت بتوازن داخلي أكثر زئبقية إذ لم يعد مضموناً أن يرجح دائماً لصالحه كما في السابق، ولذلك بات هذا الوضع يتطلب قدراً أكبر من الاهتمام.

جرت الانتخابات في نيسان. كان التنافس في الضفة الغربية بين مؤيدي عبد الله ومعارضيه الذين كانوا قد قرروا أن عليهم استخدام ا لمؤسسات السياسية المتوفرة لإسماع أصواتهم؛ طالما أن الوحدة مع شرق الأردن كانت حتمية. وعلى الرغم من وجود اتهامات بأن الممارسات الانتخابية جاءت لصالح مرشحي عبد الله، فإن مرشحين معارضين تم انتخابهم في بعض الأماكن، مما جعل البرلمان الجديد أقل تبعية من مجلس النواب القديم في شرق الأردن. تم انتخاب عشرين مندوباً من كل من ضفتي النهر. وقد كان الفرق بين مجموعتي النواب ملحوظاً. فمن شرق الأردن كانت فئة الإقطاعيين هي الأكبر، إذ ضمت المجموعة اثني عشر إقطاعياً، وخمسة مهنيين (موظفان، محاميان، وطبيب أسنان واحد) وتاجرين. أما في الضفة الغربية فلم يتجاوز عدد الإقطاعيين بالدرجة الأولى السبعة، في حين اعتبر اثنان من أصحاب الأراضي تجار أيضاً. كان أكثرية أولئك الذين انتخبوا في الضفة الغربية من المهنيين ذوي المستوى التعليمي العالي - من المحامين والموظفين ومعلمي المدارس والصحفيين والأطباء. ومن بين هؤلاء كان اثنان من أعضاء حزب البعث العربي المحظور، وثلاثة على الأقل من نشطاء القوميين الذين كانوا فيما مضى متعاطفين مع الحسينيين.[37]

افتتح البرلمان يوم الرابع والعشرين من نيسان عام (1950 م). وكما كان مخططاً،[38] بادرت في اليوم التالي مجموعة من النواب الفلسطينيين إلى تقديم اقتراح يقضي بتوحيد (ضفتي الأردن)، تمت الموافقة عليه بالإجماع. اعترفت بريطانيا بعملية التوحيد بعد ثلاثة أيام. ألحت الجامعة العربية علي عبد الله طالبة منه إصدار بيان يعلن فيه أن إدارته للضفة الغربية لم تكن إلا مؤقتة (حفاظاً على مبدأ وجود دولة اسمها فلسطين يتمتع أهلها بحقوق معينة)، غير أنها (الجامعة العربية) لم تصل إلى حدود التهديد بطرد الأردن في حال امتناعه عن تنفيذ المطلوب.[39]

كان أساس شعور المعارضة العربية لرغبة عبد الله في ضم الضفة الغربية

إلى شرق الأردن قائماً على خوف حقيقي بأنه لم يكن ليستطيع تحقيق مثل هذه الرغبة إلا بالاتفاق مع إسرائيل. وقد كان مثل هذا التسليم السهل والفوري بزوال فلسطين قبول الحرمان الهائل لأحد الشعوب العربية ينطوي على مضاعفات بالغة الخطورة بالنسبة إلى جميع الدول العربية. فقد كان من شأنه أن يلقي بظلال الشك على العلاقات المتوترة أصلاً بين الحكام والمحكومين في العالم العربي، وأن يشكل انتهاكاً صارخاً لمبادئ القومية العربية التي دأبت جميع الأنظمة العربية، ولو إلى حدود معينة، على بناء مشروعيتها عليها. لم يكن هذا يعني نفي وجود أية لقاءات بين العرب والإسرائيليين ـ فمثل هذه اللقاءات كانت موجودة ومتكررة تكرراً مدهشاً ـ إلا أن الدول العربية الأخرى التي سبق لها أن بالغت في المراهنة على شعارات القومية العربية، لم تكن تستطيع أو تريد أن تتنازل عن مبدأ الحقوق الوطنية للفلسطينيين. لقد تباحثت مع إسرائيل لضمان حدودها الخاصة دون المساومة علناً على هوية الفلسطينيين وحقوقهم. فحتى مصر التي احتفظت بقطاع غزة بموجب اتفاقية الهدنة مع إسرائيل فعلت ما فعلته دون أي مساس واضح بمستقبل فلسطين. وبالتالي فإن أكثر المواقف العربية حرصت، نظرياً على الأقل، على عدم المساس بالحقوق الفلسطينية، مضمرة استمرار الصراع مع إسرائيل، على الصعيدين الدبلوماسي والاقتصادي، إن لم يكن على المستوى العسكري، حتى تبادر إسرائيل أيضاً، بطريقة أو أخرى، إلى الاعتراف بتلك الحقوق. غير أن تلك الحقوق بالذات هي التي كان عبد الله تواقاً إلى التنازل عنها، لأن طموحاته كانت تتطلب بالتأكيد، مثلها مثل الأهداف الصهيونية، زوال فلسطين من الوجود.

ما لبثت عملية إضافة الضفة الغربية إلى شرق الأردن، وما يقرب من مليون فلسطيني إلى سكان شرق الأردن البالغ تعدادهم (476000) نسمة أن فعلت أشياء غريبة فيما يخص التشكيل الداخلي لسلطة عبد الله. كان اقتراح التوحيد التشريع الأول والأخير تقريباً الذي أقره البرلمان الجديد.

فخلال العام الذي مضى على وجوده لم يصدر عنه أي تشريع جديد، عدا قانون الوحدة مع تدابير معينة هادفة إلى توحيد التشريعات الموجودة. صحيح أن عبد الله كان، بأخذه للضفة الغربية، قد حصل على شيء مما أراده، على المزيد من الأرض تحديداً، ولكنه كان قد حصل على ما هو أكثر مما ساوم عليه في مجالات أخرى. فزيادة الكتلة السكانية إلى ثلاثة أضعاف ما لبثت أن أبرزت عيوب أسلوبه الأبوي العشائري في الحكم. لم يعد قادراً على التعويض عن غياب الديمقراطية المؤسساتية عن طريق الصلات الشخصية الشبيهة بتلك الحاصلة في مجالسه أيام الجمعة، في التعامل مع مثل هذه الأعداد الكبيرة من السكان. كان محتوماً أن يقوم الفلسطينيون الذين هم أكثر تنوعاً ولهم حاجات ومصالح متباينة بتوسيع دائرة الحوار السياسي في البلاد. فقد كانوا أصحاب قضية وشكوى، وغير مستعدين لأن يضعوا ثقتهم لا بعبد الله ولا بإطار حكمه. كما كانوا، نسبياً أفضل تعليماً وأكثر تطوراً سياسياً من أكثرية أهالي شرق الأردن، وراحوا، بعد توحيد جهودهم مع المعارضة الأردنية المتنامية، يطالبون بالمشاركة في السيرورات السياسية، بقدر أكبر مما كان متاحاً حتى ذلك الوقت لأهالي شرق الأردن. وكذلك فقد كانت لهم، بصورة مستقلة عن عمان، صلات مع دول عربية أخرى، فضلاً عن قضيتهم التي ترددت أصداؤها في سائر أرجاء العالم ولو لفترة وجيزة. فما كان يحصل لهم من الآن فصاعداً، خيراً أم شراً، كان لابد له من أن يحدث أصداء فيما وراء الحدود الأردنية.

كان عبد الله قد حنى رأسه أمام الحساسيات السياسية الفلسطينية، حين أعلن عن إعادة صياغة الدستور بما يجعل مجلس الوزراء مسؤولاً أمام البرلمان، بدلاً من بقائه مسؤولاً أمامه هو، كما هي الحال الآن، بعد اجتماع البرلمان الجديد الموسع. ولكنه لم يف بالوعد الذي قطعه قبل الانتخابات، مما جعل مسألتي الجهة التي سيكون مجلس الوزراء مسؤولاً أمامها، وكيفية تغيير الوزارات ومواعيده بؤرة صراع في البرلمان بين عبد الله والطيف المتسع

للمعارضة. كتب كيركبرايد بصورة درامية مثيرة قائلاً: «إننا بين براثين الثورة هنا» وتنبأ بحدوث «معركة كبرى في الصراع على السلطة بين السلطة التشريعية المشحونة بفلسطينيين سياسيين، والسلطة التنفيذية المؤلفة من الملك عبد الله ووزرائه». وما لبث تحدي سلطة عبد الله أن أثّر على نفوذ كيركبرايد أيضاً، لأن «نفوذي المعروف» ـ كما سارع إلى الاعتراف ـ «كان يمارس على عدد من الشرق أردنيين، بمن فيهم الملك نفسه، ولكن من شأن فقدان أولئك الذين أستطيع التأثير عليهم لقدرتهم الخاصة على توجيه الأحداث أن يفضي إلى أن أبقى أنا الآخر عاجزاً».[40]

شكلت درجة التحكم البريطاني بالشؤون الأردنية موضوع نزاع ذا علاقة. فالبرلمان الذي كان قد جعل التوحيد ممكناً ما لبث عبد الله أن قام بحله بعد عام واحد من انتخابه، لأنه طرح مسألة السيطرة الأجنبية على الفيلق العربي، والرواتب العالية المدفوعة للخبراء الأجانب، فضلاً عن أنه عارض بعض مشروعات عبد الله المفضلة، مثل الفوج الملكي الهاشمي الذي كان يضطلع بمهمة حراسته شخصياً، وإيجاد مجلس لأهل الخبرة في الدين. وقد لخص كيركبرايد حال برلمان (1950 م) قائلاً: «هيئة أناس لا تتحلى بأي قدر من المسؤولية، يقوم فيها مشاغبو الضفة الغربية بتضليل عناصر الضفة الشرقية الأكثر عقلانية» كما راهن، جنباً إلى جنب مع عبد الله، على قدرة الانتخابات الجديدة على إفراز «نمط أفضل من المندوبين»،[41] ولكن إضافة الضفة الغربية كانت قد غيرت شرق الأردن القديم إلى غير رجعة. لقد أضفى الفلسطينيون المظلومون وأصحاب الأصوات العالية قدراً كبيراً من الوزن والشعور بخطورة الوضع إلى المعارضة الشرق أردنية البدائية، معرقلين بذلك النظام القديم القائم على الإحتكار الثلاثي للسلطة بين الملك والوزير البريطاني ورئيس الوزراء، وهو النظام الذي طالما نظر إلى مصالح الشعب الخاضع لحكمهم بيظرة فوقية قبلية.

بدأ عالم عبد الله المألوف يتلاشى مع أحداث عام (1948 م) وما تبعها

من عواقب. كانت قوى جديدة تتفاعل وتتصاعد في مختلف أرجاء المنطقة تحت تأثير الكارثة التي وقعت في فلسطين. وما لبثت هذه القوى أن أطاحت بخصوم عبد الله في سورية في عام (1949 م) ولكنها لم تكن أكثر قرباً منه ومن أمثاله. أما النظام العراقي فلم ينج من الاضطرابات الأهلية في ذلك العراق في عام (1948 م) إلا بصعوبة كبيرة.

بدأت القومية تصبح فكراً خطراً. فالقيادات العربية التي كانت قد درجت على امتداد السنوات الخمس والعشرين الماضية، على استخدام الشعارات القومية لتعبئة الشعب العربي ضد التدخل البريطاني والفرنسي، وفي سبيل تدعيم مواقعها وامتيازاتها الاجتماعية والسياسية، ما لبثت أن أصبحت ضحايا نوع جديد من الخطاب القومي، خطاب تضمن عناصر إصلاحية على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، وألقى مسؤولية ضياع فلسطين على الفئات القومية القيادية القديمة. ونظراً لدور عبد الله المشبوه في الأزمة الفلسطينية، وتماهيه الطويل مع بريطانيا، وأفكاره القديمة البالية حول الحكم الملكي، فإنه كان هدفاً مكشوفاً أمام سهام التيار الجديد من الإجماع القومي. وسعياً منه لاستبدال ما كان موشكاً على أن يصبح فكراً ذا حدين، هرب إلى الوراء ليلوذ بخطاب الإسلام وراح يعظ رعاياه بتجنب: (تقليد العادات الزائفة) التي قصد بها كلاً من الشيوعية والديمقراطية وبالحرص على: «الحفاظ على تقاليدكم وعاداتكم القديمة... وعلى إسلامكم».(42)

حاول عبد الله أيضا، عبر استخدام شعار الإسلام، أن يصل إلى ما وراء طوق الدول العربية المعادية والنظم العربية المتداعية، في سبيل إيجاد كتلة معادية للشيوعية، واجتذاب الاهتمام والدعم الغربيين. ففي عام (1949 م) قام بزيارة إسبانيا، حيث لعب دور زعيم مسلم، والتمس الرحمة من فرانكو في تعامله مع مسلمي المغرب الإسباني كما زار إيران. ونجح أخيراً في عام (1951 م) في زيارة تركيا التي لم تُبْد شوقاً إليه كمواطن عادي. ولكنه لم

يحقق أي نجاح ملموس. فإيران وتركيا كانتا فاترتين إزاء فكرته عن تحالف دفاعي موال للغرب قائم على لحمة الإسلام. أما في إسبانيا فقد أحرج بريطانيا، بكونه رئيس الدولة الأول الذي يزور فرانكو من جهة، وبحماسه الواضح للنظام الفاشي من جهة ثانية. وعلى الرغم من أنه وصف فرانكو قائلاً: «إنه رجل مبدأ يمكن التوصل معه إلى اتفاق عملي في جميع الأوقات» فإن شيئاً ذا شأن لم يتغير في المغرب الإسباني في أعقاب التماسات عبد الله ووساطته. غير أنه نجح في إقناع الحاكم العام للمغرب الإسباني بعدم جواز إعطاء مبلغ عشرة آلاف جنيه تم جمعه هناك لصالح اللاجئين الفلسطينيين للحاج أمين.[43] وفي مبادرة مشابهة رمت إلى مغازلة الدول الغربية، وخصوصاً للفت أنظار أمريكا والأمم المتحدة، عرض إرسال قوات إلى كوريا (ربما تقليداً لإسرائيل). ولكن عرضه قوبل بالرفض.[44] لم يكن ثمة فيما يبدو أي مصدر جاهز للاعتراف والدعم اللازمين لفك عزلته أو لإسناد عالمه المتداعي.

لم يبق لعبد الله سوى إمكانية التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل. فالدولتان كانتا قادرتين وحدهما على تقرير مصير الضفة الغربية، وضمان أمنها عن طريق إخراجها كلياً من دائرة الاهتمام الدولي. وربما شعر، وهو المنبوذ علناً من جانب الدول العربية، بأنه لم يكن لديه ما يخسره، في حين يستطيع أن يكسب شيئاً على صعيد الوصول المباشر إلى البحر الأبيض المتوسط والمباركة الغربية. وقد يكون أيضا قد حسب أن بعض الفلسطينيين يمكن اجتذابهم بالتعويض، أو بفرصة تصفية ممتلكاتهم بأنفسهم اجتذاباً يكفي لشق الصفوف الفلسطينية، وإضعاف المعارضة التي كانت تواجه سياساته ومخططاته.

منذ قرار التقسيم الصادر في عام (1947 م) كان عبد الله قد حافظ على صلات متقطعة مع رسميين صهاينة، إسرائيليين فيما بعد. ومع أن الأفعال الإسرائيلية كانت منطوية في الغالب على التهديد، فإن الأقوال الإسرائيلية

كانت تلمح بأنه بإمكانه الحفاظ على سلامة نظامه عبر التفاوض، ومن خلال التوصل لاحقاً إلى اتفاقية سلام. حتى في زحمة حرب عام (1948 م) كان قد نجح في إبلاغ إسرائيل عن أنه كان مستعداً لأن يتوصل إلى تفاهم.[45] وقد اعتبر هدنة عام (1949 م) الخطوة الأولى على الطريق نحو تسوية نهائية مع إسرائيل، وقد كان تواقاً إلى السير قدماً في تحقيق صلح منفصل. ولكن كلاً من بريطانيا والولايات المتحدة لم تكونا مؤيدتين لجهوده في ذلك الوقت، لأنهما كانتا تريدان تسوية شاملة في المنطقة، وأحستا بأن من شأن محاولات عبد الله الفردية أن تعرض ذلك الهدف للخطر؛ وأحستا أيضا بأن عبد الله كان بتحركه وحده يخاطر بفقدان مساحة لا يستهان بها من الأرض، كما فعل في أثناء مباحثات الهدنة. لقد أحست أمريكا وبريطانيا بأنه لو اضطر إلى التنازل عن أراض مجدداً فإن ذلك سيهدد قدرته على الاحتفاظ بعرشه. وبالتالي فإن الطرفين كليهما - بريطانيا والولايات المتحدة - كانا قد شجعاه على التحرك فقط من خلال هيئة المصالحة الفلسطينية التي أوجدتها الأمم المتحدة، لاستكشاف إمكانيات التوصل إلى تسوية شاملة. ولكن هيئة المصالحة كانت شديدة البطء بنظر عبد الله مما دفعه إلى الحفاظ على صلات مباشرة مع الإسرائيليين، أملاً في التحكم بمضمون المفاوضات ووتيرتها بقدر ما كان قد تحكم بمباحثات الهدنة في رودس من منتجعه الشتوي في الشونة.

ثمة هيئة أخرى هي لجنة الهدنة المشتركة كانت أيضاً قد نشأت تحت رعاية الأمم المتحدة. وقد كان هدفها المسجل في اتفاقية الهدنة متمثلاً بالتوسط حول أية مشكلة تنشأ على الأرض في تطبيق الهدنة ورسم خطوطها. كانت اللجنة مؤلفة من خمسة أعضاء هم إسرائيليان وأردنيان كانوا يعطلون أصوات بعضهم بعضاً على الدوام، ورئيس معين من قبل الأمم المتحدة كان يتخذ جميع القرارات نتيجة غياب المعارضة. وفي غياب الاتفاق المشترك لم يقف الأمر عند كون ممثل الأمم المتحدة مسؤولاً عن سائر قرارات لجنة الهدنة المشتركة، بل وكانت الأمم المتحدة هي المكلفة

بضمان تنفيذ تلك القرارات. وبالتالي فإن كل قضية مطروحة على لجنة الهدنة المشتركة كانت لا تلبث أن تتحول إلى معركة دبلوماسية يتعين الحكم عليها، لا بوصفها قضية منفردة، بل باعتبارها جزءاً من تسوية شاملة ممكنة.(46)

وهكذا فإن مهمات اللجنتين كلتيهما، لجنة المصالحة الفلسطينية ولجنة الهدنة المشتركة، باتت شديدة التداخل والتعقيد. وكان عبد الله بوصفه الطرف المركزي في جميع المباحثات مع إسرائيل الشخص الوحيد الذي كان الممثلون الإسرائيليون يستطيعون الرجوع إليه، ويرجون انحنائه عندما كان المندوبون الأردنيون يتشددون رافضين الانحناء. وأملاً في التمهيد لتسوية أوسع (ومكاسب أكبر لشخصه حسب اعتقاده) تنازل بشأن نقاط صغيرة نسبياً، تمت إثارتها في لجنة الهدنة المشتركة؛ وتمكن الإسرائيليون الذين ألحوا إلى تنازلات في اتفاقية صلح مستقبلية من تحقيق انتصارات إقليمية صغيرة آنية. وبنظر العرب ظلت هذه الخسائر الناجمة عن تصرفات عبد الله دائبة على تعزيز الشكوك والريب المحيطة بدوافعه ونشاطاته في فلسطين.وقد أدت غربته المستمرة عن العالم العربي بدورها إلى تقليص فائدته لإسرائيل كشريك مفاوض، وإلى صب الماء في طاحونة أولئك الذين كانوا ضد الاتفاق معه في إسرائيل. ومع تدهور موقف عبد الله كان لابد للثمن الذي يمكن لإسرائيل أن تدفعه مقابل أية تسوية من أن يتدهور بالمثل.

وبالتالي فقد وجد عبد الله نفسه في متاهة بشعة. فبعيد هدنة آذار عام (1949 م) قام موشي شاريت بزيارته في الشونة ليعرض موقف إسرائيل من بعض القضايا البارزة المطروحة أمام لجنة الهدنة المشتركة. أذعن عبد الله لجميع مطالب شاريت؛ كأنه توهم بأنه بات يخاطب شخصاً متعاطفاً راح يتحدث عن مطالبه في عملية السلام القادمة، مثل الحصول على منفذ على البحر الأبيض المتوسط وممر يوصل إليه، واستعادة الرملة واللد. وافق شاريت من حيث المبدأ على إمكانية إنشاء مرفأ حر يستخدمه الأردن ولكن لا شيء

أكثر من ذلك.[47] لم يجن عبد الله شيئاً من تنازلاته؛ وملدوغاً بالتجربة بدأ يتحاشى ممثلي إسرائيل. غير أن إسرائيل بدت مستعدة في غياب التحرك في لجنة الهدنة المشتركة وغياب مباحثات أوسع أن تستخدم القوة في سبيل الحصول على ما كانت تريده، من وجهة النظر الأردنية على الأقل.[48] وقد كان الأردن شديد الهشاشة أمام التهديد بالقوة في الضفة الغربية حيث كان ميزان القوة العسكرية راجحاً بوضوح لصالح إسرائيل ذات القوة المؤلفة من (85000) مسلح في مواجهة الفيلق العربي الذي كان قوامه (13500)؛[49] ولم تكن بريطانيا قد أكدت بعد على أن من شأن معاهدتها مع الأردن أن تنطبق على الأراضي الخاضعة للسيطرة الأردنية في فلسطين؛ كما أن الحظر الدولي على شحنات الأسلحة حتى بعد ذلك التاريخ ظلت خاضعة لرقابة بريطانية صارمة.

وبعد بضعة أشهر لم تشهد إلا عدداً قليلاً من الاتصالات الهامشية، حاول خلالها عبد الله تعزيز موقفه عن طريق القيام باتصالات دولية، تم استئناف لقاءات مباشرة بين عبد الله وممثلين إسرائيليين في نهاية شهر تشرين الثاني من عام (1949 م). ففي ذلك التاريخ اتصل إم. إي. نوفومويسكي مؤسس شركة البوتاس الفلسطينية ومديرها، وأحد أصدقاء عبد الله القدامى بالأخير آملاً في الحصول على موافقته على تزويد المشروع بالمياه العذبة من شرق الأردن. وقد عرض بالمقابل إعادة بعض الأحياء العربية الخاضعة الآن لحكم إسرائيل من القدس، في صفقة زعم أن السلطات الإسرائيلية كانت موافقة عليها. ونظراً لأنه كان قد أخذ درساً من لقائه السابق بشاريت، لم يرغب عبد الله في التورط بمقايضات جزئية من هذا النوع، واقترح بدلاً منها، البدء بمناقشة رامية إلى تحقيق تسوية عامة، تتيح له فرصة استعادة مساحة كافية من الأراضي العربية، تمكنه من إقناع رعاياه والفلسطينيين والعالم العربي عموماً بسلام منفصل. وقد أوجز مطالبه على مسامع نوفوميسكي قائلاً: استعادة الأحياء العربية من القدس، وتعديل الحدود في

الجنوب بشكل يبقي بيت جبرين وبئر السبع في الجانب العربي، والوصول إلى قطاع غزة. عرض على إسرائيل مرفأً حراً على العقبة مقابل الحصول على تسهيلات مماثلة في حيفا. وقام بتعيين سمير الرفاعي وزيراً للقصر ومترجماً له في أثناء هذا اللقاء، ليكون ممثله الشخصي في إطلاق المباحثات.[50] سارع الرفاعي المتشوق لأن يصبح رئيس الوزراء القادم إلى القبول بالمهمة. أما بريطانيا والولايات المتحدة اللتان كانتا قد بدأتا تفقدان الأمل في مدى فائدة لجنة المصالحة الفلسطينية، وتخلتا عن إصرارهما على التسوية، السلمية الشاملة فقد بادرتا بحذر إلى تأييد هذه المباحثات بوصفها أفضل من لا شيء على الإطلاق.

بدأت المباحثات نهاية شهر تشرين الثاني من عام (1949 م) ودامت حتى شهر آذار من عام (1950 م)[51] حين قامت صحافة تل أبيب بتسريب أنبائها عشية الانتخابات التي كانت ستفضي إلى التوحيد. في البدء جرت محادثات هادفة إلى تحديد جدول الأعمال ومعايير النقاش بين سمير الرفاعي وكل من مدير قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية إلياهو ساسون وهو الدمشقي الأصل وروفن شلواح (زاسلاني سابقاً)، أحد أقرب مستشاري بن غوريون. وشارك في المفاوضات الرسمية التي جاءت بعد ذلك كل من وزير الخارجية الأردني فوزي الملقي وفلسطينيين هما: خلوصي خير وجمال طوقان. وقد شارك عبد الله في العديد من الاجتماعات التي تمت، بأكثريتها في الشونه، متدخلاً لكسر الجمود، ولكن مبالغاً في الإذعان لآراء الرفاعي.

بلغت الاجتماعات التمهيدية ذروتها في الثالث عشر من شهر كانون الأول، حين وافق الطرفان على النقاط التالية التي كانت ستشكل جوهر التسوية الإقليمية التفاوضية بينهما. وافقت إسرائيل على أن من شأن وجود منفذ على البحر الأبيض المتوسط أن يكون مصلحة حيوية بالنسبة للأردن وعرضت التنازل عن ممر يربط الخليل بنقطة على ساحل غزة، شرط السماح

لإسرائيل بالاحتفاظ بنقاط عبور محددة على امتداد الممر، وشرط أن يبقى منزوع السلاح، وشرط عدم تطبيق بنود المعاهدة الإنجليزية ـ الأردنية عليه. ومقابل ذلك وافق الأردن على منح إسرائيل طريقاً على امتداد ساحل البحر الميت، تمكن من ربط منشآت شركة البوتاس الفلسطينية في الطرف الشمالي بالأراضي الإسرائيلية في الطرف الجنوبي. كانت النقاط الشائكة الرئيسية متعلقة بعرض الممر الواصل إلى الساحل وبعبارة "ساحل غزة" التي قصد الإسرائيليون بها المنطقة التي كانت خاضعة لمصر، تاركين مسألة ترتيب تسهيلات الأردن المرفئية للمصريين، في حين كان الأردن يعني بالعبارة قطاعاً ساحلياً واقعاً إلى الشمال من المنطقة الخاضعة لمصر. أما فيما يخص مسألة القدس فإن الطرفين كانا يفضلان التقسيم على التدويل. فالأردن وافق على التخلي عن الحي اليهودي في المدينة القديمة، وعن حائط المبكى لإسرائيل وعلى تمكين إسرائيل من الوصول إلى جبل سكوبوس، في حين وافقت الأخيرة على ربط طريق بيت لحم بالجزء العربي من القدس. وتم ترك حدود التقسيم النهائية والمسائل المتعلقة بالتعويض مفتوحة للاتفاق بشأنها على أسس "عملية".

بدأت المباحثات الرسمية على أساس هذه النقاط في نهاية شهر كانون الثاني. ولكن هذه المباحثات ما لبثت، بصورة شبه فورية، أن تعثرت حول مسألة القدس. رأى الأردن أن من شأن شيء من التبادل الإقليمي في القدس أن يجعل حدود التقسيم أكثر سهولة ويسراً، ولكن إسرائيل عارضت قائلة: إن جميع الأحياء العربية العائدة لها كانت مشغولة من قبل محتلين يهود يتعذر إخراجهم منها. وأصرت إسرائيل على حيازة الحي اليهودي في المدينة القديمة؛ وكان الأردن في هذه الأثناء قد بات يخشى تمكين إسرائيل من الوصول إلى المدينة القديمة. لم يتم التوصل إلى أي حل، ولكن الانهيار جرى تجنبه عن طريق الاتفاق على الاختلاف في اللحظة الراهنة وعلى الاستمرار في التفكير بالمشكلة مستقبلاً.

وبعد الإخفاق في تحقيق أي تقدم في مسائل القدس الشائكة التفت الطرفان المتفاوضان إلى قضايا إقليمية أوسع، غير أن تقدماً لم يتحقق هنا أيضاً. فالإسرائيليون الذين باتوا يعرضون شراء الأراضي بدلاً من المبادلة عليها قاموا برفض خارطة قدمها الأردنيون رفضاً قاطعاً. غير أن الأردن وعبد الله كانا بحاجة إلى الأرض لا المال لتبرير قبولهما بسلام منفصل. وبغية كسر الجمود تدخل عبد الله واقترح (أساساً تفاوضياً) جديداً، تضمن معاهدة عدم اعتداء مدتها خمس سنوات، حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، وقدرة إسرائيل على الوصول إلى جبل سكوبوس، وقدرة الأردن على الوصول إلى بيت لحم، واستئناف التجارة، ومنطقة حرة للأردن في حيفا. وكانت لجان ستشكل لدراسة توفير مرفأ ومعبر يوصل إلى الأردن، وكيفية دفع التعويض لأصحاب الممتلكات في القدس الذين كانت ممتلكاتهم قد بقيت تحت سيطرة الطرف الآخر، والوسائل الكفيلة بتصفية الممتلكات العربية في إسرائيل والممتلكات اليهودية في الأردن (المنشآت الكهربائية في جسر المجامع ومنشآت البوتاس على الطرف الشمالي من البحر الميت). وقع الممثلون الإسرائيليون مذكرة عبد الله، وتم بصعوبة إقناع رئيس الوزراء الأردني توفيق أبو الهدى بقبولها على أنها نقطة انطلاق للمزيد من المباحثات.

ولكن جرائد تل أبيب ما لبثت، بعد يومين اثنين في الأول من آذار من عام (1950 م) أن نشرت تقارير دقيقة عن المباحثات.[52] وقد هددت أنباء المفاوضات بنسف خطط الانتخابات القادمة في شرق الأردن والضفة الغربية وتوحيدهما اللاحق. وفي الوقت نفسه قام عبد الله التل، وهو حاكم عسكري سابق للقدس، بالكشف عما كان يعرفه عن اتصالات عبد الله مع إسرائيل حتى نهاية عام (1949 م)[53] في الصحافة المصرية. هنا بادر الوزراء الفلسطينيون الثلاثة في مجلس الوزراء إلى الاستقالة احتجاجاً، مشيرين خصوصاً إلى معارضتهم لاستعادة بند التجارة، كما استقال توفيق أبو

الهدى بدوره. غير أن هذا الأخير تم إقناعه بالبقاء في منصبه حين أخفق غريمه سمير الرفاعي في تشكيل حكومة مستعدة لتأييد التفاوض مع إسرائيل بالشروط الحالية. بقي أبو الهدى في المنصب بشرط عدم السعي إلى المزيد من المفاوضات قبل الانتخابات.[54] تم الالتزام بهذا الشرط، كما أن الانتخابات وعملية الإعلان عن الوحدة جاءت منسجمة مع رغبات عبد الله. وبالتالي فإن الاتصالات مع إسرائيل على مستوى الحكومة لم تستأنف إلا ما بعد عام واحد في كانون الثاني عام (1951 م)، على الرغم من بقاء عبد الله على صلة بصورة سرية خلال تلك الفترة.

رداً على الأنباء التي تحدثت عن المفاوضات اتخذت الجامعة العربية قراراً يقضي بطرد أية دولة عربية تدخل في مفاوضات مع إسرائيل، من أجل التوصل إلى سلام منفصل، أو إلى أي نوع من أنواع الترتيب المنفصل على الأصعدة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية، بصورة آلية. وكان من شأن أية دولة تتعرض للطرد بهذه الطريقة أن تواجه أيضاً عقوبات اقتصادية وعزلاً دبلوماسياً.[55] ومع أن عبد الله شخصياً كان قد طرح فكرة الانسحاب من الجامعة العربية في أكثر من مناسبة، فان أكثر أعضاء حكومته نظروا إلى مثل هذه القطيعة نظرة رعب وذعر. أما بالنسبة لأولئك الذين كانوا يمقتون التفاوض مع عبد الله مهما كان شكله في إسرائيل، فقد جاء تهديد الجامعة العربية ليؤكد على أن السلام مع الأردن لن يكون مدخلاً إلى العالم العربي، يوفر إمكانية التخفيف من عزلة إسرائيل الإقليمية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي.

بعد التسرب جرت إعادة إقحام المفاوضات في دائرة الكتمان والسرية. تم تشكيل وزارة جديدة في أعقاب التوحيد برئاسة سعيد المفتي أحد زعماء الجالية الشركسية ومن حلفاء توفيق أبو الهدى المقربين. ومثله مثل أبو الهدى كان شديد الحذر من التفاوض مع إسرائيل، كما حرصت حكومته على تجنب التورط الرسمي.

ومع حلول فصل الحر لم تعد الاجتماعات تعقد في الشونة بل في القدس، في بيت موظف شاب من موظفي القصر يدعى عبد الغني الكرمي،[56] أو في عمان. لم يتم تحقيق أي تقدم على طريق التفاهم المتبادل خلال الاجتماعات السرية الفاصلة التي بدت غايتها، بالنسبة لعبد الله، متمثلة بإلهاء الإسرائيليين، حتى يتمكن من تشكيل حكومة مستعدة للمشاركة. وفي محاولة منه لإقناع حكومته بأن فلسطينيي الضفة الغربية كانوا يفضلون سلاماً منفصلاً، أرسل رئيس الوزراء ووزير الخارجية في مهمة تقصي حقائق إلى هناك في صيف عام (1950 م). غير أن الرحلة أخفقت إخفاقاً ذريعاً بدلاً من إقناعهما. ثار غضب عبد الله، واضطر كيركبرايد للاعتراف على مضض بأن «مما لا شك فيه على ما يبدو أن هناك - حتى بعد أخذ مظاهر خفة العقل والذبذبة بنظر الاعتبار - إجماعاً في الرأي (كذا) في الضفة الغربية ضد أية مفاوضات سلمية مباشرة بين الأردن وإسرائيل».[57]

قليلون في الأردن كانوا مستعدين لأن يصبحوا متورطين، ما لم يتم إقناعهم مسبقاً بأن إسرائيل كانت ستقدم تنازلات ذات أهمية تكفي لتمكينهم من مواجهة انتقادات العالم العربي،[58] ومثل هذه التنازلات لم تكن متوقعة. فبعد قطع المباحثات الرسمية في آذار من عام (1950 م) تصاعد التوتر على امتداد خطوط الهدنة، وطرد المزيد من العرب من إسرائيل، وقام الجيش الإسرائيلي باحتلال إحدى الطرق في المنطقة الأردنية بوادي عربة ومنشآت شركة الكهرباء الفلسطينية في جسر المجامع (نهاريم) على الضفة الشرقية من نهر الأردن في الشمال.[59] وقد أدت مثل هذه الحوادث إلى تأييد جو من الاستياء المتولد عن الشعور بالظلم والإحباط والعجز، فعل فعله للحيلولة دون أي قبول لاحق لفكرة إسرائيل على المستوى الشعبي. وعلى الرغم من أن الحوادث تركت تأثيراً مشابهاً على عبد الله فإنها تمخضت عن رد مغاير. وكانت الحوادث بصورة يومية تلقي

الضوء على ضعفه وعجزه عن حماية مواطنيه أو الحصول على التعويض، غير أنه توصل إلى استنتاج يقول بوجود مخرج وحيد من وضعه المستحيل هو مخرج التفاوض. ذلك هو السبب الكامن وراء ازدياد اتساع الهوة الفاصلة بين عبد الله وأكثرية مواطنيه، مثلها مثل الهوة الفاصلة بينه وبين حكومته.

بعد أن عجز عبد الله عن دفع سعيد المفتي باتجاه المشاركة في المباحثات السلمية، نجح أخيراً في اجتراح تغيير وزاري في كانون الأول من عام (1950 م) أصبح معه سمير الرفاعي رئيساً للوزراء. كان استعداد الرفاعي للدخول في المفاوضات معروفاً جيداً، وما لبث أن تعرض فوراً للهجوم في البرلمان حول الموضوع. غير أن آخرين رحبوا بالتعيين. وبعد ذلك اجتمع رايلي بعبد الله وأبلغه بوجوب استئناف اللقاء مع إسرائيل، لتحاشي خطر المزيد من الصدامات على خطوط الهدنة. وبادرت إسرائيل إلى متابعة الأمر بإرسال رسالة تصالحيه إلى عبد الله. وبعد ذلك عقد عبد الله وروفن شلواح اجتماعين، وفي كانون الثاني من عام (1951 م) وافق الرفاعي على المشاركة في المباحثات ذات الهدف المحدود المتمثل بتسوية الخلافات البارزة المعلقة في لجنة الهدنة المشتركة.[60]

جرت الاجتماعات بين الرفاعي وشلواح وبين عبد الله وشلواح خلال ربيع عام (1951 م). لقد خف التوتر على امتداد خط الهدنة، ولكن أي تقدم ذي شأن على صعيد تسوية الخلافات البارزة لم يتحقق. وما لبثت هذه المفاوضات أن توُجت بتبادل مذكرتين أوضحتا أن الفريقين كانا، بعيداً عن التحرك باتجاه أية اتفاقية سلام لاحقة، ومختلفين جذرياً حول معنى البنود الأصلية لاتفاقية الهدنة. اقترح الرفاعي استصدار تفسير ملزم من محكمة العدل الدولية،[61] ولكنه ليس واضحاً ما إذا كان شلواح قد قابل الرفاعي مرة أخرى، على الرغم من أنه اجتمع مرات عديدة إضافية بعبد الله في شهر أيار.[62]

لم تتمخض اتصالات عبد الله مع إسرائيل عن أي شيء. وبعد بضعة أشهر من اغتياله كان تقويم الموظفين البريطانيين في المنطقة يقول بأن الأردن وإسرائيل كانا قد أصبحا قريبين من التوصل إلى اتفاق في أوائل عام (1950 م) قبيل عملية التوحيد. ففي استعراض كيركبرايد للمباحثات من عمان عبر عن الإحساس بأن تنازلاً بسيطاً من جانب إسرائيل في ذلك الوقت كان من شأنه أن يفضي إلى اتفاق.[63] أما نوكس ـ هلم في تل أبيب فقام بتحميل الأردن مسؤولية ما حصل، لأنه تسبب في قطع المناقشات (ولو لأسباب مفهومة).[64] ومع ذلك كانت ثمة على الطرفين جملة من العقبات المتعذر تجاوزها، على الرغم من انهما ربما كانا آنذاك قريبين من التوصل إلى اتفاق أكثر من أي وقت محتمل في المستقبل.

في حين بدا عبد الله شخصياً مستعداً للتنازل عن أشياء كثيرة في سبيل التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل، فإن قدرته على جر قواعده معه لم تكن مؤكدة على الإطلاق. فالزمن الذي «كان فيه الملك قادراً على التصرف بوصفه حاكماً فرداً خيّراً دون إثارة أية معارضة جدية لدى رعيته بات موشكاً على نهايته».[65] ببساطة لم يكن عبد الله قد اهتدى إلى ما يناسبه من الرجال المستعدين والقادرين على الوقوف إلى جانبه وتأييده ـ فقد كان الآن يرأس كياناً سياسياً معقداً قائماً على مصالح متضاربة لمجموعة متباينة من الهويات الطبقية والسياسية. وقد شكل الساسة الرافضون للانجرار وراءه عينة من هذه الكتلة السكانية الكبيرة والمتنوعة، التي لم تعد منسجمة ومتناغمة مع نظرة عبد الله الأبوية إلى العالم، والتي لم تكن تتقاسم مع الهاشميين أية هوية محددة. وخارج الأردن كان من شأن تقارب عبد الله مع إسرائيل أن يفقده هويته الإقليمية. وضمان إسرائيل لإحكام قبضته على الضفة الغربية، بل وحتى توفر منفذ على البحر الأبيض المتوسط لم يكن قادراً على التعويض عن خسارة الأراضي العربية الواسعة اقتصادياً، أو فقدان هويته الثقافية والسياسية ذات الجذور العميقة في النزعة العروبية.

لم تكن إسرائيل، من جانبها، مستعدة لتقديم ذلك النوع من التنازلات الإقليمية، التي كان من شأنها أن تمكن عبد الله من تسويق مشروع سلامه لدى مواطنيه بالذات، أو لدى الفلسطينيين، أو في العالم العربي بصورة عامة. فالرهان بالنسبة لإسرائيل لم يكن متمثلاً بالأرض فقط، بل بطبيعة الدولة بالذات. وإمكانية الحل الوسط الإقليمي، مثلها مثل مسألة اعتماد أي دستور، كانت تثير شبح التصدع الداخلي حول علاقة الدين بالدولة. فالدين كان يعتبر أرض إسرائيل غير قابلة للمساس وشاملة لفلسطين كلها وشرق الأردن أيضاً بنظر البعض. وبطرقه لمثل هذا الباب كان بن غورروين معرضاً لأن يخسر ما هو أكبر من تحالفه البرلماني؛ كان معرضاً لأن يطلق أزمة هوية كان من شأنها أن تعرض للخطر التضامن الداخلي الهش لإسرائيل، جاذبيتها للمهاجرين، ومصادر دعمها الخارجية. ولتجنب مثل هذه الأزمة كان رسم الحدود بصورة نهائية أمراً متعذراً، تماماً كما كانت كتابة أي دستور أمراً مستحيلاً.[66]

لم يكن بن غورويون يعلق أي أمل على المباحثات مع الملك عبد الله (كما كتب مستخفاً). كان قد أراد أن يحتل القدس والخليل وبيت لحم بالقوة، ولكنه كان قد هُزم في مناقشات المجلس. وثمة آخرون مثل شاريت وساسون وشلواح كانوا يرون بعض الفائدة في التوصل إلى معاهدة سلام مع الأردن. ولكن حماس الحكومة للسعي إلى السلام ما لبث، بعد الهدنة التي ضمنت إسرائيل دون إثارة مسائل هوية محرجة، أن تراجع بصورة تدريجية. فمع حلول عام (1950 م) بقي شلواح الذي كان قد راهن بكل رصيده السياسي على التوصل إلى توقيع معاهدة مع عبد الله وحده تقريباً في الميدان.[67] بدت إسرائيل ميالة إلى تفضيل وجود قدر معين من التوتر على امتداد خطوط الهدنة يمكن استغلاله لتوسيع حدودها، إما عبر الأعمال العدوانية المباشرة، أو من خلال الاستفادة من حرص عبد الله على تجنب العدوان، بل من الترسيم النهائي لحدود مطلقة.

وعلى الرغم من مظاهر الضعف الاقتصادي والهشاشة الجغرافية فإن إسرائيل كانت قادرة على التصرف مع عبد الله بقدر كبير من الصلف والغطرسة. وقد بدا المنطق الإسرائيلي قائماً على أن إسرائيل كانت قادرة على أن تتوقع الحصول على التنازلات بدلاً من تقديمها، لأن إضافة أي جزء من فلسطين إلى شرق الأردن كانت مكافأة مجانية لعبد الله؛ والمكسب الصافي لهذا الأخير كان من شانه أن يكون أكبر مما كان يمكنه الحصول عليه بأية طريقة أخرى.[68] كان عبد الله بحاجة ماسة إلى تثبيت وضعه في الضفة الغربية، ولكنه لم يكن يملك شيئاً ذا قيمة يقدمه ثمناً لذلك، لا على الصعيد الإقليمي ولا على مستوى توفير مدخل دبلوماسي واقتصادي إلى المنطقة. سياسياً كان معزولاً في العالم العربي؛ وعسكرياً كان هشاً أمام تهديد القوة الإسرائيلية آنذاك. وقد اعتبر كيركبرايد ـ وهو مؤيده الكبير ـ أن تصميم عبد الله على التفاوض كان «أنانياً في الأساس ولم يكن على الإطلاق صادراً عن أي بعد نظر سياسي»[69] بغض النظر عن أن موقفه التصالحي من إسرائيل اعتبر خارج العالم العربي دليلاً على الواقعية السياسية.

رغم إخفاق مفاوضات عبد الله مع إسرائيل، أو ربما بسببه، لم يبق الملك معزولاً إلى الأبد. ففي ربيع عام (1951 م) بدأت مواقف العرب منه تلين. كان النظام العراقي، الذي حرص على تجنب المبالغة في التقرب منه منذ عام (1948 م) بسبب وضعه الداخلي الضعيف، قد تجاوز العاصفة وبات قادراً مرة أخرى على تناول الموضوع الدائم المتمثل بالاتحاد الهاشمي. وقد قام عبد الله الذي كان قد عاد مؤخراً بصورة مستعجلة من تركيا لدى تعرض طلال لانهيار عصبي،[70] بطرح الموضوع من منطلق الخوف على ولاية عرشه. وكانت فكرته، وهي ليست جديدة ولكنها باتت ملحة بسبب الظروف، قائمة على وجوب توحيد الأردن والعراق بزعامته هو وانتقال العرش إلى الفرع العراقي من الأسرة بعد وفاته. وقد قام كل من الوصي على العرش العراقي، ابن شقيق عبد الله، عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد

بزيارة عمان في بداية شهر حزيران لمناقشة الأمر.[71] وفي تموز قام رياض الصلح، رئيس وزراء لبناني سابق ومن أشد منتقدي عبد الله، هو الآخر بزيارة عمان مما شكل دليلاً آخر على وجود نوع من التحول في التوجهات السياسية العربية. ولكن زيارة الصلح انتهت بكارثة. فقد جرى اغتياله وهو في الطريق إلى المطار خارج مدينة عمان من قبل أعضاء في الحزب القومي الاجتماعي السوري، انتقاما لإعدام أنطون سعادة، مؤسس الحزب، الذي كان قد أدين بالخيانة في عام (1949 م) خلال فترة وزارة الصلح.

كان لاغتيال الصلح، كما كتب الملك حسين، حفيد عبد الله، بعد عشر سنوات «تأثير عميق على البلاد... ففي كل منعطف من منعطفات الشوارع كان بوسع المرء أن يرى الوجوه المتجهمة، وأشكال الصمت الشبيهة بصمت القبور المخترقة بصرخات الغضب، أو حوادث العنف المفاجئة المنذرة بلحظة الأزمة...». وقد لاحظ (الوجوه المتجهمة المتشككة) نفسها في القدس يوم الجمعة التالي الواقع في العشرين من تموز، حين رافق جده في زيارته المعتادة للأقصى لأداء صلاة الجمعة.[72] كانا قد أمضيا الليلة السابقة في القدس بمنزل كان في السابق عائداً لفخري النشاشيبي،[73] واستيقظا فجراً يوم الجمعة لزيارة رام الله، حيث كانت دارة تبنى لعبد الله، ونابلس، حيث التقى بصورة غير رسمية مع زعماء محليين وأصدقاء في بيت رئيس البلدية معزوز المصري. وعاد الجد وحفيده إلى القدس في حوالي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، حيث توضأ الجد واستبدل زيه العسكري الشبيه بزي عناصر الفيلق العربي بجلبابه المألوف أكثر وعمامته. وفي حوالي الثانية عشرة إلا ربعاً ومصحوباً بحفيده وقائد القدس العسكري راضي عناب، وحاشيته دخل عبد الله الحرم، تلك الباحة الفسيحة المحيطة بالأماكن المقدسة الإسلامية في القدس، التي كان قد تم إخلاؤها من الناس. أولاً قام بزيارة ضريح أبيه ثم توجه نحو مدخل الأقصى. في الداخل كان يُتلى القرآن على مسامع ما يزيد على الألف من المصلين. كانت مكبرات

الصوت مفتوحة، وكانت الصلاة تُبث بصورة مباشرة عبر الإذاعة. وما إن اقترب من المدخل حتى تقدم شيخ للترحيب به وتقديم آيات الولاء له. تراجع حرس عبد الله قليلاً ليفسحوا له في المجال لتمكينه من عبور مدخل المسجد أولاً. وفي تلك اللحظة خرج شاب يرتدي بنطالاً وقميصاً من خلف البوابة المفتوحة إلى الخارج إلى جهة اليمين من عبد الله. رفع الشاب يده وأطلق النار على عبد الله وأصابه خلف أذنه اليمنى على مسافة بضع خطوات إصابة قتلته فوراً.[74] وسُمع دوي تلك الطلقات النارية على الإذاعة في أنحاء المنطقة.

12) خاتمة

حين تم إطلاق النار داخل الحرم سارع أفراد الفيلق العربي الذين كانوا يقودون مهمة الحراسة في الخارج إلى الاندفاع نحو الداخل ببنادقهم، وقد تم تثبيت الحراب عليها وراحوا يطلقون النار دون تمييز. وفي أجواء الفزع قُتل حوالي عشرين شخصاً، كما جُرح ما لا يقل عن مئة. وبعد ذلك انطلق الفوج الهاشمي المكلف بحراسة الملك في حالة من الفوضى إلى شوارع المدينة القديمة، وراح يطلق النار على كل ما هو متحرك، ويحطم واجهات المخازن، يسلب وينهب ويضرب الناس في الشوارع بأعقاب البنادق والقبضات.[1] تم احتجاز أتباع الحاج أمين المعروفين للتحقيق معهم. جرى اعتقال سبعين شخصاً في ذلك اليوم الجمعة، كما أوقف المئات للاستجواب.[2] أما المصلون في الأقصى عند الاغتيال فقد تم حجزهم داخل المسجد، ولم يطلق سراحهم إلا بعد التحقيق معهم فردياً واحداً بعد الآخر. وبعد يومين اثنين كان هناك بعض ممن لم يتم السماح لهم بعد بالذهاب إلى بيوتهم.[3]

كانت الأجواء في الأردن، وخصوصاً بين الفلسطيين متوترة ومشحونة بالخوف والرعب. طغت مشاعر الغضب على العلاقات بين الفلسطينيين والشرق أردنيين. باتت الشائعات في المدينة القديمة تتحدث عن أن الفيلق العربي كان سينسحب من القدس، وسيسمح للإسرائيليين باحتلالها عقاباً لها على فعلتها.[4] تعرضت السيارات ذوات اللوحات الفلسطينية للقصف بالحجارة في السلط التي كان عبد الله نفسه قد عانى فيها، قبل سنوات، من إذلال مماثل. كثيرون من الفلسطينيين لم يكونوا مستائين مما حصل،

على الرغم من أنهم حرصوا على إبراز علائم الحداد المطلوبة لحماية أنفسهم وممتلكاتهم. غير أن احتفالات بهجة شعبية تمت في بعض مخيمات اللاجئين. قُتل ثلاثة من اللاجئين، وجُرح أكثر من ذلك، في هجمات شنها أردنيون غاضبون على مخيم قريب من فندق فيلادلفيا بعمان.[5]

تم نقل جثمان عبد الله مباشرة إلى عمان عن طريق الجو. كان كيركبرايد في إجازة بإنجلترا في ذلك الوقت، ولكنه عاد جواً إلى عمان في الحادي والعشرين من الشهر. وكذلك فإن طلالاً كان هو الآخر خارج البلاد، في مستشفى بسويسرا حيث كان يتلقى العلاج للتعافي من اضطراب عقلي غير محدد منذ أيار الماضي، حين كان قد هاجم زوجه وابنته الوليدة.[6] فبدلاً منه تم تعيين نايف وصياً على العرش.

كانت مشكلات نايف المباشرة مع أسرته. فأم طلال الخائفة من حرمان ابنها من وراثة العرش سارعت إلى الإعلان عن أنها لن تسمح لمراسم الجنازة بأن تتم إلى أن يعود طلال. وإحدى شقيقات نايف كانت مقتنعة بأن رئيس الوزراء الحالي، سمير الرفاعي كان هو المسؤول، وطالبت على الملأ بالثأر الفوري. أما توزيع ممتلكات عبد الله فقد تم إرجاؤه مؤقتاً، ولكنه كان مرشحاً لأن يشكل مسألة شائكة، لأن أكثر الأشياء الثمينة كانت قد انتقلت إلى زوجه الثالثة ناهدة التي كانت منبوذة من قبل باقي أفراد العائلة.[7]

تمت مراسم الجنازة في الثالث والعشرين من الشهر رغم اعتراضات أم طلال. بدأت الطقوس في التاسعة صباحاً حين سُمح لممثلين رسميين بدخول غرفة العرش في قصر رغدان لإلقاء النظرة الأخيرة على التابوت الملفوف بالعلم، بحضور كل من نايف وحفيد عبد الله البكر حسين، ووصي العرش العراقي عبد الإله، مع أعضاء من الحكومة والبلاط الأردنيين. ومن هناك تشكل موكب لمرافقة التابوت إلى مثواه الأخير في حدائق

القصر، حيث كان عبد الله قبل يومين قد أوصى ببناء مسجد. وعلى أصوات عويل نساء العائلة تم إخراج التابوت من القصر، ليوضع على عربة مدفع تجره سيارة جيب. ومتبوعاً أولاً بنايف وحسين وعبد الإله ومن ثم بأعضاء مجلس الوزراء الأردني ورئيس الوزراء العراقي، وأخيراً بأعضاء السلك الدبلوماسي والمبعوثين الخاصين الممثلين لكل من بريطانيا والعربية السعودية ولبنان وسورية وتركيا وأندونيسيا وأفغانستان والهند والأرجنتين (أما الوفد المصري فقد وصل متأخراً، فقط قبيل عملية الدفن) شق التابوت طريقه ببطء ماراً بالمقر البريطاني وقصر للضيافة شيد حديثاً إلى مكان اللحد عند طرف التلة الملكية أمام ديوان عبد الله.

بقي الموكب محصوراً بالتلة التي كانت قد سورت بالأسلاك الشائكة. لم يسمح لأي متفرج بالاقتراب إلى ما هو أقرب من التلة المقابلة، حيث لم يتجمع إلا عدد قليل من رعايا عبد الله لإلقاء النظرة الأخيرة. كانت المراسم عند القبر قصيرة. تم إلقاء كلمتي تأبين، الأولى: من قبل رئيس الديوان الملكي وموضع ثقة عبد الله محمد الشريقي، والثانية: من قبل رئيس الوزراء الرفاعي. وبعد ذلك تلقى كل من نايف وعبد الإله وحسين التعازي في الديوان، في حين تم نصب عدد من الخيم فوق القبر حيث كان المقرئون سيرتلون القرآن لراحة نفس عبد الله.[8] وفيما بعد، عقدت النية على بناء مسجد في المكان تنفيذاً لوصية عبد الله.

وفي الوقت نفسه تقريباً، قام تشرتشل بتأبين عبد الله في مجلس العموم. وجاءت كلماته الصادرة عن الاحترام دون شك، ولكنها المشوبة بتلطف بريطانيا المعهود في تعاملها مع عبد الله، لتلخص دونما قصد الجدل الذي أحاط بدور عبد الله السياسي في حياته، والذي كان سيستمر طويلاً بعد موته.

> كنت شخصياً مسؤولا عن... تعيينه أو تنصيبه أميراً لشرق الأردن في عام (1922 م)... [لقد كان] رجلاً شديد الإخلاص والأمانة، ووطنياً عربياً ملتهب

الحماس على أعلى مستوى سبق عندما غادر مكة ساعياً إلى طرد الفرنسيين من سورية بقوة السلاح. وحين وصلت إلى المنطقة، أقنعته، بعد إفادتي من نصيحة العقيد لورنس بعدم اتخاذ هذه الخطوة الشاذة... أقدم على جميع المخاطرات في سبيل الحفاظ على إخلاصه لأولئك الذين تعاون معهم... لقد فقد العرب بطلاً عظيماً... وفقد اليهود صديقاً وشخصاً كان مؤهلاً لتذليل المصاعب، و... نحن فقدنا رفيقاً وحليفاً مخلصاً.(9)

أما مصطفى عشو الذي اغتال عبد الله فقد كان صانع خياط في الحادي والعشرين من عمره عاش في المدينة القديمة، وكان، حسب رواية كيركبرايد «إرهابياً سابقاً».(10) لم يعش الشاب ليروي قصته، ولكن سيرة معينة تشكلت مما قاله أفراد العائلة والأصدقاء ما لبثت أن ربطته بشيخ شباب (قبضاي) حارة اسمه عابد، عكة وبمجموعة (قتلة) كانوا، حسب كلام كيركبرايد مرة اخرى، يعملون لصالح الحاج أمين الحسيني في أثناء ثورة الأعوام (1937 - 1939 م). وما لبث محمود عنتابلي وهو أحد أفراد المجموعة أن انقلب إلى شاهد في حادث اغتيال الملك. فمن خلال شهادته واعتراف عابد عكة، تمت محاكمة عشرة رجال أمام محكمة عسكرية شُكلت خصيصاً مؤلفة من ثلاثة ضباط من الفيلق العربي، هم الفريق عبد القادر الجندي والعقيد حابس المجالي (الذي كان موجوداً في حادثة الاغتيال، وكان من الأنسب أن يضطلع بدور الشاهد) والعقيد علي حياري الذين استمعوا إلى مرافعة المدعي العام وليد صلاح، الذي كان أيضاً مستشاراً قانونياً للقصر، وكلام محامي الدفاع للتسعة «بسعة صبر تثير الإعجاب "ربما بقدر قليل من الفهم"». لم تدم المحاكمة إلا تسعة أيام. وفي النهاية قام طرف الادعاء والدفاع، في استعراض غير عادي لآيات المودة، بإطراء كل منهما الآخر وكيل المديح للمحكمة على ما أبدته من روح مفعمة بالتعاون في الجلسات من البداية إلى النهاية على الملأ.(11)

تمت تبرئة أربعة من المتهمين العشرة. وقد كانوا الأب: إبراهيم عياد،

وكلاً من داود وتوفيق الحسيني وهما من أقرباء الحاج أمين الحسيني، وكامل عبد الله كالوتي. أما الباقون فقد وجدوا مذنبين وحكموا بالإعدام. كان اثنان من هؤلاء الستة من مواطني شرق الأردن لكنهم في ذلك الوقت في القاهرة. فعبد الله التل حاكم القدس العسكري السابق لدى عبد الله، الذي فر منذ ذلك الحين إلى القاهرة وكشف عن كل ما كان يعرفه عن مفاوضات عبد الله مع اسرائيل، كان حسب المزاعم المنتشرة، وراء المؤامرة. أما موسى أحمد أيوبي ذو الجذور السلطية فقد تمت إدانته بجريمة مساعدة التل وتحريضه. وحسب ما كتب كيركبرايد لم يُطلب من مصر تسليمهما، لأن الرفض المؤكد لمثل هذا الطلب كان متوقعاً[12] وبالتالي فقد صدر حكم إعدامهما غيابياً.

أما عابد عكة وشقيقه الأصغر زكريا عكة وعبد القادر فرحات وموسى عبد الله الحسيني فقد جرى تجريمهم وحكم عليهم بالإعدام شنقاً. كانت التهمة الموجهة إلى الأول، وهو تاجر أبقار، والثاني، وهو قصاب، هي العثور على القاتل المستعد للقيام بالمهمة. أما الثالث فكان صاحب المقهى الذي تمت فيه وضع الخطط النهائية كما اتهم بتوفير المسدس. وهؤلاء الثلاثة كانوا (رجال عصابات سيئي السمعة) مسؤولين عن قتل العديد من الموظفين العرب والبريطانيين في عام (1937 م) حسب كلام كيركبرايد ومعاونه، رغم عجزهما عن العثور على أية سجلات عن نشاطاتهم وفعالياتهم في ملفات الشرطة.[13] أما الرابع، موسى الحسيني، فقد كان على علاقة قرابة عائلية بعيدة بالحاج أمين، ولكنه كان في السنوات الأخيرة قد خرج عليه وراح يعبر عن ولائه لعبد الله. وكان موسى هذا قد أمضى عدداً من سنوات الحرب في برلين حيث التقى بامرأة ألمانية وتزوجها. ولدى عودته إلى القدس عام (1945 م) احتجزته السلطات البريطانية لفترة وجيزة، لأنه كان موجوداً في ألمانيا خلال الحرب. وبعد إطلاق سراحه لمع نجمه المحلي بعض الشيء في غياب القيادة الوطنية الفلسطينية، وما لبث أن أصبح في عام (1949 م)

صديقاً لعبد الله التل، حاكم القدس العسكري في ذلك الوقت، وراح يضطلع بدور ممثله الشخصي لدى أعضاء السلك القنصلي في القدس ولجنة المصالحة. وفي عام (1951 م) كان صاحب وكالة سفر في القدس، ومراسل المدينة لدى شبكة الشرق الأوسط للإذاعة. تكررت أسفاره بين القاهرة والقدس، واتهم بنقل الأموال والوعود إلى القتلة.[14] وبعد أسبوع واحد من تجريم هؤلاء الأربعة والحكم عليهم بالإعدام تم شنقهم.

قيل إن سرعة المحاكمة والعجلة التي تم بها تنفيذ الأحكام كانت من صنع كيركبرايد، الذي أراد التعجيل بإنهاء المحاكمة لصالح الاستقرار السياسي في الأردن، كما تحدثت الشائعات عما كان يخشى من صدور عفو عن المتهمين ما لم يتم إعدامهم فوراً. غير أن السرعة في المحاكمات والإعدامات بالذات، فضلاً عن الدور المزدوج لوليد صلاح كمدع عام ومستشار قانوني للبلاط، أثارت الشكوك، لا لأنها أفضت إلى معاقبة أناس أبرياء، بل لأن المؤامرة كانت على هذه الدرجة من التفاهة والوضوح. فقد كان الاعتقاد ولا يزال أن المؤامرة كانت أوسع، وأن الدوافع كانت أعمق وأكثر تعقيداً.

جرى تصوير القاتل ومن تآمروا معه في القدس بوصفهم قتلة مأجورين، أناساً ينفذون المهمات مقابل أكثر الدوافع خسة، أي مقابل المال. صحيح أن المحاكمة نسجت خيوطاً بين المتآمرين في القدس من جهة، وبين أناس دفعوا المقابل في القاهرة، ولكن ما إن تم تعقب الخيط إلى القاهرة، بعيداً عن موقع التوترات المباشرة المنطوية على الخطر بالنسبة لمستقبل الأردن، حتى تكشفت حقائق الأمور. صحيح أن عبد الله التل كان في القاهرة، ولكن من الذي كان يقف وراءه؟ ففي قاهرة عام (1951 م) كان المرء يستطيع أن يقابل أي شخص.

لاح شبح الحاج أمين وراء أفق المؤامرة، لا لأنه ارتبط بها بالدليل

الملموس، بل لأنه كان يجسد الحقد الذي كان العديد من الفلسطينيين يكنونه لعبد الله. وهذه الكراهية المتجسدة ما لبثت، عبر جعلها أمراً شخصياً وصغيراً، أن سُلبت مغزاها السياسي وبعدها المنطوي على التهديد والخطر. وثمة آخرون اعتبروا أن المؤامرة كانت من صنع المصريين أو السعوديين أو السوريين. وهناك من رأى في تعجل كيركبرايد مسعى بريطانياً للفلفة الموضوع بسرعة. ومما قيل إن بريطانيا كانت تخشى من أن عبد الله كان موشكاً على تحقيق وحدة الأردن والعراق التي لم تكن بريطانيا، حسب رأي هذا التيار، راغبة فيها، لأن من شانها أن تفقدها نفوذها في الأردن، ولأن الدولة الجديدة ستكون أكثر تهديداً لإسرائيل. وكانت شخصية الأب يوجين هود قد شغلت مكاناً بارزاً في الحكايات التي تحدثت عن الغدر البريطاني. كان الرجل أسقفاً إيرلندياً اشتهر بانجذابه إلى الرهبنة، هرباً من جهاز الأمن الإنجليزي المعروف باسم (بلاك آند تانز) في إيرلندا أوائل عقد العشرينيات. وعلى الرغم من أن البعض عزا إليه فضل تعليم الفلسطينيين فنون استخدام المتفجرات خلال الثورة، فإن آخرين زعموا أنه كان قد وافق على التعاون مع المخابرات البريطانية، مقابل السماح له بمغادرة إيرلندا. ثمة نظريات أخرى تركز على الولايات المتحدة التي أخفقت في تنبيه عبد الله وتحذيره من المؤامرة المدبرة ضده.[15] ومثلها مثل بريطانيا كانت الافتراضات تقول بأن أمريكا كانت ضد وحدة العراق والأردن.

تبقى جملة هذه النظريات، وهي ما زالت رائجة إلى اليوم،[16] كاشفة بما تبوح به، بمقدار ما هي كاشفة بما تسقطه وتتغاضى عنه. فالدوافع الكامنة وراء التورط البريطاني أو الأمريكي المفترض ملفقة، لأن العراق والأردن لم يكونا على أبواب الوحدة، كما لم تكن الولايات المتحدة أو بريطانيا مقتنعة بأنهما كانا كذلك. ولم يكن إلقاء اللوم على أية منهما إلا تعبيراً عن النفور من النفوذ الذي كانت هاتان القوتان تتمتعان به في الشرق الأوسط، لا من الوضع الحقيقي لحال علاقتهما بعبد الله الذي كان بالفعل متمتعاً بدعمهما

كلتيهما. أما إلقاء اللوم على سورية أو مصر أو العربية السعودية فكان يعكس بدقة صورة العلاقات السيئة لتلك الدول مع عبد الله في تلك الفترة، ولكنه ظل مفتقراً إلى الدليل. إذا كان مجرد الحقد عليه هو الدافع فإن الفلسطينيين كانوا أقرب. غير أن أحداً من المسؤولين لم يكن مستعداً للاعتراف أمام الملأ باحتمال صدور أي عمل إرهابي عن دوافع قابلة للفهم، ودوافع شديدة القرب. وقد تم الخلط بين الفهم والعفو أو غض النظر، وكان من شأن الاهتداء إلى أسباب شديدة القرب أن ينطوي على الخطر.

اتسم أسلوب إجراء المحاكمة بعنصر ينم عن وجود رغبة في اللفلفة. فتظلمات المتهمين وشكاواهم لم تُسمع. وقد كان التمويه المتعمد لذلك الموضوع ضرورياً، لأسباب سياسية نابعة من طبيعة بنية الأردن في تلك اللحظة. فعلى الرغم من أن قدراً كبيراً من التوتر كان يسود العلاقة بين أهالي شرق الأردن والفلسطينيين، لأن العديد من الفلسطينيين كانوا يشعرون بأن عبد الله كان قد نال جزاءه العادل، لم يكن أمام الفلسطينيين أي بديل سياسي آخر سوى متابعة الحياة داخل الإطار الأردني. فحياتهم الاجتماعية في عام (1951 م) كانت شديدة التجريبية والهشاشة ولا تسمح باستكشاف مظالم الماضي أو إمكانيات الخلاص المستقبلية. أما فكرة فلسطين كدولة مستقلة فكانت غير واردة في ظل الظروف السائدة. شكل اغتيال عبد الله انتقاماً رهيباً ممن قتل الفكرة، ولكنه لم يكن إلا عقاباً لأحداث باتت تاريخاً، بدلاً من أن يشير إلى بداية نظام جديد. وبالتالي فقد كان الحدث نهاية بدلاً من أن يكون بداية. وعلى الرغم من أنه لم يكن دون نظائر في المستقبل فقد كان بلا أصداء. لامس الحدث وتراً حساساً في قلوب العديد من الفلسطينيين الذين كانوا يشعرون بأن عبد الله خذلهم وخانهم، ولكنه لم يدفعهم إلى التمرد على قَدَرهم ومصيرهم. ففي الصدامات التي أعقبت حادثة الاغتيال، كان الشرق أردنيون هم المعتدين الذين صبوا نيران غضبهم على السكان الفلسطينيين.[17]

لم يشكل اغتيال عبد الله دليلاً على إخفاقه على صعيد المهمة التي كرس حياته لها. فغياب التبعات والعواقب بعد الحادث يشير على النقيض مع ذلك، إلى مدى نجاحه. كان الرجل قد قضى حياته وهو يسعى إلى توازن للقوى يمكنه من الاطمئنان إلى أنه ذو أهمية إقليمية. لم يكن شرق الأردن إلا كياناً مصطنعاً لا معنى له، اللهم إلا أهميته بالنسبة للاستراتيجية والاتصالات الإمبريالية البريطانية. وقد كان هذا المعنى معنى سريع الزوال؛ كان من شأنه أن يتلاشى مع تغير المصالح البريطانية إن تراجع النفوذ البريطاني ذاته. ولهذه الأسباب بقي عبد الله على الدوام يتطلع إلى خارج شرق الأردن بحثاً عن دور يمكنه أن يكون أكبر من المصالح البريطانية وحدها، وأن يسمح له بتحقيق وجود مستقل عن مصائر بريطانيا وحظوظها. فما إن انحسر المد البريطاني في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية، حتى بات ليس فقط متمتعاً بفرصته القادرة على تمكنيه من العثور على دور إقليمي جديد، بل ومضطراً لأن يبادر إلى السعي في سبيل الاضطلاع بمثل هذا الدور.

مع الإجهاز على فلسطين اهتدى عبد الله أخيراً إلى ضالته المنشودة. لم يكن ما أكد نجاح عبد الله متمثلا بالضم المجرد للأراضي، أو بالهيبة الناجمة عن إدخال مدينة القدس القديمة في مملكته. فقد كانت الضفة الغربية صغيرة جداً، والقدس مقسمة آخر المطاف. بالأحرى، كان عبد الله قد اكتشف، مع تدمير فلسطين، ميزاناً جديداً للقوى بات أخيراً يضفي على الأردن وعليه هو نفسه وزناً أكبر في المنطقة ومعنى تاريخياً أوسع. ونشأ هذا التوازن أولاً بين المصالح البريطانية والأمريكية والإسرائيلية. فبريطانيا والولايات المتحدة كانتا قد قررتا عدم تأييد أية فلسطين مستقلة، ولكنهما كانتا، في الوقت نفسه تريدان تقليص الأضرار التي كان من شأن خلق إسرائيل ـ التي لا يستطيع أحد أن ينكر أنها لم تنشأ إلا بفضل الدعم البريطاني والأمريكي إلى حد كبير ـ أن يخلقها لعلاقاتهما مع البلدان العربية. وكذلك فإن موت

عبد الله أدى إلى رفع مستوى نوع من وعي الذات في الغرب، كان ذا قيمة لا يستهان بها بالنسبة لاستمرار وجود الأردن، لان موته أزاح حجاب (التقاليد) و(الهيبة) الذي كانت بريطانيا قد درجت على التذكير به لتبرير موقفه، وذكّر بريطانيا، وخليفتها الولايات المتحدة، بدوريهما في دعم الأردن والأسرة الملكية الهاشمية والمحافظة عليهما.[18]

أما إسرائيل فكانت من جانبها تريد أولاً زوال فلسطين من الوجود كدولة، وانطفاء فلسطين كفكرة بعد ذلك، لأن مجرد ذكر ما كان موجوداً خلال العصور الممتدة بين عهد مملكة داود وعام (1948 م) كان يهدد بنسف أسس الدولة اليهودية، وصورة الشجاعة والإنسانية والنجاح في مواجهة المحن، التي اعتبرها غرب ما بعد الحرب شديدة القسوة والإكراه. جاء احتمال قيام الأردن بامتصاص هوية فلسطين والإجهاز عليها توافق توافقاً كاملاً مع حاجات إسرائيل الحقيقية والفكر العقائدي. وما لبثت الدول العربية هي الأخرى أن أصبحت، تدريجياً تقدّر فائدة الدور الأردني الجديد، لأن الأردن وفر عليها أعباء رفع راية القضية الفلسطينية بصورة مباشرة من جهة، أو الاضطرار المطلق للاعتراف بعجزها عن فعل ذلك من الجهة المقابلة.

كان إطار هذا التوازن الجديد الناشئ قد تم بناؤه لدى اغتيال عبد الله. وقد جرى، بالفعل، إتقان بنائه، إلى حد أن النظام لم يتعرض لأي تهديدات جدية على الصعيدين الداخلي والخارجي في هذه الأوقات العصيبة المؤهلة لأن يشهد قدراً كبيراً من البلبلة، رغم ظروف اغتيال عبد الله، مسألة ولاية العهد الصعبة جراء اختلال طلال العقلي. صحيح أن العراق حاول، دون جدية كبيرة، وضع الأردن تحت جناحه، مدعياً أن عبد الله كان موشكاً على إصدار تشريع يقضي بنقل ولاية العهد إلى الفرع العراقي من الأسرة بسبب عيوب ونواقص وريثه هو،[19] غير أن أي برهان على صحة الادعاء لم يكن موجوداً فضلاً عن أن أحداً لم يقتنع به.

بعد شهرين من عاصفة الإشاعات الدائرة حول سبب تعذر سماح بريطانيا لطلال باعتلاء العرش، لأنه كان ممقوتاً ومثيراً للريبة بوصفه وطنياً قومياً، أو لأن بريطانيا كانت تفضل الوحدة مع العراق لأنها كانت «متحكمة بالوصي على العرش من قمة الرأس إلى أخمص القدم» أو أنها كانت تميل إلى وصاية عرش يتولاها نايف الموالي لبريطانيا، حتى يبلغ ابن طلال البكر، حسين سن الرشد؛ بعد ذلك كله عاد طلال إلى الوطن.[20] جاء في اليوم الذي أعقب يوم تنفيذ أحكام الإعدام، وتم تتويجه ملكاً في اليوم التالي الواقع في السادس من أيلول عام (1951 م). غير أن البرلمان الأردني ما لبث، في غضون عام واحد، أن أعلن عدم أهليته عقلياً لأن يحكم. فتنازل عن العرش لابنه البكر حسين ملك الأردن الحالي.

ملاحق

أسماء المندوبين الساميين البريطانيين في فلسطين:

Sir Herbert Samuel	1920-5
Field Marshal Viscount Plumer	1925-8
Sir John Chancellor	1928-31
Lt. General Sir Arthur Wauchope	1931-8
Sir Harold MacMichael	1938-44
Field Marshal Viscount Gort	1944-5
Sir alan Cunningham	1945-8

أسماء المقيمين البريطانيين في شرق الأردن:

Albert Abramson	April 1921-November 1921
H. St. John Bridger Philby	November 1921-April 1924
Sir Henry Fortnam Cox	April 1924-March 1939
Sir Alec Seth Kirkbride	March 1939-December 1951

أسماء وزراء شرق الأردن:

رشيد طليعة	نيسان 1921	-	آب 1921
مظهر رسلان	آب 1921	-	آذار 1922
علي رضا الركابي	آذار 1922	-	شباط 1923
مظهر رسلان	شباط 1923	-	أيلول 1923
حسن خالد أبو الهدى	أيلول 1923	-	نيسان 1924

علي رضا الركابي	نيسان 1924	-	حزيران 1926
حسن خالد أبو الهدى	حزيران 1926	-	شباط 1931
عبد الله سرّاج	شباط 1931	-	تشرين الثاني 1933
إبراهيم هاشم	تشرين الثاني 1933	-	أيلول 1938
توفيق أبو الهدى	أيلول 1938	-	تشرين الأول 1944
سمير الرفاعي	تشرين الأول 1944	-	أيار 1945
إبراهيم هاشم	أيار 1945	-	شباط 1947
سمير الرفاعي	شباط 1947	-	كانون الأول 1947
توفيق أبو الهدى	كانون الأول 1947	-	نيسان 1950
سعيد المفتي	نيسان 1950	-	كانون الأول 1950
سمير الرفاعي	كانون الأول 1950	-	تموز 1951
توفيق أبو الهدى	تموز 1951		

الهوامش(*)

1) المدخل:

1) [إمارة] شرق الأردن أضحت (المملكة الأردنية الهاشمية) وفق دستور عام (1947 م).

2) (John Bagot Glubb, *A Soldier with the Arabs* (London, 1957) pp. 63 and 66). وكان علوب باشا القائد البريطاني للفيلق العربي هو المترجم في الاجتماع بين الرجلين. ومن الثابت أن الوثائق البريطانية التي تؤكد على أن الاجتماع قد حصل على الرغم من أنها لا تنقل كلاماً مباشراً من بيفن، إلا أنها تؤيد مضمون هذه الرسالة. انظر ملخص الحديث مع رئيس وزراء شرق الأردن حول فلسطين، السادس من شباط عام (1948 م) (FO 371/68367).

3) See for example, *Samuel to Churchill*, 12 August 1922, CO 733/23, and Milner to Churchill, 3 September 1922, CO 733/38.

4) (Julian Huxley, *From an Antique Land* (London, 1954), pp. 111-13). وللوقوف على ما يشير إلى أن عبد الله كان يعرف موقفه جيداً انظر (Mendel Cohen, be-Hatser ha-Malek Abdullah (Tel Aviv, 1980), p. 59) وقارن ذلك مع وصف (لورنس) التالي:

> كثيراً ما قام دماغه بفضح نموذجه المعقد، إذ دأب على الكشف عن فكرة تلفها أخرى بإحكام في شبكة قوية من التصميم مما أدى إلى جعل كسله يعطل تآمره أيضاً. فقد كانت الشّباك تتكشف باستمرار جراء لامبالاته في تركها سائبة. ومع ذلك فإنها لم تفض قط إلى رغبات صريحة أو تتحول إلى رغبات فعالة. كان على الدوام يراقب من طرف عينه الساهمة المفتوحة ردودنا على أسئلته التي تتظاهر بالبراعة ملتمساً مكراً حشرياً لمعنى ذي مغزى في كل تردد أو شك أو خطأ بريء. (T. E. Lawrence, Seven *Pillars*)

(*) قمنا بترجمة فقط تلك الهوامش التي تساعد في فهم النص أو شرحه، وتركنا تلك التي تحوي إشارات إلى وثائق أو مراجع غير مترجمة كما هي، حيث يمكن القارئ المتمكن من اللغة الأصلية من قراءة الهامش والمرجع ذي العلاقة.

.(of Wisdom* (London, 1983), p 220

5) انظر الجدول المرفق.

6) 'A Note on the Possible Political Results of Disbanding the Arab Legion Infantry Companies', J. B. Glubb, 1946, FO 371/52930.

7) انظر الفصل الرابع.

8) See for example, *Abdullah to Bevin*, 30 August 1947, and Pirie-Gordon to FO, 10 September 1947, FO 371/62226.

9) See Elizabeth Monroe's book of the same name, *Britain's Moment in the Middle East.* (London, 1963).

* * *

2) بين مكة واسطمبول:

1) الملك عبد الله بن الحسين: المذكرات في: عمر المدني (تحرير): **الآثار الكاملة للملك عبد الله**، عمان 1977. وهذه الطبعة من مذكرات عبد الله أي **مذكراتي** نشرت في عمان للمرة الأولى في عام (1945 م) وهي الموظفة خلال هذا العمل. سيشار إليها لاحقاً باسم (المذكرات).

2) C. Van Arendonk, 'Sharif', *Encyclopaedia of Islam*, Vol. 4 (London, 1934), pp. 328-9.

3) اللقب الرسمي كان (شريف مكة وأميرها). أما اللقب (شريف) أو (الشريف الأكبر) الذي استخدمه الإنجليز فقد صار هو المعروف في الغرب.

4) **المذكرات**، ص 40.

5) Note by Hubert Young, 18 June 1919, FO 371/4194. وقد عُرف العبادلة بلقب (دوو عون).

6) Saleh al-Amr, '*The Hijaz under Ottoman Rule 1869-1914*. The Ottoman Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Influence' (unpublished Ph D dissertation, University of Leeds, 1974), pp. 1-3.

7) C. Snouck Hurgronje, *Mekka in the Latter Part of the Nineteenth Century* (London, 1931), pp 185-95.

8) Al - Amr, *The Hijaz under Ottoman Rule*, p. 2-10

9) Ibid., pp 205-6 and 209.

10) Charles M. Doughty, *Travels in Arabia Deserta*, Vol 2 (Cambridge, 1888), pp. 661-2, William Ochsenwald, *Religion, Society and the State in Arabia* (Columbus, 1984), pp. 201-2.

11) Ochsenwald, *Religion, Society*, pp 6-8 and 164.

12) (Ibid., pp. 29-36). على الرغم من أن الأمر كان ينطوي على بعض المجازفة فإن

الشريف كان يستطيع إثارة بعض القبائل للحصول على التنازلات من إسطمبول. ففي عام (1902 م) مثلاً اتهم الشريف بتشجيع القبائل على مهاجمة قوافل الحج، كي يتمكن من اتهام الوالي بعدم الكفاءة وصولاً إلى إزاحته. (René Tresse, Le .(Plerinage Syrien aux villes saintes de l'Islam (Paris, 1937), p. 57

13) Karl K. Barbir, *Ottoman Rule in Damascus*, 1708-1758 (Princeton, 1980), p. 109.
14) Ibid., pp. 108 ff, Ochsenwald, Religion, Society, pp 32-3.
15) The description of Mecca is based on the following sources: al-Amr, *The Hijaz under Ottoman Rule; Arab Bulletin*, no. 29 (3 November 1916); John Lewis Burckhardt, *Travels in Arabia* (London, 1824); David George Hogarth, *Hejaz Before World War* I (Cambridge, 1978); H Kazem-Zadeh, *'Relation d'un pèlerinage à la Mecque en 1910-1911, l'l Revue du Monde Musulman'* 19 (1912), 169-82; John F. Keane, *Six Months in the Hijaz* (London, 1887); Ochsenwald, *Religion, Society;* Snouck Hurgronje, *Mekka*; René Tresse, *Le Pèlerinage Syrien;* A. J. B. Wavell, *A Modern Pilgrim in Mecca* (London, 1918); R. Bayly Winder, *'Makka, the Modern City,'* typescript of article for the Encyclopaedia of Islam, new edition
16) For information on sources of income and expenditure see: Burckhardt, *Travels*, pp. 220-36; Snouck Hurgronje, *Mekka*, pp. 22 and 28; Ochsenwald, *Society, Religion*, pp. 101-6.

17) المذكرات، ص 40 - 43؛ .Snouck Hurgronje, Mekka, p. 41

18) المذكرات، ص 43؛ الهلال (عدد خاص، نيسان 1939) بأكمله.

19) Ochsenwald, *Religion*, Society, p. 7.

20) المذكرات، ص 43.

21) المصدر السابق، ص 45 و50.

22) Niyazi Berkes, *The Development of Secularism in Turkey* (Montreal, 1964), pp. 255-9.
23) For more information on Abu'l-Huda al-Sayyadi, see Butrus Abu-Manneh, '*Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abdulhuda Al-Sayyadi,*' *Middle Eastern Studies* 15:2 (May 1979), 131-54.
24) H. St John Philby, *Stepping Stones Across the Jordan* (unpublished manuscript), p. 34 Philby Papers.

25) المذكرات، ص 52.

26) (Ibid., p. 52.). كان الأشخاص التالية أسماؤهم يتابعون الدراسة في إسطمبول حين كان عبد الله مقيماً فيها: رشيد طليعة، درزي من منطقة الشوف اللبنانية، مظهر رسلان من حمص، وعلي رضا الركابي من دمشق وجميعهم رؤساء وزارة في شرق الأردن؛ محمد علي العابد وشكري القوتلي، رئيسان للجمهورية في سورية لاحقاً؛

رياض الصلح، رئيس وزارة لاحق في لبنان؛ عوني عبد الهادي من نابلس، زعيم حزب الاستقلال في فلسطين لاحقاً؛ ونوري السعيد، جعفر العسكري وياسين الهاشمي، وجميعهم رؤساء وزارة لاحقون في العراق.

27) حديث مع الأميرة فوزي ابنة حسن خالد، لندن، 23 تشرين الأول عام (1978 م) كان (HRH Princess Musbah Haidar, *Arabesque* (London, 1944), p. 80) عبد الله وأشقاؤه مولعين بزيارة تشاملوجا التي هي مزرعة علي حيدر في الطرف الآسيوي من البوسفور حيث كان يربي جياداً عربية. وحسب رواية الأميرة مصباح فإن: «أباهم كان شديد البخل، ولم يكن ليسمح لهم بتربية أية خيول عربية - فالأسرة لم تكن تعيش في أجواء الرغد والرخاء التي كانت سائدة في تشاملوجا.

28) George Stitt, *A Prince of Arabia the Emeer Shereef Ali Haidar* (London, 1944), pp. 93-4.

29) (محمد لبيب البطنوني، الرحلة الحجازية. القاهرة 1911، ص 80 - 81.) Regarding the disturbances in Mecca see also PRO, FO 371/561. Monahan (British Consul in Jidda) to Sir Gerard Lowther (British .Ambassador in Istanbul), 2 December 1908

30) (المذكرات، ص 46 - 48). The *irade* appointing Husayn sharif of Mecca is in Basbakanlik Arsivi, Dahliye 1326/Sevval No. 45, 'Mekke-i Mülk erreme Emaretine erif Hiseyin Pasa'nin tayinine dair. It is a re'ser *irade*, .meaning one that was not initiated by the government

31) (مادي حسين ناصيف، الحجاز وحاضره. القاهرة 1930، الجزء الثاني، ص 6.) al-Amr, *The Hijaz under Ottoman Rule*, p. 158; C. Ernest Dawn, *From Ottomanism to Arabism* (Urbana, 1973), p. 5; (المذكرات، ص 47 - 48) .Stitt, *Prince of Arabia*, p. 103

32) Lowther to FO, 24 November 1908, FO 371/561.

33) المذكرات، ص 54-55.

34) لقاء مع الأميرة فوزي في لندن بتاريخ 23 تشرين أول (1978 م) ولقاء مع غلوب باشا القائد العام الأسبق للفيلق العربي في ميفيلد/سسكس بتاريخ 14 حزيران (1978 م). انظر أيضاً المذكرات، ص 50-53.

35) المذكرات، ص 60.

36) Monahan to Lowther, 5 December 1908, FO 195/2286.

37) Wavell, Modern Pilgrim, pp. 75, 78, and 200; Tresse, Pèlerinage, pp. 88 and 335, Dawn, *Ottomanism*, p. 6; (المذكرات، ص 65-66)؛ Philip S.

Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism· The Politics of Damascus, 1860-1920* (Cambridge, 1983), p. 87.

38) Report from Akaba, 20 June 1918, MD, Service Historique de L'Armeé, Série 7N-2141.
39) Khoury, *Urban Notables*, p. 57.
40) المذكرات، ص 68.
41) خير الدين الزركلي، ما رأيته وما سمعته. القاهرة 1923، ص 109. (Alec Seath) (Kirkbride, *A Crackle of Thorns* (London, 1956), pp. 169-70.)
42) C. E. Vickery, 'Arabia and the Hedjaz,' *Journal of the Royal Central Asian Society* 10:1 (1923), 58-9.
43) Monahan to Lowther, 7 March 1912, FO 371/1487.
44) Monahan to Lowther, 12 March 1909, FO 371/767.
45) Monahan to Lowther, 23 March 1909, FO 195/2350.
46) للاطلاع على وصف رحلة الخديوي إلى الحج انظر الرحلة الحجازية.
47) See George Antonius, *The Arab Awakening* (New York, 1965), pp. 101 ff; Zeine Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism* (Beirut, 1966), pp. 83 ff.
47) المذكرات، ص 89.
49) Monahan to Lowther, 7 March 1912, FO 371/1487 See also G. P. Gooch and Harold Temperly (eds), *British Documents on the Origins of the War*, 1898-1914 (London, 1938), Vol. 10, part 2, p. 829. Antonius claims otherwise: see *Arab Awakening*, p. 126.
50) Again, Antonius claims otherwise: *Arab Awakening*, p. 129.
51) Feroz Ahmad, *The Young Turks* (Oxford, 1969), p. 67.
52) Neville Mandel, *The Arabs and Zionism Before World War* I (Berkeley, 1976), pp. 104-5.
53) Lowther to Grey, 4 December 1911, FO 371/1259.
54) المذكرات، ص 78-79.
55) (في مذكرات شفيق كمالي باشا) العرب، عدد 10، السنة الخامسة (حزيران 1971) ص 913، وعدد 2، السنة السادسة (تشرين الأول 1971) ص 92.
56) Monahan to Lowther, 18 September 1911, FO 371/1231; Abd al-Rahman (acting British consul) to Lowther, 24 August 1911, FO 195/2376; and report on the Turkish Campaigns in Yemen and Asir, January 1912, FO 882/10; (المذكرات، ص 81 و84-85)؛ (في مذكرات سليمان باشا، العرب، العدد 5، السنة السادسة (كانون الثاني 1972) ص 357-358، والاقتباس من (في مذكرات سليمان باشا، ص 358).

57) Monahan to Lowther, 18 September 1911, FO 371/123 1.

58) المذكرات، ص 71. (Dawn, *Ottomanism*, p. 9). وكانت الرحلة بالقطار من دمشق إلى المدينة المنورة تستغرق ثلاثة أيام وثلاث ليال، وكان سعر بطاقة الدرجة الثالثة جنيهين ذهبيين. (Tresse, Plerinage, p. 337).

59) Memorandum on the position on the Grand Sherif, enclosure in a letter from Mallet to Grey, 18 March 1914, FO 371/2128.

60) المذكرات، ص 94.

61) Abdullah may have met Kitchener before this, in 1912 or 1913 for a complete discussion and evaluation of the conflicting evidence see Dawn, *Ottomanism*, pp. 58-63.

62) Kitchener to Grey, 6 February 1914, FO 371/2130.

63) المذكرات، ص 90-91.

64) Memorandum on Hijaz affairs by Devey (British consul in Damascus), 30 March 1914, FO 371/2130.

65) المذكرات، ص 96.

66) المصدر السابق، ص 102-103.

67) Note by Storrs, 19 April 1914, FO 141/460.

68) المذكرات، ص 103-104.

69) المصدر السابق، ص 111-112؛ (Ameen Rihani, *Around the Coasts of Arabia* (London, 1930), P. 110).

70) Abdullah to Storrs, 20 October 1914, FO 371/6237.

71) سليمان موسى، **مراسلات تاريخية** 1914-1918. عمان 1973، ص 27-28.

72) Abdullah to Storrs, 30 November 1914, FO 371/6237.

73) Wingate to Clayton, 28 November 1914, Clayton Papers, Box 469/7.

* * *

3) الثورة العربية:

1) 'The Sherifs', by T. E Lawrence, 27 October 1916, FO 882/5, p. 41.

2) Notes by T. E. Lawrence, 24 April 1917, FO 686/6

3) Dawn *Ottomanism* pp. 45-9.

4) See for example Arab Bulletin, no. 36 (26 April 1916), p 558, which contains Faysal's account of the genesis of the revolt as told to Lawrence; (المذكرات، ص 113)؛ Antonius, *Arab Awakening*, pp. 130-1, and Dawn, *Ottomanism*, pp. 54-68

5) Note on the sums paid to the Kıng of the Hedjaz, n.d., FO 371/3048

6) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى. الجزء الأول، القاهرة (دون تاريخ) ص 128.

7) For texts of the letters, see Antonius, *Arab Awakenıng*, Appendix A.

8) Ahmad Djemal, *Memorıes of a Turkısh Statesman*, 1913-1919 (New York, 1922), p. 222 المذكرات، ص (116-114)؛ 'Note on the sums ,' FO 371/3049

9) 'Note sur le mouvement Arabe', Parıs, 13 February 1917, MD, Service Hıstorıque de L'Armeé, Srıe 7N-2140.

10) *Arab Bulletin*, no. 23 (26 September 1916), p. 303.

11) Informatıon on the sıege of Ta'ıf was found in *Arab Bulletin*, no. 23 26 September 1916), p 303, ıbid., no. 30 (15 November 1916), p. 439; and (المذكرات، ص127 - 124).

12) Extract from Ronald Storrs' dıary, 16, 17 and 18 October 1916, in McMahon to FO, 28 October 1916 FO 371/2782.

13) 'The Sherıfs,' by T E. Lawrence, 27 October 1916, FO 882/5, pp. 40-1.

14) C E. Wılson (Brıtısh consul. Jidda) to McMahon, 5 November 1916, FO 371/2782, E. Brmond, Le Hedjaz dans la Guerre Mondiale (Paris, 1931), pp 74-5.

15) 'Attitude of Great Brıtain and France to the Sherif's proclamation of the assumptıon of the title. "Malik el Bilad el Arbia [sic]", n.d., FO 882/5.

16) Telephone message from Abdullah, 1 November 1916, FO 882/5.

17) 'The Sherıfs', by T E. Lawrence, 27 October 1916, FO 882/5; C. E. Wılson to General (?), 5 October 1916, Arab Affairs File, Box 141/1; Wıngate to Clayton, 30 November 1916, Clayton Papers, Box 470/4.

18) Summary of the Hejaz Revolt, 30 September 1919, FO 882/7.

19) 'The Sherifs,' by T. E. Lawrence, 27 October 1916, FO 882/5.

20) Note on the Arab Forces, 26 June 1917, FO 882/6.

21) Notes by T E Lawrence, 24 Aprıl 1917, FO 686/6, part 2; Maurice Lars, T E Lawrence, la France et les Franais (Parıs, 1980), pp. 151-3.

22) Brémond, *Hedjaz*, p. 72. The reference is to the famous meeting of Henry VIII and François I in 1520, known to English hıstorians as 'the Fıeld of the Cloth of Gold'

23) Report by T. E. Lawrence, 16 April 1917, FO 686/6, part 2.

24) Interview wıth Fakhr al-Din Pasha, 15 April 1919, FO 686/57.

25) T. E. Lawrence, *Seven Pıllars of Wisdom* (New York, 1935), p. 216 Lawrence constantly compared Abdullah with Faysal, to Abdullah's detrıment. John Mack, author of *A Prince of our Disorder* (London, 1976), speculated that it was Faysal's relative tallness, like that of Lawrence's brother Wıll, whıch drew Lawrence to Faysal rather than

to Abdullah, who was even shorter than himself. Conversation with John Mack, Boston, July 1978.

26) Report by T. E. Lawrence, 16 April 1917, FO 686/6, part 2.

27) المذكرات، ص 71.

28) 'The Politics of Mecca', 1916, FO 371/2771.

29) For text of treaty see Gary Troeller, *The Birth of Saudi Arabia* (London 1976) pp. 254-6

30) Cornwallis to Clayton 9 December 1917, FO 882/8.

31) المذكرات، ص 139.

32) Lawrence, *Seven Pillars*, p 213

33) Note on conversation with the Amirs Abdulla and Faisal, I May 1917, FO 882/16.

34) أعطت بريطانيا الحسين راتباً شهرياً قدره (125) ألفاً من الجنيهات الإسترلينية ليوزعه على أبنائه حسب حاجاتهم. وبالمناسبة فإن عبد الله كان يحصل على رشوة مباشرة من بريطانية إضافة إلى مبلغه. ثمة ملاحظة عن المبالغ في الوثائق التالية: (FO 371/3048، Treasury to FO, 20 November 1916, FO 371/2782, Wilson to Husayn, 29 March 1917, FO 686/34; Wingate to FO, 25 March 1918, FO 371/3393).

35) Davenport to Bassett, 16 March 1918, FO 882/7; Davenport to Bassett, 13 April 1918, FO 686/49, Bassett to Arab Bureau, 22 August 1918, FO 686/5 'Hejaz Post-War Finance', Garland, n.d,. FO 882/23; St Quentin (Cairo) to Ministére de la Guerre, 6 March 1918, MD, Service Historique de L'Armée, Série 16N-3201, 'Egypte', no. 13.

36) *Arab Bulletin*, no. 74 (24 December 1917), pp 511-13.

37) Jidda to Cairo, 20 March 1918, FO 686/38

38) *Arab Bulletin*, no. 96 (9 July 1918).

39) حديث مع ولي العهد الأمير حسن في عمان في كانون الأول 1978؛ خير الدين الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين** (عشرة مجلدات). القاهرة 1954-1957. الطبعة الثالثة، المجلد الثاني، ص 340 - 341.

40 C. E Wilson to Abdullah, September 1918, FO 686/15.

41) حديث مع سُلَيم بن جابر (الذي كان من رفيق الشريف شاكر، وحارب في خُرمَة) في عمان بتاريخ 21 تشرين الثاني 1978؛ (Davenport to Arab Bureau, 19 September 1918, FO 882/9).

42) سليمان موسى، **الثورة العربية الكبرى: الحرب في الأردن 1917-1918، مذكرات الأمير زيد.** عمان 1976، ص 110؛ (Cairo to Jidda, 28 October 1918,)

.(conveys message from Faysal to Husayn, FO 141/438

43) Cornwallis to General Headquarters, 25 October 1918, FO 141/438; interview with King Husayn, 16 November 1918, FO 686/40.

44) Elie Kedourie, 'The Surrender of Medina, January 1919', *Middle Eastern Studies* 13:1 (January 1977), p. 132; C. E Wilson to Husayn, 30 December 1918, FO 686/ 40, minute by G. K [George Kidston], 6 January 1919, FO 371/4166.

45) Wingate to FO, 7 December 1918, FO 371/3416; *Arab Bulletin*, no. 108 (11 January 1919), pp. 6-7.

46) Kedourie, 'Surrender', p. 134; *Arab Bulletin*, no. 108 (11 January 1919), pp. 6-7.

47) *Arab Bulletin*, no 109 (6) February 1919.

48) Beirut to Ministére de la Guerre, 24 January 1919, MD, Service Historique de L'Armée, Série 16N-3201', 'Egypte', dossier 1.

49) حديث مع جُبَير (وهو عضو من قبيلة عُتيبة) في عمان بتاريخ 13 كانون الأول 1978، وآخر مع شُلَيم بن جابر. والرحلان، كلاهما شاركا في المعركة. انظر أيضاً المراجع التالية: Husayn to Faysal, 2 June 1919, FO 686/17, and Intelligence and) .(Political Report, 27 October to 21 November 1919, FO 686/26

50) Telegram from Catroux, 25 May 1919, MD, Service Historique de L'Armeé, *Série* 7N-2143, Mission du Hedjaz, dossier Raho. Abdullah praised Raho as a 'soldier to the last minute'. See also Lars, T. E. Lawrence, p. 87.

51) Abdullah to C. E. Wilson, 3 June 1919, FO 686/17.

* * *

4) خلق شرق الأردن:

1) For the struggle in each country between imperial and anti-imperial forces see Monroe, *Britain's Moment*, pp. 137 ff;. Christopher M. Andrew and A. S. Kanya-Forstner, *France Overseas* (London, 1981), pp. 164 ff.

2) Col. Georges Catroux (Jidda), 11 October 1919, MD, Service Historique de L'Armeé, Srie 7N-4184, dossier 4.

3) The twenty-nine included Ja'far al-'Askari, Naji al-Suwaydi, and 'Ali Jawdat, all future prime ministers of Iraq. Ernest Scott (Ramleh) to FO, 24 September 1920, FO 371/5040.

4) Ernest Scott (for Samuel) to Curzon, 16 May 1920, FO 141/510; Catroux, I June 1920, MD, Service Historique de L'Armeé, 'Série 16N-3203' dossier 7.

5) محضر اجتماع اللجنة الشرقية الذي عقد في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام

(1918 م) (FO 371/4148). لم يكن أي من سسيل ومونتاغيو مستندين إلى معلومات مباشرة، بل يفترض أنهما، كليهما، كانا معتمدين على تقارير صادرة عن ضباط سياسيين بريطانيين في الشرق الأوسط. وكان ارتباط عبد الله بالعراق قد نشأ مما عُرف باسم (الحل الشريفي) الذي كان يقضي بأن أبناء الشريف حسين سوف يحكمون أجزاء من المملكة العربية الموعودة في ظل الوصاية البريطانية والفرنسية. وقد كان الهدف من إشراك أبناء الحسين هو الحصول على موافقة الأخير على تقسيم الأراضي العربية ووضعها تحت الانتداب.

6) في الرابع عشر من حزيران عام (1920 م) كتبت (بل) تقول: «ما كان من شأنه أن يبسط الأمور حقاً هو أن يطالبوا بعبد الله، شقيق فيصل، أميراً. فعبد الله (جنتلمان) يحب أن يرى نسخة من الفيغارو كل صباح مع طعام الفطور. ليس عندي أي شك بأننا ستتعايش معه تعايشاً شهيراً» (*Getrude Bell from her Personal Papers* (1914-1926 (London, 1961), p. 140

7) Minutes of a meeting of the Eastern Committee held on 27 November 1918, FO 371/4148.

8) See the exchange, Arab Bureau to C. E. Wilson (Jidda), 27 January 1919, C. E. Wilson to Arab Bureau, 28 January 1919, and Arab Bureau to FO, 30, January 1919, FO 882/23.

9) Brinton Cooper Busch, *Britain, India, and the Arabs*, 1914-1921 (Berkeley, 1971), pp 412-14.

10) انظر ساطع الحصري، **يوم ميسلون**. بيروت (د. ت).

11) **مذكرات**، ص 156؛ سليمان موسى، **تأسيس الإمارة الأردنية** 1921-1925، ص 46 و181؛ **ما رأيت...** ص. 25.

12) (A. T. Wilson to FO, 31 July 1920, FO 371/5038). حتى تلك النقطة كان ولسن مؤيداً لفكرة الإدارة البريطانية المباشرة. وقبل يومين اثنين فقط عبَّر عن الرأي القائل بأن على بريطانيا إما أن (تحكم أو ترحل) (Busch, Britain, India, and the Arabs, pp. 412-14). وثمة مؤرخون عرب يعترفون أيضاً أن فيصلاً كان في ميسلون قد أخذ درساً لم يكن قادراً على نسيانه إلى الأبد، ما رأيت، ص 125.

13) A. T. Wilson to FO, 31 July 1920, FO 371/5038, Arnold Talbot Wilson, *Loyalties Mesopotamia*. Vol. 11 1917-1920 (Oxford 1931), p. 244.

14) Samuel to FO, 30 July 1920, and FO to Samuel, 5 August 1920, FO 371/5038.

15) **يوم ميسلون**، ص 201.

16) Nasır al-Dın Ahmad (Mecca), report for period ending 31 August 1920, FO 686/12.

17) Report by Major Batten (Jidda), 10-20 September 1920, FO 371/5243.
18) Report by Vickery (Jidda), 6 March 1920, FO 371/5061.
19) Jidda reports for period ending 19 August 1920 and for period 1-10 September 1920, FO 371/5243; Batten to FO, 5 September 1920, FO 371/5064.
20) Nasir al-Din to Batten, 26 September 1920, FO 686/12; Jidda Report, 20-30 September 1920, FO 686/26; Jidda Report, 10-20 October 1920, FO 371/5243.
21) Allenby to FO, 13 November 1920, FO 371/5066

22 خير الدين زركلي: عامان في عمّان. القاهرة, 1925, ص 24.

23) Hubert Young to Lord Hardinge (British Ambassador in Paris), 27 July 1920, FO 371/5254.
24) Curzon to Samuel, 6 August 1920, ISA 2/50a.

25) خلال حكم فيصل كانت فرنسا قد حاولت كسب التأييد في شرق الأردن، عن طريق توزيع الهدايا على شيوخ العشائر. إن كميات كبيرة من الهدايا التي حملت عبارة (من باريس لشيوخ شرق الأردن العظماء) تم توزيعها حسب ما جاء في التقارير، وقد ساعدت على زرع الخلافات بين الزعماء العشائريين والقوميين العرب في دمشق. عاد كبير شيوخ بني صخر مثقال بن فايز من زيارة له إلى حيفا في سيارة فرنسية وقد بات، كما قيل، أكثر غنى بمبلغ ألف جنيه استرليني. وبعد الاحتلال الفرنسي كان قد تم تعيينه محافظاً في السلط، كما أن جميع الشيوخ حتى الكرك جنوباً جرت دعوتهم إلى اجتماع عقد في دمشق. غير أن الحكومة الفرنسية نفت وجود أية نيات لديها لمد نفوذها إلى شرق الأردن (Report by I. N. Camp (Political Liaison Officer), 19 February 1920, ISA 2/1; Samuel to FO, 6 August 1920, FO 371/5038, FO to Samuel, 11 August 1920, FO 371/5121).

26) FO to Samuel, 6 August 1920, FO 371/5121.

27) وجه حاييم وايزمن رسالة إلى صموئيل عشية طرد فيصل من سورية، مؤكداً فيها على أهمية الهضبة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن بالنسبة للوطن القومي اليهودي. (Meyer W. Weisgal (ed.), The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Vol. 10, series A (Jerusalem, 1977), pp. 4-5).

28) The quote is from Monckton to C. P. Cook, 16 August 1974, Monckton Papers. Monckton was one of the British political officers in Transjordan. For the duties of the political officers sent to Jordan, see: Note of a conversation between R. F. C. Monckton and P. A. Alsberg (ISA archivist), Monckton Papers-FO to Samuel, 11 August 1920, FO 371/5121; Deedes to Tilley, 27 September 1920, F0371/5123

See also Kirkbride, Crackle of Thorns, pp. 18-28.

29) FO to Samuel, 11 August 1920, FO 371/5121.

30) Samuel to his wife, 13 August 1920, Samuel Papers/41.

31) Samuel to Faysal and Faysal to Samuel, 16 August 1920, FO 371/5039.

32) Diary, Samuel Papers/41, 20 August 1920.

33) (Diary, Samuel Papers/41, 22 August 1920). ضمن الحاضرين كان كل من رُفيفان باشا المجالي من الكرك، حامد بن جازي من قبيلة الحويطات، والشيخ سلطان من قبيلة العدوان. وكان رُفيفان باشا وسلطان العدوان هما من طلبا العفو. (Note of a conversation between R. F. C. Monckton and P. A. Alsberg, Monckton Papers. See also Elie Kedourie, *The Chatham House Version (and Other Middle Eastern Studies* (London, 1970), p. 61.

34) Samuel to FO, 28 November 1920, FO 371/5290; Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate· The Politics of Arab Nationalism* Princeton, 1987, (Chapter 4).

35) GHQ Egypt to WO, 20 December 1920, FO 371/5290.

36) Samuel to FO, 30 November, 7 December and 12 December 1920, and 'Summary of Events' by Deedes, 20 December 1920, FO 371/5290, (عامان في عمان ص 4-5).

37) لاحظ التمييز هذا في ذلك الوقت فؤاد سليم الذي صنف أولئك الذين التقوا عبد الله كـ (زعماء البلاد) و(رجال النهضة). انظر تأسيس. ص 53.

38) كان الزعماء التقليديون هم عودة أبو تايه (الحويطات)، غالب شعلان (الروله) حامد بن جازي (الحويطات)، مثقال ابن فايز (بني صخر)، حديثة الخريشة (بني صخر)، شيخ العيسى (غير معروف)، حسين الطراونة (الكرك)، عطوي المجالي (الكرك)، سعيد خاير (رئيس بلدية عمان)، سعيد المفتي (عمان، زعيم الجالية الشركسية). أما الزعيمان البارزان اللذان لم يرد ذكرهما في قائمة أولئك الذين زاروا عبد الله فهما سلطان العدوان من قبيلة العدوان ورُفيفان المجالي من الكرك على الرغم من حضورهما اجتماع صموئيل في السلط.

39) القوميون كانوا: عبد القادر الجندي، محمد علي العجلوني، خلف التل (إربد) أحمد التل (إربد) فؤاد سليم (درزي [موحد] من لبنان) محمد مُرَيود، محمود الهندي (دمشق) كامل بديري (القدس) بهجت طبّارة (بيروت) الشيخ كامل القصاب (دمشق) أمين التميمي (نابلس) عوني القُضماني (دمشق) عوني عبد الهادي (عرابة) مظهَر رسلان (حمص) صبحي الخضرا (صفد).

40) See for example: Samuel to FO, 19 October 1920, FO 371/5123, Wyndham Deedes (civil secretary to the British administration in Palestine) to Tilley, 25 October 1920, FO 371/5124, GHQ Egypt to

WO, 4 November 1920, FO 371/5289.

41) Minute by Hubert Young on papers submitted on 6 November 1920, FO 371/5289.

42) WO to General Officer Commanding (Egypt), 22 October 1920, FO 371/5124, WO to FO, 22 November 1920, FO 371/5289.

43) Rsum of a conversation between Comte Robert de Caix and the British vice-consul in Damascus, Gilbert MacKereth, 2 December 1920, FO 371/5293.

44) Memorandum on possible negotiations with the Hijaz by Hubert Young, 29 November 1920, CO 732/3.

45) Minute of Cornwallis's interview with Faysal, 8 January 1921, FO 371/6349.

46) Minute by Curzon on negotiations with Faysal, n. d. [January 1921], minute after discussion with Young and Lawrence by John Shuckburgh for Churchill, 25 February 1921, CO 732/3: بموجب شروط الانتداب تكون حكومة جلالة الملك مسؤولة عن إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. كما تكون ملزمة من خلال التطمينات المقدمة لشريف مكة في عام (1915 م) بدعم وتأييد استقلال العرب في تلك الأجزاء من ولاية دمشق التركية، حيث تتمتع بحرية التصرف دون المساس بالمصالح الفرنسية. كانت الحدود الغربية لولاية دمشق قبل الحرب هي نهر الأردن. وبالتالي فإن فلسطين وشرق الأردن ليسا بالوضع نفسه. وفي الوقت نفسه فإن هاتين المنطقتين تتبادلان التبعية على الصعيد الاقتصادي، مما يفرض النظر إلى تنميتها بوصفها مشكلة واحدة. أضف إلى ذلك أن حكومة جلالة الملك هي التي باتت منتدبة على «فلسطين». وإذا كانت تريد تأكيد حقها في شرق الأردن، وتجنب إثارة موضوع الوضع القانوني لتلك المنطقة مع قوى أخرى، فما عليها إلا أن تستمر في اعتبار شرق الأردن جزءاً من المطقة التي تغطيها وثيقة انتداب فلسطين. (مسودة جدول أعمال لمؤتمر القاهرة تاريخ 26 شباط عام (1921 م) (CO 732/3).

47) عامان في عمّان. ص 5 و8.

48) عوني عبد الهادي: أوراق خاصة. مراجعة: خيرية قاسمية. بيروت 1974، ص 42.

49) Monckton to his mother, 1 February 1921, Monckton Papers.

50) Kirkbride, *Crackle of Thorns*, pp. 26-7.

51) أوراق خاصة. ص 42 - 43؛ (Samuel to CO, 10 March 1921, FO 686/78).

52) حتى ذلك الوقت كانت المسؤولية عن الشرق الأوسط موزعة بين وزارات الخارجية والهند والحربية. وكان مجال القسم الجديد شاملاً لكل من العراق وعدن وفلسطين وشرق الأردن. أما الحجاز فقد بقي، بوصفه مملكة مستقلة، خاضعاً لوزارة الخارجية.

وقد كان تاريخ نقل المسؤوليات هو الأول من آذار عام (1921 م).

53) The minutes of the Cairo Conference are found in the Report on the Middle East Conference held in Cairo and Jerusalem from March 12th to 30th, 1921, FO 371/ 6343. See also Aaron S. Klieman, *Foundations of British Policy in the Arab World· The Cairo Conference of 1921* (Baltimore, 1970).

54) Deedes to Young, 15 April 1921, CO 733/17 A.

55) Churchill to prime minister, 18 March 1921, FO 371/6342.

56) Prime minister to Churchill, 22 March 1921, FO 371/6342.

57) **أوراق خاصة**. ص 44؛ سليمان موسى: **المراسلات التاريخية** 1920 - 1923. عمّان 1978. المجلد الثالث، ص 203-206.

58) Larés, *T E. Lawrence*, pp. 260-1.

59) **عامان في عمّان**. ص. ص 47-48.

60) **المذكرات**. ص 162-163.

61) Churchill to Samuel, 2 April 1921, CO 733/13,

62) تقرير عن مؤتمر الشرق الأوسط الذي عقد في القاهرة والقدس بين الثاني عشر والثلاثين من آذار عام (1921 م) (FO 371/6343.). إن احتمال إغراء فرنسا بدعوة عبد الله ليحكم دمشق كان وارداً في لندن، ولكن الفكرة نشأت على ما يبدو من أحلام اليقظة والوهم، لا من أي تقويم واقعي للنوايا الفرنسية. انظر المحضر الذي كتبه جون شَكبِرغ (مساعد نائب الوزير بوزارة المستعمرات) وأرسله إلى تشرتشل في الثامن عشر من شباط عام (1921 م).

63) George Antonius to Thomas Hodgkin, 24 June 1936, Thomas Hodgkin Papers.

64) For descriptions of the territory of Transiordan under Ottoman administration see: Barbir, *Ottoman Rule in Damascus*, pp. 134-5 and 145, Gertrude Bell, 'Turkish Rule East of the Jordan', *The Nineteenth Century and After* 52 (1902), pp 227 and 234; Claude Regnier Conder, *Heth and Moab. Explorations in Syria in 1881 and 1882* (London, 1883), p. 189, Archibald Forder, *With the Arabs in Tent and Town* (London, 1902), p. 76; Le Pre Antonin Jaussen, *Coutumes des Arabes au Pays de Moab* (Paris, 1948), p. 119; Walid Kazziha, *The Social History of Southern Syria (Trans-Jordan) in the 19th and Early 20th Century* (Beirut, 1972), p. 8; A. Konikoff, *Trans-Jordan, an Economic Survey* (Jerusalem, 1943), pp. 13-14, Selah Merrill, *East of the Jordan. A Record of Travel in the Countries of Moab, Gilead, and Bashan During the Years 1875-1877* (London, 1881), pp 102 and 200, Henry Baker Tristram, *The Land of Israel: A Journal of Travels in Palestine Undertaken with Special Reference to its Physical Character* (London,

1886), pp. 473-4 and 560, and *The Land of Moab. Travels and Discoveries on the East Side of the Dead Sea and Jordan* (London, 1873), p 94.

65) كان الشيشان قد سبقوا الشركس وذلك بعد أن قام الروس باحتلال داغستان في عام (1864 م). Bell, 'Turkish Rule,' p 229; On Circassian settlement see G Lankester Harding, 'Amman,' *Encyclopaedia of Islam*, new edition, Vol. 1, p. 447; Konikoff, Economic Survey, p. 18; Laurence Oliphant, *The Land of Gilead with Excursions in the Lebanon* (New York, 1881), p. 218; Frederick G. Peake, *A History of Jordan and its Tribes* (Coral Gables, Florida, 1958), p. 222.. ويشير الأخير إلى توطنات الشركس على النحو التالي: عمّان في عام (1878 م) وادي السِّير في عام (1880 م) جرش في عام (1885 م) ناعور في عام (1900 م) صويلح (1905 م) والرُّصَيفَة في عام (1909 م). ويعدد كُنيكوف توطنات الشيشان في صويلح والزرقاء والرصيفة والسخنة، وتوطنات الشركس في عمان ووادي السير وجرش وناعور.

66) Henry Baker Tristram, *Pathways of Palestine* (London, 1881), p. 124; Oliphant, *Land of Gilead*, p. 232

67) The information on the Hijaz railway is from Jane M. Hacker, Modern Amman (Durham, 1960), p. 19; PP Jaussen et Savignac, *Mission Archiologique en Arabie (Mars-Mai 1907) de Jérusalem au Hedjaz 1909), pp. 20 and 33; Konikoff, Trans-Jordan, p. ،Medain-Saleh (Paris 95؛* (سليمان موسى ومنيب مادي: تاريخ الأردن في القرن العشرين. عمان 1959، ص 13) وحوار مع سعيد المفتي في عمان بتاريخ 12 كانون الأول (1978 م)).

68) Eliahu Epstein, 'The Bedouins of Transjordan· Their Social and) Economic Problems,' *Journal of the Royal Central Asian Society* 25 (April 1938), 232-4.). كانت القبائل الصغيرة في منطقتي عجلون والبلقاء تعمل في الزراعة في مطلع القرن. أما قبيلة العدوان والتي كانت إحدى أكبر قبائل منطقة البلقاء فقد بدأت تستقر قبل الحرب العالمية الأولى. بل وحتى قبيلة بني صخر كانت تملك أرضاً تؤجرها لمزارعين من قبائل مقربة. أضف إلى ذلك أن (ايشتاين) يزعم أن الحويطات كانوا يمارسون الزراعة إلى أواخر القرن، حين قام الشيخان الميالان للحرب أبطان بن جازي وعودة أبو تايه بإحداث ثورة في نمط حياة القبيلة، عن طريق تحويلها إلى إحدى القبائل الأكثر احترافاً للسلب والنهب في الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية وسورية. وقد أدت الحرب إلى انجاز عملية التحول هذه بفضل الكميات الكبيرة من الذهب التي يمكن كسبها عن طريق القتال إلى جانب بريطانيا. كان

عودة أبو تايه أحد حلفاء فيصل القبليين الرئيسيين، واضطلع بدور هام في عملية احتلال العقبة في عام (1917 م). ثمة العديد من الرحالة المعاصرين الذين أكدوا على نزوع القبائل إلى الاستقرار فيما قبل الحرب.

69) Cited in A. Ruppin, *Syrien als Wirtschaftsgebiet* (Berlin, 1917), p. 8.

القضاء	عدد السكان
عجلون	61500
السلط	37325
الكرك	19551
الطفيلة	7750
معان	5752
المجموع	131788

ولا تضم هذه الأرقام البداة الرحل الذين كانوا قليلي العدد بشكل عام، بسبب عزوف السكان عن الإحصاء خوفاً من الضرائب والتجنيد الإجباري.

70) ملاحظات على رسالة الدكتور وايزمن إلى وزير الدولة للمستعمرات مع الإشارة إلى شرق الأردن، بقلم (الميجور) سومرست و(الكابتن) بيك في الرابع عشر من آذار عام (1921 م) (CO 733/15). وقد كتب هذه الملاحظات دحضاً لرسالة وجهها وايزمن إلى تشرتشل (أول آذار (1921 م) في Weisgal (ed.), Letters and Papers, Vo. 10, series A, p. 161) حيث يدعو وايزمن إلى إلحاق شرق الأردن بفلسطين وإدخاله ضمن حدود سياسة الوطن القومي. وقد كان العامل السكاني أحد الأسس التي استند إليها وايزمن في دعوته قائلاً: إن هضبة شرق الأردن الجميلة... مهملة وغير مأهولة باستثناء مستوطنات مبعثرة قليلة وقبائل بدوية متنقلة قليلة العدد. أما الأرقام العامة التي أوردها بيل وسومرست فكانت على الشكل التالي:

المنطقة	**عدد السكان**
منطقة عجلون المؤلفة من إربد وجرش وأراضي بني حسن	100000
منطقة البلقاء المؤلفة من السلط وعمان ومادبا	80000
منطقة الكرك ومعها الطفيلة	40000
منطقة معان والعقبة وتبوك	10000
المجموع العام	230000

71) موسى: **تأسيس...** ص 177-178. ويشير المؤلف إلى تقرير مسجل بتاريخ 23 آب (1922 م) مرسل من مساعد وزير الدولة إلى الشريف شاكر بن زيد. ولم تتم إدخال

منطقة محافظتي معان والعقبة لأنها لم تصبح جزءاً من شرق الأردن إلا في عام (1925 م).

72) 'Observation ' by Peake and Somerset, 14 March 1921, CO 733/15.

73) Epstein, 'The Bedouins of Transjordan', pp. 232-4; Peake, *History and Tribes*, pp. 155-7, 168-72, 210-14, 215-19; Personalities of South Syria II Trans-Jordan, Arab Affairs File 206/5/2.

* * *

5) التأقلم مع الوضع الجديد:

1) (Churchill to Samuel, 2 April 1921, CO 733/13). عبد الله الذي كان يرعى شؤون قواته الحجازية وبعض إداريي فيصل السابقين، والذي كان عليه تقديم العطايا لكسب التأييد المحلي، قدّر مصروفه الشهري بمبلغ (10000) جنيهاً إسترلينياً. (Samuel to CO, received 12 April 1921, FO 371/6372.).

2) Churchill to Samuel, 2 April 192 1, CO 733/13 'Transjordania', Memo by Churchill, 2 April 1921, CAB 24/122.

3) Hacker, *Modern Amman*, p. 59; Musa, *Ta'sis*, p. 178 Hacker estimates the population as between 3,000 and 5,000 and Musa puts it at 2,400.

4) عند وصوله إلى عمان نزل عبد الله في بيت جابر. غير أنه أراد بعد رحلته الطويلة أن يستحم فدعي إلى منزل المفتي الذي كان قريباً من منبع الماء. كان عبد الله مصاباً حينئذ باليرقان، فأصيبت زوج سعيد المفتي بالعدوى. ما لبث عبد الله أن أعجب بالمنزل وطلبه فاضطرت عائلة المفتي لأن تنتقل إلى مكان أخر. حديث مع سعيد المفتي، عمان 12 كانون الأول عام (1978 م).

5) Confidential report by Abramson, 20 September 1921, FO 371/6373.

6) كان البيت الذي أقام فيه عبد الله وهو عائد لآل أبي جابر مطلاً على عين الماء في المدينة حيث كانت النساء يترددن لجلب الماء. راح حراس عبد الله يتلصصون عليهن ويزعجونهن بالتعليقات والمعاكسات مما أثار غضب رجال السلط. سمعت القصة أولاً من سعيد المفتي (عمان في 12 كانون الأول (1978 م) وتم تأكيدها في مقابلات لاحقة مع رؤوف أبي جابر (عمان في 15 كانون الأول) (1978 م) وعبد الرحمن خليفة (عمان في 26 كانون الأول) (1978 م) وهما من أصول سلطية.

7) كان طليعة قد خدم فيصلاً كمتصرف وحاكم عسكري لحماه، كقائم بأعمال وزير الداخلية وكحاكم عسكري لحلب. أما أمين التميمي فقد كان أحد مستشاري فيصل. وكان مظهر رسلان المتصرف السابق للسلط. وقد قام حسن الحكيم بخدمة فيصل مفتشاً للمالية. (*Philby, Stepping Stones*, pp. 235-6). انظر أيضاً سير

موجزة في أعلام الزركلي.

8) في إحدى الأمسيات حين ناقشنا جميعاً السيد تشرتشل وصاحب السعادة [صموئيل] وعبد الله وأنت يا لورنس أسماء طرحها [إيلتيد] كلايتون... سألني صاحب السعادة عن رأيي. قلت إنني أعرفه ولكنني لست شديد الحماس له. وقلت إنني أفكر بطرح أبرمْسْن. لم نحسم أي أمر آخر في تلك الليلة ولكننا وعدنا عبد الله بمنحه الأفضل، والتشاور معه قبل اتخاذ القرار. (Deedes to Young, 15 April 1921, CO 733/17A). بالنسبة للمرشحين كلايتون وأبرمْسْن فإن الأول أقصر باعاً من شغل مثل هذا المنصب الهام. أما عن أبرمْسْن فلا شيء معروف هنا ولكن توصيات (السير) هربرت صموئيل و(الكولونيل) لورنس تنطوي بالتأكيد على قدر كبير الأهمية. فـ (السير) هربرت صموئيل يقول إنه ليس يهودياً من حيث الدين، دون أن يقول إنه ليس يهودياً من حيث النسب، وقد يكون كذلك نظراً للاسم. يبدو لي هذا أقرب إلى نوع من المعارضة، فيما يخص المنصب المطروح للنقاش ولكنني لا أظن أنه يكفي لتبرير تصرفنا، وأمامنا هذه المعلومات، في إغفال التوصية المحلية. (Minute by Shuckburgh for Churchill, 8 April 1921, CO 732/1).

9) Admiralty to FO, 18 July 1921, FO 371/6372.
10) Deedes to Young, 27 May 1921, CO 733/17A, Deedes to CO, 28 May 1921, FO 371/6372
11) Zirikli, 'Aman', p. 118.
12) Report no 4 from Amman, 5 June 1921, CO 733/3. See also Report no. 5 from Amman, I July 192 1, CO 73 3/4. Previously minister of the interior, alTarnimi had been appointed mutasarrif in May.

13) (Report no. 2 from Amman, 3 May 1921, CO 733/3). كان عبد الله شديد الانزعاج من إقامة رفيفان الطويلة في القدس. وحين قام صموئيل بزيارة شرق الأردن في نيسان طالبه عبد الله ألا يهتم برفيفان حين يعود ثانية إلى زيارة القدس. وفيما بعد، في زيارة له لرفيفان بالكرك قام عبد الله بإبلاغ مضيفه أن عليه ألا يظن بأن البريطانيين جادون حقا في أخذه مأخذ الجد، وأنه سوف يجد البرهان على صحة ذلك في زيارته المقبلة للقدس (Report no. 7 from Amman, 1 September 1921, FO 371/6373).

14) Report by Abramson, 9 June 1921, FO 371/6372.
15) Samuel to CO, 25 July 1921, FO 371/6372.
16) Major C S. Jarvis, *Arab Command. The Biography of Lieutenant Colonel F. W* [sic] *Peake Pasha* (London, 1942), pp. 75-7 Peake subsequently had to rebuild the force from scratch.
17) Samuel to CO, 13 June 1921, FO 371/6372.
18) Congreve to Young, 16 June 1921, CO 733/17 A.

(19 (Minute by Lawrence on Congreve's letter to Young, CO 733/17A). بعد شهر من ذلك علّق لورنس بالقول: «لو أن نظام عبد الله كان فعالاً وشعبياً، لكانت فلسطين تناضل الآن للانضمام إلى شرق الأردن. هذا خطر يجب تفاديه. وعندما قدمنا لعبد الله حبلاً كافياً ليشنق به سمعته، فقد تخلصنا من عامل سياسي مزعج. (Samuel to CO, 25 July 1921, FO 371/6372).

(20 حول حادثة (غورو) انظر (French Ambassador in London to Curzon, 2 August 1921, 3 FO 371/6373; Abramson to Deedes, 29 September 1921, FO 371/6462, and report on the political situation in Palestine and Transjordan, October 1922, CO 733/27.) (وقد طالبت فرنسا بتسليمها ثمانية عشر شخصاً، رغم أن التحقيقات البريطانية بينت أن تسعة منهم لم يوجدوا كأشخاص، أو إنهم لم يكونوا معروفين لسلطات شرق الأردن، بينما قدم ثلاثة آخرون إثباتات عن أماكن تواجدهم، وتواجد اثنان آخران في سورية بينما قتل واحد في درعا رمياً بالرصاص عند محاولته الفرار من الاعتقال). (Philby to Samuel, 15 February 1923, CO 733/44).

21) For more complete information on Hananu's nationalist activities in Syria and on his arrest and trial, see Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate*, pp 319 ff.

22) Samuel to CO, 5 September 1921 and confidential report from Abramson, 20 September 192 1, FO 371/6373; Jarvis, Peake Pasha, pp. 90-2.

23) Young to Congreve, 6 July 1921, CO 733/17A.

(24 Deedes to Samuel, 2 July 1921 and Samuel to CO, 23 July and 3 August 1921, FO 371/6372 . (ملخص كرزون للأشهر الست كان موجزاً وغليظاً: عبد الله كان ديكاً أكبر من هذه المزبلة، والتجربة مكتوب عليها بالفشل).. Curzon's summation of the six months was terse and crass: 'Abdulla was much too big a cock for so small a dunghill and the experiment was foredoomed to failure ' Minute by Curzon on 18 September 1921, FO 371/6243.

(25 أسباب الخلاف بين رشيد بي وعبد الله وفق المصادر البريطانية كان حول تعيين الشيخ الشنقيطي مستشاراً للشؤون الدينية حيث رأى طليعة أن أي رجل دين غير مؤهل لتسلم منصب كهذا (Report no. 10 from Amman, I September 1921, FO 371/6373). لكن الزركلي سجل (عامان في عمان، ص 139 - 142) أن طليعة عارض إخضاع قوات الاحتياط للسيطرة البريطانية والتي قبل بها عبد الله.

Peake later wrote that Samuel had demanded Tali'a's resignation over)
the Gouraud incident in his article, 'Trans-Jordan, 'Journal of the
.(Royal Central Asian Society 23.3 (July 1939), p. 385'

26) عامان في عمّان... ص 3-4.

27) وصل فيصل إلى بغداد وحظي باستقبال جيد مما جعل عبد الله بالتأكيد يشعر بالغثيان... من الغيرة (Peake to Somerset, Amman, 10 April 1921, Somerset Papers). ولم تبدُ عليه [عبد الله] مظاهر الارتياح إطلاقاً عندما عندما سمع أن فيصل حظي باستقبال جيد في البصرة وبغداد (Report no 5 from Amman، 1 July 1921، CO 733/4.).

28) Report no. 5 from Amman, 1 July 1921, CO 733/4.

29) Abramson to Deedes, 29 August 1921, FO 371/6462.

30) Had Husayn signed the treaty it would have meant he accepted the division of Arab lands, the imposition of mandatory control, and Britain's Jewish national home policy See Suleiman Mousa (Sulayman Musa), 'A Matter of Principle: King Husain of the Hijaz and the Arabs of Palestine,' *International Journal of Middle East Studies 9:2* (May 1978), pp. 188-9.

31) Young to Shuckburgh, 30 September 1921, CO 733/17B.

32) Young to Shuckburgh, 7 October 1921, CO 733/17B.

33) كان أبرمشن وآلان كيركبرايد الأخ الأصغر للمقيم البريطاني اللاحق (السير) أليك كيركبرايد الضابطين السياسيين البريطانيين الوحيدين الباقيين في منصبيهما. فيما يخص الدعم العسكري لم تكن بريطانيا قد نفذت اتفاقها مع عبد الله في آذار، فالقوات الاحتياطية كانت بلا بنادق، شبه محرومة من الذخيرة وبدون أية مدافع رشاشة، ولم يكن ثمة إلا عربتان مدرعتان عديمتا الجدوى لأنهما كانتا بلا قطع غيار ودون طواقم يشغلانهما. (Young to Shuckburgh, 15 October 1921, CO 733/7). وعن إقامة لورنس في عمان انظر: Uriel Dann Spudies in the History of Transjordan, 1920-1949 (Boulder.1984), pp. 37-46.

34) Philby's peers summed up his character with the joke about the soldier's proud mother who exclaimed, while watching her son on parade, 'They're all out of step but our Jack ' Sir Reader Bullard, The Camels Must Go (London, 1961), p. 198.

35) Elizabeth Monroe, *Philby of Arabia* (London, 1973), p. 113 For a full account of Philby's career in Iraq and the steps by which he came to be appointed in Amman see *ibid*; pp. 95-113.

36) Philby *Diary*, 29 November 1921.

37) Minute by Shuckburgh, 31 January 1922, CO 733/8.

38) Samuel to Churchill, 7 October 1921, CO 733/6
39) Philby, *Stepping Stones*, p. 4.
40) Philby *Diary*, 3 December 1921.
41) Philby *Diary*, 10 and 12 January 1922.
42) Philby to Gertrude Bell, 17 February 1922, Philby Papers
43) Philby *Diary*, 12-27 December 1921.
44) Churchill to Samuel, 7 February 1922, CO 733/8.
45) Report on the situation in Transiordan, 1 April-30 June 1922, CO 733/23.
46) Minute by H Young on Milner's letter to Churchill of 3 September 1922, CO 733/38.
47) Report on the political situation in Palestine, August 1922, and Lieutenant Colonel W. F. Stirling to Jerusalem, 11 September 1922, CO 733/25; Report on the political situation in Palestine, September 1922, CO 733/26; Deedes to Shuckburgh, 15 September 1922, CO 733/38
48) على سبيل المثال، قدم عبد الله مساحات واسعة من الأراضي إلى مثقال بن فايز كبير شيوخ بني صخر، وقوم مبلغ الضرائب المفروض على إحدى قراه بقيمة (10) جنيهات استرلينية. (Philby, Stepping Stones, p. 116).
49) FO to CO, 22 December 1924, FO 371/10121, Additional Notes to 1919 'Who's Who in Damascus', 27 April 1921, FO 371/6454; Palmer (British consul in Damascus) to FO, 18 October 1921, FO 371/6373.
50) Philby *Diary*, 22 March 1922.
51) Samuel to Churchill, 4 April 1922, CO 733/20.
52) (Philby Diary, 4 April 1922): كاترو أبلغ فيلبي أنه كان قد أنقذ الركابي من المحاكمة بتهمة اغتيال عبد القادر الجزائري. كان كاترو يعتقد بأن الركابي كان سيدان بصورة شبه محتومة. كان كاترو يعرف الركابي جيداً ومعجباً به بوصفه رجلاً ذا ذكاء ونشاط غير عاديين، على الرغم من أنه كان قد أجهز على شعبيته عن طريق مراكمة ثروة ذات شأن أثناء وجوده في دمشق.
53) Minute by H. Young regarding Abdullah's proposed visit to London, 31 July 1922, CO 733/23.
54) Philby *Diary*, 24 September 1922.
55) 'Record furnished by Riza Pasha Rikabi of a conversation between His Highness the Emir Abdullah and Sir Gilbert Clayton at the Carlton Hotel on Monday October 16th 1922,' and memorandum for the Middle East Department by Sir G Clayton, 18 October 1922, Clayton Papers 471/3.
56) Memorandum by G. Clayton, 25 October 1922, CO 733/37
57) Minute by Shuckburgh, 5 December 1922, CO 733/35; Clayton to

Rıkabı, 18 December 1922, CO 733/28; Phılby, *Steppıng Stones*, pp. 54 Ù 5

58) FO to CO, 15 November 1922, FO 406/50; FO to CO, 4 December 1922, FO 371/ 7792; FO to CO, 17 March 1923, CO 733/55 For details of the Druze uprising see Khoury, Syrıa and the French Mandate, Chapters 6 and 7

59) Philby, *Steppıng* Stones, p. 87.

60) Polıtıcal report for Palestıne and Transjordan, May 1923, FO 371/ 8998.

61) تأسيس... ص 163 و(Urıel Dann, Studıes, pp. 47-80.).

62) Phılby to G Bell, 20 June 1923, CO 733/59

63) Monroe, *Philby*, p. 129.

64) Clayton to Shuckburgh, 13 July 1923, Clayton Papers 513/5.

65) Phılby to Clayton, I July 1923, CO 733/47.

66) جاء على لسان فيلبي أن عبد الله قدم سيارات مع سائقيها إلى كل من مثقال بن فايز وحديثة الخريشة ورفيفان المجالي، كما قدم هدية زفاف بمبلغ (1000) جنيه استرليني لمظهر رسلان، وهدية زفاف بمبلغ (500) جنيه استرليني لمحمد الأنسي، وكان يبني بيتاً لمحمد السبعلي بلغت تكاليفه (3000-4000) جنيه استرليني. أما فيما يخص الأراضي فإن عبد الله أعطى أراضي أميرية في زيزيا وحولها لمثقال بن فايز، كما أن عبد المهدي الشمايلي حصل على (2000) دونم من الأراضي الأميرية في إحدى القرى القريبة من الكرك (ذكر فيلبي أن عبد الله كان مديناً للشمايلي ببعض المال)؛ أما قرية نخل ذات العشرين ألفاً من الدونمات من الأراضي الأميرية فقد تم منحها لكل من رفيفان المجالي وحسين الطراونة، كما أن خمس قرى بمساحة سبعين ألفاً أيضاً من الدونمات جرى تقديمها إلى عطوي المجالي. (Philby to Samuel, I July 1923, CO 733/47).

67) Clayton to Shuckburgh, 13 July 1923, Clayton Papers 513/3.

68) Phılby, *Stepping Stones*, pp. 116-17; Philby to Clayton, I July 1923, CO 733/47; Phılby to Samuel, December 1923, CO 733/52.

69) For information on the 'Adwan rebellion see: B. S. Thomas to Samuel, n.d., CO 733/64, Monthly report on Transjordan, September 1923, CO 733/50; Philby to Samuel, 17 September 1923, CO 733/49, Musa, Ta'sıs, pp 165-6; Phılby, 'Trans-Jordan,' *Journal of the Central Asian Society* 11:4 (1924), p. 306, *Draft of an address for the Royal Central Asıan Socıety annıversary meetıng, 12 June 1924*, and *Stepping Stones*, p. 149, Phılby Papers

(أما المعتقلون فكانوا التالية أسماؤهم: عودة القصوص وهو من إحدى العائلات

المسيحية في الكرك وقاض في محكمة الاستئناف، وصالح الجداوي مساعد قائد الفيلق العربي في محافظة الكرك، وشمس الدين سامي الذي كان محامياً شركسياً من عمان، ومصطفى وهبي التل الذي انتمى إلى عائلة من مدينة إربد وكان مديراً بوادي السير).

70) المؤرخان الأردنيان سليمان موسى ومنيب مادي على سبيل المثال على قناعة بأن البريطانيين كانوا وراء التمرد، وأنهم قاموا فيما بعد بإبعاد فؤاد سليم من الفيلق لأنه عمل على قمعه؛ تاريخ الأردن، ص 233. أما البرهان المتوفر حالياً فلا يبرئ فلبي بشكل واضح تماماً. انظر (Monroe, *Philby*, p. 130). لكن فيلبي لم يكن (الإنجليز) ولا شك بوجود أسباب أخرى لإقالة سليم.

71) Monroe, *Philby*, pp. 130-1.

72) Philby to Samuel, 17 September 1923, CO 733/50. The officers included Fu'ad Salim, who a year before had saved Peake from an Amman crowd during the Hananu crisis

73) Philby to Samuel, 13 December 1923, and Clayton to CO, 28 December 1923, CO 733/52.

74) Monthly reports on Transjordan, January and February, 1924, CO 733/66; Samuel to CO, 16 February 1924, FO 371/10101.

75) Colonel Kisch, Chief Rabbi Jacob Meyer, and Dr David Yellin. Philby Diary, 27 January 1924.

76) Philby Diary, 6 March 1924; Dawn, Ottomanism, p. 41.

77) Jidda report for 1-29 March 1924, FO 371/10006

78) 'Hussein the New Khalif,' *Manchester Guardian*, 13 March 1924

79) W A. Smart (British consul in Damascus) to FO, 10 March 1924, FO 371/10217; Smart to FO, 22 March 1924, FO 371/10218.

80) Sir R. Storrs (district governor, Jerusalem-Jaffa) to Clayton, 14th March 1924, FO 684/2.

81) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age*, 1798-1939 (London, 1962), p. 305.

82) Lord Allenby (Cairo) to FO, I I March 1924, FO 371/10217 For Egypt's interest in the Caliphate see Kedourie, *Chatham House Version*, pp. 177-207.

83) Philby Diary, 10, 14 and 15 January 1925.

84) Anecdote related to the author by Edward R. F. Sheehan, Cambridge, Mass., 21 April 1985.

85) Uriel Dann, *Studies*, p. 86

86) Memorandum by Shuckburgh for the Secretary of State for Colonial Affairs, 26 April 1924, CO 733/78.

87) Minute by Shuckburgh, 24 April 1924, CO 733/67 The 1923-4 grant-in-

aid was 150,000, the loss of which was only partially covered by the 60,000 balance of the Ottoman Public Debt funds collected from Transiordan and held in Palestine.

88) Samuel to CO, 20 April 1924, CO 733/67
89) Reports by F. G. Peake, n d., Somerset Papers.
90) Cox to Clayton, 5 May 1924, CO 733/68.
91) Cox to Clayton, 28 May 1924, CO 733/68.
92) Peake to Cox, 11 May 1924, CO 733/68.
93) Samuel to CO, 30 May 1924, CO 733/68.
94) Cox to Clayton, 1 July 1924, CO 733/71.
95) Clayton to Abdullah, 14 August 1924, FO 371/10102..

(96 Clayton to CO, 14 August 1924, and General Officer Commanding) ((Palestine) to Air Ministry, 14 August 1924, FO 371/10102. في مقال له بعنوان ('The Political Confrontation of Summer 1924 in Transjordan' (Studies, pp. 81-92)) يخطئ أوريل دان حين يكتب أن فوج الرماة التاسع كان قد أرسل إلى عمان بسبب الغزو الوهابي ولم يرتبط ظهوره هناك بالأزمة السياسة إلا صدفة. إن العكس هو الصحيح، فالغزو الوهابي كان السبب المعلن أما الأزمة السياسية فكانت السبب الحقيقي. انظر: (Clayton to CO, 14 August 1924 (two separate dispatches), FO 371/10102).

97) Cox to Clayton, 20 August 1924, CO 733/72.

* * *

6) اكتشاف حدود السلطة:

1) The figures do not include extraordinary sums or the grant-in-aid for the TJFF. Summary of revenue for the period I April 1924-31 March 1929, CO 831/8; Annual reports to the Council of the League of Nations on the administration of Palestine and Transjordan, 1928-35.
2) See: Budget estimates for 1923-24 and CO 733/76, Cox to Clayton, 20 November 1924, CO 733/48, Peake to Clayton, 5 August 1926, CO 733/116; 'Arif al-'Arif, *Amman Diary* (unpublished manuscript in Arabic), al-'Arif Papers (September 10, 1926), p. 54. Al-'Arif mentions that Kirkbride even complained about the use of paper and envelopes between departments when word of mouth would do
3) Cox to Shuckburgh, 4 November 1928, CO 831/3.
4) Cox to Plumer, 27 August 1928, CO 831/3.
5) Treasury to CO, 23 October 1928, CO 831/3, Cox to Shuckburgh, 4 November 1928, CO 831/3, Pirie-Gordon (*Times* special correspondent in Jerusalem) to Shuckburgh, 11 December 1929, CO 831/6.

6) Peake to Cox, 11 May, CO 733/68.
7) Annual report to the Council of the League of Nations on the administration of Palestine and Transjordan, 1925, p. 61.
8) Annual report to the Council of the League of Nations on the administration of Palestine and Transjordan, 1926, p. 71.
9) Treasury to CO, 17 February 1927, CO 733/133.
10) On his objections see: Plumer to CO, 3 February 1927 and Ormsby-Gore to Churchill, 16 November 1927, CO 733/133; Plumer to Amery, I May 1928, CO 733/151.
11) A popular contemporary theory among Arabs was that the Wahhabi attack against Transjordan was engineered by Britain as a means of getting rid of Abdullah Salisbury-Jones (British liaison officer to HQ French Army of the Levant) to Palestine Command, 4 September 1924, PRO, FO 371/10118
12) On the last days of Husayn's kingdom of the Hijaz see: Bullard, *Camels*, p. 126; Burgoyne, Gertrude Bell, Vol. 2, p. 352; Arnold Toynbee, 'Arabia: Rise of the Wahhabi Power,' in Survey of *International Affairs* 1925 (Royal Institute of International Affairs), Vol. 1, p. 292, Rihani, Around the Coasts of Arabia, p. 109.
13) For a complete account of Britain's attempts to get a treaty and Husayn's resistance see Mousa, *'A Matter of Principle,'* pp. 183-94.
14) Samuel to CO, 16 November 1923, FO 686/75 In the end, it was considered fortunate that Husayn had never ratified the Anglo-Hijazi treaty since it might have committed Britain to supporting him in a losing venture. George Rendel, *The Sword and the Olive* (London, 1957), p. 58.
15) Sir Laurence Grafftey-Smith, *Bright Levant* (London, 1970), pp. 171-2.
16) Burgoyne, *Gertrude Bell*, Vol. 2, p. 356.
17) حديث مع سليمان بن جابر في عمان بتاريخ 21 تشرين الثاني (1978 م) والذي كان حاضراً عند حسين [بن علي] خلال مرضه الأخير. وقام (الكولونيل) كِش رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ورئيس اللجنة الصهيونية التنفيذية بزيارة حسين في عمان في شهر شباط. وقد قدم تقريراً جاء فيه: إنه خلال حديثه مع حسين قام الأخير بوضع سبابتيه إلى جانب بعضهما مشيراً بذلك إلى العلاقة الحميمة بين العرب واليهود، وأصدر تعليماته إلى عبد الله للتصرف وفق ذلك إلى الأبد Notes by Colonel Kisch on his interviews in Amman, 20 February) .(1931, CZA S25/3506
18) Chancellor to CO, 11 June 1931, FO 71/15289.
19) On the Syrian revolt, see Khoury, *Syria and the French Mandate*,

Chapters 6-8

20) Information on Transjordan during the Syrian revolt can be found in the draft report on the administration of Palestine and Transiordan for the year 1926, CO 733/131; 'Activities in Transjordan undertaken on behalf of the French authorities in Syria during 1926,' by E. R. Stafford, Robert Parr (Damascus) to FO, 8 July 1927, Stuart Symes (Jerusalem) to CO, 8 July 1927, L Rees (RAF) to Symes, 26 July 1927, and Cox to Symes, 5 August 1927, CO 733/132; Report on Transiordan by Cox, I July to 31 July 1925, CO 733/96.

21) Al-'Arif, *Amman Diary*, pp. 57, 63 and 64 (17 September, 28 September and 7 November 1926), al-'Arif Papers.

22) Alec Seath Kirkbride, *From the Wings* (London, 1976), pp. 152-3.

23) Conversation with Yasser Tabbaa, Boston, June 1984.

24) Sulayim ibn Jabir, a family retainer, remembers being sent to the Hijaz to escort the families of Abdullah, 'Ali and Faysal to Transiordan. After a short stay in Amman, the families of 'Ali and Faysal moved on to Baghdad. Conversation with Sulayini ibn Jabir, Amman, 21 November 1978.

25) Her family in Catalca were farmers and were not well off The children worked for their keep in wealthier homes Conversation with the Amir'Ali ibn Nayyif, Abdullah's and her grandson, Amman, 21 November 1978.

26) For the arrangements that were made for Talal and information on this three-year period of his life see: F. Ezechial (Crown Agent for the Colonies, who agreed to act as Talal's director and supervisor in England) to Clauson, 18 February 1926, and Ezechial to Lord Plumer's Private Secretary, 16 February 1926, CO 733/119; Cox to Plumer, 22 December 1926, and Ezechial to Shuckburgh, 4 February 1927, CO 733/136; Ezechial to Cox, 27 April 1927, Shuckburgh to Symes, 28 July 1927, Stickland to Ezechial, 12 December 1927, and Ezechial to Cox, 22 December 1927, CO 733/140, Bowman to Mayhew, 17 April 1929, CO 831/6; Minute by Shuckburgh, 19 December 1939, CO 831/54.

27) Ezechial to Shuckburgh, 4 February 1927, CO 733/136, and Ezechial to Cox, 22 December 1927, CO 733/140. وقد علق حزقيال في رسالة أخرى بقول: «لقد تولد لدي رأي غاية في الإيجابية عن شخصه. إنه ذو شخصية ثابتة وتبدو عليه الشجاعة، وأعتقد بأنه سيتطور بشكل إيجابي. كما أنه محبوب من الأشخاص الذين تمكن معهم من التغلب على شعوره الأولي بالخجل» (Ezechial to Cox, 27 April 1927, CO 733/140).

28) Transjordan register of correspondence, 1930, CO 870/2

29) Minute by Shuckburgh, 19 December 1939, in which he quotes a letter

to him from Chancellor dated 14 March 1931, CO 831/54. See also Minute by [?] Howard, 14 July 1931, CO 831/15.

30) Wauchope to CO, 15 July 1932, CO 831/19.

31) Report on the political situation for the month of August 1934, FO 371/17880). خطبة طلال إلى صفينة التي كانت أمها إنجليزية تم ترتيبها على شرط أن لا تجبر على البقاء في المنزل، وإنه سيكون لها ولطلال منزلهما الخاص بهما وأن الأخير لن يتزوج بامرأة أخرى. ويبدو أن والدة طلال لم ترفض شروط الزواج هذه، لكنها فضلت تزويج ابنها من امرأة من أقاربها حتى تتمكن من دعم مركزها ضمن العائلة.

32) 'Arif al-'Arif, civil secretary for the Transjordan government, related that Abdullah and Cox argued over Nayyif's education. Abdullah wanted to place him in a national school and Cox wanted to place him in a missionary establishment (St George's in Jerusalem). See his Amman Diary, pp. 87 and 99 (3 December 1926 and 22 January 1927), al-'Arif Papers.

33) Conversation with Walid Khalidi, Cambridge, Mass., 27 July 1978; Bowman to Mayhew, 17 April 1929, CO 831/6.

34) On Nayyif's education see· H. E. Bowman to F. Ezechial, 28 May 1929, and Pirie-Gordon to Shuckburgh, 1 I December 1929, CO 831/6; Report on the political situation for the month of March 1934, FO 371/17880.

35) Thomas Hodgkin, 'Antonius, Palestine and the 1930s,' *Gazelle Review of Literature on the Middle East* 10 (1982), p 24.

36) Conversation with Hashim Dabbas, Aide-de-Camp to Abdullah, Amman, 8 November 1978 Mr Dabbas related that if Abdullah ever saw a window open, he would shout for it to be closed.

37) Conversation with Lady Cox, Chipstead, Surrey, May 1978.

38) Philip Hayne to Philby, 5 July 1927, Philby Papers.

39) Annual reports to the Council of the League of Nations, 1925-7.

40) Conversation with Eliahu Elath (formerly Epstein), Jerusalem, 8 January 1979.

41) Conversation with Mr and Mrs Graham Cox (son of the British Resident) Chipstead, Surrey, February 1978 The entrance hall of Abdillhamid's palace, Yildiz, was also filled with mirrors, for the purpose not of humor, but of misleading and confusing possible assassins See also 'Emir Abdullah the Smart Little Arab Ruler of Transjordan is No. 1 British Pawn in the Middle East,'Life (1 December 1941), p. 67.

42) Cohen, be-Hatser, ha-*Melekh Abdullah*, pp. 77-9.

43) Plumer to Shuckburgh, 21 December 1927, CO 831/1, and Plumer to

Shuckburgh, 6 January 1928, CO 733/134.

44) Agreement between the United Kingdom and Transjordan, signed at Jerusalem, February 20, 1928 (Cmd. 3029), FO 371/13021.

45) Text is in Helen Miller Davis, Constitutions, Electoral Laws, Treaties of the States in the Near and Middle East (Durham, NC, 1947), 303-13.

46) انظر (Legislative Council Electoral Law, in Davis, Constitutions, pp. 315-20). في عام (1938 م) قدر إلياهو إبشتاين عدد خيم بني صخر بـ (1140) وخيم الحويطات بـ (1000) وخيم بني حسن بـ (860). وفي عام (1938 م) صنف غلوب كلاً من بني صخر والحويطات وسرحان على أنهم بداة، بينما اعتبر بني حسن والحجايا على أنهم شبه بداة، رغم إنهم جميعاً امتلكوا أراضي صالحة للزراعة. انظر (Epstein, 'The Bedouins of Transjordan,' pp. 232-5, and John Bagot Glubb, 'The Economic Situation of the Trans-Jordan Tribes,' *Journal of the Royal Central Asian Society* 25 (July 1938), p. 449).

47) قام تلاميذ المدارس في السلط برشق عبد الله بالبصل. أما في عمان فقد دفعت المظاهرات الطلابية عبد الله إلى تحديد مصير الامتحانات الشفوية في تلك السنة بنفسه جاعلاً الطلاب ينجحون أو يرسبون وفقاً لولاءاتهم السياسية. لم يبادر رئيس بلدية عمان سعيد المفتي إلى اتخاذ أي إجراء ضد المتظاهرين مما أدى إلى نقله إلى مادبا عقاباً له. [أحاديث مع رؤوف أبي جابر في عمان بتاريخ 15 كانون الأول (1978 م) وفرحان شبيلات في عمان بتاريخ 15 كانون الأول (1978 م) وسعيد المفتي في عمان بتاريخ 12 كانون الأول (1978 م)].

48) كان كل من حسين الطراونة (الكرك) رفيفان باشا المجالي (الكرك) ثقال بن فايز (بني صخر) حديثة الخريشة (بني صخر) محمد الحمود ونمر الحمود (السلط) زعماء أربد وعجلون وسعيد المفتي (شركسي من عمان) بعضاً من أعضاء ما عرف باسم المعارضة. وعموماً درج مثقال ورفيفان على اتباع عبد الله في أكثرية الأمور. وقد أدت معارضة سعيد المفتي إلى اكساب الشركس مقعداً آخر في المجلس التشريعي. ما لبثت إجراءات قمعية ملطفة مثل خطر مغادرة القرية الأصلية، والاستدعاء إلى عمان، والاخضاع لمراقبة البوليس والإقامة الجبرية في العقبة في حالة واحدة أن أفضت إلى نزع فتيل المقاطعة. حديث مع سعيد المفتي في عمان بتاريخ 12 كانون الأول (1978 م) يذكر سعيد المفتي، الحلقة الثالثة، جريدة الدستور اليومية (عمان) 25 شباط (1976 م) و(Oriente Moderno, September 1928, pp. 404-6).

49) Report on the political situation for May 193 1, pp. 24-6, Co 93 1/12.

50) Report on the political situation for the month of November 1931, p 21, CO 831/12

51) Emanuel Neumann, *In the Arena* (New York, 1976), p 127.

52) Between 1931 and 1946 the members of the Legislative Council came from thirty six families, generally reinforcing the pre-existing social structure. See Kamel S. Abu Jaber, 'The Legislature of the Hashemite Kingdom of Jordan: A Study in Political Development,' *Muslim World 59* (July-October 1969), pp. 226-7.

53) G. F. Walpole, 'Land Problems in Transiordan,' *Journal of the Royal Central Asian Society 35* (January 1948), pp 52-65.

54) Hedley V. Cooke, *Challenge and Response in the Middle East. The Quest for Prosperity 1919-1951* (New York, 1952), pp. 112-16.

55) Annual report to the Council of the League of Nations on the administration of Palestine and Transiordan, 1924, p. 67

56) Peake instructed Glubb, 'if you consider it necessary to punish on the spot, do so, and I will put it right here; but if you have a case you can send here occasionally, in send it along for Shakir to play with; this for diplomatic reasons.' Peake to Glubb, February 1931, Peake Papers.

57) قام ابن سعود أوائل الأربعينيات بتقويم سياسة عبد الله القبلية على مسامع زائر أمريكي هو إتش. بي. هوسكنز. وقد كتب الأخير فيما بعد يقول: «إنه يشعر بأن عبد الله قد أخطأ حين أجهز على نفوذ الزعماء القبليين، وأصبح بالتالي معتمداً على القوة البريطانية، بدلاً من علاقاته الودية الخاصة مع شيوخ شرق الأردن وشعبه» .('King Ibn Saud-Man not Myth,' 18 October 1943, FO 371/34976)

58) FO to British Agent (Jidda), 18 November 1923, FO 686/69.

59) Samuel to CO, 3 April 1924, and Minute by Young, 7 April 1924, CO 733/67; monthly report on Transjordan by Philby, I March-15 April 1924, CO 733/58.

60) Storrs to Cox, 18 November 1924, FO 371/10815; Monthly report on Transiordan, 1 March to 1 May 1925, CO 733/92.

61) Ibn Saud to Bullard (British consul, Jidda) 14 May 1925, Clayton Papers, 471/5.

62) Randall Baker, King Hussein and the Kingdom of the Hijaz (Cambridge, 1979), p 221.

63) Clayton was sent before the end of hostilities because it was feared that afterwards Ibn Saud might feel strong enough to eschew diplomacy for force in delimiting his borders with Iraq and Transjordan. Notes on the Hijaz-Najd frontier, June 1930, FO 371/14465 For details of the negotiations see Sir Gilbert F. Clayton, *An Arabian Diary (Berkeley, 1969)*

64) Lloyd (Egypt) to CO, 31 December 1926, and Plumer to Shuckburgh, 20 January 1927, CO 733/134.

65) Rees to?, 27 February 1928, and Plumer to CO, 10 April 1928, CO 831/1.

66) Memorandum on the Syria-Iraq and Syria-Transjordan frontier, 12 November 1931, CO 732/50.

67) Clayton to Amery, 10 December 1925, Clayton Papers 471/7

68) For example, preceding the elections of 1928 and 1931-2 See Khoury, *Syria and the French Mandate*, Chapters 12 and 13.

69) كما ضمت القائمة أبناء الحسين الأربعة أي علي وعبد الله وفيصل وزيد، وكذلك منافس الحسين على منصب الشريف في عام (1908 م) علي حيدر وابنه عبد المجيد وخديو مصر الأسبق وعباس حلمي والأمير يوسف كمال عضو آخر من العائلة الملكية المصرية وفيصل بن سعود والأمير سعيد الجزائري الذي كان من نبلاء دمشق وحميد عبد القادر الجزائري الذي نفاه الفرنسيون من الجزائر إلى دمشق والداماد [الصهر] أحمد نامي زوج ابنة (مطلق) السلطان عبد الحميد.

70) Memorandum on secret reports regarding Hashemite intrigues against Ibn Saud 10 June 1932, FO 371/16014, HC Palestine to CO, 1 July 1932 and CO to HC, 7 July 1932, FO 371/16015; 'The Rebellion in the Northern Hijaz and Ibn Rifada's Incursion' by G. W. Rendel, 25 July 1932, FO 371/16016; Ryan (Jidda) to FO, 8 August 1932, FO 371/16024; Cox to British Consul (Damascus) 25 August 1932, FO 6866, Ryan to Sir John Simon, 31 July 1932, and HC Palestine to CO, 27 August 1932, FO 406/70; CO to HC Palestine, 29 September 1932, HC to CO, 7 October 1932, and Hope-Gill (Chargé d'Affaires, Jidda) to FO, 25 November 1932, FO 371/16017.

71) H. W Glidden, 'The Hashemite Question as a Source of Near East Tensions,' in William Sands (ed.), Tensions in the Middle East (Washington DC, 1956), p. 9 Ryan described the negotiations as follows· 'we went at the negotiations hammer and tongs for nearly a fortnight, Cox and I being the protagonists on the Anglo-Trans-Jordan side, while Fuad Haniza and Yusuf Yasin fought hard on the other ' Sir Andrew Ryan, *The Last of the Dragomans* (London, 195 1), pp 286-7.

72) On Abdullah's ambitions and their place in the general impulse towards Arab unity of the 1930s and 1940s see Yehoshua Porath, *In Search of Arab Unity 1930-1945* (London, 1986).

73) Chancellor to CO, 4 November 1929, FO 371/13748

* * *

7) عبد الله وفلسطين (1921 ـ 1939 م):

1) تحدثت جريدة (تايمز اللندنية في عددها الصادر بتاريخ الرابع من نيسان عام (1921 م) عن تصريحات عبد الله قائلة:

في حين قد يكون طبيعياً أن يشعر الكثير من العرب الفلسطينيين بالخوف من نوع من السيطرة اليهودية اللاحقة مع عواقب دينية وسياسية واقتصادية غير محبذة نتيجة للصهيونية، فإن على العرب أن يتذكروا أن الصهيونية ليست مسألة تهمهم وتهم اليهود فقط بل وتهم العالم المسيحي أيضاً. وأنا شخصياً أعتقد أن من شأن موافقة ممثلي عرب فلسطين على الاجتماع بممثلين يهود في مؤتمر أن يفضي إلى جعلهم يكتشفون أن الصهيونية ليست شيئاً شديد الانطواء على التهديد كما يعتبرونها.

وقد قيل إن عبد الله رد على مندوب عربي طالب بالتأييد من أجل سحب تصريح بلفور قائلاً: «لا يصح أن يقوم العرب بحض الإنجليز على الحنث بوعودهم» في تلميح ينم عن بعض الذكاء إلى أن أحد أسس الشكوى العربية من الانتداب الفلسطيني كان بالتحديد متمثلاً بحقيقة أن هذا الانتداب شكل انتهاكاً للوعد الذي قطعته بريطانيا على نفسها.

2) Report by Lt. Col. Easton, Damascus, 25 April 1921, FO 371/6455.

3) Major Somerset to his father, Lord Raglan, 20 June 1921, Somerset Papers.

4) Philby, *Diary* 3 and 11 September 1922; Deedes to Shuckburgh, 15 September 1922, CO 733/38.

5) (Deedes to Shuckburgh, 15 September 1922, CO 733/38). كتب ديدز أن حضور عبد الله للاحتفال كان:

تتويجاً لموقف صحيح بصورة مطّردة وجريء. وهو ينطوي على قيمة عظيمة جداً بالنسبة لنا على الصعيدين المعنوي والمادي. مادياً لأن من شأن تشجيعه أو سماحه لنشاطات المتطرفين في شرق الأردن ألا يتيح لنا فرصة التوصية بأي اختزال لحامية فلسطين، ويجبرنا على التحلي بالحذر الدائم على حدودنا الشرقية. أما على الصعيد المعنوي فلأن من شأن ولائه أن يشجع المدبذبين في هذا البلد. لا غرابة إذن أننا نحثكم على عمل ما تستطيعونه لتلبية رغباته. إن خمساً وعشرين ألفاً من الجنيهات لعبد الله كمصروف جيب أبخس من إنفاق مئة وخمسين ألفاً من الجنيهات الاسترلينية في فلسطين سنوياً لتمويل فوج هندي.

6) Meyer Weisgal (ed.), *Letters and Papers of Chaim Weizmann*, pp. 160-1.

7) Colonel Meinertzhagen was a gentile Zionist, at that time Military Adviser to the Middle East Department. Colonel R. Meinertzhagen, *Middle East Diary 1917-1956* (London, 1959), p. 100.

8) Note of an interview given by the HC to Sokoloff, Arlosoroff and Neumann, 2 February 1933, CO 831/21

9) Meyer Weisgal (ed.), *Chaim Weizmann, Scientist and Builder of the Jewish Commonwealth* (New York, 1944), p. 57.

10) (Colonel F. H. Kisch, Palestine Diary (London, 1938), pp. 63-4). حديث مع إلياهو إيلات في القدس بتاريخ 8 كانون الثاني (1979 م). بقي إيلات مع جماعة مؤلفة من 15 أو 18 عاملاً يهودياً في عمان والسلط لمدة ثمانية أشهر. وكان هاشم خير رئيس بلدية عمان السابق ونسيب مثقال فايز وسعيد المفتي الزعيم شركسي ورئيس وزارة لاحقاً، ممن تعاملوا معهم. وفيما بعد عاش إيلات بين صفوف العشائر في شرق الأردن وسورية. وقد كان مثقال بن فايز مضيفه في شرق الأردن.

11) See for example Abdul Qadir (Abd al-Qadir al-Jundi) to Officer Commanding, Arab Legion, 29 May 1932, FO 816/103, GAD's Information (Taysir Duwaji), 29 July 1932, CZA S254143; and 'A Report on a visit to Amman on 4-5 August 1932 by AHC' [Aharon Haim Cohen], CZA S25/6313.

12) A. M. Novomeysky, *Given to Salt* (London, 1958), pp. 28-30.

13) Aharon Cohen, *Israel and the Arab World* (New York, 1970), p. 190.

14) Cox to Plumer, 27 July 1928, CO 733/165, Neil Caplan, Futile Diplomacy Vol. II: *Arab-Zionist Negotiations and the End of the Mandate* (London, 1986), pp. 216-17.

15) مذكرة عن مقابلة مع المندوب السامي أيدها السكرتير الرئيسي موجهة إلى الدكتور سوكولوف والدكتور آرلوسوروف والسيد نيومان يوم الثلاثاء الواقع في الثاني من شباط عام (1933 م) (CO 831/21). كذلك كانت الوكالة اليهودية تعتبر العلاقات الجيدة مع شيوخ شرق الأردن، وخصوصاً مع مثقال بن فايز، رئيس بني صخر، ضمانة ضد المشاركة القبلية في أية اضطرابات مستقبلية في فلسطين. انظر أيضاً مذكرة حول شرق الأردن [بقلم (آلروسوروف)؟]، بلا تاريخ [حوالي أيار (1932 م)] (CZA S25/3490). وهنا تم إيراد أربعة أسباب كامنة وراء الاهتمام الصهيوني بشرق الأردن:

أولاً: لقد أصبحت مشكلة الأرض غرب الأردن أكثر إلحاحاً بصورة مطّردة ولا سيما بعد الدعاية التي حظيت بها عن طريق تقريري شو وهوب - سمسون والتي ستحظى بها دون شك جراء التقرير الفرنسي.

ثانياً: تطور أسعار الأراضي في مناطق معينة من فلسطين العربية وخصوصاً تحت تأثير التنافس القائم على المضاربة بات عاملاً يجعل مجرد التلميح إلى وجود احتياطي من الأرض للاستيطان الصهيوني في أي مكان آخر خارج تلك المناطق قادراً على ممارسة قدر لا يستهان به من التأثير باتجاه التخفيف من التوتر.

ثالثاً: بلغ الضيق الاقتصادي والركود في شرق الأردن مستويات دفعت الأهالي، وبأسرع مما توقعوا بكثير، إلى البحث عن طاقات ورساميل يهودية في سبيل التغلب على دلك الضيق والركود.

رابعاً: (وهو ناشئ جزئياً عن ثالث) كان من شأن الخطر المتمثل بشرق أردن غارق في الفقر والاستياء وميال إلى النهب والسلب والذي يعني تهديداً مباشراً للمستوطنات اليهودية في فلسطين أن يجعل من عملية إقامة روابط ودية، كتدبير احتياطي، عملية ذات أهمية مباشرة.

16) G. F. Walpole, '*Land Problems...*,' p. 59 On the growing volume of contacts across the Jordan at this time, see Caplan, *Futile Diplomacy* II, pp. 11-14.

17) Arlosoroff to Brandeis, 8 May 1932, CZA S25/3489 On Jewish Agency strategy in Transjordan, see Kenneth W. Stein, *The Land Question in Palestine 1917-1939* (Chapel Hill, NC, 1984), pp. 175 and 192-9.

18) See 'Law for the distribution of taxes in Kerak Qadha and the Beni Hassan Tribe, 1932,' Cox to HC, 18 June 1932, FO 816/36; Memorandum by Mr Mitchell (Director of Lands), 3 February 1932, Cox to HC, 23 February 1933, and Cox to Officer Commanding, Arab Legion, 5 March 1933, FO 816/37; Annual report to the Council of the League of Nations on the administration of Palestine and Transjordan, 1933, pp. 246-8.

19) Monthly report on the administration of the deserts of Transjordan, January 1933, CO 831/23

20) في عام (1922 م) سمح لمثقال (بمرسوم خاص) أن يشتري عشرة آلاف دونم في الجيزة بمبلغ ألف جنيه استرليني (عشرة قروش للدونم) يتم تسديده خلال عشر سنوات. وفي (1924 م) استولى عبد الله على نصف تلك الأراضي، وتم الترتيب على أن يقوم كل منهما، مثقال وعبد الله، بدفع خمسمئة جنيه خلال خمس سنوات مقابل حصتيهما. سدد عبد الله ملغ الخمسمئة كاملاً، ومن ثم باع حصته البالغة خمسة آلاف دونم لسعد الدين شاتيلا محققاً ربحاً بلغ ثلاثة أضعاف السعر أي ملغ ألف وخمسمئة جنيه؛ لم يستلم عبد الله الملغ نقداً بل جرى احتسابه من دين سابق لشاتيلا الذي كان متعهد قصر عبد الله. وفي عام (1926 - 1927 م) قامت حكومة شرق الأردن بمراجعة الصفقة كلها واكتشفت أن مساحة الأرض المباعة أساساً لمثقال لم تكن عشرة آلاف دونم بل (33968) دونماً، وبالتالي فإن الحكومة كانت قد حرمت من مبلغ (2396) جنيهاً (حسب السعر الأصلي). تمت إحالة القضية على المحاكم وتقرر أن نقل ملكية نصف الأرض إلى عبد الله في (1924 م) لم يكن قانونياً، مما أدى إلى إبطال البيع لشاتيلا واعتبار عبد الله مديناً له

بمبلغ (1500) جنيه. أما مثقال فقد خير بين شراء المساحة كلها بالسعر الأصلي وتسديد المبلغ المستحق للحكومة وبين التخلي عن الصفقة كلها. وقد قرر شراء الأرض (Chancellor to CO, 27 June 1930, CO 831/10).

21) Nahum Papper to Kisch, 16 March 1931, CZA S245/3490. Papper was the proposed buyer; Hanna Farah (as written, but the name was most probably Farha) of Ma'daba served as the go-between.

22) To members of the Zionist Executive from Chaim Arlosoroff, 6 December 1932, CZA S25/3492. No sale was finalized, although to maintain relations the Jewish Agency dribbled small amounts of cash to Mithqal from time to time. By January 1933 he had received EP 145 A conversation with Mithqal Ibn Fayiz on 12 January 1933 by M[oshe] S[hertok], 23 January 1933, CZA S25/3491.

23) Report by Nathan D Kaplan, 29 September 1932, CZA A264/18 At least part of Xaplan's report is confirmed in the report on the political situation for the month of July 1932, FO 371/16017.

24) وقد ضم كلاً من: عطوي باشا المجالي، والشيخ عطا الله المجالي وزعل المجالي من محافظة الكرك، وسلطان عدوان شيخ قبيلة العدوان، ورشيد الخزاعي من عجلون، وسعيد باشا أبو جابر من السلط. وليس من الواضح دوماً إن كان ملاك الأراضي الشرق أردنيون المشار إليهم في مراسلات الوكالة اليهودية مهتمين ببيع أو بتأجير أراضي، أو أن الوكالة اليهودية اتصلت بهم على أمل كسب موافقتهم (To members of the Executive from Arlosoroff, 6 December 1932, CZA S25/3492).

25) Emanuel Neumann, *In the Arena* (New York, 1976), p. 134; Arlosoroff to Brandeis, 8 May 1932, CZA S25/3489

26) On British reactions to Zionist initiatives at this time see: Comments on Jewish Agency memo, January 1931 and Minute by Shuckburgh, 2 February 1931, CO 733/197; Note of an interview given to Dr. Weizmann by the high commissioner, 20 March 1931, and Note of an interview with Baron Edmund de Rothschild, Paris, 5 May 1931, FO 371/15324; Wauchope to Cunliffe-Lister (secretary of state for the colonies), 5 March 1932, CO 733/215, Wauchope to Cunliffe-Lister, 23 April 1932, CO 831/18

27) Précis of events, 24 August-14 September 1929, and Peake to Cox, 18 September 1929, CO 733/175 (box 3), Transjordan situation report, 1 July-30 September 1929, CO 831/5 See also 'Yadhkuru Sa'id al-Mufti,' part 3, *al-Dustur* (Amman daily), 25 February 1976

28) في رسالة له إلى لندن كتب المندوب السامي يقول: «إن عبد الله قد استحق، بفضل سلوكه الحازم في أثناء الاضطرابات في آب (1929 م) وبعدها سخاءً وكرماً من

جانب حكومة حلالة الملك، (Chancellor to Lord Passfield, secretary of state for the colonies, I March 1930, CO 831/9). يمكن العثور على المناقشة والترتيبات الخاصة بمسح أراضي الدولة لعبد الله والاعفاء من الضرائب في: (Cox to Chancellor, 17 December 1929; CO 831/5, Pirie-Gordon (Times special correspondent to Jerusalem) to Shuckburgh, 11 December 1929, CO 831/6; and Shuckburgh to Chancellor, 13 April 1931, CO 831/14) جرى المسح بموجب القانون وتم نشره في الجريدة الرسمية، بتاريخ 25 آب (1931 م) و1 آب (1933 م). كما تم الاعلان عن استحالة نزع ملكية الأرض.

29) Cox to Chancellor, 10 June 1930, CO 831/9; Acting HC to CO, 31 May 1933 and HC to CO, 2 September 1933, CO 831/21 Britain was considering exempting Abdullah from the taxes due on his land and so assessed the land to see how much revenue the government would forfeit.

30) Wauchope to Cunliffe-Lister, 2 January 1932, CO 831/18; 'A Visit to the Amir Abdullah by M[oshe] S[hertok],' 28 March 1932, CZA S25/6313.

31) Text of the option and attached lease between Abdullah and Emanuel Neumann and Joshua Farbstein, 3 January 1933, CO 831/21 On the negotiations leading to the option, see Neumann to members of the Executive of the Jewish Agency, 9 December 1932, CZA S25/3492, and Neumann, In the Arena, pp. 121-8

32) 'Abbas Hilmi Papers, reel 10, file 63/276 and 278 It is not certain whether the Compagnie was in fact interested in the land or whether it was used as a way to transfer money from Hilmi to Abdullah for political purposes of mutual interest. Shortly thereafter they were both implicated in a tribal uprising in the Hijaz.

33) Two letters from Abdullah to Neumann and Farbstein, both dated 17 March 1933, CZA S25/3514 See also Wauchope to Parkinson, 12 April 1933, CO 831/21

34) تفنيداً لشائعات كاذبة عن تأجير غور الكبد لشركة أجنبية أو لأشخاص أجانب يعلن ديوان سموه أن تلك الشائعات لا تستند إلى أي أساس، وأن مكتب الأمير الخاص قام بعد نشره إعلاناً سابقاً عن تأجير الأرض بسحب ذلك الإعلان وبالتالي فإن أراضي غور الكبد لم تعد معروضة للإيجار بعد اليوم (Official communiqu from His Highness's Diwan, 24 January 1933, CO 831/21).

35) Abdullah to [Jewish Agency], 15 February 1933, CZA S25/4143.

36) Rendel, The Sword and the Olive, pp. 76-7

37) كانوا: رشيد باشا الخزاعي (جبل عجلون) متري باشا زريقات (زعيم مسيحي من

الكرك)، شمس الدين سامي (زعيم شركسي من عمان)، سليم باشا أبو العجم (البلقاء)، مثقال بن فايز (أحد كبار مشايخ بني صخر) وأمين سره محمد أبو خالد. إن التقرير ومحضر اللقاء عن الوليمة التي ضمت الدكتور وايزمن وأعضاء اللجنة للوكالة اليهودية مع قادة الحركة العربية من شرق الأردن في فندق الملك داود يوم 8 نيسان (1933 م) كتبه (A. H. Cohen, CZA S25/3510) انظر أيضاً (See also Neumann, In the Arena, p. 129). أما ملاك الأراضي الشرق أردنيون الذين بدؤوا أو تابعوا عقد صفقات مالية مع الوكالة اليهودية في هذا الوقت فكانوا: دلوان وزعل المجالي وخالد مدانات، وحميعهم من الكرك. ثمة رسالتان من رفيفان المجالي إلى موشي شرتوك مسجلة بتاريخ 22 أيار و24 أيار (1933 م) ورسالة من زعل المجالي إلى شرتوك في 25 أيار (1933 م) (CZA S25/3515).

38) كان مالك الأرض الشرق أردني الوحيد الذي أكمل عمليه رهن مع الوكالة اليهودية بمقدار ما يمكن التحديد استناداً إلى الوثائق المتوفرة. وشهادة الرهن الأصلية المؤرخة في 13 نيسان (1933 م) موجودة في الوثيقة (CZA S25/3491) وقد تمت إعادة نشر الوثيقة في كتاب سليمان بشير: **جذور الوصاية الأردنية**، القدس (1980 م) لحق.

39) عن الاستقلال الجديد انظر أوراق **خاصة**، ص 66-67 ودروزة، **القضية**، الجزء الأول ص 86-9 و309-310.

39) On the new Istiqlal see 'Awni 'Abd al-Hadi, *Awraq Khassa*, pp. 66-7, and Darwaza, *al-Qadiyya*, Vol. 1, pp. 86-9 and 309-10

40) Report on the political situation for the month of July 1933, FO 371/16932; Monthly reports on the administration of the Transjordan deserts, July and August 1933, CO 831/23 When Faysal came to Amman, one reason why Palestinian leaders used to meet him was simply to tease Abdullah. Conversation with Farhan Shubaylat, Amman, 15 December 1978

41) Report on the political situation for the month of August 1933 and monthly report on the administration of the Transjordan deserts, August 1933, CO 831/23

42) Kirkbride to HC, 26 September 1933, CO 732/57; Report on the political situation for the month of September 1933, CO 831/23

43) ثمة تقويم معاصر قسم السكان إلى ثلاث مجموعات: (1) مجموعة كبار التجار وملاك الأراضي (حوالي مئة يملكون عشرة ملايين دونم) المعتمدة على عبد الله والمؤيدة للخيار؛ (2) مجموعة الفلاحين وصغار التجار والمراتب الدنيا من الجهاز البيروقراطي الحكومي المعارضة للخيار؛ (3) ومجموعة البدو اللامبالية. (Report by A]haron [H]aim [C]ohen, [CZA S25/4143.

44) Philby *Diary*, 17 December 1921, Philby Papers.

45) Wauchope to Cunliffe-Lister, 17 May 1934, CO 831/27
46) Report on the political situation for the month of June 1934, FO 371/ 17880.
47) Program of events for the visit of HH the Amir of Transjordan, 9 June-7 July 1934, CO 831/28 Abdullah was so fond of horses that he wrote a book about them: Jawab al-Sa'd 'an al-Khayl al-Asa'il (Amman, n.d.), reprinted in Madani (ed), al-Athar.
48) Hodgkin, 'Antonius,' p. 24
49) The high commissioner further explained to Moshe Shertok 'that if the Bill had so far been shelved. This was the result of his [the high commicsioner's] own influence, exerted in the face of great difficulties. .' Note of a conversation with the high commissioner on 19 December 1933 by M[oshe] S[hertok], CZA, S25/3493.
50) Report on the political situation for the month of March 1933, CO 831/21

51) قضت الشروط بأن تتم إدارة الأرض من قبل مؤسسة متميزة عن الوكالة اليهودية، وبأن تقوم هذه المؤسسة بتسديد تكاليف الزيادة الضرورية لقوة حدود شرق الأردن (لواء واحد = 30000 جنيه) وبأن يتولى المندوب السامي مهمة تحديد المناطق المفتوحة للاستيطان، وبأن يتم الاحتفاظ بالمزارعين العرب على حيازات مناسبة Talk between Wauchope and Cunliffe-Lister, 22 April 1933, CO 732/) 62. See also extract from a record of a conversation between Sir Philip Cunliffe-Lister, Sir S Wilson and Mr. C. Parkinson, I May 1933, CO .(831/21

52) فيما يخص تغير مواقف بريطانيا من بيع الأراضي والمستوطنات ومدفوعات الوكالة اليهودية إلى عبد الله ووسيطه محمد الأنسي انظر (-Wauchope to Cunliffe Lister, 22 July 1933, CO 831/21, Note of a conversation with the high commissioner on 19 December 1933 by Shertok, CZA S25/3493; Agreement between Abdullah and the Palestine Land Development Company, 3 January 1934, CZA S25/10122; 'A report on my visit to the Amir Abdullah on the occasion of renewing the option on Ghawr-al-Kibd for the year of 1934', by A. H. Cohen, 12 January 1934, S25/3487; Notes of subjects mentioned by Dr Brodetsky or Mr Lourie at a luncheon given by Dr Brodetsky to Sir C. Parkinson and Mr Williams, .(10 January 1935, CO 733/271

53 Conversation with T[aysir] D[uwaji] by M[oshe] S[hertok], 28

February 1932, CZA S25/3051; Shertok to Brodetsky, 7 June 1934, CZA S25/3515; Addendum to agreement between Abdullah and the S25/ ،Palestine Land Development Company, 3 January 1935, CZA 3864 (وقد تم دفع مبلغ ثمانمئة جنيه إضافية تقديراً لخدماته كوسيط).

54) محمد عزت دروزة، **القضية الفلسطينية**. صيدا وبيروت (دون تاريخ) المجلد الأول ص 124؛ ياسين صبحي، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936 - 1939**. بيروت 1961، ص 132.

55) Report on the political situation for the month of April 1936, CO 831/37, RAF intelligence summary, May 1936, FO 371/20030

56) A. H. Cohen to M.Shertok and Y.Ben Zvi, 18 May 1936, CZA S25/3253. في الحقيقة كان اليهود في فلسطين شديدي القلق من أن يؤدي الإضراب إلى قيام بريطانيا بإعادة تقويم سياستها وتعديلها، وكان التعليق الطوعي للهجرة يدرس بصورة جدية من قبل بعض الفئات بوصفه وسيلة من وسائل وضع نهاية سريعة للإضراب. انظر (Michael J. Cohen, 'Secret Diplomacy and the Rebellion in Palestine, 1936-1939', *International Journal of Middle East Studies* ((July 1977), pp. 385-7 See also Caplan, *Futile Diplomacy* II, pp. 40-2.

57) قال:

إن حكومة جلالته لا تستطيع أن تفكر بأي تغيير للسياسة فيما يخص فلسطين إلى أن تتسلم وتدرس تقرير اللجنة الملكية. أما بخصوص الاقتراح بضرورة التوصل إلى تعليق مؤقت للهجرة في أثناء قيام اللجنة بإنجاز تحقيقها فأنا لست في الوقت الراهن في وضع يمكنني من أن أدلي بأي تصريح حول ما تعتزم حكومة جلالة الملك أن تقوم به، عدا القول بأن ليس هناك أي مجال لممارسة التأثير عليها عن طريق العنف أو محاولات التخويف.

جواباً على سؤال طرحه ديفيد آدامز في مجلس العموم بتاريخ 22 تموز (1936 م).

58) 'Between the Political Department and the palace in Amman,' by A. H Cohen, 28 July 1936, CZA S25/3243. The suggestion was made in a letter from Cohen to Muhammad al-Unsi, dated 28 June 1936

59) 'Between the Political Department and the palace in Amman,' by A. H. Cohen, 28 July 1936, CZA S25/3243.

60) كان محمد الأنسي وسيط عبد الله الأول مع الوكالة اليهودية. جاء من بيروت وكان ظهوره الأول في شرق الأردن عام (1921 م). اعتبره (فيلبي) شخصاً غير بارز داهية في الدسائس، كان يشغل منصب السكرتير الثاني الاسمي ومنصب وزير الخزانة الفعلي. وكان بالنسبة إلى فيلبي المستفيد الأول من الترتيبات المالية الموجودة

آنذاك في القصر (تقرير عن الوضع في شرق الأردن بتاريخ 1 نيسان 30 حزيران عام 1922 م). وقد ذكره (بيك) في عام (1924 م) في سياق الحديث عن الفساد المالي قائلاً: «إنه استعار طقماً من الملابس لزيارة عبد الله في عام (1921 م)» (Peake to Cox, 11 May 1924, CO 733/68). وفي عام (1931 م) قيل إن عبد الله تآمر لفرض إعادة انتحابه لعضوية المجلس التشريعي. وفي تلك الأثناء كتب كوكس يقول إن عبد الله كان «عاجزاً عن إغفال آيات التملق ومظاهر الولاء لأي وغد يتقرب منه». تقرير عن الوضع السياسي عن شهر نيسان (1931 م) (CO 831/12).

61) Minute of an interview with the high commissioner on Tuesday July 28, 1936, by M. Shertok, CZA S25/3243

62) Periodical appreciation summary, Police Intelligence, no. 14/36, 18 August 1936, FO 371/20018

63) كان الحاضرون في اجتماع الهيئة العربية العليا التي صاغت الرسالة هم الحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي وحسين الخالدي وعبد اللطيف صلاح ويعقوب فرّاج وألفرد روك ويعقوب الغصين وفؤاد سابا. وليس من الواضح بشكل قاطع إن وافقوا جميعهم على إرسال الكتاب، وراغب النشاشيبي استمر بشكل خاص يؤيد تدخل عبد الله. محضر اجتماع الهيئة العربية العليا الخامس عشر بتاريخ 15 آب 1936 (ISA 65/2520).

64) أعرب عبد الله عن غضبه من أحمد حلمي - مكالمة هاتفية مسجلة [مراقبة] عبد الله إلى حلمي، الساعة العاشرة وأربعين دقيقة من يوم 21 آب (1936 م). وفيما يتعلق بتدخل نوري [السعيد] انظر (the report on the political situation for the month of August 1936, CO 831/37, and RAF intelligence summary for week ending 4 September 1936, FO 371/20030)

65) On Abdullah's last-minute efforts to regain control of mediation himself see: Abdullah to Hajj Amin, 6 September 1936, CZA S25/3243; Report on the political situation for the month of September 1936, CO 831/37 On Raghib al-Nashashibi's intervention on Abdullah's behalf, see David Ben Gurion, My *Talks with Arab Leaders* (Jerusalem, 1972), p. 117

66) Robert John and Sami Hadawi, *The Palestine Diary* (Beirut, 1970), Vol. 1, p. 266

67) Monthly report on the administration of the deserts, June 1936, and monthly reports on the political situation for the months April through September 1936, CO 831/37, RAF intelligence summary for May 1936 and for the week ending 9 July 1936, FO 371/20030; Yasin, *al-Thawra*, pp 218-19

68) RAF intelligence summary for May 1936, FO 371/20030; Report on

the political situation for the months of April, June and September 1936, CO 831/37; HC to CO, 31 August 1936, CO 831/39

69) 'Between the Political Department and the palace in Amman,' by A. H. Cohen, 28 July 1936, CZA, S25/3243; Peake to Cox, 21 August 1936, Peake Papers

70) محمد عزت دروزة، حول الحركة... الجزء الثالث، ص 145. (Report of the Royal Commission, Cmd. 5479, July 1937, pp. 102-3).

71) RAF intelligence summary, week ending 29 November 1936, CO 371/ 2003 1; Note of a call on HH the Amir Abdullah, 24 November 1936 by M. Shertok, CZA S25/6313; Information of the Arab Bureau, A S., 4 December 1936, CZA S25/3252.

72) Report of the Royal Commission, Cmd. 5479, July 1937, p. 103. See also Muhammad al-Unsi to A. H. Cohen, 8 February 1937, CZA S25/ 9783. Al-Unsi wrote that Abdullah was purposely ignored in the decision to co-operate with the Royal Commission.

73) Report on the political situation for the month of January 1937, CO 831/41; Report of what took place between Abdullah and the Royal Commission on 9 January 1937, CZA S25/9783; HC to CO, 12 January 1937, CO 733/320

74) Extract from a note of an interview between Sir C. Parkinson and the Amir Abdullah, May 1937, CO 831/41.

75) A conversation between David Hacohen, David Huz and the Amir Abdullah in London on 15 May 1937, CZA S25/3486

76) Statement made orally by Atatrk to Northfield in the presence of Amir Abdullah and suite on 31 May 1937, James Morgan (British Embassy) to FO, 5 June 1937, CO 831/44.

77) HC to CO, 12 June 1937, CO 831/44.

78) HH's speech to the people of Transiordan on his return from the coronation, 13 June 1937, CO 831/44.

79) Palestine, Report of the Royal Commission, Cmd. 5479, July 1937, pp. 376-81. Simha Flapan presents convincing evidence that the idea of partition became policy owing to the intense efforts of the Zionist leadership. Flapan, *Zonism and the Palestinians*, pp. 241-51.

80) The Palestine report, preliminary departmental comments, G. W. Rendel, 23 June 1937, FO 371/20807

81) Shuckburgh to Rendel, 1 July 1937, Ormsby-Gore to Eden, 2 July 1937, Note by Rendel, 3 July 1937, FO 371/20808

82) Note on the position in Transjordan regarding the Report of the Royal Commission, by A S. Kirkbride, 17 July 1937, CO 733/351.

83) Note on the position in Transjordan regarding the Report of the Royal Commission, by A. S. Kirkbride, 17 July 1937, CO 733/35 1; Note of a conversation with Mr Merton, 5 August 1937, CZA S25/10122;

Information of the Arab Bureau, 10 August 1937, CZA S25/10097

84) Extract from a personal letter to Dr Weizmann from a friend in Jerusalem, 18 August 1937, CO 733/35 1; Yehoshua Porath, *The Palestinian Arab National Movement 1929-1939* (London, 1977), pp. 229 and 234

85) Ormsby-Gore to Eden, 15 July 1937, FO 371/20809

86) Sir A Clark Kerr, Baghdad, to FO, 2 January 1937, FO 406/75; 'Between the political department and the Amir's palace, 16 February 1937,' by A. H. Cohen, CZA S25/3584.

87) Sir A Clark Kerr to FD, 21 February 1937, Kerr to Rendel, 23 March 1937, Kerr to FO, 14 April 1937, Wauchope to CO, 11 May 1937, FO 371/20787

88) Report on the political situation for the month of September 1937, CO 831/41; Glubb to Cox, 17 September 1937, FO 371/20818; Jackson Fleming, 'A Visit to Amir Abdullah,' Asta 38 (January 1938), p. 65

89) The Agency reserved the right to talk to any Arab interested in reaching an amicable settlement, but promised not to do anything behind Abdullah's back Later it gave him between £P 700 and 800 for propaganda purposes. Record of a conversation with M[uhammad] U[nsi) by B[ernard] J[oseph], 11 August 1937, and A. H. C[ohen] to M. S[hertok], 1 November 1937, CZA S25/3486; A. H. C[ohen] and M. S[hertok], 1 March 1938, S25/3491; List of amounts paid to Abdullah and al-Unsi since the beginning of 1936, prepared by Mr Zagagi, 8 May 1938, S25/3515

89) احتفظت الوكالة بحق الحديث مع أي عربي مهتم بالتوصل إلى تسوية ودية، غير أنها وعدت بألا تفعل شيئاً من وراء ظهر عبد الله. وفيما بعد دفعت له مبلغ (700) و(800) جنيه لأغراض الدعاية (Record of a conversation with M[uhammad] U[nsi] by B[ernard] J[oseph], 11 August 1937, and A. H. C[ohen] to M. S[hertok], 1 November 1937, CZA S25/3486; A. H. C[ohen] and M. S[hertok], 1 March 1938, S25/3491). أما قائمة المبالغ المدفوعة إلى عبد الله والأنسي منذ بداية عام (1936 م) فقد أعدها السيد زاغاغي 8 أيار (1938 م) (S25/3515).

90) Note of a conversation with Lady Reading and Hafiz Bey Taji, 15 May 1936, CO 733/289; Cox to Moody, 11 February 1937, CO 733/326; Record of a conversation with M[uhammad] U[nsi] by B[ernard] J[oseph], 11 August 1937, CZA S25/3486

91) Tom Bowden, 'Arab Rebellion in Palestine 1936-1939,' *Middle Eastern Studies* 11 (1975), p. 148

92) دروزة، القضية... الجزء الأول ص 137؛ إميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً،

بيروت 1973، المجلد الثاني ص 131. وعندما اختطف موظف في دائرة الغابات البريطانية قرب إربد في عام (1939 م) لم يبذل أي مجهود للتعرف على أسماء خاطفيه، رغم أن القرية التي آوتهم كانت معروفة (Report on the political situation for the month of February 1939, CO 831/51).

93) Report on the political situation for the month of November 1938, CO 831/46; Yasin, al-Thawra, p. 219
94) On developments in Transjordan by A. H. C[ohen], 5 January 1938, CZA S25/ 3501; Periodical appreciation summary, Police Intelligence, no. 73/38, 18 October 1938, CO 733/359; Report on the political situation for the month of November 1938, CO 831/46
95) Palestine Partition Commission Report, Cmd. 5854, October 1938, p. 243; Palestine Statement of Policy, Cmd. 5893, 9 November 1938
96) Memorandum submitted by Amir Abdullah to the Palestine Partition Commission and to the secretary of state for the colonies, 11 June 1938, FO 371/21885 See also Caplan, *Futile Diplomacy* II, pp 92-5 and 238-9
97) Palestine and Transjordan, 4 June 1938, p. 3, Report on the political situation for the month of June 1938, CO 831/46
98) HC to CO, 17 November 1938, CO 831/50.
99) Abdullah to HC, 11 December 1938, CO 831/50, HC to CO, 13 December 1938, CO 831/46
100) Note of a CO-170 meeting, 23 September 1938, FO 371/21864.
101) Palestine, Statement of Policy, Cmd. 6019, 17 May 1939 The gulf between Arab and Jewish positions was revealed in the informal meetings held with both delegations attending. See Caplan, Futile Diplomacy 11, pp. 240-59.
102) On the discussions and their results see: Conversations between Abu'l-Huda and MacDonald, 16, 19 and 25 January 1939, MacDonald to Abu'l-Huda, 6 April 1939, and CO to HC, 12 May 1939, FO 371/23247
103) Kirkbride to HC, 3 June 1939, CO 733/406, Report on the political situation for the month of June 1939, CO 831/51

* * *

8) الحرب والسياسة:

1) Report on the political situation in Transjordan for the month of September 1939, CO 831/511, J. B. Glubb, 'Transjordan and the War,' *Journal of the Royal Central Asian Society 33 1* (January 1945), pp. 25-6
2) Annual report to the Council of the League of Nations on the administration of Palestine and Transjordan, 1938, p. 370; Konikoff,

Trans-Jordan, p. 127

3) بلغ مجموع تعداد الدارسين في سائر المدارس الابتدائية والثانوية الحكومية والخاصة من الذكور والأناث (13854) شخصاً في العام الدراسي (38 - 1939 م). لم يكن ثمة إلا مدرسة ثانوية حكومية واحدة للذكور تقدم منهاجاً كاملاً لأربع سنوات. وكانت ثلاث ثانويات أخرى تقدم برنامجاً دراسياً لعامين اثنين. وقد بلغ مجموع الطلاب في هذه المدارس الأربع الموجودة في السلط وعمان وإربد والكرك (243) طالباً. لم تكن هناك أية ثانوية حكومية لتعليم البنات. وفي عام (1937 م) بدأت مدرستان خاصتان توفران التعليم الثانوي، هما مدرسة النين الانجيلية ومدرسة بنات جمعية الكنيسة التبشيرية. إن عدداً محدوداً جداً من طلاب شرق الأردن كانوا يتابعون الدراسة الثانوية والجامعية في القدس وبيروت. التقرير السنوي المقدم إلى مجلس عصبة الأمم عن إدارة فلسطين وشرق الأردن، (1938م)، ص: 361 - 368. وعلى الرغم من أن عدد الطلاب كان ضئيلاً، فإن طلاب المدارس الثانوية كانوا يذكرون بصورة متكررة على أنهم كانوا كثيري التظاهر ضد بريطانيا وعبد الله في التقارير السياسية البريطانية.

4) في عام (1939 م) كانت النشاطات الصناعية بأوسع معانيها تشتمل على مصنعين للسجائر في عمان يعمل فيهما (180) عاملاً، ومصانع الاسمست في عمان التي كانت تصنع الأسمنت وألواح التيرازو، ومعملي جليد صغيرين، ثلاثة معامل تقطير (اثنان في السلط وثالث في فحيص) بلغ مجموع عدد العاملين فيها اثنين وعشرين عاملاً، مطبعة واحدة في عمان كانت تعمل بوصفها مطبعة حكومية كما كانت تنفذ طلبات خاصة، الحياكة والحرف المشابهة كانت تتم يدوياً في المنازل أو في ورشات صغيرة، طحن الحبوب وعصر الزيتون (حيث كانت الطواحين والمعاصر تدار بالماء أو باليد فضلاً عن أن معاصر زيتون حديثة وقديمة الطراز كانت مستخدمة) .(Konikoff, Trans-Jordan, pp. 71-3)

5) Kirkbride to HC, 7 November 1939, CO 831/54.

6) Report on the political situation in Transiordan for the month of March 1940, CO 831/55; and report on the political situation in Transiordan for the month of November 1942, CO 831/58

7) HC to CO, 7 December 1940, and Treasury to CO, 25 January 1941,) (CO 831/55). في مسودة تقرير بعنوان: تدابير للتأثير على القوى والدول العربية، جاءت توصية تتضمن وضع عشرة آلاف جنيه تحت تصرف المقيم البريطاني حين بات واضحاً أن الحرب أصبحت وشيكة. وكان من الممكن استخدام هذا المبلغ لمساعدة عبد الله ودعم الشيوخ القبليين والجريدة الوحيدة التي كانت تصدر في شرق الأردن (Committee of Imperial Defence, standing official

subcommittee for questions concerning the Middle East, 24 January 1939, CO 732/84).

8) See: Extracts from secret reports on the political situation in Transjordan for the months of January and March 1935, CO 831/31; RAF intelligence summary, November 1935, FO 371/18960, Report on the political situation for the month of February 1936, CO 831/37
9) Peake to Kirkbride, 5 July 1937, Peake Papers.
10) Abdullah to Kirkbride, 23 March 1939, CO 831/54
11) HC to Shuckburgh, 28 March 1939, CO 831/54.
12) Kirkbride to HC, 20 October 1939, and HC to CO, 30 October 1939, CO 831/54. The two chief ministers were Ibrahim Hashim and Tawfiq Abu'l-Huda. The latter served Talal when he succeeded Abdullah in 1951.
13) Minute by J. S. Bennett, 7 December 1939, CO 831/54.
14) Kirkbride to HC, 20 October 1939, and minute by Shuckburgh, 19 December 1939, CO 831/54
15) HC to CO, 12 April 1940, CO 831/57
16) Answers to Questions of A Sasson by M. Shibli, 16 December 1940, CZA S25/3504. They were Muhammad al-Unsi and Muhammad al-Dubati.
17) Cohen, *be-Hatser ha-Melekh Abdullah*, pp. 75-81; Conversation with Mrs Every, Jerusalem, 5 January 1979; 'Emir Abdullah the Smart Little Ruler of Transjordan,' p. 69
18) HC to Shuckburgh, 5 November 1940, and HC to CO, 13 December 1940 and 19 January 1941, CO 831/57
19) Reports on the political situation in Transjordan for the months of March and April 1941, CO 831/58 These included Jamil Midfa'i, 'Ali Jawdat, Da'ud al-Haydari, Sharif Husayn ibn Nasir (Abdullah's first cousin and his wife's brother) and Sharif Fawaz (a distant relation).
20) For an account of the Arab Legion in Iraq and Syria during the war see John Bagot Glubb, The Story of the Arab Legion (London, 1946), pp. 279-94 and 309-45
21) Kirkbride, A Crackle of Thorns, p. 134
22) Report on the political situation in Transiordan for the month of May 1941, CO 831/58
23) Kirkbride to HC, 9 September 1941, CO 831/58
24) HC to CO, 21 May 1941, CO 831/59
25) The Legion, all ranks, numbered 1,624 in 1938 Annual report to the Council of the League of Nations on the administration of Palestine and Transjordan, 1938, p. 348 By 1946 Kirkbride reported the Legion at 6,624 'The Military Units of the Arab Legion,' by A. S. Kirkbride, 4

June 1946, FO 371/52605

26) Note by the prime minister and minister of defence, 19 May 1941, FO 371/27043.

27) Fayez Sayegh, *Arab Unity* (New York, 1958), pp. 81-94.

28) HC to CO, 11 October 1939, FO 371/23281

29) CO to FO, 3 October 1939, and CO to HC, 7 October 1939, FO 371/ 23281

30) Kirkbride to HC, 8 June 1941, CO 831/59

31) Abdullah to HC, 8 June 1941, CO 831/59

32) Oliver Lyttelton, Viscount Chandos, *The Memoirs of Lord Chandos* (London, 1962), p. 256 For a summary of Abdullah's attempts to create Greater Syria to 1943, see Porath, *In Search of Arab Unity*, pp. 22-39

33) *Elections Syriennes*, Mars-Dcembre 1943, MAE, Guerre 1939-1945, Alger (CFLN), Vol. 1,004, Gardener to Spears, 13 March 1943, Spears to Catroux, 16 March 1943, Furlonge to Spears, 18 March 1943, and Altounyan to Lascelles, 16 June 1943, FO 226/240.

34) Beirut, 3 January 1944, and Chatigneau (Beirut) to Massigli (Paris), 25 January 1944, MAE, Guerre 1939-1945, Alger (CFLN), Vol. 1,030, pp. 242-3

35) حينْ تشكلت حكومة الكتلة الوطنية برئاسة شكري القوتلي في آب (1943 م) مثلاً هدد بعض الدروز بالانفصال عن سورية والانضمام إلى شرق الأردن، لأن أي درزي لم يعين وزيراً في المجلس (Report on the political situation in Transjordan for the month of August 1943, FO 371/ 35045). وثمة مثال آخر عن انتهازية الدروز نجده في قيام هايل بك الأطرش بالتهديد بإعلان اتحاد جبل الدروز مع شرق الأردن لأن مرشحه للقضاء في محاكم الطائفة الدرزية كاد أن يفقد المصب لصالح مرشح آخر. وقد تمخض تهديده عن المسارعة إلى تعيين مرشحه (Ha'il Bey al-Atrash to Glubb Pasha, 20 March 1944, FO 684/15) وقام الأمير فاعور الفاعور من عشيرة الفصل الذي كان خصماً للكتلة الوطنية بزيارة الملك عبد الله بعيد انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. تقرير عن الوضع السياسي في شرق الأردن عن شهر تشرين الأول (1943 م) CO 831/60. وبين الحين والآخر قام ساسة حضريون CO 831/51.

36) Kirkbride to HC, 19 September 1941, CO 831/59

37) HC Beirut to Paris, 10 June 1939, MAE, Puaux Papers, Carton 33, Dossier 'Relations avec la Palestine', A. L. Kirkbride (Acting British Resident for his brother) to HC, 10 June 1939, FO 371/23280; Conversation with Dr Shahbandar, 22 January 1940, FO 371/24548 The National Bloc solicited Saudi support against the Shahbandar-

Abdullah alliance.

38) Diary of the political officer, Damascus, week ending 13 March 1943, FO 686/14.

(في عام (1939 م) ذكرت الصحيفة السورية (La Chronique) أسماء تسعة مرشحين للعرش هم: سعيد الجزائري والداماد أحمد نامي بي (شركسي وزوج ابنة السلطان عبد الحميد) والأمير عبد الإله والملك ابن سعود والأمير عبد الله والأمير محمد (ابن عم الملك فاروق) والأمير زيد وفيصل الثاني وزوغ ملك ألبانيا السابق .(La Chronique, 20 May 1919)

39) British Legation, Damascus, to Jerusalem, 16 November 1945, FO 371/45415

40) Story told by Sir Harold MacMichael to Elizabeth Monroe, who passed it on to me

41) Kirkbride to HC, 8 May 1940 and HC to CO, 17 May 1940, CO 831/56; HC to CO, 14 July 1944, Spears (Beirut) to HC, 17 July 1944, Abdullah to FIC, 8 August 1944, and HC to CO, 15 August 1944, FO 371/40120, Beynet (Beirut) to Massigh (Paris), 8 August 1944, MAE, Guerre 1939-1945, Alger (CFLN), Vol. 1,324, pp. 188-9

42) Kirkbride to HC, 7 July 1942, CO 831/59; enclosure no. II in HC to CO, 28 July 1942, FO 816/42. Abdullah had first been approached by the party, without apparent result, in 1936 Report on the political situation in Transjordan for the month of March 1936, CO 83.1/37

43) Abdullah turned a deaf ear to requests that he intercede on their behalf. See for example: Report on the political situation in Transjordan for the month of December 1939, CO 831/51; HC to CO, 16 November 1943, FO 371/35047; Report on the political situation in Transjordan for the month of December 1944, CO 831/60.

44) Report on the political situation in Transjordan for the month of November 1943, CO 831/60.

45) Report on the political situation in Transjordan for the months of December 1944 and July 1945, CO 831/60.

46) A conversation with M[uhammad] U[nsi] at the house of D. Joseph on 3 April 1940, and E. Sasson to M. Shertok, 30 April 1940, CZA S25/305 1; a conversation with M[uhammad] U[nsi], n.d., CZA S25/3054.

47) HC to Lord Cranborne, 23 November 1942, CO 831/59

48) HC to CO, 20 April 1945, FO 14 1/1011

49) MacMichael to Parkinson, 6 April 1939, FO 371/23276, British Ambassador, Baghdad, to FO, 20 October 1939, FO 371/23281; Kirkbride to HC, 9 April 1940, FO 371/24569, HC to CO, 14 August 1940, FO 371/24548

50) Nuri al-Saeid, *Arab Independence and Unity* (Baghdad, 1943).

51) HC to CO, 22 March 1943, FO 816/42.

52) Political memorandum on the solution of the Syrian problem in particular and the Arab problem in general, forwarded to Kirkbride by Abdullah, April 1943, FO 816/42.

53) Abdullah's manifesto, 8 April 1943, FO 371/34960. See also *al-Kitab al-Urduni al-Abyad* (Amman, 1946), pp. 75-7

54) Diary of the political officer, Damascus, week ending 24 April 1943, FO 684/14, acting HC to CO, 24 April 1943, CO 732/87

55) Jidda to FO, 2 March 1943, FO 371/34956

56) Ahmed M. Gomaa, *The Foundation of the League of Arab States* (London, 1977), pp. 15 3-4.

57) HC to CO, 24 July 1943, FO 371/34960.

58) HC to CO, 24 July 1943, FO 371/34960.

59) HC to CO, 30 November 1940, CO 831/57

60) Special instructions on the matter of Arab unity, August 1943, CO 732/87; Report on the political situation in Transiordan for the month of August 1943, FO 371/35045

61) HC to CO, 16 September 1943, and Cairo to FO, 6 October 1943, CO 732/87

62) Report on the political situation in Transiordan for the month of September 1943, CO 831/60.

63) Report on the political situation in Transjordan for the month of October 1943, CO 831/60.

64) 'The Nature and Constitution of the Succession States,' HC to Col. Stanley (Colonial Secretary), 4 February 1944, CO 733/461. The development of Britain's Greater Syria policy which stretched over two years can be traced in the following documents: Note of a meeting held in the secretary of state's room on Friday 24 April 1942, CO 732/87; Committee on Palestine, memo by the secretary of state for the colonies, 1 November 1943, FO 371/35040

65) Michael J. Cohen, Palestine: *Retreat from the Mandate* (New York, 1978), pp. 175-9

66) E. Sasson to B. Joseph, 17 December 1943, CZA S25/3504.

67) HC to CO 3 November 1943, CO 732/87

68) E. Sasson to B. Joseph, 30 January 1944, CZA S25/5633

69) HC to CO, 31 January 1944, CO 732/88

70) HC to CO, 10 April 1944, and HC to CO, 6 May 1944, CO 732/88

71) Statement to the Transiordan government, June 1944, CO 732/8

72) Report on the political situation in Transjordan for the month of August 1944, CO 831/60.

73) Gomaa, *Foundation*, p. 226

74) Sayegh, *Arab Unity*, p. 121
75) King Abdullah of Jordan, *My Memoirs Completed* (London, 1978), p. 7
76) Kirkbride to HC, 31 January 1945, FO 816/44.
77) HC to CO, 25 February 1945, FO 371/45415; Report on the political situation in Transjordan for the month of February 1945, CO 831/60.
78) Record of a conversation between Amir Abdullah and Sir Edward Grigg (by Kirkbride), on 26 February 1945, CO 733/462; Lord Killearn (Cairo) to FO, 28 February 1945, CO 732/88; Kirkbride to Abdullah, 3 March 1945, FO 816/44; HC to CO, 18 March 1945, FO 371/45415
79) Minute by J. S. Bennett, 13 June 1941, CO 831/59
80) 'Great Britain and Arab Nationalism' by A H Hourani, August 1943, CO 732/87
81) HC to CO, 12 July 1941, CO 831/59
82) CO to HC, 26 August 1941, CO 831/59
83) See for example: HC to CO, 26 February and 15 November 1943, CO 732/87; Record of a conversation with Amir Abdullah by R. H Casey (minister of state in the Middle East) on 30 November 1942, CO 831/59
84) CO to Acting HC, 9 November 1945, FO 371/45415; HC to CO, 1 December 1945, CO 733/456
85) 'A note on the possible political results of disbanding the Arab Legion Infantry Companies,'J. B. Glubb, 1946, FO 371/52930
86) Kirkbride tq FO, 24 September 1946, FO 371/52936
87) Kirkbride to,FO, 16 February 1948, FO 371/68819
88) Conversation with Mrs Every (Jerusalem, 5 January 1979), who at the time ran a clinic at Fuhays, near Amman. See also report on the political situation in Transjordan for the month of March 1946, FO 371/52930
89) On the different reactions to Transjordan's independence see: Cairo to FO, 5 April 1946, FO 371/52426; Lord Killearn to FO, 17 January 1946, FO 141/1098; Beirut to FO, 2 April 1946, CO 537/1845, Jewish Agency to FO, 22 January 1946, FO 371/52572; Daily News Bulletin issued by the Jewish Telegraphic Agency, 28 January 1946; Dominion Office to Canada etc., 6 March 1946, FO 371/57136; 'Current US Policy Towards Transiordan,' 26 February 1946, USNA 890i.01/22646; Uriel Dann, Studies, pp. 93-116
90) HC to CO, 18 June 1946, FO 371/52935
91) Report on the political situation in Transjordan for the month of May 1946, FO 371/52935, Mattison (Damascus) to secretary of state, 25 May 1946, USNA 890i.001/5-2546; Mattison to secretary of state, 1

July 1946, *USNA* 890i 001/7-146
92) Kirkbride to Baxter, 25 March 1947, FO 371/62220
93) Kırkbrıde to Burrows, 21 October 1948, FO 371/68864.
94) Pirıe-Gordon to Burrows, 12 July 1949, FO 371/75316

* * *

9) بين عبد الله وبريطانيا والعالم العربي (1945 ـ 1948 م):

1) Memorandum from Loy Henderson to the secretary of state, 3 June 1936, USNA, 890i.01/5-2846
2) FO to Amman, 10 September 1946, FO 816/110
3) Eric Beckett (Legal Adviser to the FO) to Attorney-General, 20 February 1950, FO 371/82714
4) Kirkbrıde to Furlonge, 31 March 1950, FO 371/82751Û
5) US Embassy (Caıro) to Washington, 6 February 1947, USNA 89O1.001/2-647
6) Minute by Geoffrey Furlonge on a letter from Clayton (BMEO) to Baxter dated 14 December 1946, FO 371/52355
7) مذكراتي... عمان 1945. للاطلاع على ردة الفعل العربية على مذكراته انظر Grafftey-Smıth (Jidda) to Jerusalem, 14 February 1946, FO 371/) .(52597; Beirut to FO, 14 February 1946, FO 371/52879
8) Weekly political summary for Syrıa and Lebanon, 13 February 1947, FO 371/62119; annual polıtical review of Syria, 1947, FO 371/68810
9) Baghdad to FO, 14 June 1947, FO 371/61526
10) See for example, Kirkbrıde to FO, 14 August 1946, and Furlonge to Jidda, 9 October 1946, FO 371/52906, Kirkbrıde to FO, 7 October 1947, FO 371/62193.
11) Clayton to FO, 4 September 1947, FO 371/61496.
12) Mınute by Kirkbride, 9 September 1947, FO 371/61497.
13) US Embassy (London) to Washington, 30 June 1947, USNA 741.90/6-3047.
14) Grafftey-Smith to FO, 7 September 1946, FO 371/52355.
15) في الأساس أفاد كيركبرايد أن فكرة الرحلة البحرية كانت من بنات أفكار القائد العام التي ما لبث أن شجعها شاعراً بأن كل ما من شأنه أن يبقى الملك سعيداً وبعيداً عن سياسة الشرق الأوسط سوف يكون مفيداً.. وفيما بعد قال القائد العام إن الفكرة خرجت من رأس كيركبرايد وإنه وافق عليها، لأنه رأى أن ملاطفة الملك الذي كان قد حصل حديثاً على استقلاله وبات شديد الود ومولعاً بالتعاون مؤخراً أمر ينطوي على

قدر كبير من الأهمية على ما يبدو (Kirkbride to FO, 24 February 1947, and
.(commander-in-chief to Admiralty, 9 March 1947, FO 371/62189

16) See Cairo to FO, 3 February 1947, Jidda to FO, 5 March 1947, Baghdad to FO, 7 March 1947, and Damascus to FO, 8 March 1947, FO 371/62189
17) Commander-in-chief to Admiralty, 9 March 1947, and Cairo to FO, 11 March 1947, FO 371/62189
18) Kirkbride to FO, 15 March 1947, FO 371/62189
19) Abdullah to Kirkbride, 30 March 1947, forwarded by Kirkbride to the commander-in-chief on 1 April 1947, FO 371/62189
20) Monroe, Britain's Moment, p. 155
21) For example see Patrick Seale, The Struggle for Syria, 1945-1958 (London, 1965).
22) Note of views expressed to the prime minister by King Abdullah, by Kirkbride, 13 March 1946, FO 371/52574.
23) Minute by Kirkbride, 8 September 1947, FO 371/62226
24) Abdullah to Bevin, 30 August 1947, FO 371/62226
25) Kirkbride to FO, 12 August 1946, FO 371/52599; Monthly situation report on Transjordan, December 1946, FO 371/62206
26) Kirkbride to FO, 10 May 1947, FO 371/62229 Nayyif al-Atrash was pro-Hashemite and had received money previously from Amman for political purposes. See below n. 27
27) كان المرشد قبيل الحرب العالمية الثانية قد أسس طائفة دينية ـ سياسية في مكان قريب من اللاذقية. وفي عام (1946 م) انتعشت الحركة وحصل صدام مسلح مع القوات السورية. تم إلقاء القبض على المرشد وشنقه درساً لغيره ممن قد يفكرون بالتمرد، انظر Seale, Struggle, p 144 n.; Beirut to Amman, 17 September 1946, FO) 371/52867). انتقل جزء من قبيلة الرولة إلى منطقة (H4) حيث خصصت لها حكومة شرق الأردن أراضي تستقر فيها وقدمت لها الطعام والبنادق. معلومات من شرق الأردن عن طريق (P.S , 20 June 1946, CZA S25/9036). تلقى كل من الشيخ الدروي سعود الفواز والأمير نايف الأطرش مبلغ خمسمئة جنيه. كما حصل الأمير نايف على مبلغ إضافي قدره (2000) جنيه ليوزعه على أفراد عشيرته Information from Transjordan, 1-6 November 1946, CZA S25/9036;)
.(Kirkbride to FO, 27 September 1946, FO 371/52867
28) Kirkbride to FO, 14 August 1946, FO 371/52906.
29) Kirkbride to FO, 27 September 1946 and 28 September 1946 (two letters), FO 371/52867; Annual report for Transjordan, 1946, FO 371/62202

30) Speech from the throne, 11 November 1946, FO 371/52936.
31) Kirkbride to FO, 2 April 1947, FO 371/61492.
32) Information from Transjordan by P.S., 14 March 1947, CZA S25/ 9037.

33) الكتاب الأردني الأبيض.

34) See for example, Talbot (British legation in Beirut) to FO, 22 August 1946, FO 371/52355
35) Seale, *Struggle*, p. 31 This rival nationalist coalition adopted the name 'People's party' in 1948
36) Monthly situation report for Transiordan, July 1947, FO 371/62206
37) Seale, *Struggle*, p. 31.
38) Royal statement, 4 August 1947, FO 371/61494. This statement was actually delivered on August 12th.
39) Damascus to FO, 17 August 1947, and Jidda to FO, 25 August 1947, FO 371/61494, Damascus to FO, 25 August 1947, FO 371/61495; Monthly situation report for Transjordan, August 1947, FO 371/ 62206; Clayton, BMEO, to FO, 4 September 1947, FO 371/61496 On Syrian and Saudi reactions see also Walid Khalidi's essay, 'The Arab Perspective,' in William Roger Louis and Robert Stookey (eds.), *The End of the Palestine Mandate* (Austin, 1986), pp. 115-16
40) Baghdad to Amman, 27 August 1947, FO 371/61495
41) Beirut to FO, 30 August 1947, FO 371/61495
42) Amman to FO, 18 September 1947, FO 371/61497
43) See for example, Beirut to FO, 30 August 1947, FO 371/61495, and FO to Beirut, 15 September 1947, FO 371/615229
44) Kirkbride to FO, 14 October 1947, FO 371/61882
45) On the evolution of Britain's policy in the post-war period see William Roger Louis's essay, 'British Imperialism and the End of the Palestine Mandate,' in Louis and Stookey (eds) *The End of the Palestine Mandate*, pp. 1-31, and his recent book, *The British Empire in the Middle East 1945-1951. Arab Nationalism, the United States and Postwar Imperialism* (London, 1984).
46) Kirkbride to HC, November 1944, FO 371/39991.
47) See for example HC to CO, 16 January 1944, CO 733/461.
48) Note of views expressed to prime minister, 13 March 1946, FO 371/ 52574; FO to CO, 22 March 1946, CO 537/1845
49) Kirkbride to FO, 2 July 1946, FO 371/52551.
50) Jerusalem to Zionist Office, London, 13 August 1946, CZA S25/9036, Kirkbride to FO, 16 August 1946, FO 371/52553; Caplan, *Futile Diplomacy* 11, pp. 146-8, and 268-71.

(51 Abdullah to Bevin, 24 August 1946, and Abdullah to Creech-Jones, 4)

(September 1946, FO 371/52643). قام عبد الله والرفاعي بإبلاغ كيركبرايد أن تقسيماً يعقبه تبادل للسكان كان هو الحل العملي الوحيد. وكلاهما توسلا إلى كيراكبرايد أن يتجنب التلميح إلى أية وحدة بين شرق الأردن وفلسطين العربية في مناقشات لندن لأن من شأن ذلك أن يتمخض بصورة آلية عن معارضة كل من العربية السعودية وسورية للتقسيم، ولو من أجل الحيلولة دون التوسع الهاشمي فقط (FO 371/52555, Kirkbride to FO, 27 August 1946).

52) Washington to FO, 26 November 1946, CAB 127/281.
53) George Wadsworth to Washington, 23 June 1947, CZA S25/3885
54) Amman to FO, 28 July 1947, FO 371/61876
55) Amman to FO, 30 July 1947, FO 371/61876
56) For a full account of inter-departmental relations, see Michael J. Cohen, *Palestine and the Great Powers* (Princeton, 1982), pp. 203-28
57) Ibid., pp. 299-300.
58) Jerusalem to Washington, I December 1947, USNA 890i.00/12-147
59) HC to CO, 17 November 1947, FO 371/62194, Beeley to Bromley, 20 January 1948, FO 371/68403.
60) Clayton to FO, 27 September 1947, FO 371/61497
61) Note by Burrows on letter from Kirkbride to FO dated 22 October 1947, FO 371/61885
62) FO to Treasury, 22 January 1948, DEFE 7/388
63) Amman to FO, 21 January 1948, FO 371/68817
64) FO to Amman, 12 November 1947, FO 371/62194; Minute by Harold Beeley, 6 January 1948, FO 371/68364.
65) Kirkbride to FO, 17 November 1947, FO 371/62194.
66) Note for the secretary of state's conversation with the prime minister of Transjordan, B A B. Burrows, 24 January 1948, FO 371/68817
67) The conventional figure for the Arab Legion as of May 1948 is 6,000, 4,500 of which were sent to Palestine. Contemporary documents show larger figures. See for example. 'The military units of the Arab Legion,' by Kirkbride, 4 June 1946, FO 371/52605; 'Arab Legion Quarterly Historical Report,' no. 2, 31 December 1946, WO 261/535; 'The Arab Legion,' memorandum by Garran, 15 October 1947, FO 371/62193; Note on the Arab Legion financial situation by Glubb, 1950, FO 371/82751.
68) كان ثلاثون من هؤلاء الضباط مفروزين من الجيش البريطاني ويخدمون في الفيلق العربي بوصفهم مستشارين ومدربين. تقرر أن يحافظوا على صلتهم بالفيلق العربي ولكنهم كانوا يستطيعون، عند الضرورة، أن ينسحبوا من القتال ويحصروا عملهم في مراكز التدريب أو خدمات الحاميات في شرق الأردن. وكان ستة آخرون مرتزقة

دون أية صلة راهنة بالقوات البريطانية؛ جرى استخدامهم بموجب عقود مباشرة مع حكومة شرق الأردن ولم يشكلوا أية مسألة مسؤولية بالنسبة لبريطانيا. أما وضع خمسة ضباط آخرين بمن فيهم غلوب و(البريغادير) آر. جي. سي. برود هورست و(البريغادير) إن. أو. لاش فقد كان أكثر إشكالية. كان قد جرى نقلهم من قوة الشرطة الفلسطينية وظلوا محتفظين برواتبهم في هرم الجهاز الفلسطيني؛ أضف إلى ذلك أنهم كانوا جزءاً عضوياً من بنية قيادة الفيلق العربي. ومع زوال الجهاز الفلسطيني كانوا قادرين إما أن يتقاعدوا ويحصلوا على معاشاتهم أو يسعوا للنقل داخل جهاز وزارة المستعمرات. ولكنهم اختاروا خطاً ثالثاً حين قرروا أن يبقوا في شرق الأردن، مما كان يعني قطعاً آلياً لأية صلة لهم بأجهزة وزارة المستعمرات. وبالتالي فقد أصبحوا مرتزقة يعملون بموجب عقود مع شرق الأردن. وقد تم تحذير غلوب ومن كانوا تحت إمرته خلال الحرب من احتمال ملاحقتهم بموجب بنود قانون التجنيد الأجنبي بتهمة خدمة دولة أجنبية داخلة في حرب دون معرفة الحكومة البريطانية (The Arab Legion, 'Officers serving with the Legion who are on Palestine pensionable establishment,' April 1948, FO 371/68853; FO to Amman, 12 August 1948, FO 371/68830 See also Kirkbride, From the Wings, pp. 35-6, and Glubb, Soldier, p. 134).

69) Record of a conversation with Brigadier Glubb, 30 January 1948, FO 371'68369

70) Glubb to Kirkbride, 7 August 1951, FO 371/91821 To Glubb's mind, what was good for Jordan was good for Great Britain and vice versa.

71) Monthly situation report, November 1946, FO 371/52936; Annual report 1946, FO 371/62202; Kirkbride to FO, 4 March 1947, and 30 October 1947, FO 371/62219; Kirkbride to FO, 30 April 1947, FO 371/62221

72) Doreen Warriner, Land and Poverty in the Middle East (London, 1948), p. 80; Marcus Mackenzie, 'Transjordan,' *Journal of the Royal Central Asian Society* 33 (July-October 1946), p 263; James Baster, 'The Economic Problems of Jordan', *International Affairs* 31 (January 1955), p. 27

73) Information from Transjordan, 29 May 1946, CZA S25/9036; 'The History of the Arab nationalist movement and the origins of the Arab League,' by Gerald DeGaury, Research Department, 28 March 1947, FO 371/45241; George E. Kirk, 'Cross-currents within the Arab League: The Greater Syria Plan,' *World Today* (January 1948), p. 24.

74) Kirkbride to FO, 20 May 1947, FO 371/62231

75) (Kirkbride to FO, 26 April 1948, FO 371/68386). إن ما اعتبره كيركبرايد عافية سياسية كانت في جزء منها تعود إلى القمع السياسي، عبر استخدام قوانين

الطوارئ التي تمت إعادة فرضها بعد الحرب. فحين تفجرت المظاهرات ضد شروط الملحق العسكري للمعاهدة الإنجليزية ـ الشرق أردنية التي لم تكن مختلفة في شيء عن سابقتها في آذار (1948 م) مثلاً، جرى اعتقال وسجن شخصيات معارضة ممن فيهم سليمان النابلسي دون محاكمة. عبد الله التل، كارثة فلسطين، القاهرة 1959 م.، ص 48.

76) رسالة من أبراهام دسكل المدير العام للأعمال الكهربائية الذي ساعد على ترتيب اللقاء لي في العشرين من أيلول (1983 م). دسكل هذا كان معروفاً أيضاً باسم أبي يوسف. كان عضواً في (الهاغانا) وأحد الوسطاء بين الوكالة اليهودية وعمّان Golda Meır, My Life (New York, 1975), p. 207, Caplan, *Futile*) .(*Dıplomacy* 11, pp. 159-61 and 277-9

77) توقع وزير الخارجية اللبناني أنه في حالة فقدان العرب فلسطين، فإن حكومات كل من مصر وسورية والعراق ستنهار كأوراق اللعب (,Beirut to FO, 2 May 1948 .(FO 371/68371

78) So Samır al-Rifa'ı reported about his attendance at the meetings of the Political Committee of the Arab League. Beirut to FO, 11 October 1947, FO 371/61530; British Middle East Office to FO, 10 December 1947, FO 371/62226.

79) Kırkbride, *Crackle of Thorns*, p. 33 Kirkbride described him as one of the least patient people he had ever met. Kirkbrıde to FO, 8 December 1947, FO 371/62226.

80) US Embassy (London) to Washington, 6 January 1948, USNA 867N.01/1-647.

81) Glubb, *Soldier*, pp. 65-6 Kirkbride *From the Wings*, pp. 11-12. The conversation is mentioned in FO memorandum, 9 February 1948, FO 371/68366, but Bevin's remarks were not recorded.

* * *

10) (1948 م):

1) Netanel Lorch, *The Edge of the Sword: Israel's War of Independence 1947-1949* (New York, 1961), pp. 87-9.

2) الأهرام (1948/4/13).

3) Amman to FO, 16 and 19 April 1948 (two dispatches), FO 816/117.

4) Glubb, *Soldier*, p. 89.

5) جلسات في رغدان... ص 17.

6) Kirkbrıde to FO, 1 May 1948, FO 816/118

7) Kırkbride to FO, 29 April 1948, FO 371/68372.

8) Amman to FO, 25 April 1948, FO 816/118
9) Louis, *British Empire*, p. 374; Joseph Nevo, 'Abdallah and the Arabs of Palestine,' The Wiener Library Bulletin 31 (1978), p. 57; Meir, *My Life*, pp. 208-12; al-Tall, *Karithat Filastin*, pp. 66-9; conversation with Abraham Daskal, Jerusalem, 12 February 1979 Daskal and his wife dressed Golda Meir in Arab clothes at Naharim for the journey to Amman. Caplan, *Futile Diplomacy* 11, pp. 163-4.
10) FO to Amman, 9 and 10 May 1948 (two dispatches), FO 816/119; Bevin to
11) Minister of Defence, 13 May 1948, FO 371/68853.
12) *The Foreign Relations of the United States* [FRUS], 1948, Vol. 5, part 2, pp. 973 and 1043-4.
13) Glubb, *Soldier*, p. 85
14) Amman to FO, 25 April and I May 1948 (two dispatches), FO 816/118
15) Quarterly Historical Report, GHQ MELF, 21 March-20 June 1948, WO 261/549 15 Kirkbride, to FO, 15 May 1948, FO 816/120
16) *FRUS*, 1948, Vol. 5, part 2, pp. 1049-50.
17) *The Observer*, London, 2 May 1948
18) Glubb, *Soldier*, pp. 83-4; Edgar O'Ballance, *The Arab Israeli-War 1948* (London, 1956), pp. 95-7
19) Glubb, *Soldier*, pp 108-13
20) Kirkbride to FO, 19 May 1948, FO 816/120
21) Kirkbride to FO, 1 May 1948, FO 816/118

22) (FRUS, 1948, Vol. 5, part 2, p. 1049). كتب غلوب في آب يقول كانت ثمة خطة شرق أردنية معروفة من قبل بريطانيا تقضي بأن يقوم الفيلق العربي بعد إعلان الدولة اليهودية باحتلال الأجزاء العربية من فلسطين دون الدخول في أي صراع مع القوات اليهودية. وبرأيه فإن هذه الخطة جرى تفصيلها جزئياً في نيسان، قبل انتهاء الانتداب، حين بادرت القوات اليهودية إلى مهاجمة السكان العرب داخل حدود الدولة اليهودية المستقبلية وخارجها، جاعلة تدخل الجيوش العربية أمراً محتوماً. ومع ذلك فإن الفيلق العربي ظل يأمل باحتلال الخليل ورام الله ونابلس دون قتال. ولكن هذا كان يفترض أن تبقى القدس منطقة دولية خاضعة للأمم المتحدة دون أن تصبح ساحة للقتال. وما إن انتقل اليهود إلى المواقع البريطانية وتقدموا لمهاجمة الأحياء العربية حتى بات الفيلق العربي عاجزاً، على الصعيدين الاستراتيجي والسياسي، عن تجنب القتال. انظر: (Glubb '*Transjordan Situation*', 12 August 1948, FO 371/6882).

23) مذكرات في السياسة المصرية... الجزء الثاني، ص 338.

24) FRUS, 1948, Vol. 5, part 2, p. 1064; Kirkbride to Tawfiq Abu'l-Huda,)

(28 May 1948, FO 816/121). شكل سحب الضباط ضربة شديدة الإيلام، لأن هؤلاء كانوا يضمون في صفوفهم جميع ضباط أركان العمليات وقائدي اللواءين والضباط القادة لثلاثة من أفواج المشاة الأربعة وجميع ضباط المدفعية المدربين (Glubb, *Soldier*, pp. 133-4). غير أن الضرر اللاحق بالفيلق العربي تم تخفيفه لأن كيركبرايد اتخذ حسب زعمه «خطوات مكنتني من القول بأن جميع الكوادر المعنية قد عادوا إلى شرق الأردن قبل الموعد المحدد من قبل وزارة الخارجية، ولكنني لم أكن متأكداً من أنها بقيت هناك طويلاً» (Kirkbride, *From the Wings*, p. 35).

25) Chiefs of Staff Committee, Joint Planning Staff, 12 June 1948 (citing a telegram from Kirkbride to the FO of 6 June 1948), DEFE 6/6; Cairo to FO, 8 June 1948 (reporting Glubb's assessment), FO 371/68413.
26) Kirkbride, From the Wings, pp. 34 and 37.
27) For a Jordanian account of the Legion's achievements in the first month of the war، (انظر: أيام لا تنسى، عمان 1982، ص 119 - 304).
28) On Abdullah's visit to Cairo see: Haza' al-Majali, *Mudhakkirati* (Amman, 1960), pp. 74-5; Kirkbride to Burrows, 26 June 1948, and Sir R Campbell (Cairo) to Bevin, 1 July 1948, FO 371/68857; minute by Ravensdale (Cairo), 26 June 1948, FO 141/1291.
29) (Kirkbride to FO, 17 June 1948, FO 371/68770) ومن الهدايا الأخرى التي قيل إن عبد الله حصل عليها أربع سيارات محملة بالعبيد، واثنا عشر جواداً عربياً، وسيف مرصع بالجوهرات، وخنجر ذهبي، وسيفان ذهبيان لولديه، وأطواق لؤلؤ لنساء العائلة. انظر: (Trott (Jidda) to Burrows, 4 July 1948 and Jidda to FO, 11 July 1948, FO 371/68770, and Childs (Jidda) to Secretary of State, 6 July 1948, USNA 890i.001/7-648) وعن زيارة عبد الله للرياض انظر أيضاً: المجالي، مذكراتي، ص 75 - 76.
30) H. B Mack (Baghdad) to M. R. Wright, 6 July 1948, FO 371/68770.
31) On Abdullah's visit to Baghdad see (المجالي، مذكراتي، ص 76-77) and Baghdad to FO, I July 1948, FO 371/68839
32) The Council consisted of Ahmad Hilmi, Jamal al-Husayni, 'Awni 'Abd al-Hadi, Husayn Fakhri al-Khalidi, Sulayman Tuqan, Michel Abcarius, 'Ali Husni, Raja'i al-Husayni, Yusuf Sahiyun and Amin 'Aqil.
33) Count Folke Bernadotte, To Jerusalem (London, 195 1), pp 74-5 Amman to FO, 7 July 1948, and Cairo to FO, 8 July 1948, FO 371/68375
34) Bernadotte, To,7erusalem, p. 164. See also Amman to FO, 25 July 1948, FO 371/ 68822, Amman to FO, 7 and 8 July 1948 (two telegrams), FO 371/68375, and FRUS, 1948, Vol. 5, part 2, pp. 1202-5

35) Benny Morris, 'Operation Dani and the Palestinian Exodus from Lydda and Ramle in 1948,' *Middle East Journal* 40:1 (Winter 1986), pp. 100-1.
36) Glubb, *Soldier*, pp. 157-62; Musa, Ayyam, pp. 345-72; Amman to FO, 14 and 19 July 1948 (two telegrams), FO 371/68854; Monthly situation report on Transjordan, July 1948, FO 371/68845; Stabler to secretary of state, 14 July 1948, USNA 890i.00/7-1448
37) Kirkbride, *From the Wings*, pp. 47-8
38) Glubb, *Soldier*, pp. 165-6; Amman to FO, 11 August 1948, and minute by Burrows, 13 August 1948, FO 371/68830, Abdullah to Bevin, 12 August 1948, FO 371/68822
39) *FRUS*, 1948, Vol. 5, part 2, p. 1242
40) Amman to FO, 25 July 1948, FO 371/68822
41) *FRUS*, 1948, Vol 5, part 2, pp 1237-8
42) Bernadotte, *To Jerusalem*, p. 211; Amman to FO, 11 August 1948, FO 371/68645
43) Tom Segev, 1949 *The First Israelis* (New York, 1986), pp. 38-9
44) Ian Lustick, *Arabs in the Jewish State* (Austin, 1980),.pp. 48-9
45) See for example, Segev, 1949, pp. 43-67
46) Louis, *The British Empire*, p. 394.
47) Population estimates vary. Kirkbride reckoned that the population of Arab Palestine (excluding refugees) including the West Bank, Gaza and Beersheba, was 550,000 Kirkbride to FO, 28 September 1948, FO 371/68862. For Gaza strip figures see Troutbeck to Bevin, 16 June 1948, FO 371/75343.
48) Notes by B. A. B. Burrows, 17 August 1948, FO 371/68822
49) Yearbook of the United Nations 1947-1948, pp. 304-12.
50) *FRUS*, 1948, Vol. 5, part 2, p 1447 'Arif al-'Arif, *al-Nakba* (Beirut, n d.), pp 703-5
51) Stabler to secretary of state, 3 September 1948, USNA 890i.00/9-348
52) Kirkbride to FO, 25 September 1948, FO 816/129
53) Kirkbride to FO, 4 October 1948, FO 371/68822
54) Jerusalem to FO, 30 September 1948, FO 371/68642.
55) Glubb, *Soldier*, pp 199-200.
56) Jeusalem to FO, 29 October 1948, and Amman to FO, 2 November 1948, FO 371/68643
57) Text of a talk by Glubb Pasha, 6 May 1949, FO 371/68643.
58) Background to the Jericho Congress, 6 December 1948, FO 816/142; Avi Plascov, The Palestinian Refugees in Jordan, 1948-57 (London, 1981), pp 13-14; conversations with 'Abd Allah Rimawi, Amman, 16 December 1978 and 19 February 1979, and 'Aziz Shihadi, Ramallah,

14 February 1979

59) Endorsing Abdullah as ruler of all-Palestine was a deliberate attempt on the part of those who opposed Abdullah to make their support conditional. Conversation with 'Abd Allah Rimawi, Amman, 19 February 1979

60) Faruq's rebuke was published in *al-Ahram*, 17 December 1948 Abdullah was dissuaded by those in his retinue. Conversations with Hashim Dabbas, Amman, 8 November 1978, and Yusuf Haykal, Washington, 28 May 1979

61) Amman to FO, 25 and 28 December 1948, and Cairo to FO, 27 December 1948, FO 371/68377; FRUS, 1948, Vol. 5, part 2, pp. 1699-700.

62) Troutbeck to Michael Wright, 3 March 1949, FO 371/75064.

63) WO to FO, 26 November 1948, FO 371/68822; Monthly situation report for Transjordan, December 1948, FO 371/75273, Amman to FO, 2 January 1949, FO 371/75293; Jerusalem to FO, 23 February 1949, FO 371/75331

64) FO to Amman, 16 December 1948, FO 371/68644; Minute by Hector McNeil, 15 December 1948, FO 371/68862. Begin was also anathema to Britain, owing to his leadership of the Irgun which had killed so many British soldiers and civilians during the 1944-7 period.

65) FO to Washington, 13 September 1949, FO 371/75287

66) FO to Amman, 6 December 1948, FO 816/314; FRUS, 1948, Vol. 5, part 2, pp. 1687-8

67) FO to Amman, 30 December 1948, FO 371/68644.

68) Kirkbride to FO, 2 January 1948 and FO to Kirkbride, 3 January 1948, FO 371/75293.

* * *

11) وانطفا الطموح،

1) كارثة فلسطين، ص 467 - 469، (FRUS, 1949, Vol 6, pp. 716 and 773;) conversation with Yehoshafat Harkabi, Jerusalem, 9 January 1979; Walter Eytan, The First Ten Years: A Diplomatic History of Israel .((New York, 1958), pp. 28-42.

2) George Kirk, The Middle East 1945-1950 (London, 1954), p. 246.

3) بعد ذلك بأشهر عديدة كشف عبد الله التل عن محادثات كانت قائمة بين عبد الله وإسرائيل، كارثة فلسطين، ص 344 - 345.

4) FRUS, 1949, Vol. 6, p 684; Stabler to State Department, 24 January 1949, USNA 867N.01/1-2449.

5) MEDME to Air Ministry, 11 March 1949, FO 371/75294; Glubb, Soldier, pp. 229-33.

6) Amman to FO, 18 March 1949, FO 371/75381; FO to Amman, 19 March 1949, FO 371/75382, Amman to FO, 19 March, 21 March, 22 March, 23 March 1949 (two dispatches), FO to Washington, 23 March 1949, Washington to FO, 23 March 1949, and Amman to FO, 24 March 1949, FO 371/75386, Amman to FO, 27 March 1949, Jerusalem to FO, 28 March 1949, and Amman to FO, 31 March 1949, FO 371/75387; FRUS, 1949, Vol. 6, pp. 859-62, and pp. 900-2; Plascov, Palestine Refugees, pp. 14-15) والمجالي، مذكراتي، ص 90 - 92. وقد رأى بعض المؤلفين الإسرائيليين أن (تكتيكات) إسرائيل لم تكن بالقوة التي صورتها بها التقارير الأمريكية والبريطانية، وأن عبد الله كان مستعداً للتخلي عن المنطقة، وأن كلاً من كيركبرايد وستابلر اللذين رأيا أن مثل هذه الخطوة كانت خطرة بالنسبة لعبد الله، قد بالغا في كلامهما عن الوضع في محاولة منهما لدفع حكومتيهما إلى التدخل. انظر (Ilan Papp, British Foreign Policy towards the Middle East 1948-1951: *Britain and the Arab-Israeli Conflict* (unpublished D. Phil. dissertation, Oxford, 1984), pp. 306-12).

7) Minute by John B. Pruen, 11 May 1949, FO 816/146; Beirut to FO, 29 March 1949, FO 371/75454.

8) وفي اجتماع عُقد مع الإسرائيليين بعد ذلك ثلاثة أيام طرح اقتراح بأن يقوم سلاح الجو الإسرائيلي بمساعدة عبد الله باحتلال دمشق (Segev, 1949, p. 12).

9) Damascus to FO, 27 April 1949, FO to Amman, 27 April 1949, Jerusalem to FO, 11 May 1949, Paris to FO, 12 May 1949, and Amman to FO, 17 May 1949, FO 371/75275; Paris to FO, 21 May 1949, FO 371/75376

10) See Avi Plascov's chapter 'Creeping Annexation', in his *Palestinian Refugees*, pp. 10-40.

11) Monthly situation report, May 1949, FO 371/75253; *Official Gazette*, 1 March 1950.

12) Segev, 1949, pp. 43-67

13) These numbers excluded those not on relief. Amman to FO, 4 May 1949, FO 371/75426; Jerusalem to FO, 7 October 1949, FO 371/75442.

14) Summary of events in Arab Palestine, September 1949, FO 371/75329; Monthly situation report, November 1949, FO 371/75273; Monthly situation report, March 1950, FO 371/82703

15) Jerusalem to FO, 7 October 1949, FO 371/75442, FO research department report on the union of Transjordan and Arab Palestine, October 1949, FO 371/75287; Monthly situation report, March 1950,

FO 371/82703; Amman to FO, 5 October 1950, FO 371/82705
16) Amman to FO, 18 August 1948, FO 371/68677
17) Kirkbride to FO, 11 October 1949, FO 371/68679
18) Plascov, *Palestinian Refugees*, p. 41
19) Hedley V. Cooke, *Challenge and Response in the Middle East*, (New York, 1952), pp. 105-6
20) Notes of a meeting, 28 March 1949, FO 371/75064.
21) Pamela Ann Smith, *Palestine and the Palestinians 1876-1983* (London, 1985), pp. 117-20 and 144.
22) Segev, 1949, p. 107
23) Memorandum by G. Walpole, n.d [April-May 1949], FO 371/75289
24) Plascov, *Palestinian Refugees*, p. 36
25) Jerusalem to FO, 30 September 1948, FO 371/68642.
26) Kirkbride to FO, 15 February 195 1, FO 371/91808
27) Walpole to Evans, 29 August 1950, FO 371/82723
28) Plascov, *Palestinian Refugees* , p. 36
29) Fritzlan (Amman) to State Department, 21 October 1949, USNA 890i.515/102049, Summary of events in Arab Palestine, October 1949, FO 371/75329; Kirkbride to FO, 27 July 1950, FO 371/82706; Transjordan economic report, 1 January-30 June 1950, FO 371/82721
30) Smith, Palestine, p 93.
31) Fritzlan to Secretary of State, 15 October 1949, USNA 890i.001/10-1549
32) Burdett to State Department, 22 October 1949, USNA 890i.OQ.1/10-2449
33) Major V. P. Rich to WO, 16 October 1949, FO 371/75333
34) Amman to FO, 29 December 1949, FO 371/75287

35) «ملحق رسالة موحر بعنوان، دمج فلسطين العربية بشرق الأردن)م) وحه إلى وزير الخارجية من بي. إي. بي. باروز بتاريخ 18 آب (1949 م) FO 371/75314; FO) (to Washington, 13 September 1949, FO 371/75287). أما الاختلاف بين الموقفين الأمريكي والبريطاني فقد وصفه (روحر لويس) في كتابه الحديد (*British Empire*, pp. 562-3) بالقول:

ساد في أوساط وزارة الخارجية... اعتقاد يقول بعدم إمكانية الاطمئنان إلى أن الإسرائيليين لن يفرضوا سلاماً غير عادل. وقد تعزز هذا الموقف الممالئ لليهود بفضل سرعة وحسم الانتصارات الإسرائيلية التي بدت مشيرة إلى أن اليهود لا العرب سيكونون حلفاء أكثر حدارة بالثقة... لم يكن ثمة أي سبب، فيما يخص البريطانيين،.. يدعو اليهود إلى الإحجام عن عمليات ضم للأراضي ستعتبرها الدول

العربية عمليات لا تطاق... ومما زاد من حدة التوتر الدرامي أن البريطانيين باتوا يرون قوتهم وهيبتهم معرضتين للخطر.

36) Summary of events in Arab Palestine, January 1950, FO 371/82176.

37) يمكن العثور على أسماء ومهن المختارين في الوثائق التالية: (Amman to F10, 14 April 1950, and Jerusalem to FO, 19 April 1950, FO 371/82705). ومن بين المنشقين كان عبد الله نعوس (القدس) وعبد الله الريماوي (رام الله) وكلاهما بعثيان ومصطفى بشناق (نابلس) أنور نسيبة (القدس) اللذين أيدا في الماضي الحاج أمين الحسيني.

38) Kirkbride to Furlonge, 4 April 1950, FO 371/82718

39) كان تبرير عبد الله لعناده متمثلاً بأن من شأن إطلاق مثل هذا التصريح أن يفضي إلى احتمال عدم تطبيق المعاهدة الإنجليزية - الشرق أردنية على الضفة الغربية. (ربما لم يكن يعلم، ولكن بريطانيا كانت قد توصلت إلى استنتاج يقول بأنها كانت مطالبة بالدفاع عن الأراضي الخاضعة لشرق الأردن سواء أتم التوحيد رسمياً أم لا). إلا أن الأساس غير المعلن لموقف كان متمثلاً بإدراكه العميق للمبدأ الكامن في المسألة وبرغبته في عدم تقديم أي تنازل في الوقت الحالي قد يكون ضده في المستقبل المشحون بعدم اليقين. امتنع العراق واليمن عن التصويت على قرار الطرد من الجامعة، وهو قرار يتطلب إجماعاً حتى يصبح نافذاً. أما الرد اللطيف نسبياً على التوحيد فلربما كان عائداً إلى خشية أعضاء الجامعة من احتمال قيام الطرد بدفع عبد الله إلى أحضان الإسرائيليين. انظر (FO to Cairo, 26 January 1950, FO 371/82715; Kirkbride to FO, 29 June 1950, FO 371/81933, BMEO to FO, 16 May 1950, FO 371/81931).

40) Kirkbride to FO, 30 November 1950, FO 371/82716

41) Kirkbride to FO, 5 May 1951, FO 3 71/91789

42) Fritzian to State Department, 11 November 1949, USNA 890i.001/11-149 In 1939 he had been dissuaded from enacting legislation making the veil mandatory garb for women. Report on the political situation for the month of February 1939, CO 831/51

43) Record of a conversation with King Abdullah aboard the S. S. Highland Brigade at Tilbury, 3 September 1949, by Mr Cheke, and Madrid to FO, 15 September 1949, FO 371/75315, Monthly report on Transjordan, September 1949, FO 371/75273. See also King Abdullah, *al-Takmila*, in Madani (ed.), *al-Athar al-Kamila*, pp 307-8

44) He offered to send troops on condition that the United States indemnify Britain for the cost of expanding the Legion to take the place of the troops sent to Korea in the West Bank. Amman to FO, 19 August 1950, and FO to Amman, 29 August 1950, FO 371/82711

45) Papp, British Foreign Policy, p. 276
46) Glubb, *Soldier*, p. 244; Note on the situation on the Israel-Jordan demarcation line by J. B. Glubb, 12 February 1951, FO 371/91385
47) Amman to FO, 7 May 1949, FO 371/75387 FR US, 1949, Vol. 6, pp. 980-2.
48) See for example Amman to FO, 8 June 1949, FO 371/75388, and 'The Situation in Palestine,' report from Arab Legion HQ, 15 June 1949, FO 816/147 See also Segev, 1949, p. 40.
49) Glubb to Pirie-Gordon, 19 June 1949, FO 371/75388
50) Novomeysky had seen Abdullah in London in August, when Abdullah had told him how to get in touch with him in Amman. A. M. Novomeysky, Given to Salt, pp. 30-1. Kirkbride to FO, 15 November 1949, FO 371/75287
51) Information on the meetings between November 1949 and March 1950 comes from numerous letters and dispatches found in FRUS, 1949, Vol 6, pp. 1512-14, 1516-20, 1540-41, 1545-46, 1558-59, and in FO 371/75277, 82177, and 82178
52) Tel Aviv to FO, 1 March 1950, FO 371/82178

53) نشرت في جريدة أخبار اليوم القاهرية بدءاً من 18 آذار (1950.م). انظر أيضاً كارثة فلسطين.

54) On the resulting Cabinet crisis in Jordan, see Kirkbride to Bevin, 6 March 1950, FO 371/82705.
55) BMEO to FO, 3 and 20 April 1950, FO 371/81933.
56) Amman to FO, 20 June 1950, FO 371/82178.
57) Kirkbride to Younger, 29 July 1950, FO 371/82179.
58) Amman to FO, 20 June 1950, FO 371/82178.

59) (وقد قدر بأنه تم طرد حوالي (3000) عربي من إسرائيل إلى جنوبي الأردن في الفترة الممتدة من 15 أيار إلى 15 تشرين الأول (1950 م). See FO 371/82203, 82204, 82205, and 82207. Monthly situation report, October 1950, FO 371/82703.

60) Amman to FO, 11 December 1950, FO 371/82179; Tel Aviv to FO, 13 December 1950 and Amman to FO, 18 December 1950, FO 371/82211; Amman to FO, 2 January and 15 January 1951, FO 371/91364.
61) 'Proposed Jordan Plan,' communicated to Mr Shiloah by Samir Pasha on 15 March 1951, Shiloah to Rifa'i, 16 April 1951, 'Jordan Comments on the Note dated 16th April, 195 1,' 30 April 195 1, FO 371/91364.
62) The last meeting between Abdullah and Israeli representatives that I could find evidence of took place on 11 May 1951. The topic was Mount Scopus. Kirkbride to FO, 12 May 195 1, and Tel Aviv to FO, 15 May 195 1, FO 371/91364.

63) Kirkbride to B J. Bowker, FO, 1 September 1951, FO 371/91368
64) Knox-Helms to Bowker, 5 November 1951, FO 371/91368
65) Kirkbride to Bevin, 6 March 1950, FO 371/82705
66) For a recent discussion of the constitutional crisis see Bernard Avishai, *The Tragedy of Zionism* (New York, 1985), pp. 184-90
67) Segev, 1949, p. 14; Papp, *British Foreign Policy*, pp. 345 and 359
68) *FRUS*, 1949, Vol. 6, pp. 911-16
69) Kirkbride to Furlonge, 14 July 1950, FO 371/82179
70) Ankara to FO, 22 May 195 1, FO 371/91838; FO minute by J. M. Hunter, 2 June 1951, FO 371/91820
71) Baghdad to FO, 30 May 195 1, FO 371/91703.
72) HM King Hussein of Transjordan, *Uneasy Lies the Head* (London, 1962), p. 2.

73) هو الذي قام بتنظيم ما يسمى (فصائل السلام) إبان انتفاضة (1936 - 1939 م). وقد اغتيل في بغداد في عام (1941 م) لأسباب تعود ربما إلى تلك المرحلة.

74) Jerusalem to FO, 20 July 1951, FO 371/92838, Jim Bell to Time Magazine, dispatch no. 126, 22 July 1951; King Hussein, Uneasy Lies the Head, p. 7؛ (ناصر الدين النشاشيبي، من قتل الملك عبد الله؟ الكويت 1980، ص 28 - 32؛ حديث في عمان بتاريخ 8 تشرين الثاني (1978 م) مع مساعده هاشم دباس الذي كان معه عندما قُتل).

* * *

12) خاتمة:

1) Jerusalem to FO, 21 July 1951, FO 371/91838; Jim Bell, dispatch no. 130, Beirut to Time Inc , New York, 23 July 195 1.
2) Jerusalem to FO, 25 July 195 1, FO 371/91838, Jim Bell dispatch no. 12 1, Beirut to Time Inc., New York, 21 July 1951.
3) Jim Bell dispatch no. 130, Beirut to Time Inc , New York, 25 July 1951.
4) Jim Bell dispatch no. 126, Beirut to Time Inc., New York, 22 July 1951.
5) Jim Bell dispatch no. 133, Beirut to Time Inc., New York, 25 July 1951.
6) Conversations with Princess Fawzi, London, 23 October 1978, and Ann Dearden, London, 18 October 1978; Jim Bell dispatch no 121, Beirut to Time Inc., New York, 21 July 1951.
7) Kirkbride to FO, 25 July 1951, FO 371/91789
8) Kirkbride to FO, 30 July 1951, FO 371/91839; Jim Bell to Don Burke,

24 July 1951

9) House of Commons, 23 July 1951
10) Kirkbride to FO, 24 September 1951, FO 371/91839
11) M. T. Walker (Amman) to FO, 3 September 1951, FO 371/91839
12) Kirkbride, *From* the Wings, p, 139
13) Amman to FO, 20 August 1951, M. T. Walker to FO, 3 September 1951, Kirkbride to FO, 24 September 195 1, FO 371/91839
14) Conversations with Yousef Nawas, who was Musa al-Husayni's partner in the travel agency, New York, 2 September 1978, and Father Ibrahim Iyad, New York, 14 October 1981. Jerusalem to FO, 18 February 1949, FO 371/75329, Amman to FO, 20 August 195 1, FO 371/91839
15) Conversations with Father Ibrahim Iyad, New York, 14 October 1981, Dawud al-Husayni, Amman, 18 December 1978, and Jim Bell, Boston, 13 November 1983; Glubb to Lt. Col. R. K. Melville, 6 August 1951, FO 371/91839
16) See for example the recently published *Man Qatala al-Malik 'Abd Allah* by Nasir al-Din al-Nashashibi. Musa and Madi implicated the Americans. See *Tarikh al-Urdun*, pp 552-3.
17) Kirkbride to FO, 25 July 1951, FO 371/91789
18) 'Political Problems Created by King Abdullah's Assassination', n.d., Hamilton Fisher Papers.
19) See for example, FO to Baghdad, 22 July 195 1, FO 371/91797; Amman to FO, 23, 24, and 25 July 1951, FO 371/91789
20) Conversation with Jim Bell, Boston, 13 November 1983.

ثبت المراجع

المخطوطات:

GREAT BRITAIN

Public Record Office, London

Foreign Office: FO 141 (Egypt)

FO 195 (Constantinople and Consulates in the Ottoman Empire, Jidda)

FO 226 (Beirut-Embassy and Consular archives)

FO 371 (Political)

FO 406 (Confidential prints-Eastern Affairs)

FO 624 (Iraq from 1933)

FO 684 (Damascus-Embassy and Consular archives)

FO 686 (Jidda-Consular series)

FO 800 (Private papers) Sir Gerard Lowther, Sir Gilbert Clayton, Professor Arminius Varnbery

FO 816 (Transjordan Consular series)

FO 882 (Arab Bureau papers)

Cabinet: CAB 24, CAB 127

Colonial Office: CO 537 (Miscellaneous)

CO 732 (Middle East)

CO 733 (Palestine)

CO 831 (Transjordan)

Defense. DEFE 7

War Office: WO 261

Private Papers

Middle East Centre, St Antony's College, Oxford

'Arif al-'Arif, *'Amman Diary* (unpublished Arabic manuscript)

Thomas Hodgkin

R. F. P. Monckton
H St John Philby
F. R Somerset
Sir Edward Spears
Sudan Archives, Middle East Centre, University of Durham, Durham
Arab Affairs File
Gilbert F. Clayton
Reginald Wingate

عباس حلمي الثاني

Imperial War Museum, London
F. G. Peake

FRANCE
Ministére des Affaires Etrangéres (MAE), Paris
Guerre, 1939-45 Alger
Gabriel Puaux Papers
Ministére de la Défense (MD), Service Historique de l'Armée, Vincennes
Série: 7N, 16N

ISRAEL
Israel State Archives (ISA), Jerusalem
2 (Chief Secretary's Office)
65 (Abandoned Documents, 1920-48)
Sir Herbert Samuel Papers
Central Zionist Archives (CZA), Jerusalem
S 25 (Political Department)
A 264 (Private papers: Felix Frankfurter)
Z 4 (Zionist Organization, Central Office, London)

UNITED STATES
National Archives (USNA), Washington, D.C.
867N., 890i. (Jordan)
Private Papers
Jim Bell
Hamilton Fisher

LEBANON

Private Papers

Institute for Palestine Studies, Beirut

Yusuf Haykal, *Jalsat fi raghdan* (unpublished Arabic manuscript)

التقارير الرسمية:

Reports to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Transjordan (1920-38)

Report of the (Shaw) Commission on the Palestine Disturbances of August 1929, 30 March 1930 Cmd. 3530

The Hope-Simpson Report, 2 October 1930 Cmd. 3686

Palestine Statement of Policy (Passfield White Paper), October 1930 Cmd. 3692

Report of the Royal (Peel) Commission, 22 June 1937 Cmd. 5479

Palestine Statement of Policy, 7 July 1937 Cmd. 5513

Report of the Partition (Woodhead) Commission, October 1938 Cmd. 5854

Palestine Statement of Policy, 9 November 1938 Cmd. 5893

Palestine Statement of Policy, 17 May 1939 Cmd. 6019

الجرائد والمجلات والدوريات العربية والأجنبية الأخرى:

الأهرام (القاهرة)

أخبار اليوم (القاهرة)

ألف باء (دمشق)

الدستور (عمّان)

الهلال (القاهرة)

أم القرى (مكة المكرمة)

Arab Bulletin (Arab Bureau, Cairo 1916-19)

La Chronique (Damascus)

Daily News Bulletin (Jewish Telegraph Agency)

Manchester Guardian

Official Gazette (Amman)

Oriente Moderno (Rome)
Palestine and Transjordan (Jerusalem)
Revue du Monde Musulman (Paris)
The Times (London)

الرسائل الجامعية:

Al-Amr, Saleh [Salih al-'Amr], 'The Hijaz Under Ottoman Rule 1869-1914: The Ottoman, Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Influence,' Ph.D. dissertation, University of Leeds, 1974

Bailey, Clinton, 'The Participation of the Palestinians in the Politics of Jordan,' Phl. dissertation, Columbia University, 1965

Faddah, Muhammad Ibrahim, 'The Foreign Policy of Jordan 1947-1967,' Ph.D. dissertation, University of Oklahoma, 1971

Goldner, Werner, 'The Role of Abdullah ibn Hussain in Arab Politics, 1941-1951,' Ph.D. dissertation, Stanford University, 1954

Kazziha, Walid, 'The Emergence of the State of Jordan,'M.A. dissertation, University of London, 1967

Khoury, Philip S., 'The Politics of Nationalism: Syria and the French Mandate, 1920-1936,' Ph.D. dissertation, Harvard University, 1980

Mahmoud, Amin Abdullah, 'King Abdullah and Palestine: An historical study of his role in the Palestine Problem from the creation of Transjordan to the annexation of the West Bank, 1921-1950,' Ph.D dissertation, Georgetown University, 1972

Nimri, Kamal T., 'Abdullah ibn al-Hussain. a study in Arab Political Leadership,' Ph.D. dissertation, University of London, 1977

Papp, Ilan, 'British Foreign Policy Towards the Middle East 1948-1951· Britain and the Arab-Israeli Conflict,' D.Phil. dissertation, Oxford, 1984

المراجع المنشورة (العربية):

أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية. القاهرة 1955.

ـــــ : القضية الفلسطينية. القاهرة 1955.

إميل الغوري: فلسطين عبر ستين عام hW. بيروت 1973.

أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى. القاهرة (دون تاريخ).

أنيس الصايغ: **الهاشميون وقضية فلسطين**. بيروت 1966.

ـــــ : **الهاشميون والثورة العربية الكبرى**. بيروت 1966.

تيسير محمد زبين: **الملك عبد الله كما عرفته**. الجزء الأول (عمان 1967) الجزء الثاني (عمان 1977).

خير الدين الزركلي: **الأعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. 10 مجلدات. القاهرة 1954 - 1957.

ـــــ : **ما رأيت وما سمعت**. القاهرة 1923.

ربى الزين: **عامان في عمّان**. القاهرة 1925.

ساطع الحصري: **يوم ميسلون**. طبعة جديدة. بيروت (دون تاريخ).

سليمان بشير: **جذور الوصاية الأردنية**. القدس 1980.

سليمان موسى: **الحركة العربية 1908 - 1924**. بيروت 1970.

ـــــ : **تأسيس الإمارة الأردنية 1921 - 1925**. عمان 1971.

ـــــ : **المراسلات التاريخية**. الجزء الأول 1914 - 1918، عمان 1975؛ الجزء الثاني 1919، عمان 1975؛ الجزء الثالث 1920 - 1923، عمان 1978.

ـــــ : **الثورة العربية الكبرى: الحرب في الأردن 1917 - 1918**. عمان 1976.

ـــــ : **أيام لا تنسى**. عمان 1982.

ـــــ : ومنيب مادي: **تاريخ الأردن في القرن العشرين**. عمان 1959.

صبحي ياسين: **الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936 - 1939**. بيروت 1961.

عارف العارف: **النكبة**. بيروت (دون تاريخ).

عبد الله التل: **كارثة فلسطين**. القاهرة 1959.

عبد الله بن الحسين: **مذكراتي**. عمان 1945.

ـــــ : جواب السائل عن خيل السائل. في: **الآثار الكاملة للملك عبد الله**. تحرير. عمر مدني. عمان 1977.

ـــــ : من أنا؟ في· **الآثار**... تحرير: عمر مدني.

ـــــ : المذكرات. في: الآثار.... تحرير: عمر مدني.

ـــــ : التكملة. في: الآثار.... تحرير: عمر مدني.

عوني عبد الهادي: **أوراق خاصة**. تحرير خيرية قاسمية. بيروت 1974.

محمد لبيب البطنوني: **الرحلة الحجازية**. القاهرة 1911.

ناصر الدين النشاشيبي: **من قتل الملك عبد الله؟** الكويت 1980.

هاني حوراني: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لشرق الأردن**. بيروت 1978.

هزّاع المجالي: **مذكراتي**. عمّان 1960.

في مذكرات شفيق كمالي باشا. **العرب** (حزيران 1971 وتشرين الأول 1971 وكانون الثاني 1972).

الكتاب الأردني الأبيض. عمّان 1946.

يذكر سعيد المفتي [؟]. ستة أجزاء في جريدة **الدستور** الأردنية بدءاً من 21 شباط 1976.

المراجع المنشورة (غير العربية):

Abidi, Hyder Hasan, *Jordan; A Political Study 1948-1957* (London, 1965)

Abu Jaber, Kamel S., 'The Legislature of the Hashemite Kingdom of Jordan, *Muslim World 59* (1969), 220-50

Abu-Manneh, Butrus, 'Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abulhuda Al-Sayyadi,' *Middle Eastern Studies* 15 (1966), 131-53

Ahmad, Feroz, 'Britain's Relations with the Young Turks 1908-1914,' *Middle Eastern Studies 2* (1966), 302-29

___ : *The Young Turks* (Oxford, 1969)

Andrew, Christopher M., and A. S. Kanya-Forstner, *France Overseas* (London, 198 1)

Antonius, George, *The Arab Awakening* (New York, 1965)

Aruri, Naseer H., *Jordan; A Study In Political Development* (1921-1965) (The Hague, 1972)

Avishai, Bernard, *The Tragedy of Zionism* (New York, 1985)

Baker, Randall, *King Hussein and the Kingdom of the Hijaz* (Cambridge, 1979)

Barbir, Karl K., *Ottoman Rule in Damascus*, 1708-1758 (Princeton, 1980)

Baster, James, 'The Economic Problems of Jordan,' *International Affairs* 31

(1955), 26-35

Batatu, Hanna, *'The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq'* (Princeton, 1978)

Bell, Gertrude, 'Turkish Rule East of the Jordan,' *The Nineteenth Century and After 52* (1902), 226-38

Ben Gurion, David, *My Talks with Arab Leaders* (Jerusalem, 1972)

Aerkes, Niyazı, *The Development of Secularism in Turkey* (Montreal, 1964)

Bernadotte, Count Folke, *To Jerusalem* (London, 1951)

Bolitho, Hector, *The Angry Neighbours; A Diary of Palestine and Transjordan* (London, 1957)

Bowden, Tom, 'Arab Rebellion in Palestine 1936-1939.' *Middle Eastern Studies* 11 (1975), 147-74

Brmond, E , *Le Hedjaz dans la Guerre Mondiale* (Paris, 1931)

Bullard, Sir Reader, *The Camels Must Go* (London, 1961)

Burckhardt, John Lewis, *Travels in A· abia* (London, 1824)

Burgoyne, Elizabeth, *Gertrude Bell from her Personal Papers 1914-1926* (London, 1961)

Busch, Briton Cooper, *Britain, India, and the Arabs,* 1914-1921 (Berkeley, 1971)

Caplan, Neil, *Futile Diplomacy* Vol. II; *Arab-Zionist Negotiations and the End of the Mandate* (London, 1986)

Clayton, Sir Gilbert F., *An Arabian Diary* (Berkeley, 1969)

Cohen, Aharon, *Israel and the Arab World* (New York, 1970)

Cohen, Amnon, 'Political Parties in the West Bank under the Hashemite RegiMe,' in Moshe Ma'oz, ed., *Palestine Arab Politics* (Jerusalem, 1975)

___. *Political Parties in the West Bank under the Jordanian Regime 1949-1967* (Ithaca and London, 1982)

Cohen, Mendel, *be-Hatser ha-Melekh Abdullah* (At the Court of King Abdullah) (Tel Aviv, 1980)

Cohen, Michael J. 'Secret Diplomacy and the Rebellion in Palestine, 1936-1939,' *International Journal of Middle East Studies* 8 (July 1977), 379-404

___: *Palestine; Retreat from the Mandate* (New York, 1978)

___· *Palestine and the Great Powers* (Princeton, 1982)

Conder, Claude Regnier, *Heth and Moab. Explorations in Syria in 1881 and 1882* (London 1883)

Cooke, Hedley V., *Challenge and Response in the Middle East. The Quest for Prosperity 1919-1951* (New York, 1952)

Crossman, Richard, *Palestine Mission, A personal record* (London, 1947)

Dann, Uriel, *Studies in the History of Transjordan, 1920-1949* (Boulder, 1984)

Davis, Helen Miller, *Constitutions, Electoral Laws, Treaties of the States in the Near and Middle East* (Durham, NC, 1947)

Dawn, C. Ernest, *From Ottomanism to Arabism* (Urbana, 1973)

Dearden, Ann, *Jordan* (London, 1958)

Djemal, Ahmad, *Memories of a Turkish Statesman, 1919-1922* (New York, 1922)

Doughty, Charles M , *Travels in Arabia Deserta* (Cambridge, 1888)

'Emir Abdullah the Smart Little Ruler of Transjordan is No. I British Pawn in the Middle East,' *Life Magazine*, 1 December 1941

Epstein, Eliahu, 'The Bedouins of Transjordan; Their Social and Economic Problems,' *Journal of the Royal Central Asian Society* 25 (April 1938), 228-36

Erskine, Mrs Steuart, *King Faisal of Iraq* (London, 1933)

Eytan, Walter, *The First Ten Years; A Diplomatic History of Israel* (New York, 1958)

Faddah, Mohammad Ibrahim, *The Middle East in Transition; a Study of Jordan's Foreign Policy* (New York, 1974)

Flapan, Simha, *Zionism and the Palestinians* (London, 1979)

Fleming, Jackson, 'A Visit to Amir Abdullah,' *Asia* 38 (1938), 63-5

Forder, Archibald, *With the Arabs in Tent and Town* (London, 1902)

The Foreign Relations of the United States [FRUS], Vol. 5, part 2, 1948; Vol. 6, 1949

de Gaury, Gerald, *Rulers of Mecca* (New York, n. d.)

Ghuri, Emil, *Filastin 'Abra Stitin 'Am* [Palestine Over Sixty Years] (Beirut, 1973)

Glubb, John Bagot, 'The Economic Situation of the Trans-Jordan Tribes,'. *Journal of the Royal Central Asian Society 25* (1938), 445-9

___ : *The Story of the Arab Legion* (London, 1946)

___ : *A Soldier with the Arabs* (London, 1957)

___ : 'Transjordan and the War,' *Journal of the Roal Central Asian Society* 33,1 (January 1945), 24-33

Goichon, A. M., *Jordanie Relle* 2 vols (Paris, 1967 and 1972)

Gomaa, Ahmed M., *The Foundation of the League of Arab States* (London, 1977)

Gooch, G. P., and Harold Temperly (eds.), *British Documents on the Origins of the War, 1898-1914* (London, 1938)

Graffley-Smith, Sir Laurence, *Bright Levant* (London, 1970)

Gubser, Peter, *Politics and Change in al-Karak*, Jordan (London, 1973)

Hacker, Jane M., *Modern Amman A Social History* (Durham, 1960)

Haddad, Wılliam W , and Wılliam L. Ochsenwald, *Nationalism ın a non-Natıonal State The Dissolution of the Ottoman Empire* (Columbus, 1977)

Haidar, HRH Princess Musbah, *Arabesque* (London, 1944)

Harding, G Lankester, "'Amman,' *Encyclopaedıa of Islam*," new ed. (London, 1960), Vol. 1, p. 447

Harris, George L , *Jordan, its People, its Socıety, its Culture* (New York, 1958)

Hodgkın, Thomas, 'Antonius, Palestine and the 1930s,' *Gazelle Review of Lıterature on the Middle East* 10 (1982), 1-33

Hogarth, David George, *Hejaz Before World War I* (Cambrıdge, 1978)

Hourani, Albert, *Syria and Lebanon A Polıtical Essay* (London, 1946)

___ : *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (London, 1962)

Hurewitz, J. C., *The Struggle for Palestıne* (New York, 1950)

Hurgonje, C. Snouck, *Mekka in the Latter Part of the Nineteenth Century* (London, 1931)

Husseın of Jordan, HM Kıng, *Uneasy Lıes the Head* (London, 1962)

Huxley, Julıan, *From an Antique Land* (London, 1954)

Ionides, M. G., *Report on the Water Resources of Transjordan and their Development* (London, 1939)

Jankowski, James, 'The Government of Egypt and the Palestine Question, 1936-1939,' *Middle Eastern Studies* 17 (1981), 427-53

Jarvis, Major C. S., *Arab Command. The Biography of Lieutenant Colonel F. W.* [sic] *Peake Pasha* (London, 1942)

Jaussen, Le Pre Antonin, *Coutumes des Arabes au Pays de Moab* (Paris, 1948)

et Savıgnac, PP, Mıssion *Archologıque en Arabie* (Mars-Mai 1907) *de Jrusalem au Hedjaz Medain-Saleh* (Parıs, 1909)

Jbara, Taysir, *Palestinian Leader Hajj Amin al-Husayni Mufti of Jerusalem* (Princeton, 1985)

John, Robert, and Sami Hadawı, *The Palestine Diary* (Beirut, 1970)

Jordan, Ministry of Foreign Affaırs, *The Rising Tide of Terror or Three Years of an Armistice in the Holy Land* (Amman, 1952)

Kayyalı, A. W., *Palestıne, a Modern History* (London, 1979)

Kazem-Zadeh, H., 'Relation d'un plerınage la Mecque en 1910-1911,' *Revue du Monde Musulman* 19 (1912), 169-82

Kazzıha, Walıd, *The Social Hıstory of Southern Syria (Transjordan) in the 19th and Early 20th Century* (Beirut, 1972)

Keane, John F., *Sıx Months in the Hıjaz* (London, 1887)

Kedourie, Elie, *The Chatham House Version and Other Mıddle Eastern Studies* (London, 1970)

'The Surrender of Medina, January 1919,' *Middle Eastern Studies* 13;1 (1977), 124-43

Khalidi, Walid (ed.), *From Haven to Conquest* (Beirut, 1971)

Khalil, Muhammad, *The Arab States and the Arab League; A Documentary Record*, 2 vols (Beirut, 1962)

Khoury, Philip S., *Urban Notables and Arab Nationalism. The Politics of Damascus 1860-1920* (Cambridge, 1983)

___ : Syria and the French Mandate; The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945 (Princeton, 1987)

Kirkbride, Alec Seath. *A Crackle of Thorns* (London, 1956)

___ : *An Awakening* (London, 1971)

___ : *From the Wings* (London, 1976)

Kirk, George E., 'Cross-currents within the Arab League; The Greater Syria Plan,' *World Today* (January 1948), 15-25

___ : *The Middle East 1945-1950* (London, 1954)

Kisch, Colonel F. H., *Palestine Diary* (London, 1938)

Kleiman, Aaron S., *Foundations of British Policy in the Arab World; The Cairo Conference of 1921* (Baltimore, 1970)

Konikoff, A., *Trans-Jordan, an Economic Survey* (Jerusalem, 1943)

Lars, Maurice, T. E. Lawrence, *la France et les Franais* (Paris, 1980)

Lawrence, T. E., *Seven Pillars of Wisdom* (London, 1983)

Lias, Godfrey, *Glubb's Legion* (London, 1956)

Lorch, Netanel, *The Edge of the Sword; Israel's War of Independence 1947-1949* (New York, 1961)

Louis, William Roger, *The British Empire in the Middle East 1945-1951, Arab Nationalism, the United States and Postwar Imperialism* (London, 1984)

___ : and Robert W. Stookey (eds), *The End of the Palestine Mandate* (Austin, 1986)

Luke, Sir Harry, and Edward Keith-Roach, *The Handbook of Palestine and Transjordan* (London, 1934)

Lunt, James, *Glubb Pasha; A Biography* (London, 1984)

Lustick, Ian, *Arabs in the Jewish State* (Austin, 1980)

Lyttleton, Oliver [Viscount Chandos], *The Memoirs of Lord Chandos* (London, 1962)

Mack, John, *A Prince of Our Disorder* (London, 1976)

MacKenzie, Marcus, 'Transjordan,' *Journal of the Royal Central Asian Society 33* (July-October 1946), 260-70

Mandel, Neville, *The Arabs and Zionism Before World War I* (Berkeley, 1976)

Marsot, Afaf Lutfi al-Sayyid, *Egypt's Liberal Experiment, 1922-1936* (Berkeley, 1977)

Meinertzhagen, Colonel R., *Middle East Diary 1917-1956* (London, 1959)

Meir, Golda, *My Life* (New York, 1975)

Merrill, Selah, *East of the Jordan A Record of Travel in the Countries of Moab, Gilead, and Bashan During the Years 1875-1877* (London, 1881)

Milson, Menahem (ed.), *Society and Political Structure in the Arab World* (New York, 1973)

Mishal, Shaul, *West Bank/East Bank. The Palestinians in Jordan 1949-1967* (New Haven, 1978)

Monroe, Elizabeth, *Britain's Moment in the Middle East* (London, 1963)

___ : *Philby of Arabia* (London, 1973)

Morris, Benny, 'Operation Dani and the Palestinian Exodus from Lydda and Ramle in 1948,' *Middle East Journal* 40;1 (Winter 1986), 82-108

Morris, James, *The Hashemite Kings* (London, 1959)

Musil, Alois, *Northern Negd, A Topographical Itinerary* (New York, 1928)

Naval Intelligence Division, *Western Arabia and the Red Sea*, Geographical Handbook Series (London, 1946)

Neumann, Emanuel, *In the Arena* (New York, 1976)

Nevakivi, Jukka, Britain, *France and the Arab Middle East 1914-1920* (London, 1969)

Nevo, Joseph, 'Abdallah and the Arabs of Palestine,' *The Wiener Library Bulletin 31* (1978) 51-62

Nicolson, Harold, *Peacemaking 1919* (London, 1933)

Novomeysky, A. M0., *Given to Salt* (London, 1958)

Ochsenwald, William, *Religion, Society and the State in Arabia* (Columbus, 1984)

Oliphant, Laurence, *The Land of Gilead with Excursions in the Lebanon* (New York, 1881)

OÍBallance, Edgar, *The Arab-Israeli War 1948* (London, 1956)

Owen, Roger, *The Middle East in the World Economy 1800-1914* (London, 1981)

Patai, Raphael, *Jordan, Lebanon and Syria, An Annotated Bibliography* (New Haven, 1957)

___ : *The Kingdom of Jordan* (Princeton, 1958)

Peake, F. G. 'Trans-Jordan', *Journal of the Royal Central Asian Society 23:3* (1939), 375-96

___ . *A History of Jordan and its Tribes* (Coral Gables, Florida, 1958)

Philby, H. St. John, 'Trans-Jordan,' *Journal of the Royal Central Asian Society* 11;4 (1924), 296

Plascov, Avi, *The Palestinian Refugees in Jordan, 1948-1967* (London, 1981)

Porath, Yehoshua, *The Emergence of the Palestinian Arab National Movement, 1918-1929* (London, 1974)

___ : *The Palestinian Arab National Movement, 1929-1939* (London, 1977)

___ . *In Search of Arab Unity 1930-1945* (London, 1986)

Rendel, George, *The Sword and the Olive* (London, 1957)

de Reynier, Jacques, *A Jrusalem un drapeau flottait sur la ligne de feu* (Neuchtel, 1950)

Rihani, Ameen, *Around the Coasts of Arabia* (London, 1930)

Royal Institute of International Affairs, *Great Britain and Palestine 1915-1945* (London, 1946)

___ : *The Middle East; A Political and Economic Survey* (London, 1950)

Rubin, Barry, *The Arab States and the Palestine Conflict* (Syracuse, 1981)

Ruppin, A., Syrien als Wirtschaftsgebiet (Berlin, 1917)

Ryan, Sir Andrew, *The Last of the Dragomans* (London, 1951)

Saǐid, General Nuri, *Arab Independence and Unity* (Baghdad, 1943)

Sands, William (ed.), *Tensions in the Middle East* (Washington, DC, 1956)

Sayegh, Fayez [Fayiz Sayigh], *Arab Unity* (New York, 1958)

Seale, Patrick, *The Struggle for Syria, 1945-1958* (London, 1965)

Segev, Tom, *1949 The First Israelis* (New York, 1986)

Seton, C. W. R., *Transjordan*, 1918-1939, 7 vols (London, 1931-9)

Shwadran, Benjamin, *Jordan; A State of Tension* (New York, 1959)

Sinai, Anne, and Allen Pollack (eds.), *The Hashemite Kingdom of Jordan and the West Bank* (New York, 1977)

Sluglett, Peter, *Britain in Iraq 1914-1932* (London, 1976)

Smith, Pamela Ann, *Palestine and the Palestinians 1876-1983* (London, 1985)

Snow, Peter, *Hussein* (New York, 1972)

Sofer, Naim, 'The Political Status of Jerusalem in the Hashemite Kingdom of Jordan, 1948-1967,' *Middle Eastern Studies 12* (1976), 73-94

Sparrow, Gerald, *Modern Jordan* (London, 1961)

Stein, Kenneth W., *The Land Question in Palestine 1917-1939* (Chapel Hill, NC, 1984)

Stitt, George, *A Prince of Arabia the Emeer Shereef Ali Haidar* (London, 1944)

Storrs, Ronald, *Orientations* (London, 1937)

Tarbush, Mohammad A., *The Role of the Military in Politics A Case Study of*

Iraq to 1941 (London, 1982)

Toynbee, Arnold, 'Arabia, Rise of the Wahhabi Power,' in *Survey of International Affairs* (Royal Institute of International Affairs), Vol. 1 (London, 1925)

Tresse, Ren, *Le Plerinage Syrien aux villes saintes de l'Islam* (Paris, 1937)

Tristram, Henry Baker, *The Land of Moab. Travels and Discoveries on the East Side of the Dead Sea and Jordan* (London, 1873)

___ : *Pathways of Palestine* (London, 1881)

___ : *The Land of Israel; A Journey of Travels in Palestine Undertaken with Special Reference to ts Physical Character* (London, 1886)

Troeller, Gary, *The Birth of Saudi Arabia* (London, 1976)

Van Arendonk, C., 'Sharif,' *Encyclopaedia of Islam, vol. 4* (London, 1934)

Vatikiotis, P J., *Politics and the Military in Jordan* (London, 1967)

Vickery, C. E., 'Arabia and the Hedjaz,' *Journal of The Royal Central Asian Society 10* (1923), 49-67

Walpole, G. F., 'Land Problems in Transjordan,' *Journal of the Royal Central Asian Society 35* (January 1948), 32-65

Warriner, Doreen, *Land and Poverty in the Middle East* (London, 1948)

Wavell, A. J. B., *A Modern Pilgrim in Mecca* (London, 1918)

Weisgal, Meyer (ed.), Chaim Wetzmann, *Scientist and Builder of the Jewish Commonwealth* (New York, 1944)

___ : *The Letters and Papers of Chaim Weizmann*, Vol. 10, series A (Jerusalem, 1977)

Weizmann, Chaim, *Trial and Error* (Philadelphia, 1949)

Wilson, Arnold Talbot, *Loyalties Mesopotamia* Vol II 1917-1920 (Oxford, 1931)

Woolbert, Robert Gale, 'Pan Arabism and the Palestine Problem,' *Foreign Affairs* (January 1938), 309-22

Yearbook of the United Nations 1947-1948

Zeine, Zeine, *The Struggle for Arab Independence* (Beirut, 1960)

___ : *The Emergence of Arab Nationalism* (Beirut, 1966)

قائمة بالمقابلات مع العرب:

رؤوف أبو جابر	عمان	1978\12\15
علي أبو نوّار	عمان	1978\12\27
سعيد علاء الدين	القدس	1979\01\16

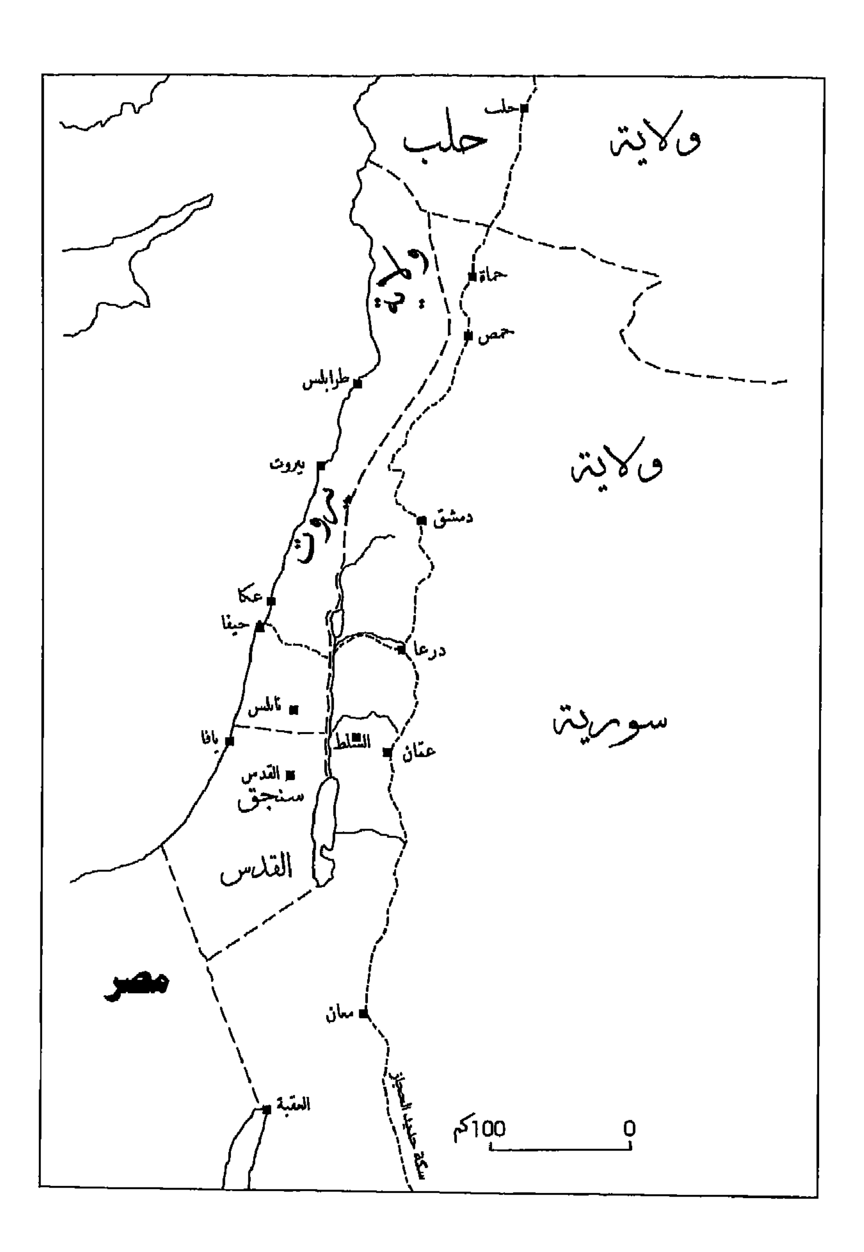
موسى العلمي	أريحا	كانون الثاني 1979
الأمير علي بن نايف	عمان	1978\11\21
الأميرة وجدان	عمان	14 و 21\1978
سليمان صليبا الأرمني (أبو داود)	عمان	1978\12\21
أنطون عطاالله	عمان	1978\12\29
عدنان بخيت	عمان	1978\12\27
خليل بديري	القدس	1979\01\16
هاشم دبّاس	عمان	1978\11\08
فؤاد دبّاس	بوسطن	1979\08\06
الأميرة فوزي	لندن	1978\10\23
عاكف الفايز	عمان	1979\02\19
محمود الغول	عمان	تشرين الثاني وكانون الأول 1978
الأمير حسن	عمان	كانون الأول 1978
الشريف محمد هاشم	عمان	1979\01\02
يوسف هيكل	واشطن	1979\05\28
الشريف حسين بن ناصر	عمان	1978\12\18
الست أمين الحسيني	عمان	1978\12\15
داود الحسيني	عمان	1978\12\18
الأب إبراهيم عيّاد	نيويورك	1981\10\14
سلمى الجيوسي	كمبردج، (الولايات المتحدة)	1979\06\22
جويبر (أبو أحمد)	عمان	1978\12\13
نايف كوّار	عمان	1978\11\18
وداد كوّار	عمان	تشرين الثاني 1978
وليد الخالدي	كمبردج، (الولايات المتحدة)	1978\07\27
عبد الرحمن حليفة	عمان	1978\12\26
شكري خوري	واشنطن	1980\12\22

علي المحافظة	دمشق	1978\11\28
عباس باشا ميرزا	عمان	1978\11\19
وصفي باشا ميرزا	عمان	1978\11\21
سعيد باشا المفتي	عمان	1978\11\21
سليمان موسى	عمان	تشرين الثاني/كانون الاول 1978
يوسف نواس	نيويورك	1978\09\02
أنور نسيبه	القدس	1979\01\16
عبد المنعم الرفاعي	عمان	1979\02\19
عبد الله الريماوي	عمان	1979\12\16 و1979\02\19
عزيز شهادة	رام الله	1979\02\14
فؤاد شهادة	رام الله	1979\02\14
فرحان شبيلات	عمان	1978\02\15
شُليم بن جابر	عمان	1978\11\21
ياسر طباع	بوسطن	حزيران 1984
مُرَيود التل	عمان	تشرين الثاني 1978

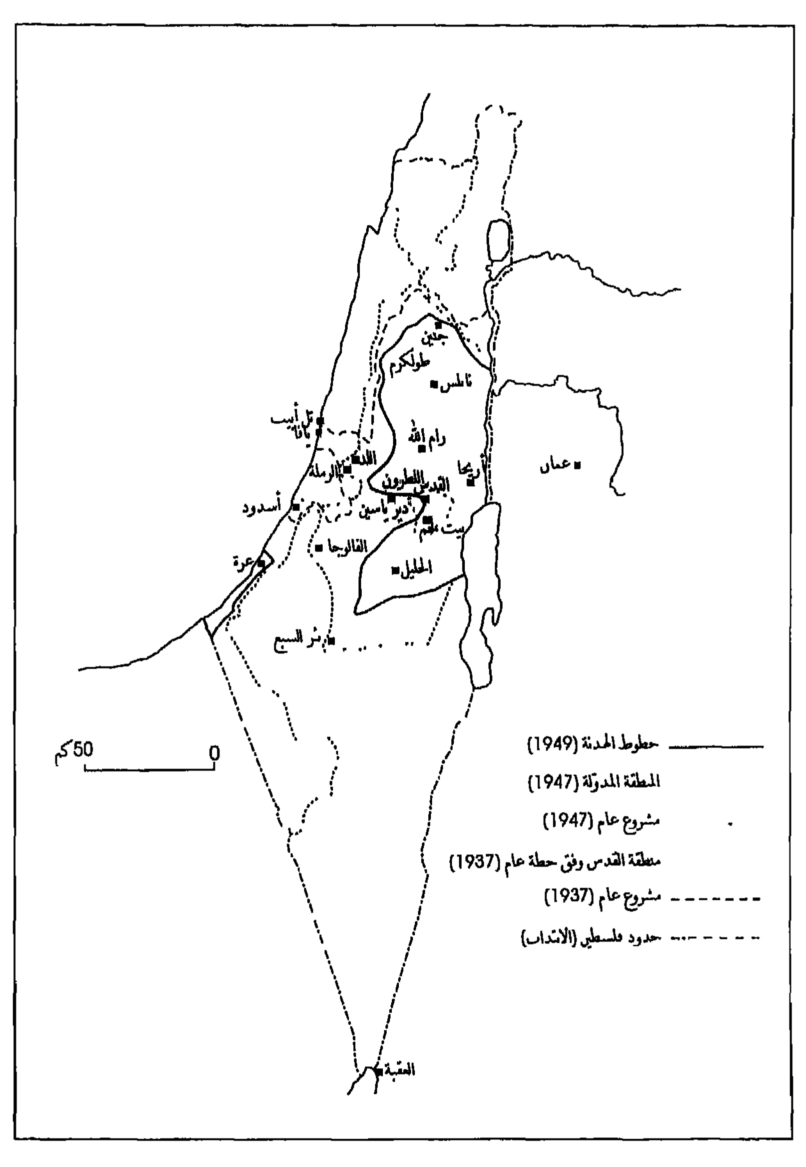
قائمة بالمقابلات مع غير العرب:

Freya Stark	London, May 1979
Sir John Richmond	Durham, June 1979
Yehushua Prath	Jerusalem, January 1979
Yehushua Palmon	Jerusalem, 1501.1979
Sir Alec Kirkbride	Goring-on-Sea, sussex, 06.11.1977
Angela Jurdak Khouri	Washington, 22.12.1980
Dollek Horowitz	Jerusalem, 14 01.1979
Yehoshafat Harkabı	Jerusalem, 09.01.1979
Sır John Bagot and Mrs. Glubb	Mayfield, Sussex, 14.06.1978.
Mrs Every	Jerusalem, 05 01.1979
Eliahu Elath (Epstein)	Jerusalem, 08.01.1979
Ann Edman Fisher	New York, April 1987

Mr. And Mrs. Graham Cox	Chipstead, Surry, February and May 1978
Lady Cox	Chipstead, Surry, 24.05.1978
Lord Caradon	Washington, May 1979
Lady Violet Bourdillon	Oxford, 30.08.1977
Jim Bell	Boston, 12 and 13.11.1983
Sir Harold Beeley	London, April 1979
Sir Richard Beaumont	London, April 1979



التقسيم الإداري العثماني لبلاد الشام



مشاريع تقسيم فلسطين



عبد الله جالساً ، ويبدو خلفه (من اليسار إلى اليمين) سعيد بن علي ، والعقيد سي . إي . ولسن ، وعزيز علي المصري ، ورونالد ستورز (جدّة 1916) .



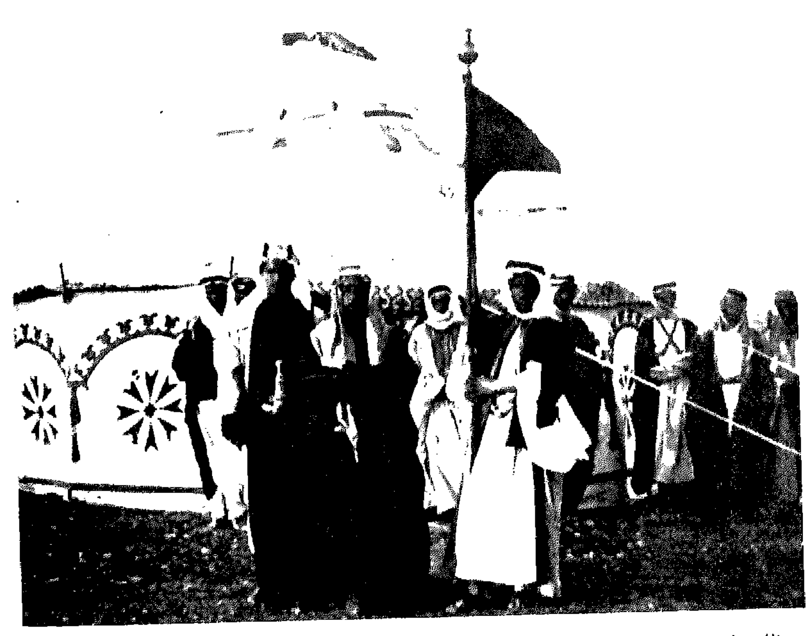
الشريف شاكر بن زيد عائداً إلى معسكر الأمير عبدالله في وادي العيص بعد مهاجمة محطة أبو النعم (نيسان 1917) .



الأمير عبدالله ومعه السير هيربرت صموئيل والشريف شاكر بن زيد (عمان 1921) .



الأمير عبدالله والجنرال أللنبي في القاهرة (أيار 1920) .



عبدالله والشريف علي بن حسين الحارثي (عمان 1921) .



هربرت صموئيل يُلقي خطاباً في عمان (أيار 1923) وإلى يساره عبدالله ، الشريف شاكر بن زيد ، بيك باشا (باللباس العسكري والكوفيّة) .



ونستون تشرشل ، وخلفه تي . إي . لورنس وعبدالله (القدس ، آذار 1921) .



ضباط الفيلق العربي ، ويبدو في الصورة الضباط التالية أسماؤهم : فردريك بيك (قائد الجيش) ، عبد القادر الجندي (رئيس الأركان) ، هاوس (مدير مدرسة التدريب) ، محمد علي العجلوني ، خلف التل ، عمر لطفي المغربي ، شكري العموري ، أحمد رمزي ، سعيد العاص ، يونس الحسن ، محمد جانبك ، عبدالله الريحاني ، جلال القطب ، سعيد اسحاقات ، عمر نوري ، منيب خضر الطرابلسي ، عبدالحميد النعيمي ، عبد الهادي العرب ، حسن كحالة ، سالم اليعقوب ، طارق الجندي ، مصطفى المللي ، أحمد الروسان ، شرف الدين يحيى ، ناصر الفواز الزعبي ، أحمد صدقي الجندي ، (عمان ، أوائل العشرينيات) .



منظر عام لعمان (1923) .



عبد الله ومعه رفيفان باشا المجالي ، ومظهر باشا رسلان ، والشريف علي بن الحسين الحارثي ، والمعتمد جون فيلبي ، والرحالة روزيتا فوربس ، والشيخ نوري الشعلان شيخ قبيلة الرولة (عمان 1923) .



عبدالله وحوله عدد من كبار رجال الدولة والجيش في الأردن وهم من اليمين : طارق الجندي ، عارف العنبتاوي ، الدكتور ثابت نعمان ، محمد الشريقي ، علي رضا الركابي ، صهيب العطار ، حسن خالد أبو الهدى ، عوني القضماني ، ميرزا باشا ، محمد الأنسي ، أمين الجعفري (عمان 1924) .



الحسين بن علي وموسى كاظم الحسيني (عمّان 1924) .



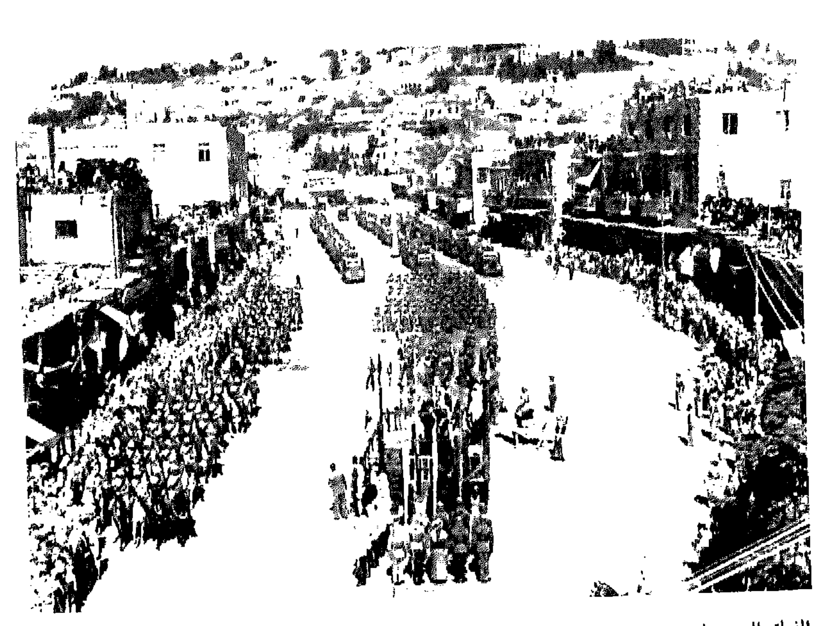
قصر رغدان (عمان ـ منتصف العشرينيات).



عبدالله ووالده الحسين بن علي، والحاج أمين الحسيني مع مندوبي المؤتمر الإسلامي في القدس (الشونة 1931).



عبدالله وشقيقه فيصل أمام قبة الصخرة (تموز 1933) .



الفيلق العربي في عمان (1940) .



عبد الله ومعه سمير باشا الرفاعي وغلوب باشا (عمان 1944).



عبد الله يلعب الشطرنج مع محمد أمين الشنقيطي (عمان 1945).



عبد الله وابنه طلال في القدس (1949) .



عبد الله وابنيه طلال ونايف (أواخر الأربعينيات) .



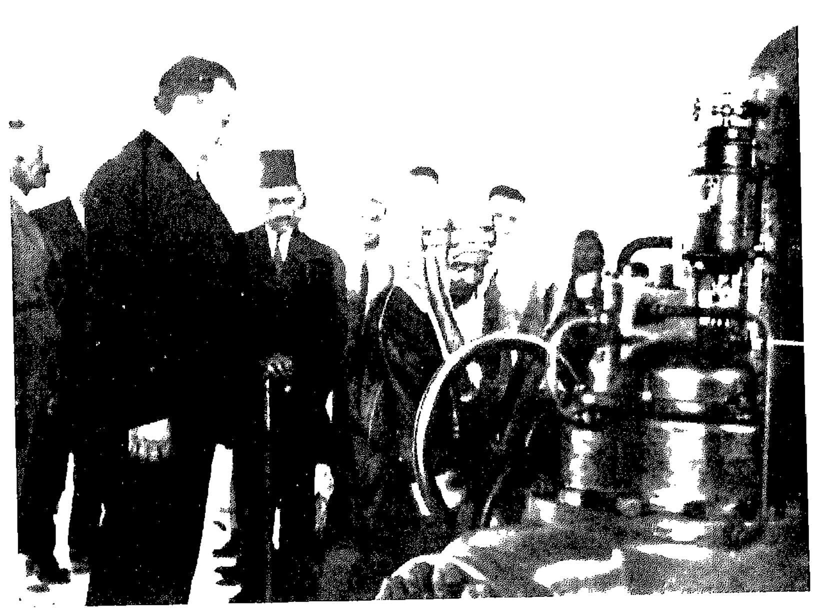

عبد الله ومعه طلال والشريف ناصر بن جميل (دون تاريخ) .



عبد الله ومعه مجموعة من موظفيه (الصف الأول من اليسار الى اليمين) محمد مرويد ، غير معروف ، غالب شعلان ، عبد الله ، رشيد طليعة وأمين التميمي .



مخيم عبدالله على رابية ماركا (عمان) .



عبدالله يشغّل محركات شركة كهرباء فلسطين في جسر المجمعي ، ويقف خلفه فنحاس رتنبرغ .

... تشكل عندي انطباع خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، بأن عبد الله ليس في نظر الجميع إلا دمية بيد السياسة البريطانية، ونكتة تكاد أن تكون سمجة. حتى في الحجاز، حين خدمت هنا مع أبيه... لم يبدُ الأمير عبد الله متمتعاً باحترام أحد؛ (حين كان يلعب الشطرنج في الوكالة البريطانية كان يمارس الغش) لم أسمع أحداً يذكر اسمه إلا بقدر من الاحتقار في كل من مصر والعربية السعودية بل وحتى في العراق.

وثيقة وزارة الخارجية البريطانية رقم (FO 371/52355)

